جامعة دمشق
هدية
مديرية المكتبات

الدكتور
عدنان أحمد مسلم
مدرس في قسم علم الاجتماع
كلية الآداب ـ جامعة دمشق

علم دراسة الانسان

« الانثروبولوجيا »

حقوق التأليف والطبع والنشر محفوظة لجامعة دمشق

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المحتويات

الموضوع	الصفحة
ـ تصدير	٥
ـ القسم الأول : الانسان وأساطيره وحياته البدائية :	
المبحث الاول : اصل الانسان في مثيولوجيا الشعوب .	٩
المبحث الثاني : الانسان في ضوء العلم ..	١٣
المبحث الثالث : التطورية الثقافية والاجتماعية للانسان .	٣١
ـ القسم الثاني : علم دراسة الانسان وتطوره «الانثروبولوجيا» :	
المبحث الاول : في التعاريف .	٤١
المبحث الثاني : في التكوين والتطور .	٤٨
المبحث الثالث : الاتجاهات النظرية لتطور علم دراسة الانسان في القرن العشرين .	٧١
المبحث الرابع : علاقة علم دراسة الانسان بالعلوم الاخرى .	١٠٣
ـ القسم الثالث : ميادين علم دراسة الانسان :	
المبحث الاول : الميدان الطبيعي .	١١٥
المبحث الثاني : الميدان الثقافي .	١٢١

الموضـــوع	الصفحة
المبحث الثالث : الميدان النفسي .	١٣٧
المبحث الرابع : الميدان السياسي .	١٧١
ـ القسم الرابع : علم دراسة الانسان (الميدان الاجتماعي) : « الانثروبولوجيا الاجتماعية » :	
المبحث الاول : في النشاة والتطور .	١٩٣
المبحث الثاني : في المنهج والطرائق المنهجية .	٢٢٥
المبحث الثالث : في الموضوع والمضمون .	٢٤١
المبحث الرابع : نماذج عن اوضاع المراة والزواج والاسرة لدى الشعوب البدائية .	٣٢٧
ـ القسم الخامس : الأمثال الشعبية	
امثال تتعلق بشكل الانسان	٣٦٥
امثال حول الاهل والناس	٣٦٧
امثال حول متناقضات ومفارقات الحياة والانسان	٣٧٠
امثال حول القيم الاخلاقية ومكارم الاخلاق	٣٧٤
امثال حول حسن التصرف والتدبير	٣٧٩
امثال حول نفسية الانسان	٣٨٣
امثال حول السخرية والضحك	٣٨٧
امثال لاذعة	٣٨٩
امثال حول الازمنة والبلاد	٣٩٣
امثال منوعة	٣٩٥
المصادر والمراجع	٣٩٧

تصدير

الانسان هو الغاية والوسيلة وهو الذي جسد المعرفة ، واضحت المعرفة مسخرة لأجله . وعلم دراسة الانسان ، هو العلم الذي يبحث كل شيء عن الانسان ، من الجانب العضوي والاجتماعي ، والحضاري ، والنفسي . . الخ .

ولعلنا في ثنايا هذا الكتاب نحاول معالجة بعض الجوانب التي تتعلق بكون الانسان انسانا اجتماعيا ، حضاريا ، وجد مع وجود المجتمع ، وتطور مع تطوره .

من هنا سنعالج في القسم الأول موضوعة الانسان وأساطيره وحياته البدائية من خلال البحث عن أصل الانسان عبر ميثولوجيا الشعوب وعبر التفسير العلمي القائم على النظريات المعرفية وقوانين العلم ، مدركين اهمية الجانب الاجتماعي ـ الثقافي لتطوره منذ القديم وحتى الآن .

وفي القسم الثاني سنلجأ الى العلم المتعارف عليه في الدراسات الاجتماعية (بالأنثروبولوجيا) وهو العلم المخصص لدراسة الانسان القديم وتطوره ، ولمجتمعه القديم وتطوره ايضا . حيث يشكل هذا العلم معرفيا احد الميادين المعرفية الاجتماعية عبر تطور نظرية المعرفة تاريخياً .

نبحث في نشأة المادة الانثروبولوجية ومصادر تكوينها ونحدد التعاريف المتنوعة المتكاملة حولها ، ثم نتابع مسيرة تطورها بدءا من المجتمعات البدائية وشبه البدائية حتى المجتمعات الحضارية المعاصرة .

لننتقل بعد ذلك الى القسم الثالث الذي يجسد ما يسمى بميادين علم دراسة الانسان او ميادين الانثروبولوجيا، ونتطرق

هنا بالبحث والدراسة معالجين الميدان الطبيعي ، والتخصص والثقافي والسياسي، من حيث النشأة والتكوين والتطور لكل من هذه الميادين . وهي ليست جميع الميادين بل نماذج منها .

ونخصص القسم الرابع للميدان الاجتماعي « الانثروبولوجيا الاجتماعية » مؤكدين على اهميته عبر موقعه في الدراسات الاجتماعية من جهة ، وكأحد مقررات قسم علم الاجتماع من جهة أخرى .

وفي هذا الميدان نتطرق الى النشأة والتطور بالمراحل المختلفة التي توضح معرفياً هذه النشأة وذاك التطور . كما نذكر بعضاً من موضوعاته المختلفة كالبناء الاجتماعي، والأسرة ، والمجتمعات القديمة . . الخ.

اما القسم الخامس فقد خصص لموضوع الأمثال الشعبية ، التي تشكل جزءاً هاماً من التراث الفكري الاجتماعي للشعوب عبر تطورها الحضاري الانساني . وبرأينا يتكامل هذا القسم مع الأقسام الأخرى . ونأمل أن يتكامل هو ذاته في المستقبل عند اضافة موضوعات اخرى في محتوياته ، كالعادات والتقاليد المرتبطة بظواهر اجتماعية مختلفة لدى الشعوب .

وما نقدمه بكل تواضع علمي ، لطلابنا الاعزاء ما هو الا اقتباس واعداد ، جمع بعضه من مصادر ومراجع اشرنا اليها في المكان المناسب ، وكتب بعضها الآخر اعتماداً على الخبرة التدريسية لهذا المقرر عبر سنوات متعددة .

كلنا امل ان نحقق الغاية المنشودة ، وان لا نضل الطريق نحو تحقيقها . واملنا الأكبر بمستقبل ابنائنا الطلبة وهم يتابعون طريق العلم والمعرفة بطموح رائد لجيل واعد .

الشام ١/١١/١٩٩١ الدكتور عدنان مسلم

القسم الاول (*)
الانسان واساطيره وحياته البدائية

(*) اعتمدنا في هذا القسم وضمن مباحثه الثلاثة على كتاب : المحامي عبد الهادي عباس « المرأة والأسرة في حضارات الشموبه وأنظمتها » ، الجزء الأول ، دار طلاس ١٩٨٧ . (والمغفرة من المؤلف للتصرف العلمي بهذا القسم) .


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المبحث الأول

اصل الانسان في ميثولوجيا الشعوب

الإنسان في نظر علماء الاجتماع والفلاسفة حيوان اجتماعي عاقل مفكر ، وهو في نظر البيولوجي حيوان كسائر الحيوانات ، ونوعه ما هو الا واحد من ثمانمئة الى تسعمئة ألف نوع تنتشر حاليا على سطح الارض ، وهو في نظر الأديان مخلوق أصلا من التراب ..

ان جميع التعاريف للانسان هذه ، إنما جاءت عن طريقه ، فهو الفيلسوف ، وهو رجل الدين ، وهو العالم .. ولكنه قبل كل هذا وبصورة عامة يبدو لذاته ، وهو خاضع للضرورات نفسها التي تخضع لها الحيوانات الاخرى ، ومحكوم بالقوانين نفسها ، فهو يتغذى ويتمثل ويتناسل مثلها .. ولكنه بخلاف الحيوان ، يأكل بغير جوع ، ويشرب بغير ظمأ .. كما أنه بخلاف الحيوان يتمتع بالقدرة على تفسير تركيبه البيولوجي وربما تغييره ، وتنظيم سلوكه عن طريق الاشكال الرمزية كاللغة مثلا ، وبالرغم من أن عمله لم يقرر بعد الى أي حد تشكل فيه سلوكه ، فانه يبدو أنه من المحتمل ــ أن هذا الانسان ــ لا يخضع لأنواع التنظيم المسلكي ذاته الذي يتصف به الحيوان الرئيسي الاسبق .

إن الانسان هو في غاية التنوع وانه ينتمي الى سلالات (Races) انسانية متباينة صنفها في اربع سلالات كبرى تضم في طياتها فروقا سلالية كثيرة .. إلا أنه رغم هذه الفروق أسبغ على نفسه أنه هو الانسان الحكيم العاقل (Homos Sapiens) أما الحيوانات القريبة اليه كالقردة العليا وأنواعها مما تماثله في المظهر العام (القامة وانعدام الذنب وشكل الاسنان) ومجموعة من التفاصيل

التشريحية ، فانها لم تستطع اجتياز الفاصل النفسي المتمثل في الظاهر باختلاف كتلته الدماغية وتكوينه .. رغم محاولاته المتعددة بما أجراه من تجارب ، كي يجعلوا تصل الى ملكة التجديد واللغة والمنطق والعقل .. ولهذا بقي النوع الانساني المنعزل عن أصناف الحيوانات الاخرى[1] ، رغم انتمائه الى المملكة الحيوانية ، ولهذا يستحيل في طبيعته تطبيق متناقضين : صفاته الحيوانية ، وانسانية حياته . ان كل معرفة الانسان العالية لم تمكنه أن يصعد على درجة من الدقة تلك الخصائص التي أدت به الى أن يكون مخلوقا فريدا .. فكل ما لديه من صفات وراثية أو تطورية توجد لها نظائر ولو بصورة بسيطة في الصور الادنى من الأحياء .

صحيح أن قدرة الانسان على المشي منتصبا وتحرر طرفي الاماميين وتقابل مجالي بصره ، وقدرته على الابصار بالعينين معا ، وكبر قشرة مخه ، وطول فترة طفولته ، كل ذلك يشكل صفات بيولوجية هامة تميز الانسان ولكن هذه الصفات ليست خاصة بالنوع البشري ، بل هي مجرد صور مبالغ فيها لاتجاهات تتمثل في كل القردة ، كما أن صنعه للادوات والتنظيم الاجتماعي والاتصال بالافراد الاخرين المنتمين الى الجماعة ، توجد أيضا بقدر معين في أنواع مختلفة من الحيوانات الادنى . ومجمل القول : ان ما يتميز به الانسان ليس صفاته البيولوجية والاجتماعية ، بقدر ما صنعه من هذه الصفات ، فهو يختلف أساسا عن جميع انواع الحيوانات الاخرى بفضل منجزاته المتراكمة عبر آلوف الاجيال .. ومن هذه الزاوية كان قول الفيلسوف الاسباني (ارتيجا أي جاسيت) Orteia. y. Gaset : ليس للانسان طبيعة .. بل تاريخ فقط . ولكن هذا القول لم يحل المشكلة القائمة لمعرفة تلك الخصائص التي تتميز بها الطبيعة البشرية ، والتي أتاحت للانسان ان يكون له تاريخ[2] . وبقيت التساؤلات تعرض وجودها حول هذا النوع وكيفية نشأته على الارض .. وكيفية اقامته لمجتمعه ونظمه وعلاقاته .

---

(١) جان روستان ، الانسان ، ترجمة محمد عبد الرحمن مرحبا ، ص١٧ .
(٢) زكريا فهمي ، طبيعة الانسان ، مجلة عالم الفكر ، عدد (١) ١٩٧٥ ، ص١٣١ .

لقد بقيت قصة الأكوين التوراتية هي المنفذة الوحيدة لفترة طويلة من عصر البشرية من القرن ... وفي الأسطورة الأولى من قصتي الأكوين : نجد أن الله خلق في اليوم السادس من بدء الخليقة الإنسان والحيوان ... بل كل الكائنات التي تعيش في ... الهواء ... وأنه خلق في اليوم السادس الإنسان والحيوان ... وأنه برأ خلق ... من التراب والأشياء الحية على حدٍ سواء[1] ... ومن هذه القصة يستنتج أن ... خلق الإنسان بعد أن خلقت الكائنات الأخرى جميعها ... كما يفسر أن تقسيم الأجناس إلى ذكور وإناث ... وهو التقسيم الذي تختص به الأنثى قد تم على يد الخالق ... .

غير أن الأسطورة الثانية تفسر هذه القصة ... حيث تشير إلى أن الله تعالى خلق الإنسان أولاً ثم خلق حيوانات البر والطير من بعده ... أما المرأة فقد خلقها بعد فراغه من كل هذا وقد كانوا من خلق التوءم من الرجل في الأساطير[2] .

ويشير بعض العلماء[3] إلى التناقض بين القصتين من حيث أن الحكاية الأولى تشير إلى خلق الكائنات أولاً ... ثم الإنسان بجنسيه الرجل والمرأة ... أما الحكاية الثانية فهي تؤيد خلق الرجل ثم يجيء خلق الحيوانات الدنيا ... ثم يخلق في النهاية المرأة التي تشير في نفس الوقت إلى أن أصل الإنسانية الأولى ... خلق سواء كان لسلالة آدم وإيفا أو بعدهما .

وسيطرة الرجل في تاريخ البشرية كثيراً من هذه الأسطورة وتحكمها كحقيقة دينية لدى الشعوب ... وقد استغلت رواية الخريطة من أصل العلاقة بالأسطورة الغربية من كلمتين بابليتين هما : إيزين الأب إلى تلي وتعني ... وقد سار الآلهة جميعهم اللحم المتخثر منه ... وصوروا به الأرض ... وخلقوا البشر من هذه العجينة المخلوطة بالدم ... ولهذا السبب ... وكما يقول البابليون ... كان الرجل سيكون أكثر الحكمة ... لأن الطين

---

(1) سفر التكوين (١٨) .
(2) جيمس فريزر : الفولكلور في العهد القديم ... ترجمة د. نبيلة إبراهيم ... طبعة مصر ... ص ١٩٣ .

الذي خلقوا منه كان مخلوطا بدم الاله .. وتروي الاساطير الفرعونية أن (خنم) أبا الالهة قد خلق الانسان من الطين على دولابه ، الذي كان يشكل عليه الفخار .

وتحكي الاساطير الفرعونية أن (بروفينوس) الحكيم قد خلق الانسان الاول من الطين .. وقد تخلفت عن عملية الخلق كمية من الطين كان من الممكن رؤيتها بعد هذا الزمن الطويل على شكل صخرتين كبيرتين في وسط بلاد الاغريق تشرفان على واد ضيق[٥] . ومثل هذه الأفكار الساذجة عن أصل الانسان التي كانت مألوفة لدى الاغريق والبابليين والسوريين والعبريين والمصريين القدماء ، انتقلت الى الشعوب المتحضرة القديمة عن طريق أجدادهم .. كما يقول (فريزر) والذي يعرض أيضا نماذج عن تفكير الشعوب البدائية في عصرنا حول فكرة الخلق ، كما يعرض بعض حكايات هذه الشعوب التي تتماثل أحيانا .. ومنها الرواية الشبيهة بالرواية التوراتية حيث يرى (الكارينيون) سكان بورما : (أن الله خلق الرجل ، ولكن من أي شيء خلقه ؟ لقد بدأ بخلق الرجل من التراب ، ثم أتم من بعد عملية الخلق، خلق المرأة .. ولكن من أي شيء خلقها ؟ لقد أخذ ضلعا من أضلاع الرجل وخلق منه المرأة ..)[٦] وهناك أساطير متعددة أخرى لدى شعوب بدائية تتقارب وتتماثل في تصور الانسان عن فكرة الخلق الاول ، لا تتميز عن فكرة الخلق التوراتية كثيرا من حيث مضمونها .. وتدخل هذه القصص الشيطان أحيانا في هذه العملية .. وغالبا ما تشير الى كون المرأة مصنوعة من ضلع الرجل بصورة أو بأخرى ، كما تشير اليه أساطير الشعوب ، وحسب تصورات العقل البشري في طفولته وخيالاته المستمدة من وجوده في هذا الكون ، والطريف في الامر أن جل شعوب العالم في عصرنا ما زالت تعد مثل هذه الاساطير مسلمات لا يجوز التصدي للجدل فيها تحت طائلة عد ذلك مروقا عن المعتقدات الدينية .. ورغم انتشار العلم وزيادة عدد المتعلمين ، فان الخوض في مثل هذه الامور ما يزال يعرض صاحبه الى كثير من المشكلات ، الامر الذي يجعل الانسان الوريث لكثير من أمثال هذه الأساطير ، يعاني من تحكمها في حياته وسلوكه في هذه الحياة .

---

(٥) المصدر السابق ، ص ١٢٣ .
(٦) جيمس فريزر ، الفصن الذهبي ، ترجمة د. احمد ابو زيد .

المبحث الثاني

الانسان في ضوء العلم

أولا ـ نشأة الحياة على الارض :

وجود الانسان في دنياه الغريبة والملأى بالأسرار ، هو الذي أوحى اليه بأساطيره التي ابتكرها عن أصل وجوده ، ومنذ فجر الانسانية وهو يحاول التوصل الى سر بدء الحياة على هذه الارض ، واذا كان لا يوجد لديه من معلومات عن بدء هذه الحياة سوى ما تقدمه دراسة هذه الارض أو ما استطاع تطوره أن يصل اليه من معرفة محدودة عن الاجرام الاخرى ، فانه كان من المنطقي جدا أن يتلمس الفكر عبر تطوره الكبير تفسيرا لأصل الحياة خلافا للتفسير الاسطوري المبسط الذي اخترعه في المراحل الاولى من حياته .. وكان من ذلك أن تولدت نظريات مختلفة عن نشأة الحياة على الارض ، واذا كانت هذه النظريات على درجة من التنوع والاختلاف عبر الزمان والمكان ، وان لغز الحياة وبدءها بقي غامضا يتسع المجال معه لنظريات جديدة تتولد كل حين فانه من المفيد أن نشير الى بعض هذه النظريات التي كانت وما زالت موضع افتراضات واختلاف وجدل على مستوى الفكر العالمي.

فمن هذه النظريات نظرية تقول : ان الحياة نشأت بطريقة فجائية من مواد غير حية ، ولكن هذه النظرية دحضتها التجارب العلمية في القرنين السادس والسابع عشر ، ومنها نظرية تسمى نظرية الخلق الخاص .. إذ أنه حتى منتصف القرن التاسع عشر كان الرأي السائد أن الحياة نشأت عن طريق قوة فوق القوى الطبيعية إما دفعة واحدة أو على فترات متتالية ، وكل نوع خلق مستقلا على حدة .. ولكن هذا القول لا يخضع لامكان إثباته بالتجربة العلمية .. وجاءت نظرية ثالثة تقول : إن

الحياة احتملت الى الارض على صخر / بعض / الكائنات حية بسيطة التركيب جدا مصادر اخرى في الكون الفسيح ... واحتمال ان تنشر الحياة أساسا في هذه الأماكن الأخرى المترامية ... ثم مناقشة النظرية التي - سبب النظرية الشائعة التي تفترض انه منذ الاف ... من بلايين من السنين أصبحت درجة الحرارة والرطوبة على الارض مناسبة للحياة ... ولم يكن هناك اوكسجين حر ... ولكن الغلاف الجوي كان محتويا على غاز الأمونيا بالاضافة الى بخار الماء والميثان والهيدروجين وقد ثبت من التجارب الحديثة ان الاحماض الامينية كالجليسين تتكون عندما تمر في الغازات المذكورة الى الاشعة فوق البنفسجية او الاشعات الكهربائية مثل البرق ... وكذلك فان الحامض النووي والأدينين تكون المحصول عليها في تفاعل بواسطة تعريض خليط من الميثان والنشادر وبخار الماء لوميض الكهرباء أن مثل هذه التركيبات العضوية كانت قد تجمعت في الماضي السحيق في عهد حياتي حيث لم يكن هناك بكتريا تسبب التعفن ... وتكونت فيها بعد المواد البروتينية ومعقدا امكنه أن يعمل كعوامل مساعدة لتكوين بروتينات أخرى ... ومن المحتمل ان الطاقة اللازمة لهذه العمليات استمدت من تفجير بعض الاكتربات ... ان تكونت بعد ذلك جزيئات كربونية معقدة وانطلق الاكسجين نتيجة لهذه العمليات ... ومن ثم تكونت طبقة الاكسجين في الغلاف الجوي ... ثم تكونت الفيروسات ... وبدأت الخلية باستخدام الطاقة الشمسية ... وأصبحت هذه الخلايا غذاء لفيروسات الاولية وبدأت الخلية التي بدأ ظهورها في ذلك الوقت ...

وعند الوصول الى مرحلة تكون الحيوانات الاولية وبدأت الخلية تصبح في متدور الخلايا ان تتجمع في مجموعات ذات خلايا متشابهة ... ثم تعدلت بعد ذلك أنسجة ذات وظائف متعددة كما هو الحال في الحيوانات الراقية ... وهناك الدراسة لنشأة الحياة تؤيدها الدراسات الحديثة للفيروسات التي تعد حلقة اتصال بين المادة الحية والجماد والتي لا تدب فيها الحياة إلا عند وجودها داخل خلايا الكائن الحي حيث تسلك مسلك الكائنات الحية ... والتي أمكن الحصول عليها على هيئة بلورات مثل المواد غير العضوية تماما ... والتي أمكن تحويل بعضها الى مركبين لا حياة فيهما وهما بروتين وحامض النوويك وعند إعادة اتحاد البروتين وهذا الحامض نحصل من

جديد على / فيروس / به خصائص الحياة حيث يصبح في امكانه احداث الإصابة في نباتات الطباق[1] ..

ولكن طالما أن الفيروسات لا تدب فيها خصائص الحياة إلا عند وجودها داخل خلايا النبات أو الحيوان ، وانه اذا أمكن الحصول على فيروس من خصائص الحياة وهو خارج الخلايا النباتية أو الحيوانية فان مثل هذا الفيروس في هذه الحالة يشبه من وجوه كثيرة مرحلة مبكرة لنشأة الحياة على الأرض ..

ولكن متى نشأت الحياة ؟ للاجابة عن هذا التساؤل استخدم العلماء طرائق متعددة لتقدير عمر الارض وذلك بوساطة تقدير عمر الصخور الاولى التي تكونت على سطحها بوسائل علمية اعتمدوها وتوصلوا الى أن عمر الارض يبلغ نحو /٤٦٠٠/ مليون سنة ، وأن نشأة الحياة على الارض تقدر بنحو ألف مليون سنة ، أما الانسان فلم يوجد على الارض إلا بعد نحو مليون سنة .

ثانياً ـ اصل الانسان :

في عام /١٨٧١/ أصدر / تشارلز داروين / كتاباً بعنوان / أصل الانسان / وكان قبل ذلك في عام /١٨٦٠/ أصدر كتابه الشهير عن / أصل الأنواع / والذي أدى الى انقسام الناس بين النظرية البيولوجية من ناحية ، والنظرية الدينية والرأي الشائع بين عامة الناس من ناحية أخرى ، بل انه أدى الى انقسام البيولوجيين على انفسهم ، وأثار مناقشات حادة وجدلاً كبيراً(*) وترك آثاراً واسعة وكبيرة في تاريخ البشرية على العلوم الانسانية كافة وما زالت هذه الآثار تبرز في الميادين كافة ..

---

(١) د. يوسف عز الدين عيسى ، تطور الخلية ، مجلة عالم المعرفة ، الكويت ، العدد ٤ ، العام ١٩٧٣ ، ص١٠٥ .

(*) من الطرائف التي تروى في هذا الصدد ان مناظرة حادة جرت بين هكسلي وغيره من اقطاب الداروينية واسقف اكسفورد صموئيل ويلبرفورس .. وخلال المناظرة سأل هذا الاخير هكسلي متهكما عما اذا كان انحداره من سلالة القردة جاء من ناحية الاب او من ناحية الام . ويقال ان هكسلي اجاب « اذا سئلت عما اذا كنت ، اختار بين الانحدار من ذلك الحيوان المسكين ذي الذكاء المحدد والمشية المنحنية واللذي يوزع ابتساماته واصواته في كل مكان ، وبين الانحدار من صاحب رجل على درجة عالية من المقدرة والمهارة ويحتل مكانة مرموقة ولكنه يستغل هذه الملكات في الاستهزاء بالباحثين المتواضعين عن الحقيقة والعمل على هدمهم فانني لا اتردد في الاجابة عن هذا السؤال » .

أما كتابه / أصل الانسان / فقد خصصه بالذات لموضوع التطور البشري ، وقد بين فيه ، بكل حذر ، أنه على الرغم من أن أسلافه الانسان ليسوا مطابقين تماما أو حتى يشبهون الى حد كبير القردة العليا الموجودة في الوقت الحالي ، فانه يمكن وصفهم حين تم الكشف عنهم بأنهم قردة عليا .. ويستطرد / داروين / قائلا : (ومن الطبيعي أن يدفعنا ذلك الى التساؤل عن مسقط رأس الانسان ... ؟ ففي كل اقليم من الأقاليم الكبرى في هذا العالم ترتبط الثدييات الموجودة حاليا ارتباطا وثيقا بالانواع المنقرضة في الاقليم نفسه ولهذا فمن المحتمل أن افريقيا كانت مأهولة فيما مضى بأنواع من القردة العليا المنقرضة والتي لها صلة وثيقة بالغوريلا والشمبانزي ، ولما كان هذان النوعان أشد الانواع شبها بالانسان الان ، فانه من الارجح أن يكون أسلافنا الاوائل قد عاشوا في القارة الافريقية وليس في أي مكان اخر) [1] .

وخلال الفترة الممتدة بين ظهور كتابي / داروين / هذين وعصرنا الراهن تطورت البحوث وتشعبت ونمت الدراسات وكثرت الحفريات والاكتشافات ، وتعددت النظريات كثيرا ، وحصلت المناظرات والمشاورات والمقاومة العنيفة ، وبخاصة في مجال الفكر الديني والدراسات اللاهوتية في العالم ، وبصورة خاصة في أوربا .. ومع ذلك أفلحت / الثورة / التي أطلقها في دفع علماء العصر الى البحث عن أصول الاشياء مثل أصل اللغة وأصل المجتمع وأصل الحضارة والعائلة ... وأصل الدين أيضا ، بالطريقة نفسها التي بحث بها / داروين / عن أصل الانواع ، مما أمكن معه القول: إن النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان بعمق عصر داروين والداروينية .

إن أبرز مجال أثرت فيه الداروينية كان مجال الدين حيث أدخلت الشك والارتياب في مدى صحة الكتاب المقدس والعهد القديم بالذات عن أصل الانسان

---

(١) د. بيليم ، الاصول البشرية ، ترجمة فاروق مصطفى اسماعيل ، مجلة عالم المعرفة ، الكويت ، العدد (٤) ، العام ١٩٧٣ ، ص ١٦٩ .

والخلق .. ومع ذلك فان كتابات (داروين) ليست الوحيدة في هذا الميدان وانما سبقتها اراء ونظريات أخرى قالت ان الانسان تطور ببطء من الحالة الحيوانية . ولكن نظرية التطور نسبت اليه ، لا سيما وأنه جابه مقولات الدين بعنف عندما ذكر في سيرة حياته بصرحة أن (العهد القديم) عرض تاريخي زائف للعالم وأحداثه .

لقدكانت معظم المعارضة لاراء (داروين) نابعة في الحقيقة من موقفه من فكرة الخلق وما يرتبط بها من معتقدات حول الهبوط من الجنة وفكرة المعصية والتكفير، أكثر مما كانت ناشئة عن النفور من فكرة انحدار الانسان من أصول حيوانية وضيعة .. وقد ناصر /داروين / عدد من كبار العلماء دافعوا عن نظرية التطور وردوا الكثير من هجوم رجال الدين(*) .

إن التأملات الداروينية قد مضى عليها الآن أكثر من قرن وخلال هذه الفترة ولا سيما في السنوات الاخيرة حصلت اكتشافات مثيرة بدأت تلقي الضوء على تلك التأملات ، ولما كان مجال هذه البحوث واسعا جدا ويتطلب اختصاصات عليا فاننا نكتفي بالاشارة والاختصار لان بحوث العلماء ومكتشفاتهم تشير الى أن سجل تطور الجنس البشري يتضمن مجموعة من الاشكال اقتربت تدريجيا من هيئة

(*) الطريف ان داروين تبدل موقفه من الدين بتقدمه في السن فقد كان يؤمن في شبابه بفكرة الخلق الخاص وقد عبر عن اعتقاده بان الانسان سيكون في المستقبل البعيد مخلوقا أفضل واكمل بكثير مما هو الان ، وقال ان ثمة مصدرا آخر للاعتقاد في وجود الله يرتبط بالعقل ، وله في نظري اهمية أكبر بكثير من المصادر المتعلقة بالمشاعر والاحاسيس ، وهذا المصدر يأتي من الصعوبة البالغة او بالاحرى استحالة تخيل هذا الكون الفسيح الرائع الذي يشمل الانسان بقدرته على النظر البعيد والى المستقبل البعيد ايضا على انه ظهر نتيجة للمصادفة البحتة نتيجة للضرورة وحين اذكر بهذه الفكرة أشعر انه لا بد لي من البحث عن علة اولى بها عقل بصير بنسبه الى حد ما عقل الانسان . وهذا ما يعطيني الحق في ان اوصف بأنني مؤمن بالله ثم يقول لا استطيع الادعاء بانني القي اقل بصيص من الضوء على مثل هذه المشكلات العميقة فان بداية الاشياء كلها غير قابل للحل . اما فيما يتعلق بي شخصيا فانني قانع بان يكون موقفي هو موقف اللا ادري حول هذا الموضوع . «انظر في ذلك مجلة تراث الانسانية ، المجلد ٩ عدد ١ ، ١٩٧١ ص ١٢٦».

الانسان الحالي ويمكن عد الانسان في جنوب افريقيا القرد أول نوع مشابه حقيقة للانسان .

ولقد عاش هذا النوع منذ نحو مليون سنة وكان قصيراً نسبياً وبه شبه القرد الكبير من حيث شكل الجسم وصفاته .. ويعتقد الان معظم العلماء أن هذا النوع يتميز بصفات عائلة الانسان وعائلة القردة وبذلك لا يمكن عده قرداً أو إنساناً ،وكان حجم مخه يساوي تقريبا نصف حجم مخ الانسان الحالي ، وكان يستطيع أن يصطاد الحيوانات ليأكلها بوساطة الاسلحة الحجرية ، أما النوع الذي يعد فعلا انسانا فيسمى (انسان كرومانيون) الذي عاش من /٣٢،٠٠٠/ سنة الى /١٥،٠٠٠/سنة، ولقد كان هذا النوع طويلا ، منتصب القامة ذكيا نسبيا .. وقد اكتشفت كهوف بوسط فرنسا لاحظ فيها العلماء وجو بقايا حضارة على هيئة أسلحة وعاج منحوت بل إن هذا النوع كان يتمتع ببعض الموهبة الفنية لوجود رسومات وصور زيتية لحيوانات (انقرض معظمها الآن) على جدران الكهوف التي عاش فيها هذا النوع، ولقد اكتشف علماء الحفريات عددا من الانواع المتوسطة بين الرجل القرد الافريقي وانسان كرومانيون وما زالت الاكتشافات بخصوص هذا النوع تتوالى .

أما الانسان الحديث أو الانسان العاقل فقد بدأ ظهوره منذ نحو ١٢٠٠٠ سنة فقط ، والتغيرات التي أدت الى تكوينه كانت عقلية أكثر منها جسمانية ، ولقد مكن ذكاء الانسان من أن يكيف نفسه حسب البيئة ويتحكم فيها ، ولم يستطع حتى الآن تحديد المكان الذي ظهر فيه هذا الانسان بدقة ويجدر القول هنا ، ان علماء التطور لا يقولون إن الانسان انحدر من القرد كما يعتقد عامة الناس وانما يعتقدون أنه والقرد كان لهما سلف مشترك[1] ولكن لم يستطيعوا تحديد العصر الذي انفصل الجيل الانساني عن دوحة الرئيسيات ولا كيفية هذا الانفصال* .

---

(١) د. علم الدين كمال ، تطور الكائنات الحية ، مجلة عالم المعرفة العدد السابق، ص ١٧٢ .

(*) الرئيسيات في تعريفها التطوري — تعني فصيلة الحيوانات أو (الثدييات) المرتقية الى رتبة أعلى (الرئيسيات) — التي يدل اسمها على التفوق العضوي والتي تشمل على الحيوانات ذات الخف وذات الاصابع الخمس وذات الثديين في الصدر والشطرين الدماغيين النامين نموا جيدا .. وتنتمي الى هذه الطائفة أنواع من القردة وبعض الحيوانات الاخرى .

إن إحدى الخصائص المميزة للانسان العاقل الحالي هي مقدرته على المشي والجري على قدمين اثنين وليس على أربع .. كما أنه يتميز بكبر حجم مخه ، إذ أن متوسط سعة الجمجمة بالتالي التقدير المادي لحجم المخ لكلا الجنسين في كل سلالات / الانسان العاقل / هو /١٣٢٠سم٣ / وهو ما يماثل ثلاثةأضعاف متوسط سعة الجمجمة عند القردة العليا ... وهذا المخ الضخم نسبيا يبرز خاصية ارتفاع الذكاء ونوعيته ، مما ساعده على السلوك الاجتماعي عند الانسان لأن يصل الى هذه الدرجة من التعقيد الذي يطلق عليه علماء الانتروبولوجيا كلمة / ثقافة /والتي هي في معناها الواسع تشمل تلك الجوانب من السلوك الانساني التي تنتقل بالتعليم من جيل لآخر ، وتشمل سائر نظم الانسان وأساليبه في الصناعة وغير ذلك من الملامح الاخرى ، التي برز فيها هذا الانسان وهو يتمتع بملكة ابداعيةوروحية معقدة جعلته يتبوأ مركز السيادة في تسلسل الكائنات الحية ، رغم ان الكثير منها يفوقه في مناح متميزة .. فهو مثلاً لا يستطيع مجاراة الظبي في سرعة عدوه ولا النمر في رشاقته ولا الكلب في وفائه ، وبصره لا يصل الى منطقة الضوء فوق البنفسجي كما يصل بصر النحل ، وسمعه لا يمتد الى المجالات الصوتية العليا على النقيض من سمع الكلب والقط وبعض الحشرات .. ولكن نمو دماغه المعقد جعله يقف على رأس السلم من الكائنات الحية في هذه الطبيعة التي وجد منها وعليها مثلها ، من خلية أولية متناهية في الصغر تنمو وتتكاثر ليتألف منها جسمه الذي يبدو في مرآة العلم البيولوجي مجتمعا عجيبا تتعاون في داخله وتخدم بعضها بعضا آلاف المليارات من الخلايا تحت إشراف تنظيم خارق ، هذه الخلايا المتناهية في الصغر بحيث أنه يمكن حشر عدة آلاف منها في النقطة الموجودة في آخر هذه الجملة .. كما أنه يمكن وضع بليون خلية في حبة حمص صغيرة . انه لامر عجيب أن ينشأ كل فرد من خلية واحدة ، واذا صدف وولد توأمان من خلية واحدة فيكون أحدهما نسخةعن الاخر . ولكن ما هي الخلية ؟ لقد ركز العلم اهتمامه على هذا المخلوق العجيب وهذهالوحدة المعقدة كيميائيا ، وبنيانا ، ولكنه لم يتوضح له سوى القليل عن سرها ، سر العلاقة بين عالميالفيزياء والبيولوجيا ... إن من عجائب الحياة أن خلايا الجسم تستمر في الانقسام والنمو حتى سن البلوغ أو بعدها بقليل وكأنما هي موقوتة بزمن ، وتلعب

هنا الهرمونات الدور الاساس ، وأهمها هرمونات الجنس فتأخذ الخلايا الجنسية والخلايا الجسدية زمام الأمر ، وهي الوحيدة التي يسمح لهـا بالانقسام والتكاثر لانتاج خلايا جنسية شابة حتى أكبر العمر في الرجال وحتى سن اليأس في النساء، فسريان الكهولة لجسم الانسان لا يسري على الغدد الجنسية ، فكأنما الشباب على مستواه / الخلوي / هنا ينبع من الكهولة . ولكي تتم فصول المسرحية كان لابد أن تسعى ذكور الانواع المختلفة الى إناثها في عمليات تزاوج وتلقيح واخصاب ،وفيها تتحد الخلايا الجنسية الذكرية مع الانثوية وتبدأ البويضة الملقحة في سلسلةمتتابعة من الانقسامات لتنتج خلايا جسدية شابة تتميز الى أنسجة وأعضاء في جنين . لا همّ للخلايا الا المداومة على الانقسام حتى البلوغ فتتوقف الخلايا الجسدية ويبرز دور الخلايا الجنسية التي تواصل الانقسام ، ومن خلال هذا تجدد مادة الحياة شبابها متمثلة في مخلوقات تروح وتجيء وتتكرر الدورة كما كررتهاقبل ذلك ملايين المرات.

لقد تقدم العلم كثيرا في معرفة أشياء عن الخلية ولكنه في تقدمه كأنه يمسك بيديه صناديق متداخلة متواكمات كلما فتح إحداها وجد في داخله صندوقاً ، أصغر فأصغر ، كذلك تظهر الانسجة متراكمة من خلايا أصغر ، وفي داخل هذه الخلايا أنوية أصغر وفي داخل الانوية كروموسومات أشرطة تحتوي على نظم أصغر فاصغر أيضا ، وكأن النواة بمثابة مكتبة كيميائية ضخمة تضم ملايين المعلومات الموزعةعلى كروموسومات ، ولكل نوع من الكائنات عدد ثابت ومحدد من البداية في البويضة والحيوان المنوي . فاذا تلقحت البويضة في عملية التزاوج فان ذلك يعني اجتماع النسخ والملفات التي تمثل الذكورة والانوثة في تكوين واحد ، وهنا تبدأ بداية كل مخلوق في أي نوع من الانواع ومنها الانسان ، هذا اللغز ، الذي وجد في هذا الكون ، دون ادراك يقين لكيفية مجيئه ولا للأسباب التي قذفت به فيهذا الوجود.. وليصل في تطوره لتبدو حياته تحت مظاهر تاريخية واجتماعية شتى تطفح أحيانـا بالغرابة والتنوع وتدل على عجائب تكوين في هذا الحيوان المتميز الذي يتخذ أحيانا لنفسه صورة اله ، أو صورة ابن سمك القرش المفترس ــ كما في الساحل الافريقي ــ حيث يغطس في الخليج مع مجموعة هذا السمك المفترس ــ ولا يخشى من سطوة

جده هذا .. وأحيانا يتخذ بعض الحيوانات الهة له يقدسها في حين أنه يتخذها طعاما له في أماكـــن أخـــرى[٢] .

وجدير بالاشارة هنا أن نستعرض نتائج المؤتمر العلمي الدولي الذي عقد في باريس عام ١٩٨٤ بعنوان « فهم جديد لنشوء النوع البشري وتطوره » وقد ضم هذا المؤتمر مجموعة من الباحثين العلماء في الفيزياء الطبيعية والبشرية،والبيولوجيا، والسيكولوجيا ، والسوسيولوجيا ، والانثروبولوجيا .

وفي حوار نشرته مجلة العربي في عددها (٣١١) سنة ١٩٨٤، مع البروفسور (ايف كوبنز) الناطق الرسمي باسم المؤتمر حول نشأة الانسان وتطوره، وما توصل اليه المؤتمر بهذا الصدد قال :

بالاستناد الى التحاليل التي أجريت على بقايا الهياكل العظمية البشرية التي اكتشفها علماء الاثار والتنقيب يبدو أن مسار تطور النوع البشري مر بأربع مراحل كبيرة ، ارتبطت كل منها بنوع حيواني معين .

المرحلة الاولى :

كانت منذ ثلاثين مليون سنة ، وتمثلت بظهور نـــوع مـــن الثديات القردية والبشرية التي لم يكن طول قامتها يتجاوز نصف متر ، ولم يكن في فمها ســـوى نصف فك ، وقد عثر على بقايا هياكل عظمية لهذه النماذج الاولى في منطقة الفيوم جنوب القاهرة .. مما يعني ان أرض مصر القديمة قد تكون المهد الاول للبشرية . وقد عرفت هذه النماذج باسم « بروبليوباتاك » .

المرحلة الثانية :

وترجع الى خمسة عشر بليون سنة ، وتشمل مناطق افريقيا واسيا وأوروبا ،

---

٢ تيلار تشاردن ، ظاهرة الانسان ، ترجمة نديرة بازجي ، وزارة الثقافـــة ، دمشـــق .

حيث عاشت النماذج المعروفة باسم « راماباثك » وقد تميزت بحجم الجمجمةالاكبر بكثير من حجم جمجمة النموذج الفيومي المصري الاول . لكن مساحة الوجهأضيق وعدد الاسنان أقل . وقد عاشت هذه السلالة في الغابات اجمالا ، وكانت تعتمد في غذائها على العشب والنبات بشكل رئيسي .ويبدو أيضا أنها كانت تستعمل الحجارة لتحطيم عظام الحيوانات لكي تتغذى بالنخاع العظمي .

المرحلة الثالثة :

مرحلة ما يسمى النموذج الاسترالي وقد ظهر في افريقيا منذ ستة ملايين عام، وقد كان هذا النموذج ما اصطلح العلماء على تسميته بسلالة (ما قبل الانسان)، وقد احتفظ بمعظم الملامح العامة (للراماباثك)، وان كان تميز عنه بارتفاع حجم الجمجمة الى ستمئة سنتمتر مكعب بدل اربعمئة لكن مساحة الوجه ظلت ضيقة . ويبدو أن الانسان الاسترالي قد حقق تطورا خطيراً جداً بالنسبة لمسار النوع البشري ذلك أنه بعد ان كانت نماذج المرحلتين السابقتين تدب على أطرافها الاربعة، مشى الانسان الاسترالي على قدميه فقط .

والدليل القاطع في هذا المجال ، هو الاكتشاف الذي توصلت اليه عالمة الاثار البريطانية الشهيرة (ماري لوكاي) التي عثرت في العام ١٩٥٩ في منطقة (أولدفاي) في (تانزانيا) على بقايا هياكل عظمية للانسان الاسترالي . وقد وجدت في المنطقة نفسها أثار خطوات محفورة في رماد بركاني متحجر يعود عمره الى أربعة ملايين عام، وهي خطوات مزدوجة فقط (وليست رباعية) لاقدام بشرية .

والمطبع فان استعمال القدمين فقط للمشي يعني بقاء اليدين حرتين لاستعمالات أخرى . وقد تبين فعلا ان النموذج الاسترالي بدأ منذ ثلاثة ملايين عام باستعمال حجارة الكوارتز لتوليد الشرارة النارية . وقد استدل على ذلك من خلال اكتشاف أثرية ، توصل اليها منقبون اميركيون عملوا في « وادي أومو » الواقع في المنطقة الحدودية بين أثيوبيا وكينيا .

وهذه المرحلة الاسترالية هي التي يصطلح العلماء على تسميتها بمرحلة «ماقبل التاريخ» أو « فجر التاريخ ».

المرحلة الرابعة :

تمثلت في ظهور « الانسان الحاذق » ((هوموهابيلوس) وكان ذلك منذ مليونين ونصف المليون عام ، وهو نسخة متطورة لنموذج الانسان الاسترالي يتميز عنه بأنه أطول قامة ، وحجم الدماغ صار هنا أكبر بكثير ((ثمانمئة سنتمتر مكعب بدل ستمئة)، كما أن قوامه استقام عموديا بعد ما كان قوام الاسترالي مائلا الى الانحناء ، كما تميز الانسان الحاذق ، بقدرته على قرض أي شيء سواء أكان لحميا أم نباتيا ، وذلك بفضل اسنانه الاقوى والاكبر عددا ، والاكثر تنوعا ، مما يجعله قادرا على التأقلم مع أي نوع من البيئة .

ويبدو أن هذا « الحاذق » بدأ يتعرف على أكل جيف الحيوانات الميتة ، مما جعله يستطيب طعم اللحم فصار يسعى الى الصيد .. ويستدل من الاكتشافات الاثرية ، التي عثر عليها المنقبون أن طرائد انسان هذه المرحلة تراوحت بين الفأرة والفيل .

ومع هذه السلالة دخلت البشرية عهدا جديدا . اذ أن الانسان « الحاذق » بدأ بتصنيع الادوات اللازمة لمختلف استعمالاته اليومية ، أسحلة صيد حجرية ، قادحات شرر لإحداث النار وغيرها ، والاهم أنه بدأ باعتماد نوع من المبادىء الاولية في تقسيم العمل .. ومع ذلك بدأ يتقن بناء الاكواخ التي يفزع اليها من تقلبات المناخ ومخاطر الطبيعة ، أكواخ يتراوح قطرها بين أربعة امتار وخمسة أمتار .

كما أن بناء البيوت جعله يبتكر عملية التكنيس وأدواتها المناسبة .

وفي هذه المرحلة بدأ « الانسان الحاذق » يتحول نحو المجتمع الاسري حيث يقيم في الكوخ الواحد نحو عشرين شخصا . وهذا يعني أن معدل الكثافة السكانية، كان بمعدل (١ر٠ الى ٣ر٠) شخصا في الكيلومتر المربع الواحد .

مما يعني أن مجموع سكان العالم آنذاك ، أي منذ مليوني عام كان في حدود مئتي ألف نسمة . وبالطبع فقد استمر عدد سكان العالم القديم في التصاعد وبخاصة بعد الانتقال من العصر الحجري الى عصر حضارة الزراعة والعيش مع تجمعات سكنية قروية .

لقد كانت مرحلة الانسان الحاذق اخر مراحل تطور السلالات البشرية وأهمها. وقد انبثق منها « الانسان البناء » (هومو أزيكتوس) الذي انطلق من افريقيا ينتشر في مختلف بقاع العالم وبخاصة في الصين وفلسطين القديمة . وكان ذلك منذ مليون وخمسمئة ألف عام .

وقد تميز انسان هذه المرحلة بتحقيق تقدم هام في تطوير ادوات الصيد ، كما أحرز تقدما هاما في مجال احكام سيطرته التامة على النار ، واخضاعها للاستخدام في معظم اوجه حياته ، ويبدو أنه بدأ أيضا ومنذ ثمانمئة الف عام بادخال النار في طقوس الموت ، بدليل أن معظم الجماجم البشرية المكتشفة في المناطق الواقعة ما بين الصين وتانزانيا كانت محطمة ومحروقة ، وكأنما الانسان القديم « البناء » كان يشوي دماغ موتاه ويأكله من باب التعظيم والتكريم . وبعد ذلك ظهر انسان «الهوموسابينس» وهو الجد الاقرب للانسان الحديث ، كان ذلك منذ مئتي ألف عام . وقد تميز بقامته الاطول ، وبجمجمته الاضخم وبمساحة وجهه الاوسع .

ان السؤال الجدير بالاهتمام هنا ، هو ، هل بالامكان عد عملية تأريخ وسلسلة نشوء النوع البشري وتطوره ثابتة ونهائية ؟.

لا ثوابت في هذا المجال ، بل أن كل شيء نسبي . المسألة ليست مسألة تنظير محسوس ، بل ان ذلك متعلق بمستجدات الاكتشافات الاثرية . ان كل النتائج التي توصل اليها مؤتمر باريس الذي أشرنا اليه سابقا ، تستند الى تحليل ما هو متوافر من معطيات متأتية من الاكتشافات الاثرية الحاصلة حتى تاريخ انعقاده .

ومن هنا فان كل الاحتمالات تبقى واردة . فلا شيء يمنع أن يظهر غدا اكتشاف أثري جديد ، يجعل الجميع مضطرين الى إعادة النظر في كل شيء سابق .

ولكن كيف يمكن حتى الان على الاقل ، تحديد الأب الحقيقي لانسان الازمنة الحديثة ، من بين كل تلك السلالات والنماذج البشرية القديمة ؟ هذه المسائل باتت محسومة تماما ، فذلك يعود الى المفهوم الذي تعنيه كلمة انسان ، وهو : الكائن الذي يمشي على قدمين ، والقادر على استعمال يديه وأسنانه (للنبات واللحم) والذي تحتوي جمجمته على دماغ متنام يسمح له بالتفكير وبالنطق وممارسة الحس الاجتماعي والابداعي ، من هذا المنطلق يمكن عد « هوموهابيلوس » الحاذق الاب الحقيقي لانسان الازمنة الحديثة ، مما يعني ان عمر البشرية الحالية ، يرقى الى مليونين ونصف المليون سنة .

وذلك أن المراحل السابقة (للهابيلوس) لم تكن سوى مقدمة للنموذج البشري . وبالفعل فان هذه المقولة تتلاءم تماما مع أعمار الحضارات البشرية المعروفة حتى الان في معظم أنحاء العالم . ففي الصين مثلا ، ثبت ان عمر الصيني الاول يرقى الى مليوني سنة ، والاندونيسي الاول الى مليون وتسعمئة ألف سنة ، والفرنسي الاول الى مليون وثمانمئة سنة ، والشرق الاوسطي الاول الى مليون وثمانمئة الف سنة أيضا .

ان التفسير العلمي لعمليات التطور التي خضعت لها السلالات البشرية كما يؤكد المؤتمر المذكور من خلا نتائجه يحدده (البروفسور كوبنز) بقوله : « لاشك أن العوامل المناخية والجيولوجية هي الاساس الاول في جميع عمليات التطور السلالي ، لجميع الكائنات الحية من انسان وحيوان ونبات » .

فقد حدث منذ نحو عشرين مليون سنة ، أن تحول مناخ الارض فجأة وبصورة جذرية الى منحى جديد بحيث أصبحت المناطق الجبلية والصخرية أقاليم وغلية ، وفي الوقت نفسه تحولت الادغال والصحارى الاستوائية الى سهول منبسطة يغشاها النبات والماء .

وكان من شأن تلك الانقلابات الطبيعية ، أن دفعت بأنواع من الكائنات الى الانقراض ، ومنها مثلا الشديات التي لم تستطع العيش خارج الادغال والصحارى .

ومن جهة اخرى ، فان السلالات البشرية القديمة القريبة من السلالة القردية والتي كانت مستادة على العيش متسلقة أعالي الاشجار ، اضطرت الى الهبوط أيضا ، للعيش في المساحات المنبسطة السهلية الجديدة ، مما اضطرها بالتالي مع الوقت الى اعتياد استعمال القدمين فقط للمشي بدل الأطراف الاربعة ، وصارت لليدين استعمالات جديدة للصيد والقتال دفاعا عن النفس ، ولبناء المساكن الارضية . وكان من الطبيعي أن ينجم عن ذلك تطور هام في التركيبة الدماغية والعصبية للانسان . وقد حدثت فيما بعد تحولات مناخية جذرية اخرى منذ نحو مليون ونصف المليون سنة ، حيث اجتاحت موجة عارمة من الجفاف جعلت السهول تتحول الى قفار جرداء تصعب فيها استمرارية الحياة بالبداهة والعفوية التي كانت اعتادتها السلالات البشرية الغابرة ، مما اضطرها الى ابتكار أدوات وأساليب جديدة هي في النهاية نوع من الاحتيال على الطبيعة للتمكن من العيش . وكان هذا أهم الانجازات التي حققها نموذج « هومو ها بيلوس » الحاذق .

ثالثا ـ طبيعة الانسان :

كما قلنا آنفاً ، ان ما يتميز به الانسان ليس صفاته البيولوجية والاجتماعية ، بقدر ما صنعه من هذه الصفات ، وحياته هي نتاج القوى الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي صنعت التاريخ . وفضلا على ذلك فان تاريخ كل شخص يضم ماضيه التطوري وتجاربه البيولوجية الخاصة ، وعليه يمكن دراسة جسم الانسان من حيث هو آلة تخضع تركيباتها والياتها لقوانين الفيزياء والكيمياء ، ولكن الانسان من ناحية اخرى ، يتمثل على صورة كائن عضوي معقد ، يتجاوب مع بيئته على نحو متفرد يعطي حياته ذاتية مستقلة الى حد كبير رغم كون النماذج والرموز التي يعمل عن طريقها العقل البشري مستمدة من عالمه الخارجي . صحيح أن خصائص آلة الجسم متماثلة بين جميع الأفراد المنتمين الى نوع (الانسان العاقل) . وتكاد تطابق خصائص القردة العليا ، ولكن كل شخص يتميز في الوقت نفسه بخصائص مستمدة من تجاربه ـ ونشاطاته الخاصة وهي سمات ينفرد بها عن جميع الاشخاص الاخرين وهذه الاختلافات الفردية والجماعية دقيقة للغاية وتتضمن أنماطا معقدة لا تركيبات أو

وظائف موحدة ، لقد حقق العلماء بعض التقدم في دراستهم كيفية تشكل طبيعة الانسان بفعل البيئة الطبيعية والاجتماعية ، وقد وضعوا في ذلك الكثير من البحوث والفرضيات المتنوعة والمبنية على فكرة التطور وظواهرها والتأثير المتبادل بين الكائن المفكر وبيئته وأساليبه في الحياة ، ولكن الفرضيات والتخمينات الخاصة بمنشأ الانسان ومنشأ طرق حياته ما أمكن حسمها بأدلة قاطعة ولم يبق امام الانتروبولوجيين من خيار الا التخمين في محاولة تفسير كيفية حلول الآليات الاجتماعية تدريجيا محل الآليات البيولوجية بوصفها العامل الرئيسي للتغيير في حياة الانسان ، وهذه الحياة التي كان للعوامل الاجتماعية الثقافية التأثير الأكبر في تطورها ضمن المجتمعات من العوامل الوراثية ، وبحيث أخذ عدد من الباحثين يعلن صراحة أن عالم الواقع برمته عملية تطور هائلة واحدة ، مما يتفق الى حد كبير مع المعنى التطوري المندرج من المادة الى الانسان وصعودا الى الله وهي الفكرة التي صاغها الأب اليسوعي (تيار شاردان) وشرحها في كتابه ظاهرة الانسان ، وهو ما يتفق مع اراء بعض انصار الداروينية المتطورة حيث عبر عنها / جوليان هكسلي / احياء الذكرى المئوية لنشر كتاب داروين (أصل الأنواع) عام ١٩٥٩ بقوله : ((ان اكتساب الانسان آليته ثانية، أسمى وأعلى من آلية الكروموسومات والجينات، من أجل ضمان الاستمرار والتغير التطوري هنا ، وهي آلية تقوم على قدرته على التفكير والتكلم بلغة رمزية ، مكنته من اجتياز الحاجز الذي وضعته القيود البيولوجية ، ودخول ميادين الوجود النفسي والاجتماعي وهي ميادين بكر لم تطرق من قبل)) والواقع أن التطور في المرحلة النفسية الاجتماعية ثقافة في المحل الاول : أعني أنه يتجلى غالبا في صورة تغيرات في الثقافات الانسانية ، لا في الأجسام البشرية أو المركبات الوراثية البشرية المعقدة ، واستخدام الثقافة بمعناها الانتروبولوجي والاجتماعي الواسع لتشمل الفن واللغة والدين والنظام الاجتماعي ، كذلك الثقافة المادية) .

إن تأثير القوى الثقافية في أوجه نشاط الانسان من الوضوح بحيث جعل علماء الاجتماع يميلون الى الاعتقاد بأن الانسان قد أفلت من قبضة البيولوجيا ، ولكن هذه القوى لا تزال تؤثر بعمق في معظم جوانب حياة الانسان الفردية والاجتماعية، وفي الواقع ان التاريخ والتجربة اليومية يوضحان أن الدوافع البدائية التي كانت

تحرك انسان العصر الحجري القديم ، يمكن في كثير من ظروف الشدة ، أن تخترق بسهولة قشرة الحضارة ، ويرجع ذلك على وجه التحديد الى أن الحياة المتحضرة نشأت أساسا من تغيرات نفسية اجتماعية لا من تطور عضوي[٣] .. وعلى النقيض من الحيوانات المختلفة التي اكتسبت اثناء تطورها درجة عالية من التخصص التشريحي ، والفسيولوجي والسلوكي ، وأصبحت نتيجة ذلك مرتبطة ببيئات معينة وملتزمه بطرائق حياة خاصة . فقد ظل الانسان أعظم كائن غير متخصص في عالم الاحياء ، ومواهبه الطبيعية اقل في كثير من النواحي من مواهب الانواع الحيوانية الاخرى التي تعيش في الوقت الحاضر ـ كما ذكرنا ـ ولكنه ربما كان يسبقها جميعا في قابليته للتكيف . وذلك على وجه التحديد لانه يبدي قدرا ضئيلا من التخصص البيولوجي ، وقابليته للتكيف هذه هي التي مكنت الانسان من الاشتغال بعدد لا حصر له من الاعمال المختلفة ، والاستيطان في عدد كبير من مناطق العالم المختلفة . ويبدو ان حجم المخ ونمو قشرته المميزة هي التي كانت السمة البارزة في تطور البشر وتفاضلهم لأن المخ في جميع الحيوانات العليا هو العضو الرئيس للوعي . وله قدرة مذهلة على احداث تكامل بين عدد هائل من عناصر التجربة المنفصلة والمختلفة في كثير من الاحيان ، وفي أنماط منظمة ، وهي أنماط وتجارب يفطن الكائن العضوي الى كل نوع منها على حدة وعلى نحو متميز ، كما أن له قدرة على مد أفكاره الى المستقبل البعيد وهي صفة من أهم صفاته التي ادت الى اعطائه القوة الدافعة اللازمة للبحث عن مزيد من المعرفة وبذل جهود جديدة لايجاد أنماط للتعلم تؤدي الى تحقيق هدف بعيد . وكذلك فإن القدرة على الكلام أضفت على الانسان ميزات جعلت الوظائف الاجتماعية أكثر فعالية ، ويعتقد كثير من الانثروبولوجيين أن عملية الانتخاب التي أدت الى الكلام طرحها في الواقع على اسلاف الانسان اعتمادهم المتزايد على الانشطة التعاونية ، وبصفة خاصة حاجتهم الى نقل المعلومات لصنع واستخدام الادوات الى الافراد الاخرين ، وبذلك اعتمد التقدم في صنع الادوات

---

١٣٠ زكريا فهمي ، طبيعة الانسان ، مجلة علم الفكر ، المجلد ٢ ، العام ١٩٧٥ ، ص ٤٦ .

واستخدامها على تطور اللغة اللازمة للاتصال ، واصبحت اللغة بدورها الاداة الحاسمة في تطور الحضارة .

وبصورة عامة فان الانسان يختلف عن الحيوان بمجموعة من الصفات بعضها موجود في أنواع الحيوانات ، ولكنها في حالة غير متطورة فقط في كثير من الاحيان، واليك قائمة بصفات مميزة موجودة الى حد ما في الحيوانات العليا ، ولكنها أساسية لرفعة شأن الانسان . وهي درجة أعلى من قابلية التغير ، وضع منتصب ، يدان يمكن العمل بهما ، قشرة مخية معقدة ، طول فترة عدم اكتمال النمو وقابلية التعليم والمهارة في استخدام الادوات واختراعها، كلام رمزي ووسائل اتصال اخرى ،وقدرة على التفكير التصوري والابداعي .

وهنالك سمات للحياة الاجتماعية تكاد تبدو وقفا على الانسان وحده ، وتمثل حدا فاصلا بين الانسان والرئيسيات العليا ، هذه السمات هي : مقاسمة الطعام مع أفراد الاسرة ، والبناء الاسري المستمر على درجة عالية من التنظيم ، وقواعد السلوك المتعلقة بالمحارم ومزاوجة الغرباء ، وعلى الرغم من أن كثيرا من الناس تتقصهم بدرجة كبيرة واحدة أو أخرى من هذه السمات ، بل ان الجنس البشري يمكنه أن يذهب الى أبعد من هذا ويدعي أن من صفاته الخصوصية قبول القيم الاخلاقية التي تتجاوز نطاق الاحتياجات ، ووعي يسمو على الذهن المحض ، وضمير يقهر المخاوف،واهتمام بالماضي السحيق ، وقلق على المستقبل البعيد ..

ان حدوث المراحل الاخيرة من التطور البيولوجي للانسان في آن واحد مع المراحل الاولى لثقافته يكاد يجعل من المؤكد أن الصفات البيولوجية والثقافية لا يمكن بحثهما على حدة ، فليس هنالك شيء يمكن تسميته بطبيعة الانسان البيولوجية الصرفة ، فثقافة الانسان كلها قامت بدور في التشكيل الوراثي للانسان على النحو الذي نعرفه اليوم ، ومن هنا ينبغي ألا ينظر الى أنماط الثقافة على أنها مظاهر خارجية لطبيعة الانسان ، بل انها تؤلف خططا وتصميمات ترسم معالم حياته. ولهذا قيل ان الانسان يصنع نفسه ، فهو لم يطرأ عليه من الناحية البيولوجية سوى

تغير طفيف منذ أوائل العصور الحجرية القديمة ، وإذا كانت نظريات التطور تشير الى أن الثدييات بأنواعها كلها هي بعض الحلقات الاخيرة للتطور حتى وصلت الى الشكل الانساني وقد استغرق هذا التطور بكامله منذ الخلايا الاولية ... مدة تتراوح بين ألف وخمسمائة مليون سنة وألفي مليون سنة فان الاثر قد الفيزيائي للانسان الحكيم لا تمثل الا جزءا من عشرين الف جزء من التاريخ العام ، وإنما هي قريب من أربع ثوان في نهاية يوم مقداره أربع وعشرون ساعة ، وأما التاريخ الحي العقيقي للانسان المتمدن فانما يمثل خمس الثانية الاخيرة من الساعة الاخيرة[4] .

---

(٤) جان روستان ، الانسان ، ترجمة محمد عبد الرحمن مرحبا ، ص١١٠ .

المبحث الثالث

التطورية الثقافية والاجتماعية للانسان

يقول أحد المفكرين : (إن أعمق نمو للنفس لا يتحقق ، كما يطيب للناس أن يفترضوا اليوم ، في علاقة الانسان بنفسه ، بل في العلاقات بين الواحد والاخر ، أي بين الناس ، أي في المقام الاول في تبادل الاعتراف بالوجود — أعني في الاعتراف بوجود نفس اخرى ، وفي معرفة أن المرء يوجد في ذاته الخاصة بوساطة الاخر — مع تبادل القبول والايجاب والتأييد) .

والانسان لم يطرأ عليه من الناحية البيولوجية سوى تغير طفيف منذ أواخر العصور الحجرية القديمة ، وقد ظل في الصورة نفسها أساسا من الناحية الوراثية ، ولكن مظاهر حياته وبناء مجتمعاته تتغير بلا حدود ، بل إن مفهوم التقدم ذاته يتضمن أن أحداث حياة الانسان الاجتماعية لا تتكرر أبداً بالصورة نفسها ، والتغير المستمر في حياة الانسان يأتي من الاستجابات الخلاقة التي يبديها هو ومجتمعاته ازاء تحديات البيئة الكلية .. ولكي يعيش لا بد له من الاستجابة ، ومن ثم تنشيط العمليات المؤدية الى التكييف والتطور الخلاق ، وفي هذا تميز الانسان عن الانواع كافة بحيازته على حضارة مادية وروحية وبأنه يبدع هذه الحضارة ويتمتع بخيراتها ، وبذلك كان الحيوان الوحيد الذي سمى نفسه بحق كائنا اجتماعيا وأخلاقيا .

إن نظرية التطور الداروينية التي سيطرت على مختلف مجالات الفكر ومختلف التخصصات في القرن التاسع عشر والتي هي بالنسبة للانسانية المفكرة تتمتع بالاهمية العظيمة نفسها التي تتمتع بها نظرية / كوبرنيك / في الفلك ، فأثرت مثلها في طرائق

الفكر واساليبه كما اثرت فيه اية نظرية اخرى خلال التاريخ الحديث للفكر الانساني، وهدمت أفكارا ومعتقدات سابقة ، وأصبحت اسلوبا ومنهجا يتبع في فهم الحياة والكون وايضا الانسان والمجتمع ومحاولة تصوير المجتمع بالذات ككائن عضوي حي ، ومقارنة ما يحدث فيه من تغيرات وتطورات بما يحدث في الكائنات العضوية الاخرى . وتمثل ذلك بوجه خاص في الكتابات الانتروبولوجية والسوسيولوجية والتاريخية والاقتصادية ، وفي النظرية السياسية . ورغم أن / داروين / لم يهتم في المحل الاول ـ وبطريق مباشر ـ بدراسة تطور المجتمع ذاته ، فقد نسبت اليه نظرية التطور ـ كما ذكرنا ـ رغم ان الكثيرين من العلماء قبله كانوا يتصورون تطور الانسان عملية مستمرة خلال كل وجود الجنس البشري، كما أن الاعتقاد العام في تطور الجنس البشري كان أسبق على الاعتقاد في تطور الحياة .

إن العلماء التطوريين يختلفون في كثير من الامور ، وبخاصة فيما يتعلق بتفاصيل العملية التطورية وعدد المراحل التي مر بها المجتمع والثقافة منذ البدء حتى الآن . ولكنهم يتفقون على الاغلب ان الصفة الغالبة على سير الحضارة هي «الارتقاء» وان الحياة تسير بالضرورة لتحقيق مزيد من التقدم والرقي ، والنظم الاجتماعية والمجتمعات الانسانية ذاتها تقدمت وهي تتقدم بالضرورة من حالة التأخر والبدائية الى التحضر والتمدن مارة بمراحل معينة يختلف عددها وخصائصها ومقوماتها من عالم لآخر . ولكنها تتفق في أن المرحلة اللاحقة تكون أعلى من السابقة ، وأنها تهيء الفرصة لقيام مرحلة أرقى منها هي ذاتها[٥] .

إن من أبرز العلماء الذين بحثوا في هذا الميدان العالم الاميركي الشهير (لويس مورجان) الذي ذكر في كتابه عن المجتمع القديم أن العالم مر بحقبتين كبيرتين هما حقبة التوحش وحقبة البربرية قبل أن يصل الى الحضارة الاوربية الحديثة . ثم يقسم كلا من هاتين الحقبتين بعد ذلك الى ثلاث مراحل اخرى : دنيا ووسطى وعليا ، وبذلك يكون المجتمع قد مر بحسب تقسيمه في المراحل التالية :

---

(٥) جون لويس ، الانسان والارتقاء ، ترجمة عدنان جاموس ، دار الجماهير، دمشق .

آ ـ مرحلة التوحش الدنيا ، وتبدأ من طفولة البشرية .

ب ـ مرحلة التوحش الوسطى وتبدأ باستخدام النار ، وكان الاقتصاد يعتمد فيها في أساسه على صيد السمك .

جـ ـ مرحلة التوحش العليا وتبدأ منذ اخترع الانسان القوس والسهم وبذلك كانت الحياة الاقتصادية تقوم في الاغلب على القنص .

د ـ مرحلة البربرية الدنيا وتبدأ باختراع الاواني الفخارية .

هـ ـ مرحلة البربرية الوسطى التي تتميز بحفظ الحيوانات واستئناسها وزراعة الذرة والاعتماد على الري .

و ـ مرحلة البربرية العليا وتبدأ باكتشاف طريقة سبك الحديد ، وبالتالي استخدام الادوات والآلات الحديدية .

ز ـ وأخيرا وصلت الانسانية الى المرحلة السامية والاخيرة وهي مرحلة الحضارة الصحيحة التي تمتاز باكتشاف حروف الهجاء والكتابة وهي تمتد حتى عصرنا الحالي[1] .

أما فيما يتعلق بوسائل العيش فان (مورجان) يميز بين خمس طرائق اتخذها الانسان في معاشه وهو يرد اثنتين منها الى حقبة التوحش بينما ترجع الثلاث الاخرى الى البربرية . وأولى هذه الوسائل يسميها (مورجان) بطريقة العيش الطبيعية عن طريق جمع الفواكه والبذور والجذور في المنطقة التي يقطن فيها الانسان ، والوسيلة الثانية هي صيد السمك .

---

(1) احمد ابو زيد ، المجتمع القديم عند لويس مورجان ، مجلة تراث الانسانية . ص ٣٦ .

أما الوسائل الثلاث الاخرى فهي : الاعتماد على زراعة الحبوب في الحدائق، والاعتماد على اللحم واللبن ثم ممارسة الزراعة الواسعة في الجبال[٢] .

ومن العلماء أيضا العالم الاقتصادي الألماني (كارل بيشر) الذي رأى أن الاقتصاد البشري مر بثلاث مراحل قبل أن يصل الى المرحلة الصناعية في أوروبا في القرن التاسع عشر ، وفي أولى هذه المراحل الثلاث كانت حياة الانسان تعتمد إما على الجمع والالتقاط أو على قنص الحيوان ، أو صيد السمك بحسب ظروف كل مجتمع على حدة ، ثم انتقل الانسان بعد ذلك الى مرحلة الرعي، وأخيرا وصل الى مرحلة الحياة المستقرة التي تعتمد على الزراعة[٣] .

ولكن فكرة التطور بمعنى التقدم والارتقاء لم تسلم أيضا من كثير من الانتقادات كما صادفت نظرة التشاؤم والارتقاء من حرب مسعرة لما تتنه[*] وأبرز المنتقدين لفكرة الارتقاء عدد من العلماء ورجال الدين بالذات ، فقد رفض هؤلاء المعارضون تصور المجتمع البشري وهو يسير في خط التقدم الذي رسمه أصحاب هذا الرأي ، ورأوا على العكس من ذلك أن الانسان خلق في الاصل على درجةعالية نسبياً من الرقي الثقافي ، ولكن هذه الثقافة الأولى الراقية تعرضت لبعض عوامل مضادة دفعت بها الى التدهور والانحلال [١] .

ورغم نقد المنتقدين فان العالم يثبت كل يوم تطورا اجتماعيا يعبر عن ارتقاء

---

(٢) احمد ابو زيد ، تايلور ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٣ ، ص ٢٥ .

(٣) المصدر ذاته ، ص ٢٩ .

(*) ما زال يوجد تشريع في ولاية /تينسي/ بأميركا يحرم تدريس التطور وفي سنة ١٩٢٥ جرت محاكمة لاحد المدرسين واسمه / سكوبس/ لانه خالف قانون الولاية هذا . غير أن هذا القانون رغم استمرار بقائه فانه ـ نتيجة التطور ـ لا يطبق ..
وفي عام ١٩٧٨ سيطر الاتجاه الديني في مصر على طلاب الجامعة وفاز المتشددون في هذا الاتجاه بأكثرية المقاعد القيادية لاتحادات الطلبة .. وقد اخذت القيادات تطرح رايها جهارا وبالحاح بلزوم حذف نظرية النشوء والارتقاء /لداروين/ من المناهج التعليمية « انظر ـ خريف الغضب ـ محمد حسنين هيكل ص٣٠٢ ».

الانسان ، هذا الانسان الذي اصبح نفسه عاملا وقوة فعالة في التقدم التكنولوجي وفي إعادة تنظيم الموجودات وفي إيجاد الايديولوجيات والنظم الحياتية ، والقواعد الاخلاقية ومبادىء التفكير العلمي .

ان تغير الجنس البشري والمجتمع من الناحية الاقتصادية والتكنولوجية أقوى بكثير من التغير الوراثي ، والتغير الاهم هو الاول ولا سيما أن التغيرات التكنولوجية تصدر عن المتطلبات الاقتصادية وممارسة الانتاج والمعارف العلمية . فقد تعلم الانسان الطيران خلال خمسين سنة فقط بينما استغرق الارتقاء البيولوجي حتى توصل الى الامر نفسه عن طريق التغيرات الوراثية الى خمسين مليون سنة . والنظم الاجتماعية تتغير بسرعة كبيرة وبجذرية عميقة تجعلان من غير الممكن أن تتعلق هذه النظم بالتحولات الفجائية التي تطرأ على الورثات (الجينات) وقد غير سكان جزيرة /مانوس/ في المحيط الهادي خلال / ٢٠ـ٣٠ / عاما ليس فقط أسلوب حياتهم ، بل غيروا كذلك تغيرا جذريا سلوكهم وقواعدهم ومقاييسهم الاخلاقية .. ولم يكن هذا ايضا تغيرا وراثيا اجتماعيا(٢) .

إن الهيئة الاجتماعية جسم حي ، وكل حي يخضع لاسباب النشوء والتطور والارتقاء ، والقوة التي تدفع بالهيئة الاجتماعية الى الرقي هي العقل ، ويفترض بالعقل أن يكون قوة الابتداع والتجديد وعدو التقاليد الجامدة . والصراع بين القديم والجديد لا يخمد أواره ، وفي هذا الصراع يتهم الجامدون على القديم خصومهم بفساد الاخلاق ويتسلحون بالقواعد القديمة للدين والعادات ويتهم المجددون التقليديين بالرجعية والجمود ، وتستمر الحياة ليصبح ما كان جديدا قديما ويتولد جديد آخر ، وتلك هي سمة التطور المستمر في المجتمع التي تكمن في جوهر النظام الارتقائي ، هذا النظام الذي عمل الانسان بما حبته الطبيعة من امكانات

---

(١) احمد ابو زيد ، التطورية الاجتماعية ، مجلة عالم الفكر الكويتية العدد ٤ ، العام ١٩٧٣ ، ص ٥٠ .

(٢) جون لويس ، الانسان والارتقاء ، ترجمة عدنان جاموس ، ص٥٥ .

في تطويره بالذات وفي تغييره أحياناً تغييراً جذرياً وانتقل موضوعيا من منهج المصادفات الذي يخضع له التغير الوراثي والارتقاء الطبيعي الى مناهج التطور الاجتماعية . ولم ينحصر ذلك في التقدم الاقتصادي والتكنولوجي فحسب ، بل وفي تطور الحياة الاجتماعية كلها بما فيها السلوك الاخلاقي، وفاعلية الغرائز ،وبحيث تصبح الاخلاق وسيلة من وسائل توطيد العلاقات الاجتماعية ، إضافة الى الوسائل الاخرى التي اقتضت وجودها الضرورات الاجتماعية كالقانون .. والأعراف ... والعادات ..الخ.

ولم يعد المجتمع يتكيف فقط مع ظروف البيئة المحيطة . بل أخذ ينظم ظروف هذه البيئة ويخلق منها ما تقتضيه حياته المتطورة ، واضطلعت الجهود المشتركة للاجهزة الاجتماعية بدور تحقيق هذه المهمة التي لا تستطيع القيام بها جهود أفراد منفردين .

وهكذا أصبح المحيط مطواعا ، وأصبحت الظروف مرنة لتقبل التغيير في طابع تطور الانسان ، وايجاد ظروف عادة خلق الانسان نفسه ، وهنا يستقر مفتاح التطور وبقاء المجتمع الانساني ونموه .

لقد أصبح الانسان كائناً اخلاقياً منذ أزمنة موغلة في القدم ، وكان ذلك بفضل التعاون والتبادل بين مختلف أعضاء الجماعة التي تعيش حياة مشتركة ، وعلى ما صادفه تاريخ البشرية من نزاعات وصراعات وحروب دامية ، فان ذلك كله لم يوقف عجلة التطور في اتجاه المجتمعات نحو ادراك مزايا التعاون واتساع حلقة التلاحم الانساني والاجتماعي، وما الاعراف والعادات والقيم التي ابتكرها الانسان خلال مراحل تطوره ، سوى مظهر من مظاهر تطور الانسان في المجتمع ، وتطور هذا المجتمع عبر الاف السنين في اتجاه الارتقاء والسمو ، ورغم ظهور نقاط سوداء تعيق سرعة الارتقاء ، فان علوم الانسان ومعرفته وتجاربه في مختلف اقطار الارض، غدت تراثاً اجتماعيا مشتركا يسهم في إقامة أنواع التحولات الاجتماعية اسرع وأكثر فعالية بكثير من الارتقاء الطبيعي، وتبرز كل يوم طاقة العقل الانساني، الذي ما هو

سوى نتيجة لعملية الارتقاء ، كما تبرزقدرة هذا العقل على مواجهة المواقف المستجدة في مشكلات الانسانية ومعالجتها ، وتؤكد على أن القواعد الاخلاقية والمبادىء والثقافات المختلفة هي جزء جوهري من النشاط الاجتماعي الواعي ، وأن منبع العقائد والقناعات الاخلاقية يكمن في حياة المجتمع ، وأن أهداف هذه العقائد والقناعات ووظائفها نفعية ، وأنها ليست حقائق أزلية خالدة ، بل هي خاضعة للتطور والتبدل ، وان أي مجتمع يعدها قواعد جامدة لا حركة فيها هو مجتمع عقيم يعيق حركة التطور دون ان يستطيع منعها .

إن الأفكار الغيبية والآراء المتعددة التي حاولت في الماضي أن تخرج الانسان وثقافته عن نطاق الطبيعة وتعامله معها لم تصمد أمام تطور وارتقاء فكر الانسان وارتقائه وادراكه لذاته ، وبأنه وكل ما أبدعه بعمله أو شارك في ابداعه هو جوانب متنوعة للطبيعة ، وأنه وكل ما يصنعه يشكلان الطبيعة في أكثر مراحلها حياة وتطورا وفعالية .

لقد أظهر الانسان بصفته كائنا اجتماعيا أنه يعرف العالم ، ويمكنه التعامل معه ، وأن يدعم أركان الحياة الاجتماعية ، وأنه بعلاقته مع عناصر العالم المحيط به قد أبدع الحضارة المبنية على الوجود العقلاني ، ولهذا فان الانسان وكل ما أبدعه لا يخرجان عن نطاق عملية التطور التاريخي ولا يمكن عدها بأي حال شيئا معزولا عن الطبيعة أو معارضا لها أو واقفا فوقها .

يقول (تشاردن) في كتابه / ظاهرة الانسان /: « ان شلال النشاط العقلاني الذي انهمر فجأة هو اقتحام نوع جديد من أنواع الحيوان للعالم أخذ يسيطر على جميع اشكال الحياة الاخرى ، ان هذا السيل العارم من الحقول والمصانع والمعامل وهذا الابداع الضخم المتنامي المادي والروحي ليس إلا تبشيراً بحدوث انقلاب في الحياة على الارض يشمل الكوكب بأسره[1] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٨٤.


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

القسم الثاني

علم دراسة الانسان وتطوره

« الانثروبولوجيا »

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفصل الأول

في الأنثروبولوجيا[1]

لا هذا الكائن الفريد الذي اسمه الانسان ، كان دائما ولا يزال ، موضع التأمل والدراسة من قبل كثير من العلوم الطبيعية والانسانية على حد سواء . فمنذ قديم الزمان ، لاحظ الانسان بصفة عامة الفروق الظاهرة بين شعوب الجنس البشري ، واهتم بمعرفة الطبيعة الانسانية ، وتفسير الاختلافات في الملامح الجسمية ، ولون البشرة ، والعادات والتقاليد ، والديانات واللغات وغير ذلك من مظاهر الحياة . وفي إطار هذا الاهتمام والتساؤل تطورت الدراسات خلال العصور وتبلورت بنشأة فرع جديد من فروع المعرفة اصطلح على تسميته « بالانثروبولوجيا » . ولكن ما هي الانثروبولوجيا ؟ وما هو موضوعها ، اذ ان لكل علم مادة مجموعة من الظواهر التي يكتب الباحثون في دراستها بالوصف والتحليل والتفسير .

تشير بعض الدراسات الانثروبولوجية الى أنه ربما تكون أفضل طريقة لتعريف الانثروبولوجيا هي أن نقدم للقارىء فكرة عما يفعله الانثروبولوجيون . وفي هذا الصدد، كتبت الباحثة الانثروبولوجية الأمريكية الشهيرة، (مارجريت ميد) (١٩٠١–١٩٧٩) تقول : « نحن نعد العناصر الانسانية ، البيولوجية ،

---

(١) اعتمدنا في هذه الفقرة على كتاب : قصة الانثروبولوجيا ، تأليف د. حسن فهيم الصادر ضمن سلسلة عالم المعرفة الشهرية التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت . ونشير الى اننا قمنا باجراء بعض التعديل (مثل الحذف أو الاضافة ..) وللأمانة العلمية نشير الى ذلك .

والثقافية للنوع البشري عبر الأزمنة وفي سائر الأماكن ، وتحليل الصفات البيولوجية والثقافية المحلية ، كأنساق مترابطة ومتغيرة ، وذلك عن طريق نماذج ومقاييس ومناهج متطورة ، كما تهتم بوصف النظم الاجتماعية والتكنولوجية ، وتحليلها ، وتعني أيضا ببحث الادراك العقلي للانسان ، وابتكاراته ومعتقداته ووسائل اتصالاته ، وبصفة عامة ، فنحن الانثروبولوجيين ، نسعى لربط نتائج دراساتنا وتفسيرها في اطار نظريات التطور ، أو مفهوم الوحدة النفسية المشتركة بين البشر ، ان التخصصات الانثروبولوجية التي قد تتضارب مع بعضها ، هي في ذاتها مبعث الحركة والتطور في هذا العلم الجديد ، وهي التي تثير الانتباه ، وتعمل على الابداع والتجديد ، هذا وتجدر الاشارة الى أن جزءا لا بأس به من عمل الانثروبولوجيين يوجه نحو القضايا العملية في مجالات الصحة والادارة والتنمية الاقتصادية ومجالات الحياة الاخرى » .

يعبر هذا النص ولا شك عن تصور الانثروبولوجيين الامريكيين بصفة عامة لأهم مجالات الانثروبولوجيا ، والتي تعني في نظرهم دراسة الانسان من الناحيتين العضوية والثقافية على حد سواء ، ويستخدم الامريكيون مصطلح الانثروبولوجيا التمييزية للاشارة الى دراسة الجانب العضوي أو الحيوي للانسان ، بينما يستخدمون مصطلح الانثروبولوجيا الثقافية ليعني مجموع التخصصات التي تدرس النواحي الاجتماعية والثقافية لحياة الانسان ، تدخل في ذلك الدراسات التي تتعلق بحياة الانسان القديم (أو حضارات ما قبل التاريخ) ، والتي يشار اليها بعلم الاركيولوجيا وتتناول الانثروبولوجيا الثقافة كذلك دراسة لغات الشعوب البدائية ، واللهجات المحلية ، والتأثيرات المتبادلة بين اللغة والثقافة بصفة عامة ، وذلك في اطار ما يعرف بعلم اللغويات ، علاوة على ذلك ، يوجد مجالان دراسيان آخران ذوا أهمية كبيرة ، وهما الانثروبولوجيا الاجتماعية وعلى الرغم من التداخل بين المصطلحين ، الا أن مصطلح الاثنوجرافيا يعني الدراسة الوصفية لاسلوب الحياة ومجموعة التقاليد ، والعادات والقيم ، والادوات والفنون ، والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة ، أو مجتمع معين ، خلال فترة زمنية محددة ، أما الاثنولوجيا فتهتم بالدراسة التحليلية ، والمقارنة للمادة الاثنوجرافية ، بهدف

الوصول الى تصورات نظرية أو تعميمات بصدد مختلف النظم الاجتماعية الانسانية ، من حيث أصولها وتطورها وتنوعها . وبهذا تشكل المادة الاثنوجرافية قاعدة أساسية لعمل الباحث الاثنولوجي ، فالاثنوجرافيا والاثنولوجيا مرتبطتان اذن وتكمل الواحدة الاخرى .

هذا هو معنى الانثروبولوجيا ومجالات دراساتها الرئيسة في في الولايات المتحدة الامريكية . اما في أوروبا ، فان الوضع يختلف تماما حتى من بلد أوروبي الى آخر . يرجع ذلك ـ بطبيعة الحال ـ الى تباين المخلفات الثقافية والمصالح القومية للدول الاوروبية . فبصدد كلمة الانثروبولوجيا ذاتها ، يذكر الباحث الفرنسي (جان بوارييه) أنها ظهرت أولا في كتابات علماء الطبيعة ابان القرن الثامن عشر لتعني دراسة التاريخ الطبيعي للانسان وربما كان عالم الطبيعة الالماني (جوهان فريدريخ بلومنباخ) من رأي (بواريه) أيضا أول من أدخل كلمة «الانثروبولوجيا» في منهج تدريس التاريخ الطبيعي بالمقررات العامية ، كما استخدمه في الطبعة الثالثة من كتابه الذي صدر عام ١٧٩٥ بعنوان « عن التنوعات الطبيعية الجوهرية بين البشر » . ويذكر (بواريه) أيضا أن الفيلسوف الالماني (إيمانويل كانت) أشاع استخدام هذا المصطلح وبخاصة بعد صدور كتابه « الانثروبولوجيا من منظور عملي » ومع أن اسهامه في دراسات التاريخ الطبيعي للانسان كان محدودا للغاية الا أنه كان مهتما بقراءة مدونات الرحالة كما أنه درس موضوع تصنيف السلالات البشرية . هذا ولا يزال استخدام كلمة الانثروبولوجيا بمعنى « دراسة التاريخ الطبيعي للانسان » سائدا في أوروبا الى حد كبير ، الا أن موضوعات الانثروبولوجيا بهذا المعنى قد اتسعت وتنوعت لتشتمل على الدراسات المقارنة بين الانسان والحيوان ، ودراسة تنوع السلالات البشرية ، والخصائص الوراثية للشعوب ، علاوة على الدراسات المقارنة بين الاناث والذكور من حيث الصفات التشريحية ، والعمليات البيولوجية ، وصلة ذلك بتحديد الوظائف أو الادوار الاجتماعية لكل نوع .

ان ما يدرجه الامريكيون تحت عبارة « الانثروبولوجيا الثقافية » يصطلح

الفرنسيون على الاشارة اليه بالاثنولوجيا ، أو ثنوجرافيا في بعض الأحيان ، وهم يدرسونها تحت مظلة علم الاجتماع . اما الانجليز ، فقد اختاروا تسمية أخرى ، وهي الانثروبولوجيا الاجتماعية ، ونظروا اليها بعدها علما قائما بذاته ، لا يدرج تحته أي من الاركيولوجيا أو اللغويات مثلا . ويسميه (ادوارد ايفانز بريتشارد) (١٩٠٢ — ١٩٧٣) ، أحد رواد الانثروبولوجيا الاجتماعية الاوائل ، مهمة الانثروبولوجيا الاجتماعية بأنها « تدرس السلوك الاجتماعي الذي يتخذ في العادة شكل نظم اجتماعية كالعائلة ، ونسق القرابة ، والتنظيم السياسي ، والاجراءات القانونية ، والعبادات الدينية ، وغيرها ، كما تدرس العلاقة بين هذه النظم سواء في المجتمعات المعاصرة أو في المجتمعات التاريخية ، التي يوجد لدينا عنها معلومات مناسبة من هذا النوع ، يمكن معها القيام بمثل هذه الدراسات . ان دراسات الانثروبولوجيين البريطانيين المكثفة لكثير من النظم الاجتماعية خلال النصف الاول من القرن العشرين ، وإجراء المقارنات التحليلية بشأنها ، ساعد على وضع نماذج نظرية لشرح أبنيتها ، وتفسير وظائفها ، ودورها في استمرارية الحياة المجتمعية وتماسكها . هذا وقد شكلت دراسات النظم ذاتها تخصصات فرعية ، وبهذا خرج الى الوجود ما يشار اليه مثلا بأنثروبولوجيا القرابة والاسرة مثلا ، أو أنثروبولوجيا الدين ، أو الانثروبولوجيا الاقتصادية ، أو أنثروبولوجيا النظم السياسية ، وغير ذلك ، وان كانت جميعها تسير وفقا للاطار العام لمفاهيم الانثروبولوجيا الاجتماعية ومناهجها .

واذا نظرنا الى استخدام كلمة الانثروبولوجيا في بلاد اوروبية اخرى ، نجد انهما تستخدم في المانيا مثلا للاشارة الى الدراسة الطبيعية للانسان بينما تستخدم كلمة اثنولوجيا لتشير الى « علم الشعوب » ، الا أن الاتجاهات تتعدد في المدارس الالمانية الاثنولوجية ، هناك مثلا اهتمامات بالنواحي النظرية الفلسفية ، وهناك أيضا اهتمامات بالنواحي المادية في الثقافات الانسانية . وقد برز مؤخرا اتجاه جديد نحو الدراسات الميدانية . واذا انتقلنا الى الاتحاد السوفييتي ، ومعه معظم بلاد شرق اوروبا ، نجد أن مصطلح « الاثنوجرافيا » يشيع استخدامه . ومن أهم مجالات الاثنوجرافيا لديهم دراسة التنظيم الاجتماعي للمجتمعات البدائية وبخاصة

فيما يتعلق بالتحولات التي تحدث في تلك المجتمعات عند تحولها الى دول جديدة، وما يتبعه من بروز للطبقات الاجتماعية . علاوة على ذلك ، يهتم الاثنوجرافيون السوفيت بدراسة المشكلات المتصلة بالجماعات العرقية ، والمشاعر القومية للاقليات، كما يهتمون ، بطبيعة الحال ، بدراسة تطور المجتمعات الانسانية في اطار النظرية الماركسية ونتائج البلشفيه التي حدثت في عام ١٩١٧ .

وكما هو الحال في أوروبا ، تتنوع مسميات الانثروبولوجيا في **الوطن العربي** . ففي مصر مثلا يأخذ بعضهم بالتسمية الانجليزية أي « الانثروبولوجيا الاجتماعية » ، بينما يسميها بعضهم الآخر بالانثروبولوجيا الثقافية وذلك وفقا للاتجاه الامريكي ، الا أن اصطلاح « الانثروبولوجيا الحضارية » غير شائع . ويدعو الباحث الجغرافي والاثنولوجي (د٠ محمد رياض)[1] الى الاخذ بمصطلح الاثنولوجيا بدلا من استخدام أي من المصطلحات المزدوجة . وذلك تسهيلا واختصارا . وفي الوقت نفسه ـ وعلى حد قوله ـ ترتبط الاثنولوجيا بدراسة الحضارة لدى الشعوب والمجتمعات المختلفة . ان الهام ـ في رأيه أيضا ـ هو « الاتفاق على المضمون ، وهو دراسة الحضارة بعناصرها المادية والمعنوية وغير المادية ، في ارتباط واضح بالتفاعلات الداخلية للحضارة ، والتفاعلات الخارجية مع الحضارات الاخرى المجاورة وغير المجاورة »[2] .

وضمن اطار تحديد اصطلاح الانثروبولوجيا يشير **الدكتور (شاكر سليم)** في قاموس الانثروبولوجيا ، الذي صدر في عام ١٩٨١ . الى ما يلي « ان الانثروبولوجيا هي علم دراسة الانسان طبيعيا واجتماعيا وحضاريا »[3] وعلى الرغم من بساطة هذا التعريف وايجازه الا أنه قد يحسم لنا مشكلة تعدد

---

(١) د٠ محمد رياض ، الانسان ، دراسة في النوع والحضارة ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ١٧٧ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) شاكر سليم ، قاموس الانثروبولوجيا (عربي ـ انكليزي) ، جامعة الكويت، ١٩٨١ ، ص ٥٦ .

فـروع الانثروبولوجيـا فيحددها في ثلاثـة تخصصـات رئيسـة فقط ، وهي الانثروبولوجيا الطبيعية ، والانثروبولوجيا الاجتماعية ، والانثروبولوجيا الثقافية . وهو في ذلك يشير ضمنا الى خاصيـة مميزة للانثروبولوجيـا وهي النظـرة الشمولية في دراسـة الانسـان . هناك علـوم أخرى كثيرة ، طبيعيـة كانت أو انسانية ، تدرس الانسان من جانب أو آخر ، ولكن الانثروبولوجيا تشكل ، في نهاية الأمر ـ منهجا يسعى الى تجميع المعرفة بالانسان من جميع الجوانب ، وذلك بهدف تقديم فهم متكامل ومترابط عـن الانسان وحياتـه وتاريخه الحضـاري ، في الماضي والحاضر ، ومن ثم يكون لديها القدرة أيضا على استقراء أنمـاط الحياة المستقبليـة .

والى جانب دراسة الانثروبولوجيـا للمجتمعات كافة كجـزء من منظورها الشمولي ، يتجه الانثروبولوجيون ، عند دراستهم لاسلوب حياة مجتمـع معين ، الى الربط بين الجانبين المعنوي والمادي لما يدور في الحياة اليومية للناس ، وإبراز الكيفية التي ينظم بها الافراد والجماعات وسائل معيشتهم ، والمحافظة على بقائهم . لهذا لا تفحص الانثروبولوجيا نظاما أو نشاطا معينا الا في اطار ترابطه وصلاتـه بالنظم الاخرى . وبالتالي أصبحت الدراسة الحقلية التي تقوم على الاتصال المباشر والمكثف بمجتمع الدراسة ، سمة أو ميزة أساسية في تقاليد العمل الانثروبولوجي . ولعل من السمات أو الخصائص الاخرى التي تنفرد بها الانثروبولوجيا هي الأخذ أيضا بمنهج المقارنة الموسعة ، وهي في ذلك تختلف عن العلوم الاجتماعية والانسانية الاخرى ، في أنها تسعى في تعميماتها ، الى مقارنة النظم أو أوجه النشاط الانساني، موضع البحث ، عبر الاماكن وعبر الازمنة . ولقد استفاد الانثروبولوجيون في تعميق هذا النوع من المقارنة ، مما حدث من تطوير لوسائل توثيق المادة وتحليلها باستخدام أدوات التكنولوجيا المتقدمة .

واستنادا الى ذلك فان كلمة (انثروبولوجيا) هي اشتقاق لغـوي من أصل يوناني اغريقي تتألف من مقطعين (انثروبوس) أي الانسان و(لوجوس) أي العلم أو الدراسة . أي ان المعنى اللفظي للاصطلاح هو علم الانسان . « ولقد استطاع

العلامة الانكليزي(هادون) أن يتتبع تاريخ استخدام هذا الاصطلاح الى الحضارتين الاغريقية والرومانية ، فقد لاحظ ان الفيلسوف الكبير (ارسطو) قد استخدم هذا الاصطلاح للاشارة الى « الشخص الذي يتحدث عن نفسه »، ومن الواضح أن هذا المعنى يختلف تماما عن المعنى الحديث للاصطلاح . وفي عام(١٥٠١)ظهر هذا الاصطلاح كعنوان لكتاب للمفكر الذي تكلم فيه عن خصائص جسم الانسان من الناحية التشريحية ..»[١] وانطلاقا من ذلك « يهتم هذا العلم بالجنس البشري فيدرس أجسام أفراده ومجتمعاتهم ووسائل الاتصال فيما بينهم وكل ما ينتجونه سواء أكان مادة أم علاقة اجتماعية أم فكرة . وقد اهتم الانثروبولوجيون الاوائل بدراسة مظاهر الحياة الاجتماعية للمجتمعات البدائية ، اذ اجتذبتهم غرابة تلك المجتمعات واختلافها عن المجتمعات الاخرى بخاصة المجتمعات الاوروبية ، ويمكن تلخيص الاسباب التي دفعت الرعيل الاول من الانثروبولوجيين الى ذلك الاتجاه فيما يلي:

١ ـ كان أهم ما يبحثون عنه هو اللغات والعادات الغريبة التي تختلف وتتناقض مع لغات مجتمعاتهم الاوروبية وعادات هذه المجتمعات وأصبح هذا تقليدا على مر السنين ..

٢ ـ يتميز علم الانسان بالنظرة الكلية الشاملة أي المنهج الكلي التكاملي الذي يهدف الى تحديد جميع عناصر الثقافة في مجتمع ما[١] .

---

(١) د. عاطف وصفي ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٧ ، ص ٧ .

(١) المصدر السابق ، ص ٨ .

المبحث الثماني

في التكوين والتطور

أولا ـ الانثروبولوجيا والدراسات الوصفية للعائلة :

تطورت الانثروبولوجيا كأي علم من العلوم الاجتماعية الاخرى في منحيين على الاقل : الاول يرتبط بالاستخدامات الاجتماعية والسياسية لها ، والثاني بالخصائص والمفاهيم وطرائق البحث التي تتسم بها ، ومع أن التطور في المجالين السابقين يعمل عناصر التأثر والتأثير المتبادلين الا أنه لا بد من التمييز بينهما عند البحث في تطور الانثروبولوجيا ، ومعرفة معيد لدراسة التطور التاريخي السليم يشمل الجانبين معا لنتوصل الى العلوم في ارتقائها وتطورها تقع ضمن منظومة علمية تتفاعل فيها المعارف والخلفيات ، كما أن نتائج التطبيقي ترتبط بالتوجيهات السياسية ، أما عناصر التحقق والاستكشاف والتنبؤ فانها من خصائص البحث العلمي .

وقد استخدمت الاصول الاولى للانثروبولوجيا على المستويين النظري والمنهجي في دراسة ما خلفته الشعوب القديمة من حكايات شعبية وأساطير محفوظة على الرسوم ، والتحليل بقصد استنباط أنماط من الانجازات الحضارية الرائدة ، والتي تشكل منعطفات في تاريخ تطور الانسان منذ وجوده على سطح الأرض وحاضراته بحثا عن الاستقرار . ومن تلك المنعطفات الأساسية التي حصلت عليها الانثروبولوجيا على طريق الانجازات الحضارية الهامة للانسان اكتشافه النار واختراعه بعض الادوات والفنون المفيدة أو صناعتها ، أو البدايات الاولى للتقانات المختلفة المستخدمة في انتاج الطعام

---

(١) الفقرات من اولا الى خامسا من كتاب د. صفوح الاخرس ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مطبعة « ابو بكر الرازي » ، دمشق ١٩٨٣ـ١٩٨٤ ، ص١١ـ١٢ .

وجدت منذ عصر الاكتشافات الكبرى في القرن الخامس عشر الميلادي تقريبا تراكم كمية من المعلومات الانثروبولوجية تجمعت على يد الرحالة والمبشرين والجنود ، خلقت تجميعا خصبا للمادة ، امتزج فيها الوصف بالتراث الشعبي وحكايات العجائز والمسنين ، حيث كتب الكثيرون عن خبراتهم الشخصية والاقاصيص والاساطير التي صادفوها أو سمعوها خلال رحلاتهم . وهكذا فان مصادر المعلومات كانت مبنية على التحليلات الصورية وما تتناقله الافكار والالسن، لهذا تعرضت جوانب كثيرة من هذه المعلومات للتشويه ، ذلك أن معظم الرحالة كانوا ينظرون الى الشعوب والحضارات الاجنبية من خلال منظار ميولهم الثقافية المتعصبة(١) .

وأخذ اصطلاح الانثروبولوجيا ينتشر تدريجيا مع بداية القرن السادس عشر ، باستخدامه على نظرة أكثر علمية وجدية من السابق ، حيث تجلى هذا عند العلامة الانكليزي (هادون) الذي يعد أول من تتبع تاريخ استخدام مصطلح الانثروبولوجيا ليعود به الى الحضارة الاغريقية ، فقد رأى أن الفيلسوف (أرسطو) قد استخدم هذا الاصطلاح للاشارة الى « الشخص الذي يتحدث عن نفسه »، وظهر أيضا هذا الاصطلاح كعنوان كتاب مستقل في عام (١٥٠١) للمفكر (هانت) تناول فيه دراسة خصائص جسم الانسان من الناحية التشريحية(٢) . كما ظهر اصطلاح الانثروبولوجيا في اللغة الانكليزية عام (١٦٥٠) في كتاب يبحث عن الطبيعة البشرية . وقد انقسمت أبحاث هذا الكتاب الى قسمين رئيسين يرتبط القسم الاول بعلم التشريح حيث لا زال هذا العلم حتى الوقت الحاضر يشكل دعامة رئيسة للانثروبولوجيا بشكل عام والانثروبولوجيا الطبيعية بشكل خاص ، أما القسم الآخر فيرتبط بعلم النفس . ولعل هذا التزاوج بين علم النفس وعلم التشريح

---

(١) د. محمد الجوهري، الانثروبولوجيا اسس نظرية وتطبيقات عملية ، سلسلة علم الاجتماع المعاصر الكتاب الثالث، والثلاثون ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٠، ص (٤١ — ٤٢) .

(٢) الدكتور عاطف وصفي ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، دار المعارف بمصر . الطبعة الاولى ، ١٩٧٧ .

في نطاق المفهوم القديم للانثروبولوجيا يشير الى ترابط الروح مع الجسد في نطاق الحياة والموت عند الاقدمين ، حيث كان من غير المقبول على ما يبدو أن تبحث بخصائص الانسان الفيزيولوجية دون أن تستكمل بقسم عن خصائصه الروحية المرتبطة في ذهن الاوائل بعلم النفس .

وقد أخذ اصطلاح الانثروبولوجيا ينتشر تدريجيا ويكتسب أبعاده العلمية الواضحة بتخطيه نطاق الروح والجسد الى الاصول الاجتماعية والحضارية والثقافة والبيولوجية المكونة لسلوك الانسان وعاداته وتقاليده ، حيث تميز في القرن الثامن عشر بالتوجه نحو البناء الخاص المتميز للمجتمع ، وقد كانت دراسات الفيلسوف الفرنسي (مونتسكيو)، في كتابه « روح القوانين » منطلقا للتمييز بين البناء الاجتماعي ، ونظام القيم ومنطلقا للتوجه نحو الاصول التاريخية للانساق والبنى الاجتماعية ، فاتجه علماء الانثروبولوجيا نحو المجتمعات البدائية لأنهم رأوا فيها مصدرا ثمينا لجمع المعلومات عن مراحل تاريخية يفترض أن مجتمعات معاصرة مرت بها .

ثانيا ـ الانثروبولوجيا والدراسات الجيولوجية :

بدأت دراسات متعددة في أوربا خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر حول البقايا العظمية التي عثر عليها في كثير من الأماكن في القارة الاوربية ، وحول أدوات اشعال النار عن طريق الاحتكاك ، وقد أعتمدت مثل هذه الدراسات على التقدم الذي أحرزته الدراسات الجيولوجية وعلم الحفريات القديمة ، ويعد العالم (لينو) أول من حاول أن يحصر ويصنف الاجناس البشرية المختلفة ، وكان ذلك نحو عام (١٧٥٠).

في حين كانت البدايات الاولى لتقرير وجود الانسان في أوربا خلال العصر الجليدي ، كانت على يد العالم الفرنسي (بوشيه دي بيرت)، حيث عثر في عام (١٨٣٠) على أدوات حجرية في وادي (سوم)، ونشر نتائج دراساته واكتشافاته في مجموعة من الدراسات ظهرت بين عام (١٨٤٧) حتى (١٨٦٤) ، وعرض (سيرجون ليبوك) في عام (١٨٦٥) دراسة لخص فيها كل المادة وكل المعلومات

الموجودة عن ثقافات العصر الحجري ، واوضح فيها لاول مرة الفرق بين ثقافات العصر الحجري القديم وثقافات العصر الحجري الحديث .

وفي الفترة نفسها تقريبا عثر على أول دليل مباشر على وجود الانسان القديم في المانيا سنة (١٨٦٥) ، وهو الاكتشاف الذي عرف باسم انسان (نياندرتال) نسبة الى القرية التي عثر عليه فيها . وهذا كان ركيزة للانثروبولوجيا ، فقد كانت بداية بحوث علمي الآثار والانثروبولوجيا الطبيعية[٤] .

ثالثا ـ الانثروبولوجيا ودراسات شعوب ما قبل التاريخ والشعوب البدائية :

تراكمت معلومات كثيرة ، جمعت من شعوب متعددة في القرن التاسع عشر ، حيث عرفت الانثروبولوجيا طفرة جديدة تعد في الواقع بداية هذا العلم ، ويمكن تحديد ذلك ما بين عامي (١٨٦٠ ـ ١٨٨٠) حين ظهرت معظم مؤلفات المدرسة التطورية ومنها « حق الامومة » (لباخ أوفن) و « القانون القديم » (لماين) عام (١٨٦١) . كما ظهر عام (١٨٦٥) كتاب (تايلور) بعنوان « أبحاث في التاريخ المبكر للجنس البشري » وقد اتبعه عام (١٨٧١) بكتابه « المجتمع البدائي » ، هذا الى جانب كتاب (مورغان) عن « نظم القرابة » عام (١٨٦٩) وكتابه عن « المجتمع القديم » عام (١٨٧٧) .

وقد حدد علماء هذه المرحلة للانثروبولوجيا منحى علميا يهتم بدراسة شعوب ما قبل التاريخ ، ودراسة الشعوب البدائية المعاصرة ، وتجلى هذا في دراستهم لحضارة المجتمعات قيد الدراسة ، وما يتضمنه ذلك من دراسة للعادات والتقاليد واللغات المرتبطة بها . كما يبدو ذلك في كتاب (تايلور) « الثقافة البدائية » وكتاب « المجتمع القديم » لمورغان .

ولعل جوهر الاهتمام في عملية فهم المجتمعات البدائية ... في اعتقادنا عن عدة مسائل رئيسة ، ترتبط **المسألة الاولى** بما ذكر عن استخدام الانثروبولوجيا من قبل المستعمرين لتطويع الشعوب المستعمرة لحكمهم ... في مرحلة

---

(٤) د. محمد الجوهري ، مرجع سابق ، ص ١٤٣ .

الاستمرار القديم حتى بات ذلك الاستخدام سمة من سمات التعريف بالانثروبولوجيا . وتتعلق المسألة الثانية ، التي تفسر اهتمام علماء الانثروبولوجيا الاوائل بدراسة المجتمعات البدائية ، بما تتصف به تلك المجتمعات من سمات رئيسة تشكل مجالا خصبا للانثروبولوجي ، يربط فيه بين أصل الانسان وحاضره، من خلال دراسة المجتمعات البدائية وتطورها الى المجتمعات المعاصرة مرورا بالمجتمعات شبه البدائية .

أي من خلال التعرف على الاصول الاولى للمجتمعات الانسانية ، اضافة الى ذلك فان امتحان الافتراضات النظرية التي سيرت علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية في المرحلة التقليدية كان يتطلب دراسة مجتمعات صغيرة الحجم ، والمجتمعات البدائية كما هو معلوم مجتمعات ترتبط بالتكون المبني على رباط الدم واسلوب معين في الانتاج الاقتصادي يتراوح من مرحلة قطف الثمار والصيد والرعي الى مرحلة الزراعة . والافراد في هذه المجتمعات يتدربون على قيم الجماعة ويتمسكون بها فتذوب شخصية الفرد في شخصية الجماعة ويغدو الفرد والجماعة في وحدة متماثلة ، يعبر الفرد عن نفسه بلفظ (نحن) مشيرا بذلك الى تفاعله مع الجماعة ، والى تعريف نفسه بقيمها ومثلها العليا . ويكون التعبير عن قيم الجماعة بشكل ردود افعال آلية لا تفكير فيها ، حيث معايير الجماعة هي التي تؤثر في سلوك الفرد وآليته ، كما أن الافراد لا يمكن لهم أن يغيروا من وضعهم الاجتماعي شيئا كونه موروثا في المجتمع ، فالافراد يؤدون أدوارا متشابهة ويخضعون لعوامل واحدة في حياتهم المعيشية ، لأن الكثافة السكانية قليلة وتقسيم العمل أو توزعه بدائي وضعيف ، أما العلاقات والادوار الاجتماعية فتحدد حسب النوع (ذكورا ـ اناثا) والسن (أطفالا ـ شبابا ـ كهولا ـ شيوخا) والمراكز في النظام القرابي (آباء ـ أمهات ـ أبناء ـ بنات ـ أعماما ـ عمات ـ أخوالا) ... الخ، كما تقوم عمليات الضبط الاجتماعي على أساس التقليد حيث يكون التعبير عنها عن طريق الكلام او الاشارات أو أنماط متفق عليها .

أما النظام السياسي فهو بسيط ومحدود ، وقد تفتقر الى وجوده بعض المجتمعات البدائية التي يسود فيها اعتقاد قوى الأشياء المقدسة وينشأ الشعور

بالخطأ والصواب من جذور لا شعورية جماعية ، لذلك يكون شعورا قويا وجبرا وغير خاضع لمنظور الفرد . وهكذا يتمثل النظام الاساسي الذي يربط أفراد المجتمع معا بالنظام الاخلاقي القائم على أساس مفاهيم أخلاقية خاصة بالواجب والخير والقوى الغيبية ومصلحة الجماعة ، وذلك حسب كل مجتمع وتكون هذه المفاهيم بالنسبة للافراد أقوى من المفاهيم القائمة على أساس المصلحة الشخصية والمادية ، والمعرفة لتعلمها الافراد من الحياة العملية والتجارب اليومية التي يعيدونها ، فالمجتمع البدائي بسيط بأدواته من الناحية التكنولوجية ، الا أنه معقد في نظمه الاجتماعية وفلسفاته .

هذا وقد تجلت هذه الدراسات عند أنصار المدرسة التطورية التي رأت أن التقدم يتبلور من خلال الانتقال من المرحلة الحيوانية الى المرحلة البدائية ، ومن هذه الى البربرية ، ومنها الى التمدن ، ويتضح هذا من تأكيد كل من (مورغان) و (تايلور) بأن الجنس البشري قد عرف شكلا موحدا في نشأته ، وتجربته وتقدمه ، حيث يعد (مورغان) التطور بمثابة خط مستقيم ، فالبدائية مرحلة سبقت البربرية ، وهذه سابقة على التمدن ، وهكذا يتبين لنا سبب افتراض بعض الانثروبولوجيين الاوائل أن الاهتمام بالمجتمعات البدائية هو أهم ما يميز الانثروبولوجيا عن العلوم الاخرى[٥] .

والجدير بالذكر أنه لم تزل توجد بعض المجتمعات البدائية في أفريقيا ، وأندونيسيا ، وفي نطاق ضيق من استراليا ، باقية على ما هي عليه بسبب العزلة وسوء الاحوال المناخية والبيئية والاستعمار ، الا أن هذه المجتمعات في طريقها للزوال بسبب عوامل التقدم الذاتي لها ، وتحولها الى مجتمعات متمدنة ، كما عمد الاستعمار الاستيطاني بشكله القديم الى قتل معظم أفراد تلك المجتمعات ليفسح المجال أمام عمليات استيطان جديد[٦] فقضى على حضارة القبائل

---

(٥) د. جيرار لكارك ، ترجمة د. جورج كنورة ، « الانثروبولوجيا والاستعمار » معهد الانماء العربي ، كتاب الفكر العربي (٢) الطبعة الاولى ، بيروت ، ص (٢٤ ـ ٢٥).

(٦) د. عاطف وصفي ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص٦٥ .

البدائية وسيطر عليها ، لتعيش حياة تختلف تماما عن حياتها السابقة وهذا ما يحدث في جنوب افريقيا وروديسيا ، فان أغلبية الافريقيين يعيشون حياة يسودها الجهل والفقر والمرض ، حيث يقومون بالاعمال اليدوية المرهقة ، بينما يعيش البيض في يسر ورخاء .

وهكذا اقتصر اهتمام علماء الانثروبولوجيا التقليدية على تحليل الاصول التاريخية لبعض المجتمعات البدائية ورصد اتجاه التغيرات التي تحدث فيها بقصد الوصول الى فهم لواقع المجتمعات الاوربية ، وقد كان الافتراض النظري الذي سير تلك الدراسات أن مراحل تطور المجتمعات الانسانية واحدة ، وبالتالي فانه في حال تعذر دراسة الاصول التاريخية لمجتمع ما فانه من الممكن دراسة مجتمعات أخرى في مرحلة تطور أدنى من أجل الوصول الى جذور المجتمعات المعاصرة .

غير أن هذا الافتراض النظري بدأ يتضاءل في الوقت الراهن نظرا لظهور دراسات أثبتت أن أنساق تطور المجتمعات لا تتم عادة بشكل واحد . وعلى هذا فان دراسة المجتمعات البدائية في أفريقيا قد لا يؤدي الى فهم واقع المجتمعات الاوربية المعاصرة ، نظرا لتشابك آلية تطور المجتمعات بفعل التولد الذاتي مع التغيرات التي تحدث في المنظومة الانسانية وبخاصة بسبب انتشار الحضارات وتبادل المعلومات وسيطرة أنماط انتاجية عالمية على كثير من الأسواق المحلية .

رابعا ـ الانثروبولوجيا والحملات الاستعمارية بشكليها القديم والحديث :

استنادا لما سبق حاول كثير من الانثروبولوجيين تبرير الحملات الاستعمارية والتبشيرية التي اجتاحت الشعوب البدائية ، حجتهم في ذلك نقل هذه الشعوب الى مرحلة المدنية والتقدم . أي عقلنة ما يمتاز الاستعمار الحديث به من عنف ونهب ، فهذا برأيهم شرعي وضروري وانساني ، ومتميز عن الاستعمار القديم ، لأنه حديث يسوغه تفوق المجتمع العلمي بخاصة في مجال العلوم الاجتماعية . وهكذا زعم (لورا بوليه) أحد منظري الامبريالية الفرنسية في نهاية القرن التاسع عشر ، حين درس في كتابه « الاستعمار لدى الشعوب الحديثة » ، لا « المظهر الجمالي أو البطولي في الاستعمار بل المظهر الاجتماعي التجريبي » ومن هنا ضرورة

تحريك كل الامكانات التاريخية والاجتماعية والديموغرافية الى جانب مصادر الاقتصاد السياسي وامكاناته .

ويتبلور تبرير الانثروبولوجيا للاستعمار عند (ليبوك) الذي يؤكد على أهمية دراسة الحياة البدائية للامبراطورية البريطانية التي يشكل أبناؤها برأيه أعلى درجات المدنية .

ومن خلال ما يقوله (هوتر) أحد العاملين الميدانيين نستنتج أن غاية دراستهم تتركز حول الدراسة المعمقة لتاريخ الشعوب البدائية لمعرفة عاداتها وحاجاتها ونقاط ضعفها لتتوافر لهم من خلال ذلك قاعدة للارشادات السياسية والسيطرة الادارية[٧] .

وانطلاقا من ذلك اتجهت الدراسات الانثروبولوجية في القرن التاسع عشر نحو دراسة النظم والبنى الاجتماعية من منظور تطوري مستهدفة البحث في جذور الماضي لتبين المراحل التي مر بها النظام الاجتماعي ؛ وقد كان النسق العام لهذه الدراسات يشابه منحى الدراسات في الانثروبولوجيا الطبيعية التي اهتمت بدراسة أصل الانسان ومراحل تطوره ونشوئه ؛ وقد كان الافتراض الاساسي الذي سير تلك البحوث في تلك المرحلة هو أن كل مرحلة تاريخية استتبعت في أشكال تطورها اتجاهات متباينة ترتبط بتراث الماضي من جهة وبالواقع الراهن من جهة اخرى .

وقد كان لفكرة الانتشار الحضاري الاثر الكبير في نقلة الدراسات الانثروبولوجية الى مرحلة تدرس النظام الاجتماعي على أنه نظام انساني يمكن أن ينشأ في غير المكان الذي ولد فيه ؛ فقد تولد بعض الانظمة الاجتماعية والاطر الحضارية في مكان وتنتشر الى مكان اخر حيث تتفاعل مع معطيات المجتمع وتولد بالتالي نسقا جديدا من البنى الاجتماعية والعلاقات التي تتميز عما كانت عليه في مكان ولادتها ، وهكذا كان لابد من التمييز بين مفاهيم ثلاثة في الانثروبولوجيا ترتبط بنشأة النظام وتطوره وانتشاره .

---

(٧) المرجع السابق ، ص (٣٤) .

وقد اتجهت البحوث الانثروبولوجية في القرن العشرين نحسو أبعاد القاعدة الاقتصادية والاجتماعية للاستعمار الجديد ، حيث تجلى هذا الامر بتحديث بعض الجوانب في البنى الاقتصادية والاجتماعية بما يعمل على استيعاب المعطيات الحضارية والتكنولوجية للمجتمع الغربي ، فكان لا بد من تحديث بعض الانظمة القضائية والادارية في كثير من المجتمعات الافريقية ومراجعتها بما يحقق الانسجام والتواؤم بين تلك الانظمة ، والاستطلاعات الاستعمارية للمجتمع الرأسمالي . ولعل أبرز مثال على ذلك اللجنة التي أوجدها حاكم افريقيا الغربية للدراسات التاريخية والعلمية لافريقيا الغربية الفرنسية ، فقد قدمت تلك اللجنة معلومات مفصلة عن أنظمة في القانون والادارة المدنية لمجتمعات أوربية وأفريقية استخدمت في تحديث أنظمة في القضاء في مناطق متعددة في افريقيا . وقد مولت تلك المستلبات الاعمال التجارية والاقتصادية والاجتماعية للشركات الرأسمالية الاحتكارية(٨) .

وقد كان لانتشار المدرسة الوظيفية في نطاق الدراسات الاجتماعية ، الاثر البارز في تحقيق الانسجام بين الشروط الجديدة للمجتمعات المحلية والمتطلبات الاساسية للمجتمعات الغربية ، حين حددت كتابات (مالينوفسكي) الشروط الجديدة للانثروبولوجيا بالمعنى المعاصر للكلمة ، وذلك ما بين (١٩٠٦ ـ ١٩٢٠) اذ لم يعد الانثروبولوجيا لغة مبهمة أو غير أساسية لا علاقة لها بالايديولوجية الاستعمارية ، بل على العكس لقد عدها شكلا مميزا من أشكال الثقافة الغربية ، بخاصة حين تتصدى نظريا للثقافات الاخرى ، وبهذا تكمن المواجهة مع حضارته الخاصة . وقد تضح في مقال له بعنوان (افريقيا ١٩٣٠) المسئولية تجاه الانسانية للتقدم التقاني الذي يحول الانسان الى آلة ، فلم تعد الانثروبولوجيا العارس الاعمى للمدنية ، بل صارت المحياة الاصيلة لاولئك المحافظين المجتمع الصناعي . هذا وقد غدت دراسة أشكال الحياة الانسانية تشكل برأيه « أحد

---

(٨) انظر المرجع السابق ، لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع والجهود التي تمت لنقل المعلومات حول أنظمة القضاء السوداني ، ص (٤١) .

دراسة النظم الاجتماعية كما هي في الوقت الراهن ، دون ضرورة البحث في أصولها التطورية أو انتشارها الحضاري ، فقد اتجهت البحوث نحو تحديد خصائص النظام ووظائفه وأسلوب تفاعله وطريقة تواؤمه مع الانظمة الاجتماعية الاخرى بما يؤدي الى ديمومة النظام الاجتماعي واستمراره ، وقد ترك نجاح المدرسة الوظيفية في مجال دراسات علم الحياة أثره الواضح في بعض الدراسات الاجتماعية وبخاصة الانثروبولوجية .

وقد اتخذت البحوث الانثروبولوجية المعاصرة طابعا جديدا ، بالاضافة الى التوجه السابق لها ، فاهتم بعض الباحثين بدراسة المجتمعات المتمدنة ، كالاحياء السكنية في المدن الكبيرة والمجتمعات المحلية في القرى ، فبذلت جهود كبيرة من قبل علماء الانثروبولوجيا في كثير من الدول النامية لفهم آلية عمل التغيرات الاجتماعية التي تتم في القرى والمزارع والمجتمعات المحلية وأسلوب انتقال المجتمعات من مراحل قطف الثمار والزراعة والصيد الى أسلوب آخر في الحياة ، يرتبط بالسدود والمصانع والمزارع الجماعية وكان لهذا أكبر الاثر في دفع مسيرة الانثروبولوجيا في وجهة تنموية تدرس مسائل التكيف الحضاري والمشكلات التي ترتبط بقضايا التنمية وتحول المجتمعات بشكل عام ، وقد توافق ذلك الاتجاه التنموي المعاصر مع جهود كثير من المنظمات الدولية التي رأت أن تخلف بعض القطاعات في المجتمعات المتخلفة يؤثر بالضرورة في مسار التقدم في المجتمعات النامية والمتقدمة على حد سواء وبخاصة في نطاق الصحة والتعليم ، وما الى ذلك ، فانتشار وباء الكوليرا في منطقة ما من العالم يهدد الوضع الصحي في أجزاء أخرى منه ، لذلك اتجهت المنظمات الدولية لدراسة الاوضاع الصحية في كثير من المجتمعات المتخلفة حفاظا على الاوضاع الصحية في العالم أجمع ، وتحقيقا للتقدم الصحي في المجتمعات المحلية .

وظهرت أيضا دراسات متخصصة بتحديد معالم حضارات المجتمعات المتقدمة ، كالمجتمع الامريكي ، والروسي ، والصيني ، كما انصب اهتمام بعوث أخرى على دراسة عمليات الصراع والامتزاج بين الحضارات المتقدمة التي تتلاقى في حالات

الهجرة أو الحروب كالدراسات التي بينت أوضاع المهاجرين اليابانيين الذين هاجروا الى أمريكا وعاشوا في مجتمعات شبه مغلقة ، واحتفظوا فيها بلغاتهم الأصلية وعاداتهم وتقاليدهم .

وحاليا استطاعت الدراسات الانثروبولوجية في بعض بلدان العالم الثالث أن تخرج من أسوار العلماء الاجانب وموظفي الحكومات الاستعمارية والامبريالية . فالانثروبولوجيا ترتبط بالفلسفة العامة للعلم ، ومن خلال الالتزام بنتائج البحث تحررت من تاريخها القديم المرتبط بالاستعمار وتحولت الى أداة في يد العلماء الوطنيين ، الذين امتلكوا ناصية البحث في هذا العلم ، وأخذوا يسخرون معرفتهم النامية الجديدة في خدمات عمليات التنمية لبلادهم .

سادسا ـ مصادر تكوين الانثروبولوجيا :

أما بالنسبة للمصادر التي أسهمت بطريق مباشر أو غير مباشر في تكوين الانثروبولوجيا ـ ذلك العلم الجديد الذي يدرس الانسان دراسة شمولية وتاريخية فنذكر[١٠] :

آ ـ الجمعيات والمجلات العلمية . لعبت الجمعيات العلمية دورا هاما ، كمنتديات لبلورة الفكر الانثروبولوجي ودفعه نحو التخصص المهني والاستقلالية . ففي هذه الجمعيات كان يجتمع رجال الفكر والسياسة وعلية القوم الذين استطاعوا بأموالهم تمويل كثير من البحوث ، وتبني المشاريع العلمية والدراسات الاكاديمية . وقبل أن تقام جمعيات أنثروبولوجية متخصصة . كان المهتمون بالدراسات الانثروبولوجية أعضاء عاديين في جمعيات ثقافية عامة . كما كان الحال مثلا في الولايات المتحدة بالنسبة للجمعية الامريكية للفلسفة . ويذكر مؤرخو الانثروبولوجيا أن أول جمعية مهنية متخصصة وجهت جهودها الى الدراسات الانثروبولوجية قد أنشئت في باريس عام (١٨٠٠) تحت اسم جمعية

---

(١٠) نقل ما يتعلق بهذه الفقرة من كتاب قصة الانثروبولوجيا (بتصرف) .

« بلاسترالا » ، هي الجمعية التي أنشأها مجموعة من المهتمين بالدراسات الانسانية ، بهدف القيام برحلات خارج أوروبا لاستطلاع عدة من موضوعات أنثروبولوجية ، وغيرها من الأنشطة والمياه الاجتماعية للشعوب الأخرى ، ورغم أن هذه الجمعية لم تستمر طويلا ، لأن تتابع الرحلات لم تكن مثيرة للغاية ، الا أنها كانت لها أهميتها في ايراز امكانات قيام جمعيات أكاديمية متخصصة في الانثروبولوجيا ، خاصة أن الفترة وحدت الانثروبولوجية ، كانت قد بدأت تستحوذ على اهتمام الناس عامة في بلاد أوروبا الغربية ، والولايات المتحدة أيضا .

وصورة أخرى ، نجدها لباريس تضم الى جوار الجمعيات « الجمعية الانثولوجية » عام (١٨٥٩) وتكونت بعد بثلاث سنوات (١٨٦٢) « الجمعية الامريكية الانثروبولوجية » ، التي أقامت بريطانيا في العام التالي جمعيتها الانثولوجية ، التي تحولت عرسا بعد الى « المعهد الملكي الانثروبولوجي لبريطانيا العظمى وايرلندة » ، ويعد هذا المعهد أكبر مدرسة للفكر الانثروبولوجي في بريطانيا[١١] ، ويجدر التنويه الى « رابطة تقدم العلوم » ، التي أنشئت في بريطانيا عام (١٨٤٦) ، وبنظيرتها في أمريكا ، التي تكونت عام (١٨٨٠) ، قد أدتا دورا هاما في عرض القضايا والمسائل الانثروبولوجية ومناقشتها ، كما عرفت الامريكية القائل باستقلال تام على يستقل متخصصون في تلك القضايا ، ولم يقتصر الامر على قيام جمعيات بفرنسا وانجلترا وأمريكا فحسب ، بل نجد أن شبيهة الانثروبولوجيا قد عمت مدنا أخرى مثل موسكو ، ومدريد ، وبرلين ، وفينا ، وتكونت على أثر ذلك جمعيات انثولوجية كثيرة بلغت نحو (٥٠) جمعية في عام (١٨٧٠) ، ولقد ظل بعض تلك الجمعيات قائما حتى وقتنا الحالي (١٩٨٠) ، بينما اختفى بعضها الآخر ، أو عدل من تكوينه أو اسمه ، وجدير بالذكر في هذا المقام أيضا أن الجمعية الانثروبولوجية الامريكية التي أنشئت عام (١٩٠٢) لازال قائمة ، وقد عقدت في عام (١٩٨٤) اجتماعها السنوي الثالث والثمانين بمدينة دينفر بولاية كولورادو .

---

(١١) شاكر سليم ، قاموس الانثروبولوجيا ، ص (٨٧) .

وبصدد الدوريات العلمية ، فقد توالى ظهورها بطريقة مطردة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر في كل من أوروبا وأمريكا . فذكر على سبيل المثال لا الحصر المجلة الألمانية التي حررها (تايلور وس والشوتال) والتي صدرت باسم (معهد) ، وقد اتجهت بمعظمها وجهة سلالية ، ونفسية ، وفي فرنسا أصدر (بول بروكا) ، مجلة الأنثروبولوجيا » عام (١٨٧٢) ، وكانت اهتماماتها الرئيسة تدور بخاصة حول الأنثروبولوجيا الطبيعية (الفيزيقية) ، ومن فرنسا أيضا ، صدرت في نهاية القرن التاسع عشر ، وعلى وجه التحديد عام (١٨٩٨) ، « مجولية علم الاجتماع » التي أصدرها (إميل دوركيم) ، والتي تولى رئاسة تحريرها فيما بعد (مارسيل موسى) ، وكانت هذه المجلة بمثابة منبر ثقافي ، ومنتدى علمي للحوار الخصب بين العلماء الفرنسيين ، وغيرهم من الدول الأخرى حول القضايا الاجتماعية ، والموضوعات الأنثروبولوجية ، ومن الجدير بالذكر ، أن مجلة الأنسان التي أسسها ، ولا يزال ، المعهد الملكي الأنثروبولوجي ، المشار إليه سابقا ، ومن الجدير بالذكر أيضا أن الجرائد الرسمية ، والمجلات الثقافية ، قد لعبت دورا هاما في إحاطة الناس الحاضرين علما بما يجري من حوار علمي ، حول قضايا الإنسان ، أو عن اكتشافات أثرية لاضية أو كيانه الحضوري ، الأمر الذي خلق جوا من الرغبة في المزيد من المعرفة عن تلك الموضوعات ، ولفت النظر إلى أهمية الدراسات الأنثروبولوجية ، وكسب شعبية لها ، ومهد لقبولها كعلم جديد .

ب - الحكومات والجامعات والمتاحف : لعبت الحكومات دورا هاما جدا في التمهيد لبلورة الأنثروبولوجيا كعلم يفيد الاستفادة العلمية من أبحاثه ، كما قامت الجامعات والمتاحف بالدور نفسه في إطار التخصصات الأكاديمية لهذا العلم الجديد ، وفي تعزيز كيانه المستقل ، ولعل ما حدث في أمريكا يوضح أكثر من غيره أهمية دور الهيئات الإدارية والأكاديمية ، فقد نظر الأنثروبولوجيون الأمريكيون ، والأوربيون على حد سواء ، إلى دراسات الهنود الحمر على أنها تمثل نماذج حية لمراحل حضارية سابقة يفترض أن يكون المجتمع الأوربي ذاته قد مر بها ، وبالتالي فهي تقدم لهم حقلا خصبا ، وميدانا عمليا للدراسات الحضارية وما يتصل بها من أنواع أثرية أو سلالية أو ثقافية في إطارها المادي أو المعنوي ،

فالى جانب الجمعية الاثنولوجية الامريكية التي أنشئت عام (١٨٤٣) ، كما سبق أن اشرنا ، تكونت مؤسسة سميسونيان الشهيرة عام (١٨٤٦) بتدعيم من الحكومة ، لتمثل كمركز توثيقي للابحاث العلمية كافة ، ومن بينها الدراسات الانثروبولوجية، وفي عام (١٨٨٣) مولت مؤسسة سميسونيان دراسة عن الثقافة واللغة بين سكان امريكا الاصليين ، حيث استخدم فيها الاستبيان كوسيلة لجمع المادة التي لم تقتصر على ما يتصل باللغة ، وانما تضمنت أيضا بيانات عن الإسكان ، والفن ، والحرب ، والطب ، والادب ، والادوات ، وكل ما يتصل بالجانبين المادي والمعنوي للثقافة . وقد قام (جورج جيبز)، الذي أشرف على الدراسة باجراء دراسات مقارنة، كما أنه اهتم بتتبع النواحي الوراثية بين القبائل المتعددة . وقد مولت المؤسسة أبحاثا اخرى ذات صلة مباشرة بالدراسات اللغوية والثقافية بصفة عامة مثل أبحاث جون باول في دراسته للغات الهنود الحمر عام (١٨٧٧) .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نجد أن الحكومة الامريكية في سعيها نحو التعامل مع قبائل الهنود الحمر والعمل على استقرارها فيما أعد لها من مستوطنات ، قد أنشأت في عام (١٨٧٩) « مكتب الاثنولوجيا الامريكية » بقصد الاستفادة من نتائج الابحاث الانثروبولوجية عن سكان أمريكا الاصليين في رسم السياسات الاستيطانية ، والادارية لمجتمعات الهنود الحمر . ومن الجدير بالذكر أيضا ، أن الانثروبولوجيين الذين عملوا في هذا المكتب لم يتمكنوا من التوفيق بين تطلعاتهم الاكاديمية والرغبات العملية للاداريين في هذا المكتب الذين يتحتم عليهم تزويد أعضاء مجلس الكونجرس بالتقارير السريعة والبيانات المباشرة التي تساعد على رسم سياسة معينة ، وليس لتدعيم نظرية خاصة أو رفضها .

أما عن دور المتاحف فقد كان لها وظيفة هامة بالنسبة للدراسات الاركيولوجية والانثروبولوجيا الطبيعية، وعن دور الجامعات، تكتب (ريجنا دارنيل) «أن البرامج الجامعية كانت بطيئة النشأ ، ولعل أكثر تلك البرامج أهمية كان قد تبلور في جامعة هارفارد باشراف (فريدريك بوتنام) الذي ربط برنامجه باقامة متحف بيبودي للاركيولوجيا والاثنولوجيا بأمريكا . ونجد أيضا أن (فرانز بواز) ، وكان أول من

عين رئيسا لقسم الانثروبولوجيا بجامعة كولومبيا عام (١٨٨٠) ، فقد ربط برنامجه الاكاديمي بالجامعة بمقتنيات متحف التاريخ الطبيعي ، الا ان هذا لم يدم طويلا واستقلت معظم البرامج الاكاديمية الجامعية عن المتاحف .

ومن الجدير بالذكر : انه في عام (١٨٨٧) أصبح (دانيل بريتون) أول استاذ للانثروبولوجيا في جامعة بنسلفانيا رغم أنه لم يكن انثروبولوجيا متخصصا ، وينحصر اسهام (بريتون) في تعزيز الاتجاه نحو انشاء علم متخصص لدراسة الانسان في اطار شمولي ، كما أنه حافظ على شعبية هذا النوع من الدراسات في الدوائر الاكاديمية المتخصصة ، وبين المثقفين عامة . ومن الامور التي كرس لها (بريتون) كتاباته التركيز على دراسة اللغة لفهم المراحل التي مرت بها الانسانية قبل تاريخها المكتوب . وقد رأى أن لغات قبائل الهنود الحمر تمثل الحالة الاولى التي كانت عليها اللغات الاوروبية قبل تطورها . ويقول كذلك : انه يتعين علينا أن ندرس جميع الشعوب والثقافات ، قبل أن نشرع في كتابة التاريخ الحضاري للانسانية .

واذا انتقلنا الى أوروبا نجد انه لم تبدأ قبل العقدين الاخيرين من القرن التاسع عشر بوادر الاستقلالية الاكاديمية للانثروبولوجيا ، وكذلك التخصصية المهنية ، وبخاصة في اطار تدريس الانثروبولوجيا بالجامعات ، ومنح الالقاب العلمية . فمن بين مجموعة كبيرة من المستشرقين الغربيين ينظر (ايفانز بريتشارد) الى (وليم روبرتسن سمث) كأحد الشخصيات البارزة بينهم ، ان لم يكن أكثرهم تخصصا في الاتجاه الانثروبولوجي ، ففي عام (١٨٨٣) تقلد منصب استاذية الدراسات العربية بجامعة كمبردج ، وظل في تدريسه منظورا انثروبولوجيا لدراسة تقاليد الديانات السامية وشعائرها ، الا أن أول كرسي لاستاذية الانثروبولوجيا الاجتماعية يرجع الى عام (١٨٨٤) في جامعة اكسفورد وقد شغله (ادوارد تايلور) .

جـ ـ الرحالة والمبشرون والاداريون : شكلت هذه المجموعة مصدرا هاما للمعلومات الوصفية عن المجتمعات البدائية خلال القرن التاسع عشر ، الامر

الذي استفاد منه المفكرون والباحثون في تكوين نظرياتهم وتعميمها بالاضافة والاداة ، فقد استعانت كتابات الرحالة والمبشرين في تقويم وصف الطقوس والعادات للشعوب والاقطار التي زاروها ، أو عاشوا بينها بعض الوقت ، ولن نغالي تسجيلاتهم من التحيز الثقافي والانطباعات الشخصية ، ومع ذلك ، وكما يذكر (احمد ابو زيد) أنه كان هناك بعض الرحالة ، الذين اتصفت كتاباتهم بالموضوعية والاحكام العلمية ، والبعد عن المغالاة ، مثلما فعل (الفريد بتلر) مثلا عندما وصف سكان الكونغو ، أو ما كتبه القسيس اليسوعي البرتغالي (جيرونيم لوبو) عن الاحباش في كتابه « رحلات بتكرتون » السفير توماس « وتشارلز جوتسون) في أوائل القرن التاسع عشر الى الانجليزية ، ويقول عنه : أنه أفلح بطريقته البسيطة الخالية من التكلف ، في أن يصف الاشياء كما رآها ، وان يصور الطبيعة من والهم الحياة فيها ، كما أنه يتحدث عن حياته الخاصة وليس عن مشاهداته ، بل ان بعض هؤلاء الرحالة والمبشرين كان يتمتع بقدر كبير من الثقافة بين الثقافات الشعوب البدائية ، والثقافات والحضارات القديمة البرية ، وهذا ما لمسناه لدى (لافيتو) في مقارنته بين عقائد وعادات بعض قبائل الهنود الحمر من ناحية وأهالي اسبرطة وكريت من الناحية الاخرى ، أو مثلما فعل الرحالة الفرنسي (هولاكريكلابير) في محاولته (توضيح) أوجه الشبه بين عادات الهنود والقبائل اليونانية والرومانية ، وذلك بغية الوصول الى فهم أفضل الرحلات المقدسة والكتاب الكلاسيكيين .

والى جانب هذه الموضوعية والتوضيحية ، التي عثرنا ، في بعض كتابات الرحالة والمبشرين خلال القرن التاسع عشر ، يلفت (جان بوليه) نظرنا الى أن بعض ما كتبه الرحالة والمبشرون قد تم في إطار اتباعهم ارشادات منهجية معينة حددوا بمقتضاها المادة وطريقة جمعها ، ويذكر أن عالم الطبيعة (فيليب لندرو) ، مؤسس الجمعية الاثنولوجية ، المشار اليها سابقا أعد واحدا من أقسم الاستبيانات الاثنولوجية وصاغه كمرشد لجمع البيانات ، وكذلك حول اسم (مرشد جام الرحالة) ، ويذكر (بوارييه) عدة أسماء واعمال لرحالة يصفهم بأنهم « ملاحظون جيدون ورجال بحث

صابرون » وأنهم قدموا « دراسات اثنوجرافية تستحق الاعجاب في المنهج والعرض » . ويذكر (بورابيه) أيضا أن من بين هؤلاء،الالماني(**كلابورت**) الذي نشر عام (١٨١٢) وصفه عن « العلاقات بين السلالات القوقازية والجورجية نسبة الى جورجيا بالاتحاد السوفييتي » ، وكذلك الرحالة السويسري (لويس بوركهارت) الذي كتب عن رحلاته في سورية وفزان والوطن العربي ، والتي استغرقت نحو عشر سنوات من عام (١٨١٩) .

وفي هذا الصدد أيضا ، يذكر (بوارييه) نقطة أخرى جديرة بالاهتمام وهي أن « الاثنولوجيا في القرن التاسع عشر قد تقدمت عن طريق الارتباط الوثيق بين ما يقدمه الرحالة من معلومات ، وما يصل اليه المفكرون أو الفلاسفة من نظريات . وكما كانت ملاحظات الرحالة تعد مصدرا قيما للمعرفة كانت المعلومات الواردة من المبشرين والحكام الاداريين بالمستعمرات لها أهميتها الكبيرة أيضا . وفي اطار ذلك الارتباط المشار اليه آنفا بين « المادة الحقلية » و « النظريات » ــ اذا صح التعبير ــ يذكر (**ايفانز ــ بريتشارد**)ن النظريات الانثروبولوجية قد أثرت تأثيرا واضحا في كتابات الرحالة والمبشرين والاداريين على حد سواء ، وان اختلف نوع التأثير باختلاف الكاتب . ويقول أيضا : انه « لم يكن هؤلاء الكتاب من المبشرين والحكام ، يكتفون بمتابعة المشكلات النظرية التي كان يثيرها العلماء بالاطلاع عليها ، وانما كانوا يتصلون في كثير من الاحيان اتصالات مباشرة بأصحاب هذه النظريات أنفسهم . ولقد أصبح من المألوف أن يرسل العلماء من أوطانهم قوائم تحوي أسئلة عن المعلومات ليجيبوا عنها . ولعل اكثر هذه القوائم شمولا وشهرة هي « مذكرات واستفسارات عن الانثروبولوجيا » والتي نشرت عام (١٨٧٤) والتي بدأ المعهد الملكي الانثروبولوجي في عام (١٩٤٩) اصدارها في طبعات جديدة .

هذا ولم يقتصر الامر على هذا التلاحم بين المادة الحقلية وتكوين النظريات الاثنولوجية ، وانما نشأ أيضا اتجاه قوي ، وممارسة فعلية ، لاستخدام المعرفة الانثروبولوجية لخدمة غايات الادارة الاستعمارية . وهذا الارتباط بين البحث الاجتماعي عامة ، والاهداف العملية للسلطة الاستعمارية ، قد عبر عنه بوضوح

« هتف كبير من علماء الاجتماع والانثروبولوجيا خلال القرن التاسع عشر ، الى حد أنه تظلم في باريس مؤتمر دولي عام (١٩٠٠) لتناول موضوع « علم الاجتماع الاستعماري » وكان من بين أهدافه « دراسة المسائل الاخلاقية والمجتمعية المرتبطة بحركة الاستعمار » . وبشأن هذا المؤتمر ، يكتب (محمد وقيدي) في كتابه القيم « العلوم الانسانية والايدلوجيا » « ان الحركة الاستعمارية كانت عندئذ في حاجة الى البحث عما يدعم هيمنتها ، والى معرفة الخطوط العامة للسياسة التي يمكن أن تحافظ على هذه الهيمنة . ويمكننا أن نقول بهذا الصدد ان العلاقة كانت جدلية بين المعرفة الاجتماعية كنظرية ، والسياسة الاستعمارية كواقع مجتمعي تاريخي ، فالسياسة هنا تمد المعرفة بموضوعها وبالاتجاه الذي ينبغي أن تسير فيه ، والمعرفة تمد السياسة بالمعطيات التي تساعدها على تنفيذ مشروعها وعلى تبرير مشروعيتها كما تمدها بصيغة للتعبير عن أهدافها . لقد بدأت الهيمنة الاستعمارية تدرك أن حكم « الاهالي » لا يستقيم الا بمعرفة متعمقة للذاتهم ، وعاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم وتهتم العلوم الاجتماعية الاستعمارية بهذه المعرفة الضرورية للحفاظ على هيمنتها ولضمان استمرار هذه الهيمنة » .

هذه الظروف أو الاجواء المشار اليها آنفا ساعدت جميعها على بلورة الانثروبولوجيا الى حد دفع بعض المفكرين والمهتمين الى ترك تخصصاتهم الرئيسة ، وطرق أبواب هذا الفرع الجديد من المعرفة . فمنذ بداية ستينات القرن التاسع عشر ، ولمدة ثلاثة عقود تقريبا ، ظهرت تباعا عدة من مؤلفات اثنولوجية لمفكرين من فرنسا وانجلترا وألمانيا وامريكا . نذكر مثلا انه في عام (١٨٦١) أصدر (هنري مين) كتابه عن « القانون القديم » ، ثم في (١٨٦٤) ظهر كتاب الفرنسي (فوستيل دو كولين) (١٨٣٠ — ١٨٦٩) بعنوان « المدينة القديمة » وبعد سبع سنوات ، أي في عام (١٨٧١) ظهرت كتاب (ادوارد تايلور) الشهير بعنوان « الثقافة البدائية » وتلا ذلك صدور كتاب (لويس مورجان) عن « المجتمع القديم » في عام (١٨٧٧) ومرة أخرى ، وبعد سبع سنوات أيضا أي في عام (١٨٨٤) ، ظهر كتاب (فريدريك انجلز (١٨٢٠ — ١٨٩٥) عن « أصل الاسرة الملكية الخاصة

والدولة » . اما الجزء الاول من كتاب جيمس فريزر (١٨٥٤ ــ ١٩٠١) الشهير « الغصن الذهبي » : دراسة في السحر والدين فقد ظهر في عام (١٨٩٠) .

هذه المؤلفات وغيرها لا تشير الى مجرد توافق زمني وانما تعكس اهتماما مركزا حول اتجاه فكري معين . ساد إبان هذه الفترة ودفع بالانثروبولوجيا دفعة جديدة من حيث تركيزها على مجال الدراسات الاثنولوجية ، التي تهتم بالدراسة الوصفية والتحليلية المقارنة للثقافات الانسانية . ورغم أن داروين كان قد قدم نظريته في اطار مبادىء علم الطبيعة والاحياء والتشريح ، الا أن غالبية المفكرين الاجتماعيين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر . قد تراءى لهم امكان تطبيق فكر داروين عن التطور القائم بين المجتمعات الانسانية على أساس التقدم والتحضر عند الغربيين . ونشير في هذا الصدد بخاصة الى كتابات الفيلسوف الانجليزي هربرت سبنسر (١٨٢٠ ــ ١٩٠٣) . ومن الطريف أن نذكر أن الفيلسوف الانجليزي كان مهندسا الا أنه كان أيضا عالم نفس واجتماع ، كما كان أول دعاة نظرية التطور .

يرى (سبنسر) أن المجتمعات تتطور من مجتمعات قائمة على الحرب الى مجتمعات قائمة على الصناعة ، وأن الظواهر الاجتماعية تتطور من البساطة الى التعقيد . ومن التجانس الى التنافر . الامر الذي يسبب التغير أو التقدم . وقد حاول تطبيق قانون الاختيار الطبيعي على المجتمعات البشرية .

غير أن هذه النظرة لقيت الكثير من النقد على أساس أن الحقائق أو الوقائع الاجتماعية لا يجب تفسيرها وتحليلها الا في اطار المناهج والقوانين الاجتماعية لا البيولوجية ، وهو امر دعا اليه بوضوح وجلاء العالم الفرنسي (**ادوارد تايلور**) في كتابه « قواعد المنهج في علم الاجتماع » الذي نشره عام (١٨٨١) . وهكذا اهتم أصحاب النظرية التطورية بدراسة الثقافة الانسانية من خلال البحث عن الاصول التاريخية للسمات الثقافية ، حيث اعتقد هؤلاء العلماء أن الثقافة هي نتيجة تراكم النشاط الانساني عبر الزمن ، وأن التقدم هو الغاية الاساسية من التطور الانساني . وقد جاء هذا رفضا للنظرية القائلة باحتمال ارتداد الانسان أو الشعوب أو انتكاسها من حالة متقدمة الى وضع أدنى . ويرى التطوريون أن المجتمعات الانسانية كلها

تتغير وفقا لقانون ثابت للتطور يقوم على التقدم من مرحلة دنيا الى أخرى أرقى منها ، حتى تصل في النهاية الى قمة الحضارة الانسانية كما كانت ممثلة حينذاك في المجتمع الاوربي • ويمثل التقدم في نظرهم ثمرة التكامل في الادوات المادية وثمرة التعقيد في العلاقات خلال مراحل تطورية ومركبة ، وأصبح معيار التقدم عندهم يتمثل جليا في التطور العلمي والتكنولوجي والاقتصادي •

علاوة على فكرة التقدم ، تقوم **نظرية التطور الثقافي** على أساس أنه لا يمكن فهم العقل الانساني ، الا بربطه بالتاريخ الذي يمكن من خلاله فقط فهم الحياة الانسانية ، والوصول الى القوانين التي تحكم مسارها • فتاريخ البشر واحد على أساس وحدة الفكر الانساني ، أما التمايز بين الثقافات فهو وليد ظروف تاريخية معينة • فالمجتمعات قد عدت على الدوام بمثابة وجود متواصل متجانس مؤلف من طبقات تطورية وأقسام موازية ، يسير فيها التطور حتما في خط مستقيم ، ولابد من جميع المجتمعات أن تمر بها • يقوم اذن جوهر نظرية التطور على الافتراض بأن تاريخ الجنس البشري قد عرف شكلا موحدا في نشأته ، في وتجربته ، وفي تقدمه ، وأن اختلاف درجات هذا الشكل ، هو في حقيقة الامر درجات للتطور ذاته ، بحيث تكون كل درجة وليدة سابقتها ومساهمة في تشكيل تاريخ ما بعدها ، أي المستقبل ان هذه التجربة الإنسانية الواحدة ، تقوم على افتراض وجود وحدة سيكولوجية يشترك فيها جميعا على اختلاف ثقافتهم •

وفي هذا الاطار نشر (**لويس مورجان**) كتابه « بحوث في التاريخ المبكر للجنس البشري » عام (١٨٦٥)، وعرض فيه نظريته عن التطور الثقافي للمجتمعات الانسانية التي تستند الى فكرة التقدم الاطرادي للشعوب والثقافات ، وانتقالها من حالة الهمجية أو البدائية « التي رآها متمثلة في المجتمعات غير الغربية حينذاك » الى حالة التحضر والمدنية المماثلة لأوضاع الثقافة والمجتمع الاوروبي في عصره • وقد استخدم (تايلور) مفهوم « الرواسب » المستمدة من الدراسات العضوية والاثرية، ليكشف بها عن الرواسب الثقافية عند الشعوب ، الامر الذي يساعده على وضعها في مرحلة معينة من مراحل التقدم • وتقوم فكرة الرواسب على أساس أن بعض

سمات المجتمعات المعاصرة ، تمثل متخلفات ، أو رواسب للاشكال الاولية ، والمتتابعة التي مرت بها هذه المجتمعات وتتضمن هذه الرواسب مثلا — في نظرية (تايلور) — بعض الالعاب والمأثورات والتعبيرات اللغوية ، فهو يرى أن لعبة الرمي بالقوس والسهم تستخدم كأداة رئيسة للحصول على الطعام وليس للهواية أو الرياضية وعلى الرغم من أن مفهوم الرواسب لاقى الكثير من النقد من ناحية استخدامه كاساس لوضع تفصيل دقيق لمسار تقدم المجتمعات الانسانية وتطورها . الا أن فكرة التطور والتقدم الانساني لاقت قبولا عاما في أوربا .

ونود الاشارة هنا — بجانب (تايلور) و (فريزر) في أوروبا — الى الامريكي **(لويس مورجان)** الذي قدم لنا نظرية لتطور الثقافات الانسانية من حيث انتقالها من حالة الوحشية (التي قسمها الى مرحلة دنيا وأخرى متوسطة وثالثة عليا) الى حالة أرقى نسبيا أطلق عليها لفظ « البربرية » ، والتي رأى أنها تطورت أيضا خلال ثلاث مراحل مشابهة للشكل الاول للحياة الانسانية أي (الوحشية) . أما عن المرحلة الثالثة والاخيرة فهي مرحلة الحضارة . وقد أدخل (مورجان) بعض المقاييس والمعايير المادية ، التي استطاع على أساسها أن يضع هذا التقسيم أو التصنيف . وبهذا ، يعد كل من **(تايلور ومورجان)** من الرواد الاوائل في بلورة النظرية التطورية ونرى أنه اذا كان الفضل يرجع الى (تايلور) في وضع أصول دراسة علم الثقافة عامة ، فان (مورجان) قد بدأ دراسات القرابة التي أصبحت منذ ذلك الوقت ، وحتى الآن من أهم الموضوعات الانثروبولوجية . ومن الجدير بالذكر أيضا أنه على الرغم من تركيز (تايلور) على دراسة « الثقافة البدائية » ، الا أن فهمه للانثروبولوجيا قد تضمن الدعوة الى دراسة كل أنواع الثقافات ، بدائية كانت أم متحضرة ، وسواء أشرنا هنا الى (تايلور) و (مورجان) ، أو غيرهما من رواد النظرية التطورية ، فمن الهام أن نوضح أن الانثروبولوجيا في مرحلة نشأتها قد قامت على فكر علماء ذوي تخصصات متباينة وأبحاثهم ، الامر الذي أعطى الانثروبولوجيا مزيجا هاما من المنطلقات الفكرية المفيدة في إطار الدراسة الشمولية للانسان . ولهذا جاءت كتاباتهم موسوعية ، غزيرة المادة ، وأضحت أعمالهم جزءا من التراث الكلاسيكي للفكر الانساني .

:

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المبحث الثالث

الاتجاهات النظرية لتطور علم دراسة الانسان في القرن العشرين[1]

لقد دفع الاتجاه العلمي الذي نشط في القرن التاسع عشر وتبلور بصورة جذرية وسريعة في عدة من المجالات ، العقل الانساني الى نبذ الفكر الفلسفي الميتافيزيقي الذي تحفظ في الغالب على قدرة العقل الانساني في التوصل الى الحقيقة المطلقة . وكنتيجة لذلك شهدت بدايات القرن العشرين قصور الميتافيزيقا عن حل المشكلات الانسانية الجديدة ازاء ما كان قد قدمه العلم في القرن السابق ، وما أحرزه أيضا من تقدم في العقدين الاولين من القرن العشرين ، وما نتج عن ذلك من قيم جديدة يشع منها التفاؤل بمستقبل الانسانية ، والدعوة الى النظر الى العقل والمنطق المحسوس كأداة للمعرفة . الا أنه سرعان ما عصفت أحداث الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨ م) بهذا التفاؤل ، وبدأ الفلاسفة ينظرون الى مشكلات انسان القرن العشرين في اطار من التشاؤم الى حد أن اعتقد بعضهم أن العالم مقبل ولا شك على عصر حالك بخاصة على أثر ظهور الفاشية في ايطاليا والنازية في المانيا خلال سنوات ما بعد الحرب ، وأن ذلك يقضي على الآمال التي كانت معقودة على تحرير الانسان ، وإحراز تقدم حضاري كبير من خلال الاستخدامات البناءة للاكتشافات العلمية التي كانت قد برزت في ميادين الفيزياء (علوم الطبيعة) وبخاصة الطب . ولم يجد هؤلاء الفلاسفة التشاؤميون مخرجا من أزمة الحياة الانسانية في ذلك « العالم السيء » الا أن يعود الانسان الى احياء قيمة الدينية

---

(١) تكرر الملاحظة التي اشرنا اليها في (الصفحة ٧) .

والتمسك بهـا ، كما دعا الى ذلـك مثلا كل مـن (كارل بارث) السويسـري و (راينهو لدنيبوز) الالماني لقد بلغ هذا الاتجاه ذروته في اطار ما عرف بالحركـة الوجوديـة والتي شاعت بخاصة في فرنسـا نحو عـام (١٩٣٨) عـلى يـد (جان بول سارتر) (١٩٠٥ ــ ١٩٨٠) • الا أنه الى جانب الوجودية ظهر اتجاه آخر اتصف بالتفاؤل الى حد كبير، وكان الفيلسوف الامريكي (جون ديوي) (١٨٥٩ ــ ١٩٥٢) أبرز أعلامه • فقد تبنى ديوي في كتابه الشهير « اعادة البناء في الفلسفة » اتجاها مناهضا للفلسفة الميتافيزقية ، دعا فيـه الى ضرورة الاهتمام بالبحث عـن القوى المعنوية ، التي تحرك مناشط الانسان الذي اعتقد ديوي أن لديه الكثير من الامكانات والقدرات التي تستطيع أن تخرجه من أزمته الراهنة ، وتساعده على حل مشكلاته المعقدة المتزايدة يوما بعد يوم ، دون الحاجة الى اللجوء الى قوى خـارج الطبيعـة •

الى جانب تلك التيارات الفلسفية هناك أيضا الدين الذي كان له ، ولا يزال ولو بدرجات متفاوتة ، تأثيره في تشـكيل « ثقافة القرن العشرين » ــ اذ صـح هذا التعبير ــ والتي أثرت بدورها في الفكر الانثروبولوجي كما سنوضح ذلـك بالتفصيل فيما بعد • لقد استمر تأثير الدين في النظم الاجتماعية قويا كما كـان في القرن التاسع عشر بخاصة خـلال العقود الاولى للقرن العشـرين • الا أن تعاليم الكنيسة وشوكتها ، سرعان ما نالهما الكثير من النقد والتحدي من قبل الحركات المناهضة التي شجعها أيضـا ما قام مـن خلافات بـين الكنيستين البروتستانتية والكاثوليكية ، وعدم مواكبتهما لروح العصر واتجاهاتـه • لقـد كان للتيارات التحررية والانجازات العلمية والتكنولوجية الهائلة تأثير كبير في الانسـان الذي بدأ يشعر بأهميتها في حياته أكثر مما استطاعت أن تقدمه له الكنيسة من أفكـار أو حلول • الامر الذي جعل البابا جون الثالث والعشرين يدعو القساوسة في نهاية الخمسينات الى تقبل فكرة الحوار ، ودعم حرية المناقشة في أمور الدنيا والدين ، وأن يسترشدوا كذلك وطرائق جديدة ، تجاه بث روح الايمان ، والالتزام بتعـاليم الكنيسة ، غير وسائل القمع والتهديد التقليدية •

وقد شهدت بخاصة الكنيسة الكاثوليكية تحديا من قبل الشباب والنساء خاصة ، بسبب المواقف المتصلبة والرجعية ازاء بعض المشكلات الانسانية ، مثل مشكلة تحديد النسل والحاجة اليها في مواجهة الانفجار السكاني العالمي ، وتأكيد مسائل الحرية الشخصية والارادة الفردية ، نشير ايضا الى موضوع زواج القساوسة الذي ترتب عليه أن ترك نحو (٤٤) قسا فرنسيا في عام (١٩٧٠) عملهم احتجاجا على قيود الكنيسة الخاصة بزواجهم ، وتبعهم في ذلك آخرون بهولندا ، هذا علاوة على أن ثورات الشباب ، التي عمت أجزاء كثيرة من العالم بخاصة خلال عقد الستينات ، قد وجهت النقد اللاذع لتأييد الكنيسة لنظم الحكم الجائرة من دول العالم الثالث مثل أمريكا اللاتينية ، والسكوت على التدخل الامريكي في فيتنام ورغم موقف الكنيسة الصلب لرفض التغير في كثير من الحالات والتشبث بمواقفها التقليدية ، الا انها لم تنجح في صد رياح التغير العاصفة بخاصة خلال النصف الثاني من القرن العشرين الذي ازدهرت فيه الحركات التحررية ، واكتسبت شعبية كبيرة على النطاق العالمي ، حتى بداخل الدول الغربية ذاتها ، هذا الى جانب أن التقدم العلمي والتكنولوجي الهائل والسريع ، شكل تحديا صارما لتعاليم الكنيسة ودورها في توجيه الفكر الانساني ، الامر الذي فرض عليها تحركات جديدة لمواكبة تغيرات العصر .

يجدر بنا بصدد هذا التقدم العلمي والتكنولوجي المشار اليه آنفا ، أن ننوه هنا الى أن « العلم » قد شكل دعامة رئيسة من ثقافة القرن العشرين كما أن له — كما سنوضح فيما بعد — صلة وثيقة بالفكر الاجتماعي والقضايا الانسانية التي أثرت بدورها في تشكيل الدراسات الانثروبولوجية ، من حيث تحديد موضوعاتها ومناهجها وأهدافها ، لقد أصبح انسان القرن العشرين ينظر الى « العلم » على أنه منقذ البشرية ولو أن هذا قد أدار ظهره كلية الى الدين ، ولم يسلم العلم على الرغم من الايمان به ، والانبهار بامكاناته من النقد والخوف من نتائجه على الجنس البشري من ناحية تلوث الهواء والماء والبيئة بصفة عامة ، وانه لمن المحزن أيضا أن نرى مثلا أن الطفرة التقدمية الهائلة التي أحرزها في مجال علوم الفيزياء (البرت آينشتاين) (١٨٧٩ — ١٩٥٥) ، وغيره من العلماء في الثلاثينات ، والتي

انتهت بامكان توليد الطاقة عن طريق تحطيم المادة الى ذرات متناهية الصغر ، قد نتج عنها اعداد تماثل ذرية دمرت مدينتين يابانيتين في عام (١٩٤٥) ، قتلت الآلاف من البشر ، ولم يقتصر الامر عند هذا الحد ، فقد توالت الاكتشافات العلمية والتكنولوجية بعد ذلك لتستخدم في اعداد اسلحة أكثر فتكا وتدميرا مثل القنبلة الهيدروجينية والنيتروجينية الى حد مد التنافس والصراع الى غزو الفضاء في السبعينات ، والاعداد الآن الى ما يشار اليه بحرب الكواكب .

والى جانب المجال الفيزيائي ، هناك التقدم العلمي الكبير في مجال العلوم البيولوجية ، بخاصة في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، ان اكتشافات الفيروس ، والمضادات الحيوية ، والانسولين ، والامصال الواقية على سبيل المثال قد نتج عنها ثورة هائلة في مجالي الصحة والعلاج من الامراض ، ويقال إنه في عام (١٩٧٠) كانت شعوب العالم بصفة عامة ، ولو بدرجات متفاوتة ، تتمتع بصحة أفضل من أي وقت مضى في التاريخ ، الا انه كان هناك ، ولايزال ، عدد من الشعوب التي ابتليت بالحروب والأزمات الغذائية الطاحنة ، وبالفقر المدقع ، والصراعات الاجتماعية الداخلية ، الامر الذي جعل أفرادها يعانون من المرض ويفتقدون أبسط رعاية صحية أو حتى مقومات الحياة الانسانية الاساسية .

ففي اطار هذه الملامح الاساسية لثقافة القرن العشرين من ناحية الفلسفة والدين والعلم ، نجد أن الفن والموسيقى والادب قد تأثرت بتلك الثقافة كما أثرت فيها أيضا ، ففي هذا العصر ، الذي سادت فيه الثورة على القديم والرغبة في التحرر من التقليد ، والدعوة الى آفاق جديدة ، وأفكار متطورة تخلص الانسانية من شرور التسلط السياسي والاضطهاد الاجتماعي ، وسباق التسلح المدمر ، نجد أن الموسيقيين قد خرجوا أيضا في ألحانهم عن المألوف ، كما عبر الفنانون في أطار الواقعية ، او التجريد عن مخاوفهم وآمالهم ، وفي مجال الادب عامة تأثر بعضهم بالاتجاه الفلسفي التشاؤمي ، وعبروا في قصصهم ومسرحياتهم عن خيبة الامل في انقاذ البشرية في اطار الحروب العالمية المتتالية والصراعات السياسية المستمرة ،

والآثار المدمرة للاكتشافات العلمية بدلا من توجيهها أساسا للاستخدامات الانسانية . إن الانسان يظهر في القصص الغربية وحيدا تائها وحائرا ، ازاء ما يحدث حوله في هذا « العالم المجنون » التي تجري فيه الامور بطريقة لامنطقية أو عقلانية أو حتى انسانية ، والانسان الاوربي ـ الذي كان يمثل في القرن التاسع عشر ـ ذروة التقدم الحضاري أصبح في القرن العشرين كائنا بائسا يستلهم الحزن ويبحث عنه من أي مصدر كان . ففي أعقاب الحرب العالمية الاولى ، اتجهت الاعمال الادبية بصفة عامة نحو التعبير عن حالة التوتر التي يعيشها عالم القرن العشرين في عقوده الاولى ، وعن حالة القنوط والاستخفاف بقيمة الحياة ذاتها التي تسود بين الافراد كما صورهما مثلا ارنست هيمنجواي) (١٨٩٩ ـ ١٩٦١) في قصته « وداعا للسلاح » وأيضا في أشعار ـ اليوت (١٨٨٨ ـ ١٩٦٥) بعنوان « الارض الخراب » .

نجد بعد ذلك أن الكساد الاقتصادي الذي عم الغرب في الثلاثينات ، الى جانب قيام النظم الفاشية في ايطاليا ، والنازية في ألمانيا ، وما اعقب ذلك من حرب عالمية ثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) قد جعل الكتاب يتجهون الى الدعوة الى الخلاص من تلك الشرور باقامة مجتمعات عادلة ، والاعتقاد بأن الكفاح ضد الظلم والاستبداد هو أهم أساسيات الحياة ، وهو الذي يعطي الفرد حريته وكيانه وللانسانية كرامتها ، وقد برز مثلا هذا الاتجاه واضحا في أحداث قصص الروائي الفرنسي (اندريه مارلو) (١٩٠١ ـ ١٩٧٦) وكذلك في قصة همنجواي الشهيرة « لمن تقرع الاجراس » التي صدرت عام (١٩٤٠) . وظل هذا الاتجاه ، أيضا لفترة طويلة ، حتى فيما بعد الخمسينات والستينات بسبب استمرارية روح العصر المتمثلة في التغير السريع ، ومناهضة القديم الجامد ، والرسمية المقاومة للخلق والابتكار ، والدعوة الى الحرية الشخصية ، ونهضة المغلوبين من الافراد أو الشعوب . ففي مجال الدعوة الى حرية الفرد في حياته الخاصة ، ومناهضة النظم الاستبدادية تبرز

لنا قصة دكتور (زيفاجو) الشهيرة التي صدرت في عام (١٩٥٣) للكاتب الروسي (بوريس باستيرناك) مثال جيد لهذا الاتجاه . كذلك نجد في قصص الكاتبين الامريكيين الاسودين (جيمس بالدوين ولودين هانزبرج) مثالا للعودة الى تحرير السود في اطار المجتمع الامريكي الذي يغلب عليه العنصر الابيض .

ونتساءل الآن كيف اثرت هذه الاتجاهات جميعها في مسار الانثروبولوجيا ابان القرن العشرين ؟ وللاجابة عن هذا السؤال ، ربما يكون من الملائم أن نقسم هذا القسم الى فرعين رئيسيين ، على أساس أن احداث الحرب العالمية الثانية وما نتج عنها ، يشكل في حقيقة الامر فاصلا هاما ومميزا ، رغم أن كثيرا من الاتجاهات الانثروبولوجية قد تتداخل فيما بين تلك المراحل الزمنية . ولغرض التبسيط في العرض ، وابراز محتوى الاتجاهات الانثروبولوجية واهدافها مع ربط كل منها — كلما تيسر ذلك — بالجو الفكري والثقافي العام ، وما يجري أيضا من تحول في مجال العلوم الاجتماعية الاخرى ، وبخاصة علمي النفس والاجتماع ، يتناول الجزء التالي اهم الاتجاهات الانثروبولوجية التي تبلورت وسادت خلال الفترة من بداية القرن العشرين حتى منتصف الاربعينات ، أي حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .

لقد أشرنا سابقا الى ، أن الوصول الى الاسباب التي يقوم على أساسها التباين بين الثقافات والاختلاف في المستويات الحضارية ، قد مثل قضية فكرية أساسية عبر العصور ، كما كانت مجال كثير من الجدل والمناقشات التي تبلورت في نهاية الامر فيما قدمه مفكرو القرن الماضي من نظريات أو تفسيرات تقوم على أساس فكرة التقدم الانساني ، وتطور الثقافات وفقا لمراحل محددة . فالثقافات تتباين وتختلف لانها تشكل أوضاعا مختلفة في مراحل التقدم الانساني . وقد سادت هذه الافكار التطورية ابان النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، كما استمرت خلال العقدين الاولين من القرن العشرين ، الا أنها تلقت الكثير من النقد على أساس أنها استندت الى الحدس والتخمين والاعتماد على مادة يشوبها التحيز

وعدم الدقة ، الى جانب الالتجاء الى التعميم المطلق لكل الثقافات في الزمان والمكان دون تقديم الدلائل والقرائن التي تثبت صحة فروض النظرية التطورية ومقولاتها . وكنتيجة لهذا النقد قلت أهمية النظرية التطورية تدريجيا وحل محلها محاولات جديدة للنظر الى الثقافات الانسانية وتفسير التباين بينها . ففي خلال العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين تبلورت ثلاثة اتجاهات رئيسة تفاعلت مع بعضها بعضا كما ارتبطت أيضا بمقتضيات العصر وما تتناوله العلوم الاجتماعية بصفة عامة من قضايا نظرية وعملية تتعلق بالفرد والمجتمع وأحوال العالم .

هذه الاتجاهات الثلاثة هي : (١) الاتجاه التاريخي ـ التجزيئي (٢) الاتجاه البنائي الوظيفي و (٣) الاتجاه التاريخي ـ النفسي وربما يجدر التنويه بأن استخدامنا هنا لكلمة اتجاه يشير الى منطلق عام ، أو توجه فكري مميز ، وعادة ما يندرج تحته أكثر من نظرية ، أو منهج في معالجة المشكلة نفسها . ان استخدامنا أيضا لكلمة مدرسة يعني الاشارة الى مجموعة من الافراد والاعمال التي تتبنى فكرا نظريا مشتركا ، أو أولئك الذين يستخدمون منهجا محددا في جمع المادة وتحليلها . لهذا فمن المألوف أن يحتوي اتجاه معين على عدة من المدارس ، وقد يحدث أيضا أن تتباين وجهات النظر بين أصحاب المدرسة الواحدة الانثروبولوجية ، وكثيرا ما تستخدم كلمة النظرية في لغتنا اليومية للاشارة الى فرض واعتقاد لم يثبت صدقهما ، أو لم يقدم بعد الدليل أو البرهان على صحتهما . ينطبق هذا على استعمال كلمة نظرية في المجال العلمي أيضا ، اذ أن النظرية العلمية تتضمن عنصرين أساسيين وهما : « السؤال » الذي تطرحه و « الاجابة » التي تقدمها ، ولكي تثبت صحة هذه الاجابة لا بد من وجود البرهان أو الدليل على صحتها ، وهذه الادلة والبراهين لا تستقيم دون حقائق ملموسة ، وأساس منطقي أو فروض تخضع للمشاهدة والتجربة . فالنظرية اذن هي « اطار فكري يفسر فرضا معينا أو مجموعة من الفروض ويضعها في نسق علمي مترابط » .

ولا تنشأ النظرية من فراغ ـ بالطبع ـ ذلك أن النظريات العلمية والانسانية ترتبط بالضرورة بالزمان والمكان ونوعية الحياة ومتطلباتها . ونظرا لان هدف

النظريات هو تكوين اجابات أو تفسيرات لاسئلة معينة ، فقد تتفق أو تتعارض النظريات بعضها مع بعض أو تتعارض ولكنها تقوم في النهاية بتكوين وحدة فكرية متصلة ومترابطة ، كما تمثل نموا مضطردا للفكر الانساني وللتقدم العلمي . ويلاحظ أيضا أن كل نظرية تكون مجموعة معينة من المفاهيم التي تستخدمها في طرح السؤال وتقديم الاجابة عنه . وفي هذا الصدد تختلف النظريات من حيث اطار المفاهيم المستخدمة . والمفهوم ما هو الا كلمة أو عبارة عادية تشبه في كثير من الاحيان ما نستخدمه في أحاديثنا اليومية ، الا أن العلماء يعطونها عادة معنى مجردا أو تفسيرا موحدا الى حد ما ، الامر الذي يجعلها بمثابة لغة مصطلح عليها بين العلماء . ويلجأ العلماء أيضا الى التجريد والتعميم عند تكوين مفاهيمهم ، وذلك بغرض استخدام هذه المفاهيم كأدوات تحليلية لوصف المادة موضع البحث ودراستها .

نقدم فيما يلي نبذة موجزة ومبسطة للغاية عن كل اتجاه من الاتجاهات المشار اليها سابقا . ونود احاطة القارىء علما بأنه من اليسير الحصول على معلومات اضافية وتفصيلية عن كل اتجاه ، بمراجعة الكتب والمراجع في مجال الدراسات الانثروبولوجية والمشار الى بعضها في قائمة المراجع . ان هدفنا في هذا العرض هو أن نطلع القارىء على طبيعة تلك الاتجاهات ومكانتها في تطور الفكر الانثروبولوجي في اطار السياق الفكري العام للمجتمع ، وطبيعة اهتمامات العصر .

اولا ـ الاتجاه التاريخي ـ التجزيئي :

لقد سبق أن ذكرنا في المبحث السابق أن النصف الثاني من القرن التاسع عشر شهد سيطرة كبيرة للفكر التطوري ، في إطار الدراسة النظرية للتاريخ الحضاري للانسانية ، ومع ذلك فقد برز الاتجاه الانتشاري كمحاولة أخرى مناهضة للتطور ، لتفسير عمليات التغير الحضاري لتاريخ الانسان . سواء أكان الفكر تطوريا أم انتشاريا ، فقد استمر الاهتمام باستخدام التاريخ لتفسير ظاهرة التباين الثقافي (الحضاري) للمجتمعات الانسانية ، وافترض المناهضون للتطور أن الاتصال بين الشعوب المختلفة قد نتج عنه احتكاك ثقافي ، وعملية انتشار لبعض

السمات الحضارية أو كلها ، الأمر الذي يمكن أن يفسر في ضوئه التباين الحضاري للشعوب وليس في إطار عملية تطورية . وتجدر الإشارة هنا الى أن هذا الاتجاه قد تبنى منهجا تاريخيا ـ جغرافيا بتأثير كبير من المدرسة الجغرافية الالمانية ، ورائدها (فردريك راتزل) ، الذي ركز على أهمية الاتصالات والعلاقات الحضارية بين الشعوب ودورها في النمو الحضاري . وقد تبنى تلاميذه هذا الاتجاه وبخاصة (هوبنريخ شورتز) الذي أبرز فكرة وجود علاقات حضارية بين العالم القديم (اندونسيا وماليزيا) والعالم الجديد (امريكا) وكذلك (ليوفروبينيوس) صاحب نظرية الانتشار الحضاري بين اندونسيا وأفريقيا . وانطلاقا من هذا المنظور ، افترض بعضهم أن عملية الانتشار هذه ربما تكون قد بدأت من مركز حضاري محدد ، ثم انتقلت عبر الزمان الى أجزاء العالم المختلفة من خلال الاتصال بين الشعوب . وقد ظهرت في أوروبا نظريتان مختلفتان بصدد هذا التفسير الانتشاري لعناصر الثقافة . ففي انجلترا ظهرت المدرسة الانتشارية التي أرجعت نشأة الحضارة الانسانية كلها الى مصدر أو مركز واحد وعن طريق الاحتكاك الثقافي بين الشعوب سواء عن طريق التجارة أو الغزوات أو الهجرة انتشرت عناصر تلك الحضارة المركزية أو الرئيسة واتسعت دائرة وجودها .

تزعم هذه المدرسة عالم التشريح البريطاني (اليوت سميث) ١٨٧١ ـ ١٩٣٧) وكان مهتما بالآثار والهياكل البشرية ـ ومعه ايضا تلميذه (وليم بيري) (١٨٨٨ ـ ١٩٤٩) اللذان رأيا أن الحضارة الانسانية نشأت وازدهرت على ضفاف نهر النيل في مصر القديمة منذ نحو خمسة آلاف سنة قبل الميلاد تقريبا ، وذلك بعد فترة طويلة عاشتها الانسانية على الصيد . وعندما توافرت الظروف وبدأت الاتصالات بين الجماعات والشعوب انتقلت بعض مظاهر تلك الحضارة المصرية القديمة الى بقية العالم التي عجزت شعوبها عن الابتكار أو الاختراع فعوضت ذلك بالاستعارة والتقليد . الا أن فريقا من الألمان والنمساويين وعلى رأسهم (فريتز جرابنر) (١٨٧٧ ـ ١٩٣٤) (وولهم شميدت) (١٨٦٨ ـ ١٩٥٩) رفضوا فكرة المنشأ الواحد للحضارة الانسانية التي هي أقرب الى الخيال أكثر من كونها علمية الأساس (على

... (جان برانيه) واقترضوا وجود عدة من مراكز حضارية أساسية في جهات متفرقة من العالم ، وأنه نشأ عن التقاء الحضارات مع بعضها بعضا ، نوع من الدوائر الثقافية وحدثت بعض عمليات الانصهار والتشكيلات المختلفة ، الامر الذي يفسر أوجه الاختلاف عن تلك الثقافات المركزية أو الأساسية ، الا أن أصحاب هذا الراي لم يقدموا الدلائل على وجود تلك المراكز ، أو تتبع حركات الاتصال بينها ، ودراسة النتائج المترتبة على ذلك بطريقة منهجية سليمة . ورغم هذا الاختلاف في وجهة النظر بين المدرستين البريطانية والالمانية ـ النمساوية الا أنهما اتفقتا في رفض حتمية تطور المجتمعات كلها وفقا لقانون ثابت ، وأنه من غير المعقول أن يتشابه التكوين الثقافي عند جميع البشر . وليس من الممكن أيضا أن تتمتع جميع الشعوب بقدر متماثل من الخلق والابتكار ، ولكنها تستطيع بسهولة أن تستعير من غيرها ما تعجز عن ابتكاره بنفسها .

ولم يقتصر التفسير الانتشاري على أوربا وحدها ، بل ظهرت أيضا في أمريكا حركة مماثلة في نقدها للتفسير التطوري للثقافة ، والاتفاق من ناحية المبدأ مع كل من (اليوت سميث) و (وليم شميدت) على فكرة انتشار السمات الثقافية والاستعارة كأساس لتفسير التباين الثقافي بين الشعوب . وبصدد فكرة المراكز الحضارية أو الدوائر الثقافية التي تضمها الانتشاريون الاوربيون ترى المدرسة الامريكية أن الملامح المميزة لثقافة ما قد وجدت أولا قبل كل شيء في مركز ثقافي جغرافي محدد ، ثم انتقلت الى مناطق أخرى . وبذلك رفض الانتشاريون الامريكيون ما ذهب اليه الاوربيون من الزعم بعدم امكان التطور المستقل ، وأن الناس بطبيعتهم غير مبتكرين ويعد (**فرانز بواز**) الرائد الاول لهذا الاتجاه التاريخي / التجزيئي في أمريكا ، حيث عارض الفكرة القائلة بوجود طبيعة واحدة وثابتة للتطور الثقافي ، ورأى أن أية ثقافة من الثقافات ما هي الا حصيلة نمو تاريخي معين . وكنتيجة لذلك فالباحث الانثربولوجي الذي يدرس الثقافات يجب اذن أن يوجه اهتمامه نحو دراسة تاريخ الجزئيات المختلفة والعناصر المكونة للثقافة ما كل على حده ، وذلك قبل الوصول الى تعميمات بشأن المجتمع الانساني وثقافته ككل . ورغم ما أثير في بعض الاحيان من أن هذا المنهج التاريخي / التجزيئي يستلزم

وقتا طويلا قد يؤدي الى نتائج ضئيل ، الا أن بواز أصر على أنه لكي تصبح الانثروبولوجيا علما ، فلا بد أن تعتمد في تكوين نظرياتها على الحقائق الملموسة والمشاهدات ، لا على التخمينات أو الفروض الحدسية .

لقد أشار (بواز) الذي كان متخصصا في الجيولوجيا والجغرافيا ، قبل أن يشتغل بالانثروبولوجيا ، الى أنه من خلال دراسة الشكل والتوزيع الجغرافي لمصدر السمات الثقافية ، وهجرتها واستعارتها عن طريق الاتصال بين الشعوب ، يمكن للباحث أن يستدل على كيفية نشأة الثقافة وتطورها ، وبالتالي يمكن الوصول في النهاية الى نظرية تتوافر فيها عناصر الصدق والبرهان لتفسير تغير المجتمعات الانسانية وتطور النظم الاجتماعية أو السمات الثقافية وفي اطار هذا المنطلق النظري استخدم (فرانز بواز) مصطلح المناطق الثقافية ، ليشير الى مجموعات من المناطق الجغرافية التي تتصف كل منها بنمط ثقافي معين بغض النظر عن احتواء كل من هذه المناطق على عدة من شعوب أو جماعات . وفي تطبيق هذا المفهوم على ثقافات قبائل الهنود الحمر بأمريكا ، أمكنه حصر — تبع مناطق ثقافية رئيسة أو تمييزها يندرج تحتها هذا العدد الهائل من قبائل الهنود الحمر الذي كان يزيد على خمسمائة قبيلة في الوقت الذي نزح فيه الأوربيون لاستعمار القارة الامريكية . وبهذا يشير مفهوم المنطقة الثقافية الى طرائق السلوك الشائعة بين عدد من المجتمعات التي تتميز باشتراكها في عدد من مظاهر الثقافة نتيجة لدرجة معينة من الاتصال والتفاعل .

ولقد لاحظ (بواز) أن منطقة السهول في أمريكا الشمالية يوجد فيها عدة من جماعات هندية ، لكل منها ثقافتها المميزة ، ولكل منها اسمها القبلي ولغتها واستقلالها ، الا أنه اكتشف أن هناك — مع ذلك — عددا من السمات الثقافية المشتركة بينها جميعا . فقد كانوا مثلا يصطادون الجاموس للغذاء ، ويبنون المساكن على أعمدة مع تغطيتها بالجلود التي يستخدمونها أيضا في صنع الملابس . وكان رجال هذه القبائل ينقسمون الى مجموعات من المدافعين يسكنون في معسكرات على شكل دائري ، ويمارسون في عباداتهم طقوسا مماثلة . وهكذا جاء مفهوم

المنطقة الثقافية أو اصطلاحها بمثابة تصنيف وصفي وتحليلي للثقافات ، الأمر الذي يسهل المقارنة بين الثقافات والوصول الى تعميمات بشأن الثقافة الانسانية ككل . وأصبح من الممكن مثلا أن تعقد المقارنات بين ثقافتين مثل ثقافة هنود السهول بأمريكا التي تتميز بوجود الجاموس الوحشي الذي يعتمد عليه السكان في منطقة السهول العظمى اعتمادا كبيرا ، والثقافة النيلية الحامية التي تنتشر بين عدد كبير من قبائل شرق أفريقيا .

وفي هذا الاطار النظري والتحليلي أصبح هدف المدرسة الامريكية بزعامة (بواز) هو الدراسة التاريخية الدقيقة لعناصر المختلفة لثقافة معينة (الهنود الحمر مثلا) وتحليل كل جزء أو عنصر من حيث مصدر نشأته وتطوره ، واستخدامه وتتبع عمليات هجرته أو استعارته بين الشعوب المختلفة . وتتبع عن هذا الاتجاه الانتشاري بصفة عامة : أن هذا الانثروبولوجيون ينظرون الى الثقافات الانسانية على أن لها كيانات مستقلة من حيث المنشأ والتطور والملامح الرئيسة التي تميزها عن غيرها ، وذلك على عكس التطوريين الذين رأوا أن الثقافات متشابهة ، وأن الاختلاف الوحيد بينها يكمن فقط في درجة تطورها التكنولوجي والاقتصادي . وبهذا يرجع الفضل الى المدرسة الانتشارية في طرح فكرة تعدد الثقافات وتنوعها والنسبية الثقافية التي أصبحت منذ ذلك الحين من أهم المفهومات الرئيسة في الفكر الانثروبولوجي وتطوره ، سواء في الولايات المتحدة الامريكية أو خارجها . وقد لاقى هذا المصطلح رواجا وقبولا خاصة في عصر كانت فكرة النسبية عند اينشتاين في العلوم الطبيعية قد حازت الاهتمام النظري والاستخدام العملي .

ان الشعوب عادة — ومنذ القديم — تميل الى الاعتقاد بأن تراثها الفكري واسلوب حياتها يمثلان في نظرها الافضل دائما ، والمتميز عن غيره من معتقدات وثقافات الآخرين ، ولكن هذا التحيز الثقافي أو الاعتداد بالجنس — كما يشار اليه في بعض الكتابات العربية — يجب أن لا يشكل أساسا للنظر الى الثقافات الاخرى ، والتعامل أو الاتصال بين الشعوب . فكل ثقافة لها معنى وقيمة يتناسبان مع المكان والزمان والخبرة الانسانية في مواءمتها مع البيئة ، وفي إطار ظروفهما التاريخية .

فالثقافة ظاهرة نسبية ، بمعنى يجب عند نظرنا الى ثقافات الشعوب في هذا الاطار ، أن لا نحكم عليها بالخطأ أو الصواب ، أو بالقبول أو بالرفض . وقد اتصفت كتابات المشاهدين والرواة والمؤرخين الاوروبيين في العصور الوسطى عن الثقافات الأخرى بالتحيز الثقافي ، وذلك لانهم نظروا الى الوقائع المشاهدة من منطلقاتهم الفكرية والثقافية ، وتصوراتهم عن الحياة والافراد ، وحكموا على ما شاهدوه بالبدائية أو الهمجية ، أما النسبية الثقافية فتمثل مدخلا ومفهوما رئيسين للاتجاه الموضوعي النسبي في الدراسات الانثروبولوجية . فالانثروبولوجيون — نظريا على الاقل — لايفضلون ثقافة على أخرى ، وانما يجدون في كل الثقافات مظهرا أو وسيلة عملية لحل مشكلات الانسان في بيئة معينة وزمن محدد .

فمن وجهة النظر الانثروبولوجية يمثل مفهوم « النسبية الثقافية » في حقيقة الامر دعوة الى الاخذ بضرورة تنوع الشعوب ، واحترامها ، ومحاولة دراستها وفهمها والوصول الى أوجه التشابه والاختلاف بين الثقافات ، الامر الذي يساعد على فهم أفضل للطبيعة الانسانية وتفسير سلوك الأفراد كافة ، والتعرف على أنماط الحياة الاجتماعية في الحاضر والمستقبل . هذا ويجب أن ننوه في هذا المجال الى أن الدعوة الى النظر الى سلوك الافراد أو الجماعات في الثقافات المختلفة في السياق العام للقيم والقواعد التي تحكم هذا السلوك ، لايعني أن كل أشكال السلوك الانساني مقبولة ، فهناك الكثير من الاتجاهات والمعتقدات والممارسات التي قد تتخالف أو تناقض ما توصلت اليه الحضارة الانسانية المعاصرة من قيم عليا وحقوق انسانية نذكر من بين تلك الممارسات الحروب الاستعمارية ، والارهاب والقتل الفردي أو الجماعي وبعض العادات والتقاليد التي قد لا تتواءم مع متطلبات الحياة العصرية ، وتتنافى مع رغبة الشعوب في التقدم وتحسين نوعية الحياة . فالنسبية الثقافية لا تدعو اذن الى قبول الأمور على علاتها ، وانما للعمليات الثقافية ، الامر الذي يساعدنا على تطور فهمنا لسلوك الشعوب الاخرى وعلى فاعلية التعامل معها في أطار من الفهم المشترك والاحترام المتبادل .

ثانيا — المدرسة البنائية — الوظيفية :

نشأ الاتجاه البنائي — الوظيفي لدراسة الثقافات الانسانية في الوقت الذي

ظهرت فيه نظريات الانتشار الثقافي في كل من أمريكا وأوربا كرد فعل عنيف ازاء النزعة التطورية . وانصف الاتجاه البنائي الوظيفي بانه لا تطوري ، وبالتالي لا تاريخي ، اذ ركز على دراسة الثقافات كلا على حدة في واقعها وزمنها الحالي . فالوظيفة اذن ليست دراسة متزامنة وانما آنية ، ولذلك اختلفت كلية عن الدراسات التاريخية التي اعتمد عليها كل من التطوريين والانتشاريين على حد سواء . ان رفض الوظيفيين للمنهج التاريخي يضمن في نظرهم الطريقة العلمية لدراسة الثقافات الانسانية ، اذ أن العلم لا يهتم بتاريخ الظاهرة التي يبحثها قدر تركيزه على الكشف عن العلاقات القائمة بالفعل بين عناصر تلك الظاهرة ككل وعلاقتها بغيرها من الظواهر الاخرى ويؤدي هذا في النهاية الوصول الى القوانين التي تحكم الظاهرة موضع الدراسة من ناحية تكوينها وأدائها لوظيفتها .

تبلور الاتجاه البنائي ـ الوظيفي في مجال الانثروبولوجيا عن طريق الافكار والكتابات اللتين طرحهما كل من العالمين البريطانيين **برونسلو مالينوفسكي** (١٨٨٤ـ١٩٤٢ م) **(وراد كليف براون)** (١٨٨١ ـ ١٩٥٥ م) . وتجدر الاشارة الى أن كليهما مدين بكثير من أفكاره واتجاهاته النظرية الى المفاهيم التي قدمها العالم الفرنسي **(ايميل دوركايم)** ، الذي يسد في حقيقة الامر حلقة ربط وهمزة وصل بين الفكر الذي كان سائدا في القرن التاسع عشر والاتجاهات الجديدة للفكر الاجتماعي التي ظهرت في بداية القرن العشرين . فقد اهتم (دوركايم) بدراسة الطريقة التي تعمل بها المجتمعات الانسانية ووظائف نظمها الاجتماعية وبذلك اختلف كثيرا عما كان سائدا في القرن التاسع عشر من ناحية الدراسة التاريخية لتطور المجتمعات الانسانية والسمات الثقافية . ومما هو جدير بالذكر أن الاتجاه البنائي الوظيفي يعبر في جملته عن منهج دراسي تم اشتقاقه عند استخدام المماثلة بين المجتمعات الانسانية والكائنات البشرية ، وأنه لم يعد قاصرا على الانثروبولوجيين ، وانما تناوله أيضا علماء الاجتماع بالفحص والتطبيق والتعديل على يد **تالكوت بارسونز وجورج ميرتون**) ، كما انه ارتبط ايضا بالعلم الطبيعي وبخاصة علوم الحياة والكيمياء والميكانيكا .

ويرى مالينوفسكي أن ثقافة أي مجتمع تنشأ وتتطور في إطار إشباع الاحتياجات البيولوجية للافراد ، والتي حصرها في التغذية والانجاب والراحة البدنية ، والامان والاسترخاء ، والحركة والنمو . وتنشأ النظم الاجتماعية عادة لتحقيق تلك الرغبات ، فنجد مثلا أن الزواج والاسرة يشبعان الحاجة الجنسية ويؤديان وظيفة الانجاب والتربية ، كما أن المسكن والملبس يمكنان الجسم من الحصول على القدر اللازم من الراحة والتوافق البدني والنفسي . ولكي تستمر الثقافة في أداء وظيفتها من ناحية إشباع تلك الحاجات الانسانية الضرورية فمن الضروري اذن — في رأي (مالينوفسكي) — ان تتوافر اللوازم المادية كأدوات الصيد والحرب مثلا ولا بد أيضا من وضع قواعد ونظم واجبة الاحترام والطاعة والتطبيق لإحكام الضبط الاجتماعي ، علاوة على ضرورة وجود تقسيم للعمل على أساس الجنس والسن ، وتحديد الادوار والمكانات بين الافراد مما يؤدي الى نشأ تنظيم اجتماعي متماسك له صفتا الاستقرار والاستمرار . أما عن الفنون والرقص والتمائر الدينية ، فتلك تمثل الجانب الروحي والرمزي الذي تستند منه النظم الاخرى تكوينها وفاعليتها ، وفي إطار هذا التنظيم المادي والروحي يذكر (مالينوفسكي) : أنه يمكن للافراد أن ينشئوا لأنفسهم ثقافة خاصة أو أسلوبا معينا للحياة ويضمن لهم اشباع حاجاتهم البيولوجية الاساسية .

ربط (مالينوفسكي) اذن الثقافة بكل جوانبها المادية والروحية بالاحتياجات الانسانية . فالثقافة في رأيه كيان كلي وظيفي متكامل يماثل الكائن الحي ، بحيث أنه لا يمكن فهم دور أو وظيفة أي عضو من أعضائه الا في ضوء علاقته بباقي اعضاء الجسم . ومن خلال هذا التشابه بين الثقافة والكيان العضوي للانسان فان دراسة الدور أو الوظيفة التي يؤديهما كل عنصر ثقافي تمكن الباحث الانثولوجي من اكتشاف ماهيته وضرورته . فالعنصر الثقافي لا يمكن فهمه — في نظر مالينوفسكي — عن طريق إعادة تكوين تاريخ نشأته أو انتشاره — كما دعا الى ذلك (بواز) — وانما من خلال دراسة وظيفته الفعلية . وفي اطار علاقته مع العناصر الاخرى يترتب على ذلك ضرورة دراسة ثقافات الشعوب كل على حدة في اطار وضعها الحالي لا كما كانت عليه أو كيف تغيرت . وبصفة عامة يمكن

القول : أن (مالينوفسكي) قد قدم مفهوم الوظيفة كأداة منهجية لتمكن الباحث الانثروبولوجي من اجراء ملاحظاته بطريقة مركزة ومتكاملة أثناء وصفه للثقافة البدائية . فمفهوم الوظيفة في نظر (مالينوفسكي) يعني الدور أو الاسهام الذي يقوم به كل نظام اجتماعي في حياة المجتمع ككل ، ولذلك لا يمكن لنا فهم وظيفة أي نظام اجتماعي في مجتمع ما ، بسيطا كان أو مركبا ، الا في ضوء علاقة وظيفة (او وظائف) هذا النظام مع وظيفة (أو وظائف) النظم الاخرى ، ولهذا ينظر (مالينوفسكي) الى مصطلح النظام الاجتماعي كمفهوم أساسي في تحليل الثقافة البدائية الى عناصر جزئية تسهل معها الدراسة الوظيفية وفهم الطريقة التي تسير بها الأمور في المجتمع ، والتي تعمل على تماسكه واستمراره . فالنظام الاجتماعي في نظر (مالينوفسكي) هو نسق منظم ، وهادف لمجهد وانجاز انساني .

واذا انتقلنا الى (**راد كليف براون**) مؤسس المدرسة البنائية ، وجدنا أنه قد قام بدور رئيسي بخاصة في بلورة الفكر البنائي وتدعيمه في الدراسات الانثولوجية منذ بداية القرن العشرين وفي توجيهه الانثولوجيا نحو الدراسات الميدانية ، والابتعاد عن الفكر التطوري بافتراضاته التاريخية ، الا أنه يختلف مع (مالينوفسكي) في تفسيره للثقافة في اطار بيولوجي . فقد اتجه (راد كليف براون) نحو دراسة المجتمع وتفسير الظواهر الاجتماعية تفسيرا اجتماعيا بنائيا وظيفيا ، متأثرا في ذلك بكتابات (**اميل دور كايم**) الذي طرح فكرة أن الوظيفة التي تطبق على المجتمعات الانسانية تقوم على المماثلة بين الحياة الاجتماعية والحياة العضوية . وانطلاقا من هذا المفهوم تصور (**راد كليف براون**) انه كما أن للجسم الانساني بناء ، أو تركيبا متكاملا ، فان المجتمع أيضا له تركيب أو بناء اجتماعي يتكون من « الافراد الذين يرتبط بعضهم ببعض ، وكل واحد منهم متماسك مع الاخر عن طريق علاقات اجتماعية مقررة » هذا ويرتبط استمرار هذا البناء بعملية الحياة الاجتماعية ذاتها ، بمعنى أن الحياة الاجتماعية في أي مجتمع معين هي التي تكون ذلك البناء وتحافظ على كيانه .

فعن مقالة عن « البناء الاجتماعي » يوضح (راد كليف براون) انه يندرج تحت

هذا المفهوم كل العلاقات الاجتماعية التي تقوم بين شخص وآخر ، كما يدخل أيضا التمايز القائم بين الافراد والطبقات بحسب أدوارهم الاجتماعية » . ويستطرد (راد كليف براون) القول موضحا : « ان الحقيقة العينية التي نهتم بها في دراستنا للبناء الاجتماعي ، هي تلك الشبكة من العلاقات القائمة بالفعل في لحظة معينة بالذات من الزمان ، والتي تربط بين جماعة معينة من الناس ، فملاحظاتنا المباشرة تنصب في الواقع على مثل هذه الحقائق ، ولو أنها ليست هي الشيء الذي نحاول أن نصفه في كل تفاصيله ودقائقه . فالعلم (من حيث هو متميز عن التاريخ أو تراجم حياة الافراد) لا يهتم بالجزئي أو بالشيء الفريد وانما يهتم فقط بالعام ، أي بالانواع ، وبالاحداث التي يتكرر وقوعها . فالعلاقات القائمة بين أ ، ب ، ج مثلا ، وكذلك سلوك ، هي كلها أمور قد ندونها في مذكراتنا أثناء الدراسة الحقلية ، ثم نستخدمها كأمثلة للوصف العام . ولكن الذي نحتاج اليه للأغراض العملية هو دراسة صورة البناء ، فاذا لاحظت مثلا في احدى القبائل الاسترالية عدة من حالات لنوع السلوك القائم بين الخال وابن الاخت ، فانني أفضل هذا لكي أسجل بكل دقة الصورة العامة أو السوية لهذه العلاقة مجردة من كل تغايرات الامثلة الجزئية رغم وضع هذه الاختلافات في الحسبان .

وهذا التمييز بين البناء من حيث هو حقيقة عينية موجودة بالفعل يمكن ملاحظتها مباشرة والصورة البنائية — بالشكل الذي يصفه لنا الباحث الحقلي — يمكن توضيحه اذا نظرنا الى استمرار البناء الاجتماعي خلال الزمن . فاستمرار هذا البناء ليس استمرارا استاتيكيا كاستمرار مبنى من المباني ، وانما هو استمرار ديناميكي يشبه استمرار البناء العضوي للجسم الحي . فالكائن العضوي يتجدد بناؤه باستمرار طوال حياته . وكذلك الحياة الاجتماعية تتجدد باستمرار البناء الاجتماعي » .

وفي معرض المقارنة بين (مالينوفسكي) و (راد كليف براون) ربما يمكن القول : إنه اذا كان السؤال الرئيس عند (مالينوفسكي) الذي حاول الاجابة عنه في سلسلة من الكتابات عن أهالي جزر التروبريانند في شرق غينيا الجديدة ، هو كيف تعمل

مجموعة من العادات ، والتقاليد ، والنظم الاجتماعية ، لتفي بالاحتياجات البيولوجية والنفسية للافراد ، فان (راد كليف براون) قد وجه بحوثه في جزر الاندمان نحو مسألة تماسك النظام الاجتماعي ، أي كيف يمكن المحافظة على التضامن والترابط بين مكونات الكيان أو البناء الخاص بمجتمع معين ؟ وبالتالي ، فقد رفض كلاهما فكرة تجزئة عناصر الثقافة ، أو مكونات البناء الاجتماعي الى وحدات صغيرة يعمل الباحث على تقصي تاريخ منشئها وانتشارها ، أو تطورها عبر الزمان أو المكان ، كما دعا الى ذلك التطوريون أو الانتشاريون وقد تطلب هذا المنطلق النظري الاتصال المباشر بالثقافات موضع الدراسة من خلال منهج الدراسة الحقلية لوصفها في حالتها الراهنة ، أو الآنية ، والذي كان (لمالنوفسكي) الفضل — وربما أكثر من (راد كليف براون) — في طرحه وتدعيمه . وفي أعقاب نشر كل من (مالينوفسكي) و (راد كليف براون) لأعمالهما،وجد اتجاههما البنائي الوظيفي في دراسة الثقافات الانسانية قبولا واسعا ، بخاصة في وقت بدأت المدرسة التطورية تفقد اتباعها ومؤيديها ، وكذلك عجزت المدارس الانتشارية عن أن تجد الكثير من التأييد في غيبة البرهان على صدق فروضها وبسبب الرغبة،بخاصة من قبل الادارات الحكومية الممولة للبحوث ، والجمعيات المرسية أيضا ، في أولوية الحاجة لدراسة ثقافات الشعوب المستعمرة . أعطى ذلك الاتجاه البنائي الوظيفي دفعة قوية ، وانتشارا سريعا في أوروبا وأمريكا على حد سواء ، بخاصة بعد أن أثر مالينوفسكي في عقول طلاب جامعة ييل خلال خمس سنوات (١٩٣٩ — ١٩٤٤) بمحاضراته عن قواعد المنهج الحقلي ، كما كان (لراد كليف براون) تأثير في الامريكيين خلال الفترة تدريسه بجامعة شيكاغو من عام (١٩٣١ — ١٩٣٧) .

وبصفة عامة ، وكنتيجة من نتائج الاتجاه البنائي الوظيفي الهامة تعبد حركة واسعة بين الانثروبولوجيين للخروج من أوروبا في الثلاثينات والاربعينات لاجراء دراسات حقلية في أماكن متعددة من المستعمرات ، لجمع مادة أولية لوصف الثقافات وتحليلها في سياقها الواقعي . وقد نتج عن ذلك الكثير من الكتابات الوصفية والتحليلية للقبائل والمجتمعات المحلية الصغيرة بالمستعمرات الاوروبية في آسيا وافريقيا . الامر الذي أثرى الانثولوجيا بمادة أولية جمعت بطريقة منهجية تفوق

ولا شك تلك المعلومات التي كان قد جمعها الرحالة والمستكشفون في القرون السابقة . ولعل من بين الاسهامات التي أتت بها المدرسة البنائية الوظيفية هو تأكيد خاصية نسبية الثقافة الانسانية ، الأمر الذي ساعد على تقويض دعائم فكرتي التمركز والتعالي الغربيتين ، حيث أوضح التحليل البنائي ـ الوظيفي للمجتمعات البدائية أن الثقافة أسلوب حياة له مقوماته العقلانية ، كما يعكس مواءمة متبادلة بين الناس والبيئة والاحتياجات الفردية .

وبصدد دراسة استخدام مصطلح « المجتمعات البدائية » ربما تجدر الاشارة هنا الى ماذكره الانثروبولوجي البريطاني الشهير « بشلنج سي برشفورد » من أن كلمة بدائي هي في حقيقة الأمر اختيار غير موفق لوصف المجتمعات المتزلة في الأوربية والواقعة تحت طائلة الاستعمار الغربي ، الا انها أصبحت اصطلاحا واسع الانتشار الى حد لا يمكن تجنبه ، وعلى أية حال يستخدم الانثروبولوجيون هذا الاصطلاح ليشيروا الى المجتمعات الصغيرة سواء من ناحية عدد السكان أو المساحة أو تشعب العلاقات الاجتماعية ، وتتصف المجتمعات البدائية عادة ببساطة الفنون والادوات والنظم الاقتصادية وقلة التخصص في الوظائف الاجتماعية اذا قورنت بالمجتمعات الاوروبية ، الى جانب ذلك يضيف بعض الانثروبولوجيين بعض المقاييس والمعايير الاخرى مثل عدم وجود تراث مكتوب ، وبالتالي عدم وجود أي فن متقدم أو علم لاهوتي (ديني) منهجي منظم .

لقد سبق أن أوضحنا في المبحثين السابقين كيف أن فكرة دراسة المجتمعات البدائية قد جذبت انتباه المشتغلين بدراسة النظم الاجتماعية منذ القرن الثامن عشر فقد نظر اليها الفلاسفة على أنها تمثل الحالة الطبيعية التي ظنوا أن الانسان كان يعيشها قبل أن يظهر نظام الحكومة المدنية ، اهتم بها بعد ذلك علماء الانثروبولوجيا في القرن التاسع عشر لاعتقادهم أنها تقدم لهم الدلائل والشواهد التي تساعدهم في البحث عن أصول النظم الاجتماعية ، وتتبع مراحل تطورها أما الانثروبولوجيون في القرن العشرين ـ وبخاصة الوظيفيون ـ فقد وجدوا في المجتمعات البدائية أنسب أشكال الحياة الاجتماعية التي تساعد على دراسة النظم الاجتماعية كأجزاء

مترابطة في النسق الاجتماعي ، كذلك يسهل في هذه المجتمعات القيام بالملاحظة المباشرة لوقائع الحياة اليومية ، والوقوف على ترابط النظم الاجتماعية بعضها مع بعض في صورة متكاملة . ولعل من الاسباب التي جعلت الانثروبولوجيا الربع الاول من القرن العشرين تركز ايضا على هذا النوع من المجتمعات دون غيره ، عرضها للتغير واحتمال الاندثار السريع للابعاد الثقافة البدائية ، نتيجة تعرض هذه المجتمعات الى الاحتكاك الثقافي بالعالم الغربي .

رغم التبريرات والاسباب التي قدمها (ايفانز بريتشارد) لاختيار المجتمعات والثقافات البدائية كمجال دراسي وحقل عملي للانثروبولوجيا ، فقد ربط الكثيرون بين هذا الاختيار وايديولوجية الاهداف الاستعمارية لدول أوربا الغربية ، وأوضحوا ان الصلة بين الانثروبولوجيا والاستعمار التي بدأت منذ نشأتها إبان القرن التاسع عشر لم تنته ، وذلك لارتباطها الوثيق بسياسة الادارة غير المباشرة لمستعمرات البريطانية بصفة خاصة ، فقد قامت هذه السياسة على أساس دعم فكرة التطور التدريجي أو البطيء للمجتمعات الواقعة تحت الاستعمار ، الامر الذي يعني الى بقاء الانظمة السياسية التقليدية في تلك المجتمعات على الحال التي هي عليه وبالقدر الذي يسمح لسلطات الاحتلال بمباشرة إدارة هذه المستعمرات واستغلال مواردها دون عناء .

ويؤخذ على الوظيفيين الانجليز تأييدهم هذه السياسة ، لانها تتضمن — من وجهة نظرهم — استمرار الحياة التقليدية لشعوب المستعمرات والتي كانوا قد تعاملوا معها ، ووجدوا فيها مجالا طيبا للدراسة الانثروبولوجية العقلية التي شجعتها وموّلتها الحكومة البريطانية . وعلى المستويين النظري والمنهجي ، فقد رأى بعضهم قصورا كبيرا في المدرسة البنائية الوظيفية يتمثل في أن الدراسات المتزامنة قد أغفلت أو على الاقل قللت من أهمية دراسة ظاهرة التغير وتحليلها التي توجد في كل المجتمعات وفي بدرجات متفاوتة وأشكال مختلفة ، لهذا رأى كثير من الباحثين ان أعمال الوظيفيين تتضمن وصفا للمجتمعات البدائية ، وكأنها في حالة ثبات واستقرار دائمين ، وهذا أمر يتنافى مع طبائع الاشياء وأمور الحياة . ويذكر

الذين يدافعون عن اتجاهات الوظيفيين انهم لم يعطوا في حقيقة الامر دراسات التغير في حد ذاتها ، وانما وجدوا أن دراسة تاريخ النظم الاجتماعية أو السمات الثقافية لن يساعد الباحث على فهم الوظائف العملية لتلك النظم أو الترابط القائم بين بعضها بعضا .

فقد ذكر (مالينوفسكي) في كتابه « ديناميكيات التغير الثقافي » الذي نشر بعد وفاته ، أن دراسة التغير الثقافي لا تستلزم التحليل التاريخي ، لانها في الحقيقة تتضمن مقارنة بين ثقافتين تسودان مجتمعين مختلفين ، وفي فترتين زمنيتين مختلفتين أيضا ، الامر الذي يشير الى عدم تتبع الاحداث والظواهر الثقافية عبر الزمن . فالاتجاه الوظيفي لدراسة التغير الثقافي أو الاجتماعي ... في رأي (مالينوفسكي) ... يقوم على افتراض وقت محدد ، أو فترة معينة لتكون بمثابة نقطة بدء ، وفاصل زمني بين فترتين مختلفتين لكل منهما ثقافة خاصة ، وبهذا تتم المقارنة بين الأوضاع التي كانت سائدة قبل الخط الفاصل أو نقطة البدء والأوضاع القائمة بعدها . وبهذه الطريقة يتسنى للباحث الانثربولوجي دراسة كل ثقافة في اطارها التكاملي وكيانها المستقل وفترتها الزمنية الخاصة بها .

وفي مجال منهج الدراسات الانثروبولوجية العقلية للمجتمعات البدائية ، نود الاشارة أولا الى أنه سبق أن ذكرنا أن الانثولوجيا كانت قد اعتمدت في نشأتها النظرية ، واستقلالها الاكاديمي على معلومات ومادة مستقاتين من مصادر ثانوية ، بمعنى أن الباحثين الانثربولوجيين لم يقوموا بأنفسهم بإجراء الملاحظة أو المشاهدة لما وصفوه من سلوك ، وربما كان الاستثناء الوحيد لذلك هو (لويس مورجان) الذي كان بحكم طبيعة عمله كرجل قانون بين قبائل الايروكوا الهندية قد تهيأت له الفرصة للملاحظة ، والتحدث مع أفراد القبيلة ، وعلى عكس التطوريين فان اهتمام الوظيفيين البالغ باظهار الترابط بين الاشياء كلها بداخل ثقافة معينة قد تطلب ضرورة الملاحظة المباشرة عن طريق الدراسات الحقلية ، التي سبق أن بدأت أهميتها تتضح في عام (١٨٩٨) م عندما قامت بعثة جامعة كمبردج البريطانية بدراسة منطقة مضايق توريس في المحيط الهادي كما ذكرنا في المبحث السابق . هذا وقد ساعد

(مالينوفسكي) على تطوير الدراسة الحقلية ووضع أسسها المنهجية في ضوء دراساته العميقة في جزر التروبرياند التي ذهب اليها قبل الحرب العالمية الاولى ، ومكث هناك حتى نهايتها نحو (أربع سنوات) وبذلك ضرب (مالينوفسكي) الرقم القياسي للفترة الزمنية المتواصلة التي يمكن أن يقضيها الباحث الانثروبولوجي في المجتمع موضع الدراسة . تعلم (مالينوفسكي) لغة سكان هذه الجزر وعاش نمط معيشتهم نفسه ، مما ساعده على التعمق في فهم ثقافتهم وتحليل مكوناتها والربط بينها . قضى (مالينوفسكي) معظم أوقاته يؤلف ويكتب المقالات عن تجربته الحقلية ونتائج دراسته التي تضمنت وصفا وتحليلا للاحوال الاقتصادية وأشكال الضبط الاجتماعي ونظم الزواج وعلاقات القرابة عند سكان جزر التروبرياند الى جانب السحر والدين والطقوس عندهم .

نشر (مالينوفسكي) في عام (١٩٢٢) كتابه المشهور « بحارة غرب المحيط الهادي الجنوبي » ووضع فيه أسس الدراسة الحقلية وقواعدها ومتطلباتها . ان القارىء لمقدمة هذا الكتاب ليستمتع حقا بوصفه (مالينوفسكي) لظروفه التي أحاطت باجراء الدراسة ، شارحا بأسلوب واضح ، وممتع وقائع خبرته ، ومستخلصا مسائل منهجية ، وأساسية للدراسة الحقلية . ان قيمة الدراسة الحقلية — في رأيه — تكمن في أن يتفهم الباحث الانثوجرافي بعمق كيف ينظر الأهالي الى العالم المحيط بهم وكيف يتعاملون معه ويمكن أن نقدم فيما يلي بعض أساسيات منهج الدراسة الحقلية وذلك على النحو التالي :

أ ـ يؤكد (مالينوفسكي) انه لا يمكن الوصول الى فهم عميق ودراسة مركزة وشاملة لثقافة جماعة ما ، ما لم يقم الباحث بالاتصال المباشر والمعاشرة اليومية لسكان المجتمع موضع الدراسة . ولا يكفي أن يذهب الباحث الى منطقة الدراسة كزائر ثم يعاود زيارته الى القبيلة أو الافراد الذين يصف حياتهم بل يجب على الباحث أن يندمج مع الجماعة التي يدرسها اندماجا كليا ، ويعيش حياتهم بقدر الإمكان بحيث يستطيع ملاحظة مظاهر نشاطهم اليومي ، ويتابع حياة الجماعة من داخل الجماعة وليس من خارجها . ويقترح (مالينوفسكي) انه لابد من أن يقضي

الباحث عاما كاملا على الاقل في مجتمع الدراسة حتى يتسنى له ملاحظة اوجه نشاط الجماعة وتحليلها في الفصول المختلفة وعلى مدار السنة .

فبرسيوهي (مالينوفسكي) بتعليم الباحث الانثروبولوجي لغة المجتمع موضع الدراسة ، لان الاستعانة بالترجمين لا تساعد الباحث كثيرا على تكوين علاقات شخصية مع أفراد الجماعة في المجتمع موضع الدراسة ، كما أنه قد يغيب عن الباحث أيضا فهم الكثير نتيجة للصلة بين اللغة والثقافة ، الامر الذي لا يستطيع الحصول عليه عن طريق الترجمة ، خاصة أن معرفة المترجمين للغات الاجنبية تكون غالبا محدودة .

ج سيؤكد (مالينوفسكي) أن اقامة الباحث الانثروبولوجي بمجتمع الدراسة ، وتعلم لغة سكان المجتمع أمران ضروريان لانهما يساعدان على ما أسماه « الملاحظة بالمشاركة » وهي طريقة جمع المادة عن طريق الاشتراك في الانشطة اليومية لسكان المجتمع موضع الدراسة ، بمعنى أن الباحث لا يقف موقف الشاهد عن بعد ، وانما يلجأ الى المشاركة الفعلية فيما يقوم به الافراد في المناسبات المتعددة والمجالات المختلفة التي تشكل أساسا جوهريا في فهم الثقافة ، فالباحث في رأي (مالينوفسكي) لا يمكنه الوصول الى حقيقة المعاني الرمزية أو الضمنية لسلوك معين في مناسبة خاصة ، دون أن يكون له فرصة الجمع بين الملاحظة والمشاركة في الوقت نفسه .

وبعد هذا العرض الموجز لجوهر الاتجاه البنائي الوظيفي ، وبعض قواعد منهج الدراسة الحقلية ، يمكن القول إن عشرينات القرن العشرين وثلاثيناته قد نقلت الانثروبولوجيا من اطارها التقليدي القديم الى منطلقها التجريبي الحديث ، فالممارسة الميدانية التي ركز عليها الوظيفيون قد أعطت مفهوما جديدا لدراسة المجتمعات البدائية ، اذ هدفت الى فهم حياة هذه المجتمعات كما هي من الداخل ، وليس بقصد تصوير الاشكال الاولية للنظم الاجتماعية أو اعادة تركيبها . كما جاء في فكر المنهج التاريخي في دراسة الثقافات الانسانية ، بذلك انتزع الوظيفيون

الانثربولوجيا من منهج إعادة تركيب التاريخ الذي يقوم على أساس من الحدس والتأويل الذهني ، وأحلوها في إطار الوصف والتحليل للحاضر والواقع الذي يستند الى المقارنة والمقارنة . فالباحث — على عكس الوضع في القرن التاسع عشر — أصبح جامعا للمادة ومحللا ومنظرا لها في الوقت نفسه . وبهذا أحدثت المدرسة الوظيفية تطورا كبيرا في المنهج والنظرة التحليلية لثقافات المجتمعات البدائية .

لقد ساد هذا الاتجاه الى الدراسة الميدانية في انجلترا آنذاك وكان لكتابات (مالينوفسكي) — في الحقيقة — أثرها الكبير في جذب عدد كبير من الدارسين (من مختلف التخصصات) الى مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية ، التي انضم (مالينوفسكي) مركزا له خلال الفترة من (١٩٢٤) الى (١٩٣٨) . وقد نتج عن ذلك أن خرج عدد لا بأس به من هؤلاء الدارسين للعمل الحقلي في مجموعة نائية عن أوربا وبخاصة في المحيط الاطلسي ، نتيجة جهودهم الميدانية ، دراسات قيمة نذكر من بينها دراسة (رايموند فيرث) الشهيرة « نحن أهل تيكوبيا » (١٩٣٦) . واستمر الاهتمام بالدراسات الحقلية للمجتمعات البدائية وفقا لتعاليم (مالينوفسكي) قائما حتى خلال سنوات الحرب العالمية الثانية ، الى أن استطاع (رادكليف براون) أن يسيطر على الفكر الانثروبولوجي الانجليزي ، وأن يوجه بعيدا عن العمل الانثروجرافي الميداني الى التفكير النظري في إطار التحليل البنائي للعلاقات الاجتماعية داخل مجتمع الدراسة . وهكذا انتقل التوجيه الانثروبولوجي بانجلترا من لندن الى اكسفورد حيث تركز أصحاب المدرسة البنائية مثل (ايفانز بريتشارد) (مايرفورتس) وعلى رأسهم (رادكليف براون) الذي تولى منصب الاستاذية بجامعة اكسفورد في عام (١٩٣٧) .

ونتيجة لذلك ، بدأ الانثروبولوجيون الاجتماعيون يهتمون بمسائل جديدة مثل دراسات القرابة وبخاصة النظم السياسية ، وفي تفصيل العمل الحقلي من المحيط الهادي الى أفريقيا . ومن الجدير بالذكر هنا أنه ظهرت في عام (١٩٤٠) ثلاثة أعمال لها اهميتها في توجيه الفكر والدراسة الانثروبولوجية في انجلترا خلال فترة

مابعد الحرب. اولها كتاب «الأنساق السياسية الافريقية» الذي ألفه (مايرونويتس) (وايفانز-بريتشارد) وقدم له (راد كليف-براون)، وثانيهما وثالثهما كتابا (ايفانز-بريتشارد) عن « النوير » والنسق السياسي عند الانيواك . وترجع أهمية تلك الاعمال الى أنها تناولت موضوعات جديدة مثل دراسة الأنساق السياسية لمجتمعات ليس لديها حكومة مركزية مثل السودان الانجليزي المصري حينذاك، كما كشفت تلك الاعمال أوجها جديدة للانساق السياسية الاقليمية والتي حللت أيضا العلاقات القرابية بتلك المجتمعات وذلك على مستوى العلاقات الشخصية . ان هذه الدراسات — في مجملها — قد وضعت أساسيات الدراسات العقلية لانثروبولوجيين الانجليز بمجتمعات أفريقيا خلال عقد الخمسينات .

ثالثا — الاتجاه التاريخي — التفسيري :

ازدهر الاتجاه البنائي — الوظيفي في اوربا وبخاصة بريطانيا ، كما وجد اتباعا له في بعض الجامعات الامريكية كما رأينا . أما الاتجاه التاريخي التجزيئي الذي دعا اليه (بواز) ونشأت في إطاره الانثروبولوجيا الامريكية ، فقد بدأ يتعدل ويتجه في مسارات جديدة وذلك على يد عدد من تلاميذ (بواز) ، فهناك من طرح فكرة توسيع مفهوم التاريخ ، وهناك من تأثر بما يجري في ميدان علم النفس وبخاصة على أيدي (سبيجرمند فرويد)(١٨٥٦ — ١٩٣٩) وتلاميذه ورأوا امكان فهم الثقافة عن طريق التاريخ الى جانب الاستعانة ببعض مفاهيم علم النفس وطرقه التحليلية . وبرز أثر ذلك اتجاه نحو الكشف عن التشكيلات أو الانماط الثقافية عند الشعوب أو الجماعات الانسانية .

فمن ناحية النظرة المعدلة لاستخدام التاريخ في الدراسات الانثروبولوجية ، نجد أن الامريكي (الفريد كروبر)(١٨٧٦ — ١٩٦٠ م) قد رأى أن التاريخ لايعني فقط دراسة تتابع الظواهر والاحداث في الزمن ، كما فهمه الوظيفيون ، وانما يهدف في النهاية الى اعطاء وصف متكامل لموضوع الدراسة ، وبهذا يمكن استخدام التاريخ في دراسة الوقائع والاحداث الجارية في مجتمع معين ، وعلى أساس هذا التوسع في مفهوم التاريخ عند (كروبر) تكونت منهجيا يأخذ في الحسبان الزمان والمكان ،

تصبح الانثروبولوجيا دراسة تاريخية في المقام الاول ، ويكون هدفها التمييز بين التماثل او الانماط الثقافية التي يمكن استخلاصها من الدراسة المقارنة للشعوب » .

وعلى الرغم من محاولة (كروبر) توسيع مفهوم المنهج التاريخي الا ان البعض تلاميذ (بواز) الآخرين وفي مقدمتهم (روث بنيديكت) (١٨٨٧ـ١٩٤٨ م) قد وجدوا أن التاريخ وحده لايكفي لتفسير الثقافة ، وذلك أنها ـ في تصورهم ـ حالة معقدة تجمع بين التجربة التي اكتسبت عبر الزمن وخلال التاريخ ، والتجربة السيكولوجية ، وان أية دراسة من الدراسات الثقافية تضيف بذلك مزيجا من التفسيرات السيكولوجي والثقافي بالنسبة لبيئة معينة . وكان من نتيجة ذلك أنهم لجأوا الى الاستعانة بمفاهيم علم النفس ، وقد كانت دراسة (بنيديكت) المشهورة « أنماط الثقافة » (١٩٣٤ م) بداية لبلورة هذا الاتجاه التاريخي النفسي لدراسة الثقافات ، فقد أوضحت في هذا الكتاب ضرورة النظر الى الثقافات في صورتها أو تشكيلها الاجمالي ، فكل ثقافة في نظر الباحثة (روث بنيديكت) ترتكز حول مبدأ أساسي او محور رئيسي يعطيها نمطا أو تشكيلا خاصا بها ومميزا لها عن غيرها من الثقافات ، وقد قامت (بنيديكت) بإجراء دراسة مقارنة لعدة من ثقافات بدائية حيث اوضحت العلاقات القائمة بين « الصيغة الثقافية العامة ومظاهر الشخصية » كما تنعكس لدى الافراد في تلك المجتمعات ، وربما تجدر الاشارة هنا الى انه بينما « بدأ (مالينوفسكي) نظرته للثقافة من الفرد ، وعد الظواهر الثقافية مشتقات من الحاجات الفردية بدأت (روث بنيديكت) من « الصيغة الثقافية » وعدت السلوك الفردي مجرد اتفاق وتواؤم مع التماثيل ، والمثل والقيم ، والاتجاهات الثقافية الموجودة بالفعل » .

ان محاولة الاستعانة بمفاهيم علم النفس في مجال الدراسات الانثروبولوجية ليست بالامر الجديد في حقيقة الامر ، اذ انها كانت قد خرجت ابان القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، عندما لجأ بعضهم الى الاستعانة للتعرف على اصل الديانات الثقافية ونشأتها وبخاصة في مجال دراسات الظواهر الدينية والسحر والاساطير ، الا أن هذا الاتجاه لم يزدهر خاصة تحت تاثير المدرسة الاجتماعية

الفرنسية التي رأت أن الظواهر الاجتماعية لابد أن تفسر في حدود علم الاجتماع . لا علم النفس كما جاء في كتابات (دور كايم) وبخاصة في كتابه الشهير عن قواعد المنهج في علم الاجتماع . ورغم استمرار الاعتراض لدى كثير من الانثولوجيين في امريكا والانثروبولوجيين الاجتماعيين في انجلترا على استخدام علم النفس لتفسير الثقافة أو الظواهر الاجتماعية . فقد وجد هذا الاتجاه التاريخي ـ النفسي في الثلاثينات والاربعينات من القرن العشرين فرصة طيبة للازدهار بسبب انتشار نظريات التحليل النفسي . وبخاصة دراسات الشخصية وقد استعان بعض الانثروبولوجيين بالمفاهيم النفسية التي قدمتها مدرسة (سيجموند فرويد) بصدد تحليل العلاقات القائمة بين الثقافة والفرد وتأثير كل منهما في الاخر .

وربما كان من أهم الموضوعات التي ركز عليها الانثولوجيون النفسيون . دراسة التمييز بين الجماعات والثقافات تبعا للخصائص النفسية السائدة فيها . وظهر نتيجة لذلك عدد من الدراسات التي عالجت موضوع الطابع القومي للشخصية الذي يهدف الى تحليل المقومات النفسية الرئيسة وتفسيرها والتي يتميز بها شعب دون آخر أو ثقافة دون أخرى . وقد ازدهرت هذه الدراسات لارتباطها بالدعاية وأحداث الحرب العالمية الثانية . وظهرت عدة من مؤلفات عن الشعوب المشتركة في الحرب . بخاصة اليابان . ولم يقتصر الامر عند حد الدراسة النظرية وانما شمل أيضا امكان توظيف المادة الانثروبولوجية لاغراض عملية .

ولعل من أهم الممارسات التطبيقية في هذا المجال دراسة (روث بنيدكت) بعنوان « زهرة الكريزنتم والسيف » (١٩٤٦) وهي تمثل دراسة الثقافة والشخصية اليابانية . وقد كان لهذه الدراسة قيمة كبيرة في بلورة السياسة الامريكية نحو استسلام المحاربين اليابانيين في المحيط الهادي . فبناء على ما أوضحته هذه الدراسة عن أهمية الامبراطور كرمز مقدس في العقلية اليابانية ، واحترام الجنود الشديد للسلطة الحاكمة في شخص الامبراطور ، ومدى ولائهم له أبقت الحكومة الامريكية على مركز الامبراطور وايقنت أنه من الحكمة أن يصدر الامبراطور الياباني تعليمات الاستسلام لجنوده الذين كانوا يحاربون في جنوب شرق آسيا ، وبهذا تم تفادي

حفن كثير من الدماء التي كان من الممكن أن تسيل فيما لو طلبت القوات الامريكية الغازية من الجنود اليابانيين الاستسلام . أوضحت الدراسة ان الجنود اليابانيين كانوا سيرفضون قطعا الاستسلام ، ويستمرون في القتال حتى الموت ولكن تحت تأثير مبادىء الطاعة والولاء التقليدي للامبراطور وخضوع هؤلاء الجنود لتعليماته .

كذلك نجد بعض كتابات الانثروبولوجيا خلال الثلاثينات والاربعينات ، قد تناولت العنصرية ونقدتها ، وذلك في مواجهة محاولات (ادولف هتلر) (١٨٨٩ — ١٩٤٥) عدّ العنصر الالماني من العناصر الدخيلة ، وخلق نوع من البشر يتميز عن السلالات الاخرى في القدرات العقلية والجسمية . ونتيجة لذلك أخذت مسألة السلالات والعناصر البشرية مكانا مميزا في الدراسات الانثولوجية في ذلك الوقت ، بسبب الاحداث السياسية التي كانت واقعة حينذاك .

وفي الوقت نفسه ظهرت مدرسة ثقافية نفسية قوية في الولايات المتحدة الامريكية ، وكان من روادها (**كلايد كلوكهون**) (١٩٠٥ــ١٩٦٠) و (مرجريت ميد) ، كما اشترك بعض علماء النفس مع الانثولوجيين في اجراء دراسات وتحليلات مشتركة . نذكر منها مثلا العالم النفسي (ابرام كاردنر) الذي اشترك مع الباحث الامريكي (**رالف لينتون**) (١٨٩٣ — ١٩٥٣ م) وغيره خلال الثلاثينات من القرن العشرين في طرح مفهوم بناء الشخصية الإساسي الذي يشير الى مجموعة الخصائص السيكولوجية والسلوكية ، التي يبدو أنها تتطابق مع كل النظم والعناصر والسمات التي تؤلف أية ثقافة ركز (كاردنر) على ما أسماه المنظمات أو النظم الاولية ، التي ترتبط بتربية الاطفال في سنواتهم الاولى والتي تختلف من ثقافة الى أخرى ويفترض (كاردنر) انه نتيجة لاشتراك مجموعة من الناس في نوع معين من النشأة والتربية خلال مرحلة طفولتهم ، تسود سمات شخصية مشتركة بينهم عندما يكبرون ، وترتبط هذه الصفات بالتشكيل النهائي للثقافة السائدة بين هؤلاء الافراد . ومع أن النمط أو التشكيل الثقافي السائد لايمكن ان يزيد أو يقلل من وجود الفوارق الفردية في نطاق الثقافة الواحدة ، الا أن العلاقة بين الانماط الثقافية والشخصية الفردية والتأثيرات المتبادلة بينهما امر يجب الا يهمل في حالة دراسة الثقافات الانسانية .

وكما كان الحال بصدد الترابط والحوار اللذين كانا قائمين بين الاتجاه البنائي الوظيفي في الانثروبولوجيا ، والاتجاه الوظيفي أيضا في علم الاجتماع ، نجد أن حوارا وترابطا آخر قد شمل الانثروبولوجيا وعلم النفس . نذكر مثلا ان (مالينوفسكي) اهتم بكتابات (فرويد) ، وفحص نظريته عن المحرمات الجنسية في اطار المادة الحقلية التي كان قد جمعها من جزيرة التروبرياند . وفي هذا الصدد خالف (مالينوفسكي) تفسير فرويد لعلاقة الابن بالام وغيرته من الاب في اطار ما أسماه بعقدة أوديب . وقدم بدلا عنها تفسيرا وظيفيا . فالمحرمات الجنسية التي توجد في كل المجتمعات الانسانية ، تمثل وسيلة يستطيع من خلالها تنظيم العلاقات الجنسية بين الرجال والنساء من الاقارب في العائلة الواحدة ، ومن هذه العائلة والاقارب الآخرين على اختلاف درجات القرابة . ان تحريم العلاقات الجنسية بين الافراد المكونين للعائلة النووية (الام والابناء ، والاخوة والاخوات) يمنع في نظر (مالينوفسكي) ما قد ينشأ من صرعات داخلية بسبب الغيرة والتنافس ، الامر الذي يفكك أواصر الاسرة ويهدم كيانها وبالتالي يضعف المجتمع ككل ويهدد تماسكه .

لقد عرضنا في هذا المبحث ثلاثة اتجاهات رئيسة ، تبلورت وسادت خلال العقود الاربعة الاولى من القرن العشرين ، وذلك كرد فعل على نواقص النظرية التطورية ، وبتأثير المناخ الفكري العام والاوضاع السياسية والاجتماعية السائدة بخاصة في الغرب ، وكذلك التطورات التي حدثت أيضا في موضوعات ومناهج ، العلوم بصفة عامة ، والعلوم الاجتماعية بصفة خاصة . ومما هو جدير بالذكر أن تلك الاتجاهات المشار اليها لم ينشأ الواحد بعد الآخر على النحو الذي عرضناه ، أو أن هناك تواريخ معينة تحدد قيام أي اتجاه ، وذلك لان تلك الاتجاهات جميعها قد نشأت وتطورت وتبلورت خلال فترة الثلاثين أو الاربعين عاما الاولى من القرن العشرين ، وحتى انتهاء الحرب العالمية الثانية على وجه التقريب ، الامر الذي يجعلنا نخصص المبحث التالي للحديث عما سماه الانثروبولوجي الامريكي المعاصر (ايريك وولف) « الانثروبولوجيا الجديدة » التي بدأت تظهر وتتطور عقب الحرب العالمية الثانية حتى الوقت الحاضر (منتصف الثمانينات) .

وهنا لابد من الاشارة الى أن ماقدمناه من اتجاهات انثروجولوجية قد استمدت مقولاتها الرئيسة وبلورت مفاهيمها بتأثير رافدين فكريين رئيسين من أوروبا ؛ أحدهما من المانيا والاخر من فرنسا ، وان كان الاخذ في حقيقة الامر بالتأثير الاكبر والاعم . ففي المانيا ، برز اتجاه جمع بين الجدلية الفلسفية والنظرة الواقعية في اطار الدعوة الى اعادة بناء المجتمع الالماني ؛ وربما المجتمع الاوروبي الغربي بصفة عامة، كانت هناك فلسفة اجتماعية متعددة الجوانب ومن بينها اعمال (كارل ماركس) (١٨١٨ ــ ١٨٨٣) الا انه كان لمدرسة فرانكفورت التأثير الاقوى في بلورة نوع من الفلسفة النقدية ، بخاصة خلال الثلاثينات والاربعينات في إطار أفكار (ماركس) (وهوركهايمر) والحوار الذي قام بينه وبين الفيلسوف الالماني (هربرت ماركيوز) ، فقد دعا ماركيوز في كتابه الشهير « العقل والثورة » الى إبراز دور العقل القوي في حياة الانسان وبذلك نقد الاتجاه التقليدي المحافظ في تحديد امكانات الفرد في المجتمع ، وقد توافقت تلك النظرة وهذا الاتجاه « البرجماتي » كما عرف هذا الاتجاه مع ما قدمه (جون ديوي) في كتاباته الادبية كما سبق أن اشرنا في بداية هذا المبحث . فالانسان في نظر مدرسة فرانكفورت النقدية له وجوده ، ولديه امكاناته وطاقاته ، التي يجب ان تكون محورا لاعادة بناء المجتمع البشري ، وان ينظر الى هذا الكائن على أنه قادر على إدارة أموره بنفسه ، وبطريقة خلاقة تعتريها أجواء تجمع بين المثالية والواقعية .

وفي اطار الفكر الانثروبولوجي يمكن القول ان هذا الاتجاه قد وجد صداه وتطوره في أطر ومفاهيم جديدة سنشير اليها فيما بعد عندما نتحدث عن « الاتجاهات الراديكالية » التي سادت خلال الستينات . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، ففي مجال الانثروبولوجيا ، نجد ان النزعة القومية والدعوة العنصرية الجرمانية ، قد ساعدتا بخاصة في سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية ، على أداء عدة من دراسات في السلالات وتصنيفها وربطها بالحضارات الانسانية . كذلك كان التأثير الالماني واضحا في مدارس الانتشار الثقافي كما سبق أن أشرنا . أما عن الرافد الفرنسي فنود الاشارة الى أن الكتاب العرب قد تناولوا الفكر الاجتماعي الفرنسي وبخاصة المدرسة الدوركايمية بالعرض والتحليل المسهب . وينظر كثير من

مؤرخي الانثروبولوجيا الى (اميل دوركيم) على انه عالم اجتماع وعالم انثروبولوجيا في الوقت نفسه ، وأن دورية الحولية الاجتماعية الشهيرة ، التي سبقت الاشارة اليها ، قد تضمنت ابحاثا اجتماعية واثنولوجية لعبت دورا كبيرا في إثراء الصوار بين الافكار والاتجاهات السيولوجية والاثنولوجية ، سواء ما كان منها فرنسيا أو المانيا أو بريطانيا . ولعل من المفيد أن نشير هنا الى ما جاء في كتاب (جان بواريه) عن وضع الاثنولوجيا الفرنسية خلال هذه الحقبة من القرن العشرين ، والتي كانت لها تأثيراتها في الاتجاهات الاثنولوجية الثلاثة المشار اليها مسبقا . ويضع (بواريه) عام (١٩٣٠) حدا فاصلا بين فترتين مميزتين ، فهو يرى أن الفكر الفرنسي قبل هذا التاريخ ، قد تبلور أساسا حول أفكار أربع شخصيات رئيسة واعمالهم وهم (ايميل دوركيم) ، و (س بوجلية) ، و (لوسيان ليفي بريل) (١٨٥٧ـ١٩٣٩) ومارسيل موس الذين كانوا فلاسفة ظربين بمعنى الكلمة . ومع ذلك فان كتاب و (ليفي بريل) « عن العقلية البدائية » (١٩٢٢) وبحث (موس) بعنوان « مقال عن الهبة: صورة قديمة للتبادل (١٩٢٥) هما في حقيقة الامر مؤلفان اثنوجرافيان من الدرجة الاولى وان كانا قد اعتمدا على مادة خلية سبق جمعها من المجتمعات البدائية .

* * *

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المبحث الرابع

علاقة علم دراسة الانسان بالعلوم الاخرى[1]

تشكل العلوم منظومة تتشابك فيها المعارف والموضوعات ويبرز ذلك التشابك في نطاق منظومة العلوم الانسانية والبيولوجية ، بشكل مباشر نظرا لارتباطهما بموضوع واحد هو الانسان في جوانبه البيولوجية والحضارية والاجتماعية ؛ إلا ان ما يميز العلوم بعضها عن بعض هو المتغيرات المستخدمة في التحليل والتفسير ؛ وليست أهمية الموضوع في الدراسة ، فالعلم في منهجه واحد ؛ وفي معارفه متراكم ، وفي متغيراته متباين ، أما استخداماته فترتبط بالفلسفة السياسية ؛ والالتزام يختلف عن موضوعية البحث وعلميته ، ولعل التمايز والتشابك يبرز في آن واحد بين الانثروبولوجيا وبقية العلوم الانسانية منها والطبيعية ، ويشتد الارتباط بين الانثروبولوجيا والعلوم البيولوجية والاجتماعية والنفسية والادبية بشكل أخص نظرا للتراث المعرفي والاطر التحليلية التي تنظم العلاقة بين تلك المجالات المعرفية ؛ فظاهرة اللغة ، مثلا ، موضوع للدراسة بين علماء النحو والانثروبولوجيا على حد سواء ، فللغة قواعدها الخاصة بها ، واطارها الاجتماعي الذي تبرز آثاره بتباين اللهجات وأنماط التعبير وأسلوبه .

كما أن الانسان نفسه وأحاسيسه موضوعات ينبري لها علماء النفس وعلماء الانثروبولوجيا ؛ فالدوافع والشعور والأحلام اطلالات يطل عالم النفس منها على

---

(١) د. صفوح الاخرس ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مطبعة جامعة دمشق ، دمشق ، ١٩٨٣ - ١٩٨٤ ، ص ٥٠ - ٦٠ وتود الاشارة الى اسهامنا في اخراج هذا الكتاب حين عملنا مع فريق بحث باشراف المؤلف .

ذات الانسان ، ومنظار يرى منه عالم الانثروبولوجيا بعض خصائص الحضارة ومكوناتها فكلاهما يهتمان بالسلوك الانساني عموما ، والمشكلات التي يتعرض لها بخاصة هذا السلوك خاص ، فالانثروبولوجيا تحاول دراسة السلوك في قالب الاجتماعي الحضاري ، في حين يتجه فقط علم النفس الى دراسة سلوك الفرد دون النظر الى محيطه الاجتماعي . ومع تقدم العلمين وازدياد الدراسات الناتجة في كل منهما اقتربت المسافة بينهما وأصبحت نتائج كل منهما تفيد الآخر في دراسة موضوعه .

وتشابك الانثروبولوجيا بالعلوم الاجتماعية يتعدى نطاق علم النفس ليشمل النفس الى أسس الفلسفة والمراحل التاريخية التي مرت بها المجتمعات ، وسوف نعمد الى تحليل أوجه التشابك بين الانثروبولوجيا وبعض العلوم الاجتماعية الاخرى من خلال بعض الموضوعات التي تتشابك حقائقها في المجالات المذكورة .

اولا ـ الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع :

لعل أوثق ارتباط بين الانثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية الاخرى يبرز من خلال علاقة الانثروبولوجيا بعلم الاجتماع . والتشابك بين العلمين يتعدى نطاق المعلومات **الى اسلوب البحث وطريقته** حتى عدت الانثروبولوجيا الاجتماعية في رأي بعض علماء الاجتماع امتدادا لدراساتهم ، **وعرفت الانثروبولوجيا الاجتماعية في بعض البلدان على انها علم الاجتماع المقارن** ، وقد رأي بعض علماء الاجتماع ان هذا التشابك بين المجالين يطمس معالمها لذلك كان التأكيد على ان الانثروبولوجيا الحضارية هي السمة المميزة للانثروبولوجيا ، بينما تشكل الانثروبولوجيا الاجتماعية مجالا يقترب من علم الاجتماع .

واذا كان الارتباط الوثيق بين المجالين شديدا ويحتاج الى توضيح كبير ، فإننا نود أن نحدد بعض البيانات المنهجية ، والتي تشكل في رأينا أسسا هامة في توضيح العلاقة بين الانثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع ، ولعل تباين وحدات التحليل المستخدمة في الاطلالات النظرية من أبرز ما يميز الانثروبولوجيا عن علم

الاجتماعي ، فرصة التعليل بالإضافة الى كونها مسألة منهجية هامة تعمل على ازالة ظاهرة عدم الربط بين الجانب ، والجانب الآخر ، والجانب ...

كما يعمل التوازن بين الاتجاه والواقعية داخل الاجتماع على تعليل ظواهر الحياة الاجتماعية تعليلا يقوم على الاتجاه والواقعية يكون التشخيص منصبا على فهم الظواهر كما هي عليها لتمييز الافراد فيما بينهم ، اضافة الى الادراك والملاحظة والتأمل ، والتحليل بالاضافة الى التجريب ...

فالاتجاه الوظيفي يربط ما بين الاتجاه الاجتماعي والاتجاه العام للمجتمع المحلي ، بينما يدرس البناء في اطار الاتجاه ما بين الظواهر ، والنظام الاجتماعية ، فالاتجاه الاجتماعي يتمثل في العلاقات بين الافراد والجماعة والتفاعل الاجتماعي من خلال بعض الافتراضات والقوالب النظرية ، التي تقسم التغيرات في مواقفها المعينة ، لذا يمكن القوالب تصنيف من ذلك كما يمكن في قوالب نظرية متعددة يبدأ بها البناء طالما ...

فمثلا دراسة قرية ما ، يتجه عالم الانثروبولوجيا نحو هذه القرية بأسلوب ومنهج يختلف كل الاختلاف عن أسلوب عالم الاجتماع ، فعالم الاجتماع ينظر الى هذه القرية كوحدة في التحليل ، ضمن منظور حضاري ، فيبحث في النسق الاجتماعي متمثلا تاريخ القرية وتطورها ، والعادات والتقاليد والمعتقدات الشعبية والامثال الشعبية والاقاويل الدائرة ليخلص لهما صبلا من كل ما يهم في موضوع دراسته وهو القرية ...

كما أنه يستخدم وسائل كثيرة ملائمة له كالملاحظة وصحيفة الاستبيان والمقابلة المصورة الحية ، وذلك لدراسة الانسان في مجالات الاسرة والجماعة ، بينما يتناول عالم الاجتماع مجتمعا إقليميا كبيرا بقصد دراسة القرية استنادا الى استمارة ، تحوي أسئلة ، ترتبط بالنظرية الاجتماعية والافتراضات المحددة لمجموعة الاسئلة ، فهو لا يبحث هذه القرية كشيء حي ، يسلك ويتطور اجتماعي يمثل القرية ، فالتمييز في الخصائص المشتركة بين القرى ...

ثانيا ـ الانثروبولوجيا وعلم النفس :

تبرز علاقة واضحة بين المجالين من خلال اشتراكهما بدراسة السلوك الانساني . واذا كان اهتمام علم النفس متباينا مع الاهتمامات الانثروبولوجيا ، الا ان الدراسات الرائعة لبعض علماء النفس الاجتماعي ومحاولتهم استخلاص النسق الحضاري من خلال تحليل بعض الامراض النفسية المرتبطة بالجذور الاجتماعية جعل منهم روادا في الانثروبولوجيا . كما كانوا كذلك في مجالات علم النفس ، وقد أمكن لدراسات (فرويد) في تفسير الأحلام ان تنقلنا من عالم الامراض النفسية الى تاريخ المجتمعات الانسانية ، فمع ان نظرياته في التحليل النفسي لاقت معارضة شديدة لدى الكثير من علماء النفس المعاصرين ، الا ان كثيرا من الانثروبولوجيين يجدون في دراساته للاحلام والمرض والرموز التي يستخدمها الانسان في التعبير عن واقعه منبعا لدراسات انثروبولوجية معاصرة .

وقد تابع (فرانزفانون) دراساته النفسية من خلال تعامله مع الثوار الجزائريين واستطاع بعبقرية فذة ان يربط ما بين الواقع النفسي للمريض الجزائري ابان الاحتلال الفرنسي والجذور الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وكذلك الحرمان الذي كان يعاني منه على كل المستويات ، حتى باتت الغربة لدى الجزائري وما طرحته من مشكلات نفسية على الصعيد الشخصي أعراضا اجتماعية يمكن للمحلل النفسي ان يستنبط منها الوضع الاجتماعي ومثار التحولات فيه . وهكذا كانت غربة الجزائري غربة اجتماعية تتعدى نطاق الهلوسات الفردية الى نمط يبرز من خلال كتابات (فانون) ان طريقة علاجه تكمن في الثورة وتطهير الارض من المحتل الفرنسي ، وعندها فقط يمكن للجزائري أن يحقق ذاته بعد أن حقق الانتصار على محتله الاجنبي .

وهكذا تتشابك دراسات علم النفس مع دراسات الانثروبولوجيا في حلقات يشكل السلوك الانساني محورها ، والدوائر حلقات متصلة تتشابك والمنظومة العلمية في أكثر من منحى .

غير ان ذلك التشابك بين علم النفس والانثروبولوجيا يجب ان لا يطمس معالم التباين بينهما خاصة بالنسبة للمتغيرات التي تستخدم في تحليل الحادثة الانسانية ، وبالاطر المنهجية التي يتبعها كل علم في مجاله المحدد .

ثالثا ـ الانثروبولوجيا وعلم اللغة :

اللغة احدى وسائل الاتصال بين الانسان واخيه الانسان ، ولقد كان تصميم الرموز الاولى للانسان البدائي تمييزا عن اسس تكوين الفكر وتبادل المعلومات ، ويعد انتقال الانسان من مرحلة الرموز ، الى مرحلة الكتابة قفزة نوعية في نقل التراث الحضاري وتراكم المعرفة العلمية والثقافية ، ولهذا ارتبطت اللغة ، وعلمها ، أشد ارتباط وأوثقه بالانثروبولوجيا نظرا للتفاعل الوثيق بين المجتمع واللغة وأسلوب التعبير وأسسه . واذا كانت تعابير الانسان عن أحاسيسه متباينة وقد كتب عنها الكتاب والشعراء الشيء الكثير ، الا أن مرحلة التعبير اللغوي تشكل أعلى مراحل نقل الافكار والاحاسيس الى أصحابها لتنقل بعد ذلك عبر الاجيال والمجتمعات .

واللغة تراث اجتماعي وفكري في آن واحد ، وتباين لهجاتها وقواعدها يستلزم من علماء اللغة التبحر في خصائص المجتمعات وأسلوب تعبير الناس عن أفكارهم ، وقد ربط بعضهم بين منحى التفكير الانساني وسلامة التعبير اللغوي ، من هنا جاء تأكيد المجتمعات على عد اللغة كسياج قومي واجتماعي وحضاري يعدد مع عناصر أخرى ، كيان الامة وشخصيتها .

إن تشابك الانثروبولوجيا بعلم اللغة تشابك وثيق الصلة يشابه الى حد بعيد تشابك الانثروبولوجيا الطبيعية بعلم الآثار ، فاذا كانت مستحاثات الانسان مادة لفهم تطوره الجسدي فان اللغة مادة دسمة لعلماء الانثروبولوجيا في فهم أسس الحضارة وتطورها .

وقد أظهر الانثروبولوجيين أهمية اللغة في نطاق المجتمعات متعددة الخصائص،

وأسلوب تفاعل تلك اللهجات ، وما يبرز عنه من سمات تتعدى نطاق اللغة ، الى تحديد الخصائص المحلية للمجتمع ، ولعل ظاهرة (الدياغلوسيا) من أهم ما أشاروا اليه في المجتمعات التي تتباين فيها اللغة المكتوبة عن اللغة الشفوية ، فاللغة كما هو معلوم تراث يعتمد على قواعد في النحو والكتابة والصرف ، والتعبير ، وتتناقل الاجيال لذلك التراث بخضعه لتطورات محدودة ، فقراءة الملفات وأسلوب كتابتها متباين عن أسلوب الشعر الحديث ، كما ان لغة (شكسبير) تسيطر على الوقت اليوم على أذهان الشعوب عامة في البلاد الناطقة باللغة الانكليزية .

وتمتد آثار ظاهرة (الدياغلوسيا) في المجتمعات التي تنتشر فيها الامية بشكل واسع ، فيبرز التباين الكبير بين النخبة المثقفة وعامة الشعب ، لذا فانه عند نقل لغة الكتاب المقدس الى صيغة مفهومة من العامة والخاصة من أهم الثورات الفكرية في نطاق الاصلاح الديني في أوروبا . فاللغة المكتوبة بأصولها التقليدية لا بد أن تكون عامة ومفهومة حتى تحقق وسيلة الاتصال ونقل التراث ، لهذا اذا خلقت التباين بين اللغة المكتوبة واللغة الشفوية وتشابكت معها الامية برزت ظاهرة (الدياغلوسيا) بأبعادها الاجتماعية والسياسية والحضارية ، وهي ظاهرة مرضية لا بد أن تعالج بخطط تتناول تلك المجالات .

رابعا ـ علاقة الانثربولوجيا بالفلسفة :

قيل عن الفلسفة إنها أم العلوم ، ومنها انبثقت معارف الانسان عن الطبيعة والكون . وكان اليونان علم رياضيات وفيزياء ، وكيمياء ، وميتافيزيقا شمولية تفسر علاقة الانسان بالطبيعة وعلاقته بالكون والمجتمع ، ولقد أدى التخصص وتقسيم العمل الى تعدد ميادين المعرفة ومجالاتها ، فانعدمت بعض امتداداتها وبقي الكثير منها عن اتجاهها الاصلي ، مما أوجد في بعض الاحيان تباينا بين أصول المعرفة الفلسفية وأصول المعرفة العلمية بفروعها المنتشرة ، غير أن تفسير العلم يجب أن لا يبعد عن أذهاننا الرباط الوثيق الذي يربط الانسان بالكون ، فكما أنه لا حياة لغصن الشجرة بمعزل عن جذعها وجذورها ، فكذلك لا يمكن من الصعب أن نفصل ما بين الفلسفة بمعناها الشمولي والعلم الانساني

والاجتماعية وحتى الطبيعية منها ، والعلاقة بين الفلسفة والانثروبولوجيا تقع ضمن ذلك المنظور ، وبخاصة فيما يتعلق بنظرة الانسان لمفهوم الزمان والمكان ، فادراك الانسان للزمان لم يكن واحدا عبر العصور ، كما أن فهم الفلاسفة له لم يكن واحدا فقد اختلفوا حوله اختلافا بينا ، وقد لخص أبو العلاء المعري تعريفه للزمان بقوله : (إنه كون يشتمل أقل جزء منه على عامة الموجودات) ، وقد عبر عن ذلك في رسالة الغفران والغوميات ليستنتج على حد تعبير (طه حسين) بأن الزمان ليس حركة الفلك بل هو أعم منها ، فالزمان هنا أعم وأشمل من العالم بسل من كل عالم كما يقول[1] . واذا كان ادراك الفلسفة للزمان مثار تباين واختلاف في الرأي فان فهم الانسان له كان اشد التصاقا بواقعه وبما يدور حوله في حياته القصيرة من أحداث ، وما يكتنفها من مشاعر وأحاسيس ، فبعض الساعات تمر ثقيلة ويشعر الانسان بوطأتها عندما يحل به المرض والألم ، وتكون لحظات سريعة في أيام السعادة والمتعة . والزمان والمكان تعبيران ملتصقان بالحياة الاجتماعية أشد التصاق ، فتعريف الانسان في البادية لمعنى الزمان يختلف عن ادراك الفلاح له ، أو العامل في المدينة ، والتعابير الشائعة التي تقيس البقاء والاستمرار بالدقائق والساعات ، والسير باللحظات مألوفة كثيرا لدينا ، والعلاقة بين الزمان والمكان علاقة ارتباط بين الفلسفة والتعابير الاجتماعية في تطابق فهم الانسان لها عبر العصور الاجتماعية وقد رأى فيها (طه حسين) تعبيرا حيا لفلسفة (أبي العلاء المعري) حين ربط بين الزمان والمكان من خلال تواجد الزمان في اطار المكان ، فالزمان لا يقاس بشهر ولا بعام ، تختلف فيه الفصول من حر وبرد ومن خريف وربيع[1] ، وانما هو استمرار لا نستطيع أن نفسره بأمور كمية فحسب اذ انه يحتوي على موجودات غير حسية ، فالليل والنهار جزء من مكونات الزمان ، كما أن الادراك جزء من مكونات العقل الانساني .

ويرى (طه حسين) في تعبير عن علاقة الزمان بالمكان في فلسفة (أبي العلاء)

---

(١) انظر الدكتور طه حسين ، تجديد ذكرى ابي العلاء ، الطبعة الثالثة ، مطبعة دار المعارف ومكتبتها بمصر ، ١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م ، ص ٢٦٦ .

اننا لا نستطيع أن نتصور وجودا أو ثبوتا الا اذا تصورنا فيه البقاء والاستمرار ، قليلا أو كثيرا ، من غير أن نقيس هذا البقاء والاستمرار بالدقائق والساعات[٢] ، والمفهوم الخالد لمعنى الموت والحياة ، وارتباط حياة الانسان بعد مماته بين يحب ويعشق مسألة طال البحث فيها في نطاق الانثروبولوجيا وبخاصة عندما ربط العلماء بين روح الانسان وجسده وأحلامه ويقظته ، وآماله وواقعه ، الى آخر ما هنالك من تفسيرات متعددة متباينة لمفهوم الوجود والخلق والعدم .

خامسا ـ الانثروبولوجيا وعلم الوراثة :

تبحث الانثروبولوجيا الطبيعية ، كما رأينا ، الجوانب البيولوجية للانسان ، والعوامل التي أثرت في تكوين السلالات البشرية ، وساهمت باختلاف أجناس الانسان وتوزعها وتعددها بين قوقازي وزنجي ومغولي ، رغم انتمائها جميعا الى فصيلة واحدة هي فصيلة الانسان العاقل ، غير أن الاختلاف لا يكمن الا في الشكل وفي الصفات الخارجية فقط ، ويبقى التركيب الداخلي والبيولوجي واحدا بين جميع أفراد الجنس البشري ، وتتعين العوامل التي تسهم في تحديد الاختلافات بين أفراد النوع الواحد عن طريق التنوع بشطريه الدخيل والوراثي ، الذي أطلق عليه بعض العلماء اسم التنوع الاصيل ، لتمييزه عن التنوع الدخيل الذي يتم من خلال عوامل أخرى لا ترتبط بالوراثة .

وعلى هذا فعندما تبحث الانثروبولوجيا الطبيعية في الاختلافات الكامنة في النوع الواحد فانها تضع في الحسبان في دراستها عوامل البيئة والمحيط الخارجي من جهة ، والعوامل الداخلية المرتبطة بالوراثة من جهة أخرى . ولقد أضحت الدراسات الانثروبولوجية تعتمد على علم الحياة بشكل عام وعلى علم الوراثة بشكل خاص ، حيث أصبحت قوانين الوراثة مدخلا هاما لفهم التنوع الاصيل ، وبخاصة بعد أن تمت تعديلات كثيرة على قوانينها ، أدت الى تطورها منذ

---

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٨ .

البدايات الأولى التي حدثت على يد العالم (منذل) (١٨٢٢ ـ ١٨٨٤) ، السفي دحض النظريات الأولى المتمثلة بنظرية (أبو قراط) والتي تفترض وجود صلة مباشرة بين الأب وأبنائه ، وقد استمرت هذه النظرية حتى القرن التاسع عشر دون أن يطرأ عليها سوى تعديل طفيف . أما التحدي الرئيس لهذه النظرية فقد ظهر مع أعمال (أوغست وايزمن) (١٨٣٤ ـ ١٩١٤) حين افترض وجود صلة مباشرة بين الأب وأبنائه ، فقد قطع هذا العالم أذناب بعض الفئران ، وبعد أن زاوج بينها قام بمراقبة ما حصل في اثنين وعشرين جيلا من الأجيال التالية ، ولو كانت الوراثة مباشرة حسب النظرية السابقة ، فإن الفئران مقطوعة الذنب سيكون لديها أنسال دون أذناب ، إلا أن هذه التجربة لم تكن قادرة على تبديل الصفة ، أي وجود ذنب بأي شكل ، ومن هنا استنتج (وايزمن) بأن الوراثة لابد أن تتم بشكل غير مباشر ، بمعنى انه لابد من التمييز بين الخلايا التناسلية (المنشطة الاصلية) والخلايا الاخرى في الجسم (الجسمية) ، فتبدل الخلايا الجسمية لم يؤثر في الخلايا التناسلية ، وذلك أن (الاعراس) لم يمسها أذى في أي من الاجيال التي درسها (وايزمن) .

أما عن آلية نقل الصفات الوراثية من جيل الى جيل فيتم بوساطة (الصبغي) وهو بنيان بروتيني معقد يتواجد في نواة الخلية .

تتألف الصبغيات من آلاف المورثات التي تعد الوحدات الاساسية للوراثة ، فالمورثة في الواقع هي المسؤولة عن انتقال صفات وراثية معينة . وعلى الرغم من أن المورثات تبقى ثابتة من جيل الى جيل ، إلا أنه من المحتمل أن يطرأ عليها تبدل ما . وهو ما نطلق عليه اسم (طفرة) ، وبذلك تظهر صفة جديدة أو مغايرة ، حيث ينتقل هذا التبدل الى الاجيال اللاحقة ، وقد تحدث الطفرة بشكل عفوي ، وقد تكون محرضة من قبل عوامل محيطية كالاشعة أو الادوية أو الانتانات أو الحمات ، وأحيانا يكون تقدم سن الأم سببا في زيادة احتمال حدوث الطفرة .

وانطلاقا من ذلك يمتلك الانسان الطبيعي (٤٦) صبغيا في كل خلية من خلاياه الجسمية حيث تنتظم هذه الصبغيات في أزواج عددها (٢٣) ، إلا أن أحد هذه الازواج يعين جنس الفرد ، لذلك يدعى بالصبغين الجنسيين ويشار لهما

(٢٧٤) في الاتجاه (٢٧٥) في الذكر ، أما الأرقام من (٢٧٦) فتعني بالخصوصيات الجنسية في المملكة الحيوانية[٣] .

واذا كان اعتماد الأنثروبولوجيا منصبا على الحالة الاجتماعية ، فان الانثروبولوجيا تعتمد على الدراسة بمستوياته المختلفة ، فمن الدراسة البيولوجية للمملكة الى التباين في أنواع السلالات البشرية ، ثم تفصيل الصفات الجسمية للإنسان ، وهكذا يبرز التعاون والتداخل في المجالين في كل من المعارف والمعارف العلمية .

مضمون الانثروبولوجيا وعلم الآثار :

تشكل المستحاثات رمزا يعبر عن تاريخ الانسان ومراحل ارتقائه وتماثل الوسائل الحضارية التي استخدمها في تعامله مع البيئة المادية من جهة ، ومع الإطار الاجتماعية والاقتصادية من جهة أخرى ، ويتضح أن الوسائل التكنولوجية المرتبطة بالكشف عن المستحاثات الحيوانية والانسانية تمكن القرائن الزمني والبعد الارتقائي لأصول الحياة ، ومن هنا جاء اعتماد الانثروبولوجي على علم الآثار لتفسير الأعمال الماضية للانسان وتطورها ، بما يمكن من اعادة تشكيل التاريخ الاجتماعي والبيولوجي بأقرب الاشكال الى الزمن الراهن ، وعندما تعتمد الانثروبولوجيا في بحوثها على معطيات علم الآثار فانها ترتكز الى ما توصل اليه من نتائج تقنية ، يلجأ بها الى تلك المعطيات لإعادة صياغة ، ترتبط بنظريات الارتقاء والاصول الأولى للحياة وتتصل بالانثروبولوجيا الفيزيقية بمعلومات أوسع مع علم الآثار عبر بالغ من تدريسها في بعض الجامعات بأقسام الجيولوجيا ، كما اتسعت المناهج والآثار مادة غنية للانثروبولوجي يستعيد بها التاريخ القديم ، ويربط بين معطيات الآثار وما تبقى من أطلال ومخلفات الحضارات من منشآت مادية لبناء الأصول الحضارية للمجتمعات الانسانية ، ويتضح الفارق الشاسع بين بكاء الشاعر على أطلال الماضي واعجاب الانثروبولوجي بالمسكن والطعام وما يحويه من أدوات يستخدمها الانسان للتعبير عن ذاته برموز حضارية وأدوات انتاجية .

---

(٣) د. محمد لسان الحلبي ، دراسة الوراثة ووظيفتها ، بحث علمي لنيل شهادة دكتور في الطب ، كلية الطب ، جامعة دمشق ، ١٩٧٦ - ١٩٧٧ ، ص ٢-٧ .

القسم الثالث

ميادين علم دراسة الانسان

تتعدد ميادين الانثروبولوجيا وفقا للتطورات والتغيرات التي تتضمنها وتشملها في دراستها للانسان وتطوره من الجوانب الطبيعية ، والثقافية ، والنفسية والاجتماعية ، والفلسفية ، والسياسية .. وغيرها .

وسيشمل هذا القسم بعضا من الميادين الاساسية للانثروبولوجيا وهي :

- الانثروبولوجيا الطبيعية
- الانثروبولوجيا الثقافية
- الانثروبولوجيا النفسية
- الانثروبولوجيا السياسية
- الانثروبولوجيا الاجتماعية

المبحث الاول

الميدان الطبيعي[1]

يرتبط هذا الميدان بشكل جوهري بالعلوم الطبيعية . وبخاصة علم الاعضاء والوظائف أو علم وظائف الاعضاء ، وعلم التشريح ، وعلم الحياة ، ويختص بدراسة (الانسان العاقل) من جوانبه المختلفة ، لمحاولة للوصول الى أصول الجنس الذي ينتمي اليه البشر الحاليون .

وتعد نظرية التطور من اهم موضوعات الانثروبولوجيا الطبيعية ، وهي النظرية القائلة إن الاجناس والانواع تتطور وتتغير أجسامها ووظائف أعضائها في أثناء تكاثرها على مر العصور ، وتحدد سلسلة طويلة من الاجناس الحية التي تبدأ بالخلية الواحدة الحية وتنتهي بالانسان العاقل أكثر الاجناس تطورا وتعقيدا . توجد أدلة غير مباشرة تؤيد هذه النظرية ، منها التشابه من الناحية التشريحية بين المخلوقات الحية الموجودة اليوم ، مثل التشابه بين جسم الارنب وجسم القرد وجسم الانسان العاقل . وتوجد أدلة مباشرة تتمثل في عظام الحفريات التي تعبر عن مراحل التطور من الاصول الى الفروع . لم يدخل موضوع « التطور البيولوجي » مجال البحث العلمي الا في **القرن التاسع عشر الميلادي حيث** قدم العلامة « داروين » (١٨٠٩ ــ ١٨٨٢) والعلامة « والاس » (١٨٢٢ ــ ١٩١٣) أول تفسيرات منهجية معقولة للعمليات البيولوجية في اطار التتابع التطوري ، وتتضمن نظرية « داروين » وهي تعد ثورة علمية كبرى فيما يأتي :

---

(١) اعتمدنا في هذه الفقرة على كتاب د. عاطف وصفي ، الانثروبولوجيا الثقافية وبتصرف شمل البداية فقط .

١ ــ تنتج عمليات الحياة كائنات مختلفة عن أصولها أي أن الانواع في تكاثرها لا تتكرر وانما تتنوع •

٢ ــ تتمتع بعض الكائنات الجديدة بخصائص تجعلها أكثر ملاءمة للبقاء تحت ظروف بيئية خاصة ، من الكائنات الاخرى •

٣ ــ تتاح للكائنات الجديدة الاكثر صلاحية للبقاء فرصة الاستمرار والتكاثر في حين تنقرض الكائنات الاخرى •

٤ ــ قد تؤدي بعض الخصائص البيولوجية الى موت النوع مباشرة اذا كانت غير مناسبة لظروف البيئة ، وقد يؤدي بعضها الى التأثير السيء في النسل وتسمى هذه الصفات « الخصائص المهلكة » ، وتعتمد نظرية « دارون » على ثلاثة فروض أو مقدمات هي :

١ ــ التنوع المتبع : تفترض هذه المقدمة ان أشكال الحياة تتنوع في كل الاتجاهات ، اذ تتفرع من الشكل العام الى أشكال خاصة مختلفة وتتناسل أشكال الحياة وتستمر اذا كانت الظروف ملائمة •

٢ ــ القدرة على التكيف : تفترض ان بعض الانواع الحية لها قدرة على التكيف مع ظروف البيئة ــ التي قد تتغير ــ بصورة أقوى من الأنواع الاخرى •

٣ ــ الانتخاب الطبيعي : ترى هذه المقدمة أن الانواع ذات القدرة على التكيف مع البيئة هي الانواع التي تستمر وتبقى في حين تنقرض الأنواع الاخرى وتختفي •

اقتصر « دارون » في تفسيره عملية التطور على أثر البيئة في عملية الانتخاب الطبيعي التي يترتب عليها استمرار الأنواع المتكيفة وانقراض الأنواع غير المتكيفة أو ظهور أنواع أكثر تكيفا ، ولكنه لم يقدم لنا تفسيرا علميا للتطور البيولوجي ، كيف يحدث ؟ أجاب علم الوراثة عن ذلك السؤال منذ عهد قريب ولكن للاسف

بعد موت « دارون » الذي كان يتشوق لمعرفة هذه الاجابة . تدور الاجابة حول اكتشاف علم الوراثة « الجينات » أو « خلايا الوراثة » ، وهي الخلايا التي تحمل الخصائص الجسمية وتنقلها من الآباء الى الأبناء عن طريق عملية التناسل ، وفيها تختلط خلايا الوراثة للرجل مع خلايا الوراثة للام وينتج عنها مركب يحدد كل الصفات الجسمية للجنين ، وذلك وفقا لقوانين وراثية محددة . ولكن برغم وجود قانون وراثي عام ينص على التكرار المتشابه لخلايا الوراثة من جيل الى جيل في الجنس الواحد . فقد يحدث تغير مفاجيء في عناصرها الكيميائية ، ويعرف هذا التغير تغير الصفات الجسمية عند الأبناء وعدم تكرار الصفات الجسمية من جيل الى جيل في الجنس الواحد . وهكذا توصل العلم الى إماطة اللثام عن بعض جوانب عملية التطور العضوي ، ولكن لايزال أمام العلم الكثير من الامور الغامضة : فمثلا **ما هي اسباب حدوث الطفرة ؟ وما هي القوانين التي تخضع لها ؟** لا تزال تلك الاسئلة دون اجابة ، ومن المتوقع أن يتقدم علم الوراثة كثيرا في اكتشافاته بعد اختراع الميكروسكوب الالكتروني .

يؤمن علماء الانثروبولوجيا الطبيعية بتطور الجنس البشري الحالي(*) « الانسان العاقل » من أجناس بشرية أخرى ، يمكن التعرف عليها عن طريق عظام

(*) يتفق علماء الاجناس على تقسيم العائلة البشرية التي عاشت في العصر الرابع الى ثلاثة انواع وهي :
١ — نوع الانسان القرد : وينتمي اليه انسان جاوه وانسان الصين . ويمتاز هذا النوع بحواجب غليظة سميكة ، وله جبهة متقهقرة ، وفك قوي واسنان كبيرة ، وعنق غليظ ، وعضلات قوية ، وتشبه اطرافه اطراف الانسان الحالي .
٢ — نوع انسان نياندرتال : وقد عثر على بقاياه في وادي نياندر في المانيا ، وكان معاصرا للفترة الجليدية الثانية ، واستمر وجوده الى ما بعد انزياح الجليد نهائيا عن العالم ، وعموما لم يكن هذا النوع في صفاته العامة كامل انتصاب القامة ، بل منكفئا الى الامام ، جمجمته كبيرة الحجم بالنسبة للانسان الحالي ، وعظامها غليظة ولا سيما عظام حواجبها الضخمة ، والجبهة متقهقرة ، وعظام الاطراف ذات مظهر ضخم وهي منحنية قليلا .
٣ — نوع الانسان العاقل : ويمثل نوع الانسان الحالي .

الحفريات . وقد عثر العلماء على بعضها ، منها « الرجل القرد من جنوب افريقيا »، و « الرجل القرد المنتصب القامة » و « انسان نياندرتال » .

يهتم الانثروبولوجيون الطبيعيون بتحديد خصائص عظام تلك الحفريات واعطائها أسماء علمية تحدد عصرها وتحدد الخصائص التطورية التي حدثت في كل منها ويعتقدون ان تلك العظام تمثل أجناسا بشرية انقرضت وهي أصول الجنس البشري الحالي ، ويرسمون خطوطا تطورية تمثل مراحل التطور البيولوجي . ويؤمن علماء هذا القسم بأن نظرية التطور تمثل حقيقة علمية لا تقبل الشك .

تختص الانثروبولوجيا الطبيعية بدراسة الخصائص الجسمية للجنس البشري الحالي المعروف باسم الانسان العاقل ، واخترعت المقاييس والآلات الدقيقة الخاصة بدراسة تلك الخصائص ، ويطلق تصنيف جنس « الانسان العاقل » الى سلالات وتفرعات على أساس خصائص جسمية محددة ، وهناك اتفاق في الرأي عـلى أن التفرعات السلالية التي نلاحظها اليوم حدثت بعد ظهور جنس « الانسان العاقل »، وقد قوبل العلامة (كون) بمعارضة قوية عندما أعلن في عام (١٩٦١) ان التفرعات السلالية للجنس البشري الحالي ترجع الى ما قبل ظهور « الانسان العاقل » ، أي كانت توجد عند أصوله القديمة ، وأعلن أن الانسان العاقل هو أصل السـلالة القوقازية فقط . هنا اشير الى تصنيف العلامة « سونياكون » اذ يقسم الجنس البشري الى **اربع مجموعات** سلالية ويتفرع من كل مجموعـة سلالات فرعية ،

المجموعة القوقازيـة :

١ ــ رواد سلالة البحر المتوسط

٢ ــ سلالة البحر المتوسط

٣ ــ الايرانيون الافغان

٤ ــ النورديون

٥ ـ الالبيون

٦ ـ البلطيقيون الشرقيون

٧ ـ السلات

٨ ـ السلالة القوقازية الجنوبية بالهند

٩ ـ هنود البحر المتوسط

١٠ ـ السلالة القوقازية الشرقية بأفريقيا (البربر)

١١ ـ السلالة القوقازية الشرقية بأفريقيا (المصريون والصوماليون والاثيوبيون) .

المجموعة المغولية :

١ ـ المغول الاصليون (الاسكيمو واليابانيون والصينيون والكوريون) .

٢ ـ الاتراك

٣ ـ سلالة التبت والهمالايا

٤ ـ السلالة الاندونيسية الملايوية

٥ ـ الهنود الامريكيون .

المجموعة الزنجية :

١ ـ الزنوج (الزنوج الاصليون وزنوج البانتو والحاميون النيليون)

٢ ـ الاقزام

٣ ــ السلالة الخويسمانية (البوشمن والهوتنتوت) .

المجموعة الاسترالية :

١ ــ الاستراليون الاصليون

٢ ــ الاينو

٣ ــ القــدا

٤ ــ الميلانيزيون

٥ ــ البولانيزيون .

يهتم علماء الانثروبولوجيا الطبيعية وكذلك علماء الجغرافيا البشرية بدراسة الخصائص الجسمية لتلك السلالات ودراسة هجراتها وتحركاتها وتأثير العوامل الجغرافية من مناخ واقليم في تلك الخصائص والهجرات وما يجد فيها من تغيرات .

* * *

المبحث الثاني

الميدان الثقافي[1]

يدرس هذا الميدان « الثقافة » ، والمعنى المبسط لذلك المفهوم هو طريقة معيشة مجتمع ما ، سواء أكان ذلك المجتمع بدائيا أم متخلفا أم ناميا أو متقدما . والثقافة من صنع الانسان وهي ظاهرة طبيعية تخضع لقوانين الطبيعة مثل قانون التطور وقانون البقاء للأصلح ولذلك يدرسها هذا الميدان بمنهج علمي لا يختلف عن المنهج المستخدم في العلوم الطبيعية لدراسة ظواهر الطبيعة الأخرى . ان قدرة الانسان على إنتاج الثقافة هي أهم خاصية تميز الانسان عن باقي الكائنات والحيوانات جميعا . ومن أهم عناصر الثقافة اللغة ، فمن طريقها تجمع وتسجل الثقافة وتنقل من جيل لآخر فيمكن نموها وتقدمها ، كما أن الثقافة تزود اللغة بمعظم مضموناتها ، فهي التي تعطي الانسان الموضوعات التي يتكلم عنها ، وتشمل الثقافة كذلك كل ما يصنعه الانسان من عناصر المادة مثل الملبس والمباني والآلات والادوات التي تزداد كثافة كلما تقدم الانسان . ومن أهم عناصر الثقافة العلاقات الاجتماعية التي تربط بين الانسان وأخيه الانسان ، أي النظم الاجتماعية التي يخترعها الانسان بصورة جماعية لينظم تلك العلاقات الاجتماعية ، ويجب التمييز بين العلاقات الاجتماعية الانسانية التي تدخل في نطاق الثقافة والعلاقات الاجتماعية التي تظهر بصورة غريزية فطرية عند بعض الحشرات والحيوانات ، لا بل ان بعض تلك العلاقات الاجتماعية الغريزية أكثر تنظيما من بعض العلاقات الانسانية

---

(١) المصطلح السابق مع الاشارة الى انها تمشيا بحداثة الدراسات الجغرافية التي قام الكاتب بالاشتراك عليها واشراف اليها في الجزائر .

وخلاصة القول إن السلوك الاجتماعي أكثر قدما من الثقافة اذ تمتد ظاهرة « المجتمع » الى أزمنة عظيمة في القدم في تاريخ الحياة على ظهر الارض ، أما « الثقافة » فهي ترتبط بظهور الانسان على وجه الارض ، وكان لاكتشاف مفهوم « الثقافة » على يد العلامة (تيلور) أكبر الاثر في تنظيم موضوعات هذا العلم في اطار واحد فهو المركز الذي ينتظم حوله معظم الظواهر التي ترتبط عن قريب أو بعيد بالانسان . ولإعطاء فكرة عن الموضوعات الكثيرة والمختلفة التي تدخل في نطاق الثقافة أشير الى التعريف المبسط للثقافة بأنها **الكل المتكامل لانماط السلوك المكتسبة التي يأخذ بها معظم افراد مجتمع معين** . يجمع هذا التعريف كل أنماط السلوك التي يكتسبها الفرد في المجتمع والتي تأخذ الصفة الاجتماعية أي يعترف بها معظم أعضاء المجتمع الذي ينتمي اليه الفرد ، وهكذا يدخل في الثقافة كل أنماط السلوك التي تمثل علاقة الانسان بالمادة مثل أسلوبه في بناء مسكنه وفي ملبسه وفي الادوات والآلات والاسلحة التي يستخدمها ، فان كل عنصر مادي من صنع الانسان ويطبق بصورة جماعية يعد جزءا من الثقافة . وتشمل الثقافة كذلك جميع أنماط السلوك التي تمثل علاقة الانسان بأخيه الانسان ، أي النظم الاجتماعية مثل نظم اللغة والاقتصاد والعائلة والسياسة والدين والاخلاق ونظم القرابة والعادات والتقاليد والآداب العامة والفنون . كما أن الثقافة تجمع أيضا كل انماط السلوك التي تمثل علاقة الانسان بعالم الافكار مثل المبادىء والمثل العليا التي يؤمن بها مجتمع معين وكذلك القوانين العلمية التي يصل اليها . ان هذه المجموعات الثلاث للعناصر الثقافية لا توجد في الواقع الاجتماعي بصورة مستقلة عن بعضها وانما في حالة تداخل وتشابك بحيث لا يمكن التمييز بين ما هو مادي وما هو فكري وما هو اجتماعي .

تبين لنا كثرة الموضوعات وتنوعها التي تدخل في اطار الثقافة والتي تمثل موضوع الانثربولوجيا الثقافية ولذلك ينقسم هذا الميدان الى عدة من فروع ، تدخل كلها في نطاق العلوم الاجتماعية ، هذه الفروع هي :

أولا ـ الاثنولوجيا :

يختص بدراسة ثقافة المجتمعات الموجودة وقت الدراسة وكذلك الثقافات التي انقرضت بشرط توافر تسجيلات مكتوبة لشعوب عاشوا في تلك الثقافات . ويدرس الاثنولوجي ثقافة المجتمع ككل أو المجتمعات التي يحتويها ، ولذلك يبحث النظم السياسية والاقتصادية والدين والتقاليد والفنون الشعبية وفروع المعرفة والفنون الصناعية وكذلك بالمثل العليا والفلسفات . وقد اتفق معظم العلماء على اطلاق اصطلاح « اثنولوجيا » على الدراسة التي تقتصر على وصف ثقافة مجتمع ما ، ويطلق اصطلاح « اثنولوجيا » على الدراسات التي تجمع بين الوصف والمقارنة فالاثنولوجي من تلك المقارنات الى الوصول الى قوانين عامة للسلوك الانساني وللظاهرة التغير الثقافي وآثار الاتصال بين الثقافات المختلفة . ويهدف الاثنولوجي كذلك الى تصنيف الثقافات الى مجموعات أو أشكال على أساس مقاييس معينة .

ثانيا ـ الانثروبولوجيا الاجتماعية :

توافق المدرسة الامريكية للانثروبولوجيا على اعتماد الانثروبولوجيا الاجتماعية فرعا من الأنثروبولوجيا الثقافية على أساس أنه الفرع الذي يتخصص في دراسة جانب العلاقات الاجتماعية من الثقافة ، أما المدرسة الانجليزية فانها تنظر الى الانثروبولوجيا الاجتماعية كقسم مستقل للانثروبولوجيا عامة ، وترى أن كلا من الانثروبولوجيا الثقافة والاجتماعية فرع مستقل للانثروبولوجيا ، ولا توافق على اتجاه المدرسة الامريكية سابق الذكر . يهتم فرع الانثروبولوجيا الاجتماعية بتحليل البناء الاجتماعي للمجتمعات الانسانية وبخاصة المجتمعات شبه البدائية التي يظهر فيها بوضوح تكامل البناء الاجتماعي ووحدته ، وهكذا يتركز اهتمام هذا الفرع بالقطاع الاجتماعي للثقافة ويتميز بالدراسة المركزة التحليلية للبناء الاجتماعي وتوضيح الترابط والتأثير المتبادل بين النظم الاجتماعية ، من أهم النظريات التي تسود اليوم في أبحاث الانثروبولوجيا الاجتماعية « النظرية الوظيفية » للعلامة « رادكليف براون » ، وأساسها أن النظم الاجتماعية في مجتمع ما هي نسيج متشابك العناصر يؤثر كل عنصر في العناصر الاخرى وتصل تلك

العناصر على خلق وحدة اجتماعية تسمح للمجتمع بالاستمرار والبقاء • ولا تهتم الاثروبولوجيا الاجتماعية المعاصرة بتاريخ النظم الاجتماعية ، لان تاريخ النظام الاجتماعي لا يفسر طبيعته ، وانما تفسر تلك الطبيعة عن طريق تحديد وظيفة النظام اجتماعي الواحد في البناء الاجتماعي للمجتمع • (يعالج القسم الثالث من هذا الكتاب موضوعات الاثروبولوجيا الاجتماعية ومناهجها بشيء من التفصيل) •

ثالثا ـ علم الآثار :

يدرس ماضي الانسان ، ويرمي الى تحديد التغير الثقافي وتتابعه على مر العصور • ويهدف كذلك الى إعادة بناء (عملية تصورية) الحياة الاجتماعية لمجتمعات ما قبل التاريخ • ويوجد اختلاف جوهري بين علماء الآثار وعلماء التاريخ ، بينما يدرس علماء التاريخ الفترات المسجلة كتابة للمدينات الكبرى في الشرق الاوسط وأوروبا والشرق الاقصى ، يهتم علماء الآثار بالفترات والمراحل التاريخية الطويلة التي قضاها الانسان قبل اكتشاف القراءة والكتابة • ويعتمد عالم الآثار في دراساته على البقايا التي خلفها الانسان والتي تمثل ثقافاته ، وقد توصل العلماء الى أساليب دقيقة لحفر طبقات الارض التي يحتمل وجود بقايا حضارية بها ، وتوصلوا كذلك الى مناهج دقيقة لفحص تلك البقايا وتسجيلها وتحديد المواقع التي توجد فيها وتصنيفها للتعرف عليها ومقارنتها ببعضها • ويستطيع علماء الآثار عن طريق تلك المناهج استنتاج الكثير من المعلومات عن الثقافات القديمة وتغيراتها واتصالاتها بغيرها • ويتعاون علماء الآثار في أبحاثهم مع المؤرخين والاثروبولوجيين باختلاف تخصصاتهم ، فمثلا يمدهم الاثنوجرافيون والمؤرخون بالمعلومات الخاصة بالثقافات التي جاءت بعد أو نمت عن حضارات ما قبل التاريخ • كما أنهم يستفيدون من أبحاث علماء الجيولوجيا وعلماء النبات والحيوان والمناخ ودراساتهم في تاريخ « هوية » البقايا التي يكتشفونها وتحقيقها • وكثيرا ما يستخدمون التجارب المعملية لاكتشاف خصائص البقايا « الاركيولوجية » ومناخها ، ولذلك يحتاج عالم الآثار الى معرفة واعية بالكيمياء والطبيعيات والمهارات الدقيقة • وقد نجح العلماء المحدثون في اختراع وسيلة جديدة لتحديد عمر « البقايا » بدقة وهي طريقة « الكربون المشع » • وتعرف باصطلاح « ك ١٤ » •

وكثيرا ما يتعاون علماء الآثار مع إخوانهم المتخصصين في الانثروبولوجيا الطبيعية وذلك لكثرة تواجد الحفريات الانسانية مع البقايا الثقافية . وتوضع « البقايا » التي يكتشفها علماء الآثار في متاحف خاصة بذلك . ومن أمثلة تلك البقايا الأدوات الحجرية للانسان القديم وقطع صغيرة من الاواني الفخارية . وحراب وأقواس وسهام قديمة للغاية . وتوجد بعض الاقسام في الجامعات الكبيرة المتقدمة ـ المتخصصة في علم الآثار وتدرس مبادىء العلم لطلبة أقسام الانثروبولوجيا بكليات العلوم الاجتماعية . حتى أن يتخصص الطالب في الدراسات العليا في علم الآثار .

رابعا ـ علم اللغويات :

يستخدم المنهج العلمي في دراسة اللغات . ويعد أحد فروع الانثروبولوجيا الثقافية لان اللغة أحد عناصر الثقافة بل هي اهم تلك العناصر . وينقسم علم اللغويات الى أقسام فرعية أهمها « علم اللغويات الوصفي » و « علم أصوات اللغات » . يهتم علم اللغويات الوصفي بتحليل اللغات في زمن محدد ويدرس النظم الصوتية وقواعد اللغة والمفردات . ويعتمد عالم اللغة في دراساته على اللغة الكلامية ولذلك يستمع الى المواطنين وخاصة أن معظم دراساته تكون متعلقة بلغات كلامية لم تكتب بعد . فيقوم عالم اللغة بكتابة تلك اللغات عن طريق استخدام رموز دولية متعارف عليها . تتركز معظم تلك الدراسات في المجتمعات البدائية التي لم تعرف القراءة والكتابة ولكنها ذات لغة كلامية اذ لا يوجد مجتمع انساني مهما تخلفت ثقافته بدون لغة كلامية .

أما علم « أصول اللغات » فيختص بالجانب التاريخي والمقارن حيث يدرس العلاقات التاريخية بين اللغات التي يمكن متابعة تاريخها عن طريق وثائق مكتوبة . وتتعقد المشكلة بالنسبة للغات القديمة التي لم تترك وثائق مكتوبة وتوجد وسائل خاصة لبحث تاريخ تلك اللغات . يهدف هذا القسم الى تحديد أصول اللغات الانسانية .

توجد علاقات تعاونية بين عالم اللغة والانثروبولوجي الثقافي ، وذلك لان على الاثنولوجي والانثروبولوجي الاجتماعي ان يدرس لغة المجتمع الذي يبحثه ولا يتم ذلك الا عن طريق دراسة مبادىء علم اللغويات ، ولكن من الناحية الواقعية نلاحظ أن علم اللغويات له أقسام مستقلة في الجامعات ، والسبب في ذلك امكان دراسة اللغة وتحليل عناصرها بصورة مستقلة عن بقية عناصر الثقافة ويقسوم المتخصصون في تلك الاقسام بتدريس مبادىء اللغويات وتدريسها الى أقسام الانثروبولوجيا ، وقد تقدم علم اللغويات في العصر الحاضر وستخدم الآن مناهج وآلات دقيقة في دراسة لغات العالم وانتهت توصلت الى قوانين عامة دقيقة لا تقل في دقتها عن قوانين العلوم الطبيعية .

خامسة ـ التطور الثقافي :

ترمي فروع الانثروبولوجيا الثقافية سابقة الذكر الى فهم طبيعة ظاهرة الثقافة وتحديد عناصرها سواء في المجتمعات الحالية أو المجتمعات القديمة ، ويختلف هذا الفرع عن الفروع الاخرى في تخصصه في دراسة التغير الثقافي وعمليات الاقتراض والامتزاج والصراع بين الثقافات وتحديد نتائج تلك الاتصالات الثقافية ، ويدرس هذا الفرع كذلك خصائص الاشكال المتشابهة من الثقافات أي الانماط الثقافية التي تحدث بصورة مستقلة في الاماكن والعصور المختلفة ، ونلاحظ أن الاهتمام بذلك الفرع يشترك فيه معظم المتخصصين في الفروع سابقة الذكر ، فمثلا اهتم معظم رواد الانثروبولوجيا في القرن التاسع عشر بوضع النظريات التي تفسر تطور الثقافة على مر العصور أو تطور نظام اجتماعي معين .

يتضح مما سبق أن الانثروبولوجيا الثقافية تنقسم الى خمسة فروع ، ولكن الفرع الاخير يتميز باشتراك موضوعاته الخاصة بتطور الثقافة أو عناصرها في جميع الفروع الاربعة الاخرى ، ولذلك يجب التحدث عن أربعة فروع رئيسية ، يوجد فرعان منهما بصورة مستقلة في الجامعات المتقدمة وهما فرعا علم الآثار وعلم اللغويات وذلك نسبي المثقفون العلاقة الاكاديمية التي تربطهما بالانثروبولوجيا الثقافية . واليوم يستخدم اصطلاح الانثروبولوجيا الثقافة للدلالة على الاثنوجرافيا

والاثنولوجيا أما الانثروبولوجيا الاجتماعية فقد اختلفت الآراء في تحديد علاقتها بالانثروبولوجيا الثقافية ، وقد أشرت سابقا الى رأي المدرسة الانجليزية التي ترى الفصل بين الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية على أساس أن كلا منهما فرع مستقل للانثروبولوجيا ، أما المدرسة الامريكية فترى أن الانثروبولوجيا الاجتماعية فرع من الانثروبولوجيا الثقافية على اساس الفهم الامريكي لاصطلاح ثقافة .

اولا ـ نشأة الانثروبولوجيا الثقافية :

يشهد القرن التاسع عشر الميلادي مولد كل من الانثروبولوجيا الثقافية والانثروبولوجيا الاجتماعية ، ومعظم رواد أحد الفرعين هم أنفسهم رواد الفرع الآخر وذلك لعدم وجود الفروق الواضحة بين الفرعين حينذاك ولوجود الكثير من الموضوعات المشتركة بين الفرعين . ويجب ملاحظة أن رواد الانثروبولوجيا لم يتخصصوا في ذلك العلم في الجامعات لعدم وجود الانثروبولوجيا في الجامعات في ذلك الوقت ، ولذلك كانوا متخصصين في علوم أخرى وكانت دراساتهم في الانثروبولوجيا نوعا من الهواية .

تبين لنا فيما سبق ان موضوع دراسة الانثروبولوجيا الثقافية هو الثقافة ولذلك ارتبطت نشأة هذا الفرع للانثروبولوجيا بظهور أول مفهوم واضح لاصطلاح الثقافة ، وقد تم ذلك لاول مرة على يد العلامة الانجليزية « تيلور » في عام ١٨٧١ حين قال :

« الثقافة ... هي ذلك الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة والعقيدة والفن والاخلاق والقانون والعادات ، وأي قدرات وعادات أخرى يكتسبها الانسان بصفته عضوا في المجتمع » وقد ساد هذا التعريف عند كل رواد هذا الفرع في القرن التاسع عشر ، بل ان العلامة الامريكي « لوي » ـ الذي يعد مؤسس الانثروبولوجيا الثقافية في أمريكا ـ قد بدأ كتابه الشهير « المجتمع البدائي عام ١٩٢٠ » بنقل تعريف تايلور للثقافة ووصفه « بالتعريف الشهير » ، ومن الرواد الآخرين لهذا الفرع في أمريكا كل من « مورجان » و « بأندلير » و « كاشينج »

و « دورسي » و « فليتشر » . أما في انجلترا فبالاضافة الى العلامة تايلور نجد العلماء « مين » و « ماكلينان » و « بت ريفز » و« لبوك » و «روبرتسون سميث » و « فريزر » ، ومن العلماء الالمان العلامة « باخوفين » ، ومن العلماء الفرنسيين « فوستيل دي كولونج » .

تنتمي نظريات هؤلاء الرواد وآراؤهم الى « المدرسة التطورية » ، وهي المدرسة التي تهتم بالبحث عن نشأة المجتمع الانساني والثقافة ومحاولة رسم صورة عامة لتطور الثقافة منذ القدم . وقد انتشر الاتجاه التطوري في معظم العلوم الاجتماعية في ذلك الوقت بسبب تأثير نظرية « دارون » في التطور العضوي ، واذكر على سبيل المثال نظرية العلامة الامريكي مورجان (١٨١٨ — ١٨٨١ م) الخاصة بتطور المجتمع الانساني من حالة المجتمع البدائي القديم الى حالة المجتمع المدني الحديث ويفرق بين المجتمعين على أساس الخواص الآتية :

اتجاه التطور

المجتمع المدني الحديث	المجتمع البدائي القديم
١ — مركز الفرد ودوره يتحددان عن طريق العلاقات الشخصية .	١ — مركز الفرد ودوره يتحددان عن طريق علاقات غير شخصية .
٢ — كل فرد يعتقد انه مرتبط بجميع أفراد المجتمع ، والمساواة تامة بين الجميع .	٢ — توجد طبقات اجتماعية .
٣ — القرابة هي أساس العلاقات الاجتماعية .	٣ — نظم العمل والأجر والنقود والملكية الفردية هي أساس العلاقات الاجتماعية .
٤ — انتشار نظامي العشيرة والقبيلة .	٤ — انتشار نظام الدولة .

وكان لظهور العلامة الامريكي « فرانزبواز » (١٨٥٨ ــ ١٩٤٢ م) أكبر الأثر في توجيه الانثروبولوجيا الى وجهة جديدة تختلف عن المدرسة التطورية سابقة الذكر ، ويرجع اليه الفضل في نشر الانثروبولوجيا الثقافية في أمريكا بحيث أصبح معظم المتخصصين في هذا الفرع من الامريكيين . ومن الممكن تسمية الاتجاه الجديد « المدرسة التاريخية » ويتمثل في موضوعين :

الاول : الاهتمام بالدراسات التفصيلية لثقافات فردية صغيرة مثل ثقافات العشائر والقبائل ، وتتم دراسة العشيرة أو القبيلة في اطار منطقتها الاقليمية الثقافية ، وترمي تلك الدراسة الى اعادة بناء ثقافة تلك العشيرة أو القبيلة في الماضي وتصور تاريخها .

الثاني : المقارنة بين تواريخ مجموعة القبائل التي درست لتحقيق الغرض النهائي للأنثروبولوجيا الثقافية ــ كما يحدد العلامة (بواز) ــ وهو الوصول الى قوانين عامة لنمو الثقافات ، وكانت القوانين التي توصل اليها العلامة « بواز » عن طريق منهجه هذا ذات طابع نفسي .

كان ينظر « بواز » الى الموضوع الثاني على أنه أكثر أهمية من الموضوع الاول ، لانه الغرض النهائي للانثروبولوجيا الثقافية بل هو الغرض النهائي لكل العلوم . ومنهج المقارنة الذي اعتمد عليه « بواز » للوصول الى القوانين لم يكن قاصرا في تطبيقاته على نتائج التطور الثقافي وانما كان يطبقه كذلك على عمليات التطور ذاتها ، ورغم الاهمية الكبرى التي أعطاها « بواز » للقوانين الثقافية : فان تلاميذه قد أهملوا ذلك الهدف .

ثانيا ــ الفترة التكوينية للانثروبولوجيا الثقافية (١٩٠٠ ــ ١٩١٥ م) :

تركزت في تلك الفترة مجهودات تلاميذ العلامة « بواز » واعمالهم في القسم الاول من اتجاهه أو نظريته وهي الدراسات التفصيلية لمجتمعات صغيرة لتحديد عناصر ثقافاتها وتاريخها وتطورها ، ونتج عن ذلك دراسات ميدانية كثيرة متعلقة

بالقبائل الهندية في أمريكا ، وكانت تلك القبائل في طريقها الى الانقراض مما أدى الى تلهف علماء الانثروبولوجيا على تسجيل ثقافاتها . وجاءت بعد ذلك مشكلة هامة وهي تنظيم تلك المعلومات الكثيرة والمتعددة الخاصة بقبائل الهنود الحمر . وتوصل العلامة الامريكي « ويسلر » الى وسيلة جديدة في هذا المجال تعرف « بالمنطقة الثقافية » ترمي تلك الوسيلة الى تقسيم ثقافات العالم أو تصنيفها الى مجموعات ثقافية ، تتكون كل مجموعة من عدة ثقافات متشابهة ، وقد أطلق العلامة «ويسلر» على كل مجموعة اصطلاح « منطقة ثقافية » ، فالمنطقة الثقافية هي اقليم أو منطقة من العالم تعيش عليها مجموعة من المجتمعات الانسانية ذات الثقافات المتشابهة ، وللوصول الى تحديد تلك المنطقة الثقافية لابد من دراسة ثقافات مجتمعات منطقة محدودة بشيء من التفصيل لتحديد عناصر تلك الثقافات وتحديد مدى انتشار تلك العناصر في المنطقة الثقافية ، ومن أمثلة تلك العناصر الوسائل المستخدمة في الحصول على الطعام وطرائق طهي الطعام والادوات المستخدمة في الصيد وفي الطهي والزينة ، والمواد المستخدمة في بناء المنازل وأساليب بناء المنازل ، هذا بالاضافة الى النظم الاجتماعية كنظام القرابة واصطلاحات القرابة ونظم الزواج ونظم تربية الابناء والنظام الديني بعناصره المختلفة والنظام السياسي وما الى ذلك ، وقد وضع العلامة « ويسلر » نموذجا لشرح نظريته فشبه المنطقة الثقافية بدائرة ، ومركز تلك الدائرة يمثل « مركز الثقافة » ويقصد بذلك الاصطلاح المكان أو المجتمع الذي تتركز فيه معظم العناصر الثقافية المنتشرة في المنطقة الثقافية أو الذي يوجد فيه أكبر تكرار للعناصر الثقافية النمطية ، وبالقرب من محيط الدائرة يوجد « هامش الثقافة » حيث تقل عناصر المنطقة الثقافية وذلك لاختلاط تلك العناصر بعناصر ثقافية أخرى ، ويجب الاشارة هنا الى أن استخدام هذا النموذج يطبق في الغالب على عدد قليل من العناصر الثقافية التي تكون نظاما ثقافيا معينا يمثل أساليب بناء المساكن أو المعابد عند قبائل الهنود الحمر بالامريكيين ، أو مثل دراسة العلامة الامريكي « سابير » الخاصة بتحديد مدى انتشار عناصر « رقصة الشمس » عند هنود السهول بأمريكا الشمالية ، فقد قسم تلك الرقصة الى ثمانين عنصرا وقام بتحديد مدى انتشار تلك العناصر وتركزها في القبائل التي بها تلك الرقصة .

ثالثا ـ فترة ازدهار الانثروبولوجيا الثقافية (١٩١٥ ـ ١٩٣٠ م) :

تتميز تلك الفترة بكثرة الابحاث والمناقشات في الانثروبولوجيا الثقافية ويرجع ذلك الى نضوج العلم ووضوح مفاهيمه ومناهجه ، أخذت تتركز دراسات هذا العلم في أمريكا وأصبح معظم علمائه من الامريكيين . وازدهرت في هذه الفترة « المدرسة التاريخية » التي أنشأها « بواز » ولكن بعد ادخال بعض التعديلات في مبادئها ، وأعطى لمفهوم « المنطقة الثقافية » الاطار لتحليل « المعطيات الثقافية » (أي المعلومات الوصفية عن الثقافة) وتفسيرها من خلال التاريخ ومن خلال عمليات تكوينها وتطورها .

رابعا ـ الفترة التوسعية للانثروبولوجيا الثقافية (١٩٣٠ ـ ١٩٤٠ م) :

تتميز تلك الفترة بالتحولات والمشكلات الخاصة بالانثروبولوجيا الثقافية وبخاصة في أمريكا التي تركزت فيها دراسات هذا النوع للانثروبولوجيا . ففي تلك الفترة تعرضت كل من المدرسة التاريخية والمدرسة الانتشارية للنقد الشديد من داخل أمريكا ومن خارجها وبخاصة من علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية . اعترفت الجامعات الامريكية والاوروبية بالانثروبولوجيا الثقافية وخصصت لها فروعا في أقسام علم الاجتماع ، على النقيض من ذلك ضعف نشاط المتاحف الانثروبولوجية وقلت أبحاثها بسبب الانهيار الاقتصادي الذي تعرضت له أمريكا في تلك الفترة . وفي تلك المرحلة تقدم علم الآثار وأصبح له مناهج ومقاييس خاصة بعمليات تاريخ الآثار والعناصر الثقافية حيث أثبتت تلك المقاييس الدقيقة عدم صحة نتائج « المدرسة الانتشارية » التي اعتمدت فقط على التحليل التوزيعي للعناصر الثقافية .

وفي هذه الفترة تقدمت وازدهرت دراسات الانثروبولوجيا الاجتماعية بفضل أبحاث كل من العلامة « مالينوفسكي » والعلامة « رادكليف براون » ، وعندما وصلت تلك الابحاث الى أمريكا معقل الانثروبولوجيا الثقافية أحدثت آثارا عميقة في مفاهيم الانثروبولوجيا الثقافية ومناهجها اذ تبين ان هناك مدارس أخرى غير

« المدرسة التاريخية » و « المدرسة الانتشارية » ؛ فنجد العلامة « كروبر » ـ يعيد فحص العلاقة بين « المناطق الثقافية » و « المناطق الجغرافية الطبيعية » بطريقة أكثر عمقا ؛ وتوصل الى مفهوم جديد وهو « قمة الثقافة » ويقصد بذلك النقطة أو المكان الذي يمثل أقصى تركيز أو تمثيل لثقافة معينة ؛ فمثلا نجد ان الثقافة العربية تمتد من المحيط الاطلسي غربا الى الخليج العربي شرقا ولكن من الممكن ان نقوم بأبحاث ميدانية لتحديد المكان الذي تتركز فيه ـ بأقصى درجة ـ عناصر الثقافة العربية . وقد تكون « قمة الحضارة العربية » ممثلة في الجهود العربية السورية أو في الجزائر أو في أي قطر عربي آخر .

توصل العلامة « كروبر » لهذا المفهوم لاستخدامه بدلا من مفهوم « ويسلر » « مركز الثقافة » ؛ وقام العلامة « كروبر » باعادة فحص موضوع عناصر الثقافة بصورة أكثر دقة مما سبق . وتوصل من خلال ذلك الى طريقة « مسح عناصر الثقافة » ابتعد فيها عن الفهم التشريحي الميكانيكي لعملية النمو الثقافي واهتم بعملية التكامل والترابط . وكذلك الحال بالنسبة للعلامة الامريكي « هيرسكوفيتس » عندما طبق مفهوم المنطقة الثقافية على ثقافات أفريقيا اذ توصل الى اتجاه ديناميكي في دراسة الحضارة وتوصل الى نتائج هامة .

ومن النظريات الهامة التي اكتسبت معالمها في تلك الفترة « النظرية التناسقية التكاملية » ـ التي مهد لها العلامة الامريكي « سابير » عندما اعترض على فكرة فصل الثقافة عن الافراد الذين يصنعونها ولذلك نادى بضرورة اهتمام الانثروبولوجيا بالفرد وبأفكاره ومشاعره وعدم ترك هذا الموضوع لعلماء النفس وحدهم . وأكد خاصية « الرمزية » لأن كل سلوك ثقافي هو سلوك رمزي أي قائم على « معان » مشتركة ومتبادلة بين أفراد المجتمع موضوع الدراسة . ولذلك نجده يرفض استخدام مفهوم « سبنسر » للثقافة على أنها حقيقة موضوعية مستقلة عن شعور الافراد وعقولهم ؛ وانما ينظر اليها كمجموعة متناسبة من أنماط السلوك التي يمكن توضيحها أو تحديدها عن طريق دراسة السلوك الواقعي لكل أو معظم أفراد المجتمع صاحب الثقافة موضوع البحث ؛ ويرى أن جوهر الثقافة هو تفاعل

الافراد وما يترتب عليه من مبان ومشاعر مشتركة . وهكذا يصور الثقافة على أنها كل متكامل يتكون من أنماط فكر وعواطف والماط عمل. تأثرت العلامة الامريكية « بينيدكت » بالتفسير السابق للثقافة واستخدمت اصطلاح « تناسق » في أبحاثها، ولا شك أنها أوضح من يمثل « المدرسة التناسيقة » ؛ فقد لاحظت عند دراستها الميدانية لبعض القبائل الهندية في المنطقة الجنوبية الغربية من أمريكا الشمالية اختلافا جوهريا بين مجموعتين من ثقافات تلك القبائل ؛ فقد لاحظت أن حضارات قبائل « البيبلو » تتميز بالاهتمام بالمظهر الخارجي للسلوك ؛ وبالطقوس وبدقة احترام العادات والتقاليد وبنوع من الفردية المتشككة ؛ استخدمت اصطلاحا نفسيا للتعبير عن تلك المجموعة الثقافية وهو ثقافات « منبسطة » ؛ وتبينت أن المجموعة الثقافية الثانية التي تعيش بالقرب من الأولى والتي منها قبيلة « نافاهو » تتميز بخصائص تناقض سمات الثقافات « المنبسطة » فنجد فيها ثقافات ذات طابع فردي كئيب وذات اتجاهات عدائية وتعطي قيمة كبيرة للتجارب العنيفة ، وللدافع النفسي الداخلي تاثير أقوى من العامل الجماعي الخارجي . اطلقت على تلك المجموعة الاصطلاح النفسي ثقافات « منطوية » واستعارت من الفيلسوفين «نيتشه» و « شبنجلر » اصطلاح « أبو لونيان » للتعبير عن مجموعة الثقافات المنبسطة واصطلاح « ديونيزيان » للإشارة الى مجموعة الثقافات المنطوية ؛ وقد استمرت « بنيديكت » في هذا الاتجاه النفسي في مؤلفاتها الأخرى ، ولخصت معالم تلك المدرسة عندما قالت إن الثقافة ــ مثل الفرد ــ لديها نمط متناسق من الفكر والعمل ؛ ولا بد لفهم الثقافة أن نتبع في الحسبان الاتجاهات العقلية والشعورية السائدة فيها والقيم والأهداف المشتركة بين أفراد المجتمع صاحب الثقافة موضوع البحث .

خامسا ــ الانثروبولوجيا الثقافية في الفترة المعاصرة (١٩٤٠ ــ ١٩٧٠ م) :

تتميز تلك الفترة بظهور اتجاهات جديدة وبانتشار الأنثروبولوجيا الثقافية في الجامعات الامريكية والاوروبية وكذلك في جامعات المجتمعات النامية بافريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية . ويجب ملاحظة أن اهتمام الجامعات الافريقية يتركز

حول الانثروبولوجيا الاجتماعية نظراً لارتباطها بالجامعات الانجليزية التي لا تعترف تقريباً الا بأنثروبولوجيا الاجتماعية .

وتعد « الدراسات على المستوى القومي » من أهم الاتجاهات الحديثة في الانثروبولوجيا الثقافية اذ انتشرت الدراسات الخاصة بالمجتمعات الحديثة الكبيرة بغرض تحديد خصائص ثقافتها على المستوى القومي فنجد أبحاثاً حول خصائص الثقافة الامريكية أو الثقافة الالمانية أو الثقافة اليابانية أو الصينية ، ومما ساعد على ظهور هذا الاتجاه فترة الحرب العالمية الثانية ، فنجد اللامة الامريكية « بنيديكت » تقوم بدراسة لتحديد معالم الثقافة اليابانية والمعروف أن اليابان كانت في حالة حرب مع أمريكا في ذلك الوقت . لذلك اعتمدت في تلك الدراسة على اليابانيين الموجودين في أمريكا بالاضافة الى المراجع المكتبية .

يرتبط بالاتجاه السابق الاتجاه الخاص بعدم الاقتصار على الثقافات شبه البدائية في أبحاث الانثروبولوجيا الثقافية والانتقال الى دراسة ثقافات المجتمعات المتمدنة مثل الصين والهند وجنوب شرق آسيا ، وتقوم معظم تلك الابحاث بدراسة قرية معينة أو مجموعة من القرى المتجاورة ، ومن أمثلة تلك الأبحاث المجموعة المسماة « دراسات فردية في الانثروبولوجية الثقافية » :

ومن أهم الأبحاث الحديثة في الانثروبولوجيا الثقافية الاتجاه التخصصي وهو اتجاه ذو جوانب متعددة . فقد يتخصص العالم في دراسة منطقة ثقافية محددة أو في دراسة ثقافة معينة بالذات أو في خصائص الانثروبولوجيا الثقافية ومبادئها مثل المنهج وطرائق البحث أو تسجيل تاريخ هذا العلم .

ترتب على انتشار الاتجاه التخصصي أن اتضحت الفروق بين الانثروبولوجيا الثقافية والانثروبولوجيا الاجتماعية وأصبحا فرعين مختلفين للأنثروبولوجيا .

ومن جهة أخرى أدى الاتجاه التخصصي الى الشعور بالحاجة الى ضرورة التعاون والتلاحم بين العلوم الاجتماعية . وأصبح هناك أقسام في الجامعات

تجمع بين العلوم الاجتماعية لتأكيد مبدأ التعاون بينها ، ومن أمثلة ذلك : « معهد العلاقات الانسانية » بجامعة « ييل » الامريكية و « قسم العلاقات الاجتماعية » بجامعة « هارفارد » الامريكية .

ظهر في الفترة المعاصرة اتجاه حديث آخر وهو زيادة التعاون والتبادل على مستوى الأساتذة وطلبة الدراسات العليا المتخصصين في الانثروبولوجيا بفرعيها الثقافي والاجتماعي . فاقامت بعض الجامعات الانجليزية والامريكية محطات للدراسات الحقلية للانثروبولوجيا بافريقيا وآسيا .

نستخلص من العرض السابق لتاريخ الانثروبولوجيا الثقافية ومدارسها ما يأتي :

١ ـ تهتم الانثروبولوجيا الثقافية بدراسة الثقافات وبخاصة الثقافات البسيطة شبه البدائية .

٢ ـ أهم مدارس الانثروبولوجيا الثقافية « مدرسة التطور الثقافي » و « المدرسة التاريخية » و « المدرسة الانتشارية » و « المدرسة التناسقية » .

٣ ـ تعد أمريكا المركز الرئيس للانثروبولوجيا الثقافية في العالم .

٤ ـ يطلق اصطلاح الانثروبولوجيا الثقافية على دراسات « الاثنولوجيا » التي تهتم بدراسة ثقافة معينة بالذات و « والاثنولوجيا » التي تتميز عن الاثنوجرافيا باهتمامها بالدراسات المقارنة للثقافات المختلفة . والهدف من تلك المقارنات الوصول الى نظرية عامة . ومن الملاحظ أنه بينما تهتم الاثنوجرافيا بالدراسة الوصفية لثقافة واحدة تهتم « الاثنولوجيا » بالتحليل والمقارنة بين عدة من ثقافات .


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المبحث الثالث

الميدان النفسي[1]

يتلخص موضوع الانثروبولوجيا النفسية في الدراسة العلمية للعلاقة بين الثقافة والشخصية ، لذلك يعدها بعضهم فرعاً من فروع الانثروبولوجيا الثقافية الذي يجمع بين مفاهيم الانثروبولوجيا عن الثقافة ومفاهيم علم النفس عن الشخصية، ولذلك يتطلب هذا الفرع من المعرفة تعاوناً وثيقاً بين المتخصصين في الانثروبولوجيا الثقافية وعلم نفس الشخصية .

عرفت الانثروبولوجيا النفسية عالمياً بعنوان « الثقافة والشخصية » ، وأخذ ينتشر هذا الاصطلاح ويزداد الاهتمام ببحث موضوعاته بصورة سريعة للغاية بالنسبة لحداثة نشأة هذا الفرع .

تهتم الانثروبولوجيا الثقافية بدراسة ثقافات الانسان في المناطق المختلفة في العالم دون الاهتمام بتأثير الثقافة في شخصيات حامليها ، ويقوم علماء النفس ، وبخاصة الأطباء النفسيون ، بتحليل شخصيات الأفراد المرضى ويركزون اهتمامهم على مظاهر الاختلاف والتفرد في شخصيات البشر ، ولا تثر الثقافة انتباههم ، وانه فقط في الفترة الأخيرة ظهر الاهتمام عند بعض الانثروبولوجيين بدراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية ، ووجد هذا الاهتمام تعاوناً وتجاوباً

---

(١) د. عاطف وصفي : الثقافة والشخصية ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٥ (بتصرف) مع الاشارة الى اننا قمنا بحذف الهوامش التي اشار اليها المؤلف ضمن هذه الفقرة .

من بعض علماء النفس وبخاصة الأطباء والمحللين النفسيين . واعترف هؤلاء بالثقافة كعامل محدد للشخصية لا يمكن إغفاله عند دراسة الشخصية السوية وغير السوية .

انتشر اصطلاح « الثقافة والشخصية » بصورة سريعة للدلالة على هذا الفرع من المعرفة ، ولكن بسبب هذا الانتشار دحض الاعتراضات التي تنادي بتغييره . فمثلاً يرى العالمان « كلاكهون » و « موراي » أن اصطلاح « الثقافة الشخصية » قد يفهم تناقض وثنائية مثل الذي وجد في اصطلاح « الروح والمادة » لذلك يفضلون استخدام اصطلاح « الثقافة في الشخصية أو الشخصية في الثقافة » .

يتعاون الانثروبولوجيون مع علماء النفس في هذا الميدان بصورة واضحة ومن أمثلة ذلك اعتماد الانثروبولوجيين على المحللين النفسيين في اجراء اختبارات الشخصية وتحليلها وفي تفسير الأحلام ، في حين يستعين الأطباء النفسيون بالتقارير الاثنوجرافية للانثروبولوجيين عند دراستهم للشخصيات السوية والمرضية .

أخذ الاهتمام بموضوع الثقافة والشخصية يتزايد في الوقت الحاضر بعد تركيز الأنثروبولوجيين على دراسة عمليات التغير الثقافي في المجتمعات البدائية والنامية ، وقد أظهرت دراسة عمليات التغير الثقافي أن الفرد في المجتمع ليس مجرد حامل سلبي لثقافة المجتمع ، وانما هو أيضا مخترع لعناصر ثقافية جديدة ، ولديه القدرة على رفض أي تجديد في ثقافته أو قبوله وهكذا وجد الباحثون أن الفهم الدقيق لظاهرة التكامل الثقافي ولعمليات التغير الثقافي يتطلب الرجوع الى حقائق علم النفس وبخاصة علم نفس الشخصية ، فقد لاحظوا أن حالات رفض أو قبول تغيرات ثقافية في مجتمع ما ترتبط بصورة ما بمدى توافق العنصر أو المركب الثقافي الجديد مع الشخصية العامة لأعضاء المجتمع ، هذا إضافة الى ملاحظة أن شخصيات أعضاء المجتمع تتفق في سمات معينة ، ويرجع ذلك الاتفاق الى معيشتهم في ثقافة واحدة .

أولا ـ نشأة الأنثروبولوجيا النفسية وتطورها :

ولعل هذا التعريف المختصر للأنثروبولوجيا النفسية يكون كافيا للانتقال الى الموضوع الرئيس وهو نشأة هذا الفرع للمعرفة ، برغم أن نشأة الانثروبولوجيا النفسية قد تمت بصورة كاملة في الثلاثينات الا أن الأصول التاريخية عرفت منذ القدم بمسميات متفاوتة من الوضوح ، ويتمثل بعضها في ملامحة وجود سمات مشتركة في شخصيات الأفراد العاملين لثقافة ما .

فقد لاحظ المؤرخ « هيرودوت » في القرن الرابع قبل الميلاد الفروق الواضحة بين العادات الاغريقية والعادات الفرعونية ، وفي القرن الاول الميلادي قسام المفكر « تاسيتوس » بمقارنة سلوك القبائل الجرمانية الشمالية بأسلوب الحياة في مدينة روما ، وعندما جاء عصر الاكتشافات واكتشفت أمريكا وباقي أجزاء العالم ، بدأ الاوربيون يعرفون الكثير عن أساليب معيشة الشعوب الأخرى ، ولاحظوا الاختلافات الشاسعة بين لغات الشعوب الاخرى وثقافاتهم ، وصاحب هذه الفترة اختراع المطبعة وانتشار المعلومات عن الشعوب المختلفة وأقاليمهم ، ومن أمثلة المؤلفات التي ساهمت في توضيح فكرة اختلاف أساليب معيشة الشعوب تقارير حملات التبشير للعجز وتقارير الفاتحين مثل « كاستيلو » .

وفي القرن التاسع عشر ، اهتم المفكرون بمقارنة الشعوب المختلفة سواء المعاصرة أو القديمة ، وقد ساعد على تنمية هذا الاهتمام واثارته اكتشافات البيولوجيا والآثار وعلم طبقات الأرض ونظرية (داروين) .

ومع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ، كثرت الدراسات الانثولوجية والتاريخية التي اهتمت بمقارنة الثقافات والفترات الزمنية المختلفة ، وفي نهاية القرن التاسع عشر نشأت الانثروبولوجيا الثقافية بفضل مجهودات العالمين « تايلور » و « مورجنان » ، وإن كان الفضل الاول في نشأة الانثروبولوجيا الثقافية يرجع للعلامة البريطاني « تايلور » الا أنه في مؤلفات بعض المؤرخين وفلاسفة التاريخ ظهرت اللبنات الاولى لموضوع الثقافة الشخصية ، وهم

« بوركخارت » و « هايزينجا » و « شبنجلر » ، هذا إضافة الى مجهودات الانثروبولوجي « مالينوفسكي » .

ومن الجدير بالذكر أن الرواد الأوائل لهذا الميدان « الانثروبولوجيا النفسية » ومنهم ، نشير الى (بوركخارت) الذي درس في كتابه « مدنية عصر النهضة في ايطاليا » ، والذي نشر لأول مرة في عام (١٨٦٠) ، الثقافة الايطالية في تلك الفترة ، فتحدث عن الملابس والأعياد وقواعد الايتكيت والمقالد الدينية والعقائد الشعبية وأساليب الفكاهة ، ودرس كذلك الإنجازات العظيمة لعصر النهضة ، وقام بمقارنة مدنية عصر النهضة في ايطاليا بالثقافة الايطالية في فترة العصور الوسطى ، وتوصل الى نتيجة هامة ، وهي أن مدنية عصر النهضة يسودها الاتجاه الفردي والنزعة للتفرد ، وأثبت ذلك عن طريق كثرة أنماط الملابس وتعددها ، والاهتمام بانجازات الأفراد ، وقصص النجاح الفردي ، وانتشار الاساطير حول أماكن ميلاد الرجال المشهورين ، وأماكن قبورهم ، وتقديم فن كتاب سير المشاهير من الرجال ، هذا إضافة الى ضعف تطبيق القوانين في تلك الفترة ، مما يؤيد ظهور الاتجاه الفردي في صورة التمرد على القوانين ، ولا يمكن اغفال حقيقة هامة ، وهي أن الاتجاه الفردي من أهم خصائص الثقافة الغربية ، ولا يزال مسيطراً على الكثير من نظم تلك الثقافة وأنساقها ، وهذا يبين أهمية تلك الدراسة المبكرة .

أما العلامة (هايزينجا) فقد درس اتجاه ثقافة العصور الوسطى في فرنسا وهولندا في القرن الرابع عشر الميلادي ، وقد تأثر في دراسته بالمؤرخ (بوركخارت) ، ولذلك يقارن بين العصور الوسطى وعصر النهضة ، ولكنه يختلف عنه في عدم دراسة مولد عصر النهضة ، وانما درس فترة انحسار ثقافة العصور الوسطى وتداعيها ، واهتم بدراسة الاتجاهات العاطفية السائدة في تلك الفترة — القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين في فرنسا وهولندا — وحددها بأنها التذبذب الدائم بين اليأس والفرحة وبين القسوة والرقة ، وناقش الآثار العاطفية التي ترتبت على المواكب الدرامية ، مثل الجنازات والتعذيب العلني ومواكب الاعدام العلني والمواعظ المؤخرة لرجال الدين ، وهكذا كانت تمثل روح ثقافة العصور

الوسطى في فترة انحسارها في حالة من تناقض المشاعر تجمع بين القسوة والشفقة . فبينما كانت حالات المرض والفقر والجنون هي أكثر الحالات التي تدعو للشفقة ، كانت تعامل تلك الحالات — في الوقت نفسه — بقسوة غير معقولة .

ومن أهم الرواد الأوائل الفيلسوف الكبير « شبنجلر » ودراسته القيمة في فلسفة التاريخ عن « انهيار الغرب » ، يشبه شبنجلر الثقافات بالكائنات الحية . فالثقافة مثل الكائن البيولوجي تولد وتموت . ومن الواضح أن العلامة (ابن خلدون) قد سبقه في ذلك بقرون طويلة ، وقد تعرض هذا الاتجاه البيولوجي في تفسير تطور الثقافات للنقد الشديد .

كان « شبنجلر » أول من بحث ظاهرة ثقافة هامة وهي « الاستعارة الانتقائية » للعناصر الثقافية ، فقد شرح كيف تنتقل العناصر الثقافية من مجتمع الى آخر ، وما يطرأ على تلك العناصر من تغيرات لكي تلائم الثقافة الجديدة ، فمثلا انتشار البوذية من الهند الى الصين وما صاحبها من تغيرات في المجتمع الجديد . ويرى (شبنجلر) أن الأساليب التي يطبقها مجتمع ما في تعديل العناصر الثقافية وتغييرها المستعارة من مجتمع لآخر تعكس الاتجاهات والقيم السائدة في ثقافة ذلك المجتمع ، ولا تقتصر تلك الأساليب على تعديل العناصر الثقافية المستعارة وانما تشمل كذلك عمليات رفض بعض تلك العناصر المستعارة ، ويفهم من تحليلات (شبنجلر) أن « أسلوب النظر الى الحياة » السائد في ثقافة ما هو المسؤول عن عمليات التغيير والرفض التي تجريها تلك الثقافة على العناصر الثقافية المستعارة من ثقافة أخرى . وفي مقارنة بين الثقافة الاغريقية والثقافة الفرعونية توصل « شبنجلر » الى تحديد اختلاف واضح في « أسلوب النظر الى الحياة » في الثقافتين قيد البحث ، فبينما يتعمق المصريون القدماء في مفهوم الزمن — ولذلك يسيطر اهتمامهم بالزمن على الكثير من عناصر الثقافة الفرعونية وانساقها — نجد أن الاغريق ينظرون الى الزمن نظرة سطحية ، ولذلك لا يؤثر هذا المفهوم في معظم عناصر الثقافة الاغريقية وانساقها ، حتى عرف الاغريق « نظام التسلسل الزمني » واستعاروه من الثقافة البابلية والثقافة الفرعونية ، ولكن فقد هذا النظام الكثير من

أهميته وثقله الثقافي في الثقافة الجديدة التي نقل اليها . فعلى الرغم من وجود مؤرخين اغريقيين مثل « هيرودوت » و « توثيديدس » الا أن الاخير ادعى عدم وجود أي احداث تاريخية هامة قبل عصره مما يؤيد عدم عمق مفهوم الزمن في الفكر الاغريقي وتختلف الصورة تماماً في الثقافة الفرعونية حيث نجد أن الاهتمام بالزمان يسود الكثير من مركبات تلك الثقافة وأنساقها . ومن أمثلة ذلك استخدام سجلات محفورة على حجر الجرانيت . وتطبيق نظم إدارية متطورة في مشروعات الري ، وما تتضمنه من تنظيم زمني لفترات الفيضانات والتحاريق ، وبناء الاهرام كرمز للخلود واستمرار الزمان . والاهتمام بالسجلات القديمة وحفظها ، واختراع فن التحنيط لحفظ الموتى عبر القرون . وهكذا يعد « شبنجلر » الثقافة الفرعونية ثقافة « تاريخية » في حين أن الثقافة الاغريقية ثقافة « لا تاريخية » ولا أدل على ذلك من حرق الاغريق لجثث موتاهم .

واذا انتقلنا من دراسات فلسفة التاريخ العامة الى الدراسات الانثروجرافية الخاصة ، نجد أن دراسات العلامة « مالينوفسكي » عن سكان جزر « أتروبرياند » من أهم الدراسات الميدانية التي مهدت لظهور الانثروبولوجيا النفسية ، وهي أول دراسة انثروبولوجية تشير الى أهمية مرحلة الطفولة في تكوين الشخصية . ومن المعروف أن مدرسة التحليل النفسي ، وعلى رأسها فرويد تهتم بدراسة أثر تلك المرحلة من مراحل نمو الانسان ، في تكوين شخصيته ، تعارض دراسة الانثروبولوجي (مالينوفسكي) بعض تفاصيل نظرية التحليل النفسي ، وان كانت تتفق معها في أهمية هذه المرحلة في تكوين الشخصية . درس « مالينوفسكي » هذا الموضوع في كتابه « الجنس والكبت في مجتمع متوحش » الذي نشر لاول مرة في عام (١٩٢٧) . وقد سبق له أن نشر الجزء الاول من هذا الكتاب في مقالين في عام (١٩٢٤) بعنوان التحليل النفسي والانثروبولوجيا ، وعارض فيهما بشدة نظرية التحليل النفسي في تصورها كيفية تأثير مرحلة الطفولة في الشخصية ، وفي العام التالي (١٩٢٥) نشر المحلل النفسي « جونس » مقالة بالمجلة الدولية للتحليل النفسي يرد فيها على اعتراض (مالينوفسكي) ويدافع عن نظرية التحليل النفسي ، وقد

رد « مالينوفسكي » في النصف الثاني من كتابه على « جونس » وغيره من أتباع مذهب (فرويد) ، ولنتناول الآن في ايجاز هذا النقاش العلمي .

يدور تصور مدرسة التحليل النفسي لعملية تأسيس مرحلة الطفولية في الشخصية حول عقدة أوديب : فخص « مالينوفسكي » هذه النظرية في ضوء دراسته الاثنوجرافية لسكان جزر تروبرياند ، وبدأ دراسته بوضع السؤال التالي: « هل ننظر الى « عقد أوديب » كما حددها فرويد على أنها ظاهرة انسانية عالمية توجد في كل الثقافات أو على انها من نتاج شكل معين لنظم الاسرة ؟ من الواضح أن « فرويد » تصور عقدة أوديب كظاهرة عالمية وخاصية أساسية للحياة البشرية، لأنه أرجع جذورها للبيولوجيا ولصلبيات التنشئة الاجتماعية ، فعندما يرضع الطفل من صدر أمه لا يستقبل فقط الغذاء ، وانما يستقبل كذلك أول احساساته الشبقية، فتتمركز تلك الاحساسات حول الفم ، والفم هو أول واسطة يستخدمها الطفل في اتصالاته مع العالم الخارجي ، وبعد فترة متأخرة من نمو الطفل ترتبط المشاعر الشبقية بمنطقة الشرج ، وأخيرا ترتبط بالاعضاء التناسلية ، وتصبح الام عن طريق عملية الرضاعة أول شخص أو شيء يحبه الطفل ، في حين يستمر الوضع كذلك بالنسبة للولد الصغير تحول الفتاة حبها نحو الأب ، ويرى (فرويد) أن الانسان الحديث يتأثر في سلوكه برواية « سوفوكليس » الشهيرة ، وهي الرواية التي تمثل وجود رغبة ممنوعة عند الابن وهي رغبته في قتل أبيه والزواج من أمه ، ويرى « فرويد » أن تلك الرغبة تظل مكبوتة في نفس الابن ، ولكنها على الرغم من ذلك تبقى في اللاشعور عند كل انسان ، وتظهر بقوة عند العصابيين والذهانيين الذين يخفقون في حل «عقد أوديب» بنجاح ، الى هنا ينتهي رأي العلامة (فرويد) وأتباعه من أصحاب مدرسة التحليل النفسي ، ولكن (مالينوفسكي) يتساءل حقا « عقدة أوديب » حقيقة انسانية عالمية ؟ وهل يمكن لتلك العقدة أن تظهر في مجتمع يطبق نظام القرابة الامي ؟ ، وخاصة ان دور الأب في مثل هذا المجتمع يختلف تماما عن دوره في المجتمع الغربي الذي يأخذ بنظام القرابة الأبوي ، وهو المجتمع الذي استقى منه « فرويد » نظرية عقدة أوديب ، لكي يجيب (مالينوفسكي) عن السؤال السابق قدم وصفا كاملا لخصائص الاسرة في قبائل تروبرياند ، وهي قبائل تتميز

نظام القرابة الامي ، ويقع هذا الوصف في النصف الاول من كتابه سابق الذكر ، يصير التسلسل القرابي في مجتمع تروبرياند في خط الاناث ، ولذلك يصبح المولود عضوا في عشرة الام ، ولا يرتبط بأية علاقة قرابية مع عشيرة الاب ، أما نظام السكنى فهو السكنى من والد الزوج، اذ تعيش الزوجة في عشيرة الزوج ، وتطبق القبيلة نظام وحدانية الزوجة فيما عدا الزعماء الذين يتزوجون عدة من زوجات ، ولا يعتقد التروبرياندیون في وجود علاقة بين الاتصال الجنسي والحمل ، وانما يعتقدون أن الطفل يوضع في رحم الام عن طريق احدى قريباتها من الموتى ، وهكذا لا يعد الاب شريكا للام في الانجاب ، بالتالي ينظر للطفل على أنه من صنع الام فقط ويرتبط بأسرتها في خط الاناث، ولا يرث الابن شيئا من أبيه وانما يرث خاله، وينظر الطفل الى خاله على أنه صاحب السلطة الرئيسة في الأسرة ، وذلك لانه العائل للاسرة ، اذ يعطي الرجل منتجات حديقته لاخته ، برغم أنه عادة يقطن في قرية أخرى ، وأحيانا تكون تلك القرية على بعد ستة اميال أو ثمانية عن مسكن أخته ، والخال هو المربي والمؤدب للاطفال ، ولا يقوم الاب بتلك الوظيفة التربوية ، ولكن قد يتساءل القارىء كيف يقوم الخال بتلك الوظيفة التربوية وأخته تعيش مع أطفالها في عشيرة الاب ، وذلك لان نظام السكنى هو نظام السكنى مع والد الزوج ؛ تتلخص اجابة هذا السؤال في واقعة ان الطفل عندما يبلغ السابعة من عمره يذهب الى قرية خاله ويعيش فيها ويتعلم منه فنون الزراعة وتقاليد عشيرته ، وهكذا يتلخص الوضع الاقتصادي ونظام السلطة في أن الخال هو عائل الاسرة وهو الرئيس الشرعي للاسرة ـ تليه في المركز أخته التي تتمتع بمركز ولها ممتلكاتها الخاصة ، ولا يحدث أن يشاهد الاطفال امهم وهي في حالة خضوع لزوجها ، والغريب في الامر أنه على الرغم من هذه الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية فان الاب يعيش في قريته ويمتلك البيت الذي يعيش فيه، ولا يهمل الاب أطفاله على الرغم من تلك الظروف ، بل أنه يهتم ويلعب معهم ، وبخاصة قبل ذهابهم لمشيرة خالهم ويعطيهم من الوقت أكبر مما يعطيه الاب الغربي لاطفاله .

ينمو الاطفال في هذا المجتمع متمتعين بحرية كبيرة في جميع المجالات بما في ذلك مجال الجنس ، اذ يؤدي الاطفال العاب جنسية بصورة علنية ، يقلدون فيها

الاتحاد الجنسي عند الكبار ، وتقابل تلك الالعاب بتسامح الكبار وتبادل الضحكات ، ولكن تسود الحرية الجنسية في فترة الطفولة والبلوغ فقط وتتوقف بعد الزواج ، ولا يحد تلك الحرية الا نظام المحارم الذي يمنع العلاقات الجنسية بين الاخوة وبين الاصول والفروع ، ويلاحظ أنه يوجد تباعد اجتماعي بين الاخ وأخته عند اقتراب مرحلة البلوغ وما بعدها ، وبدرجة أقل يطبق هذا التباعد على الاولاد والبنات المنتمين لعشيرة واحدة ، وخلال مرحلة المراهقة يعيش الاولاد في بيوت العزاب وهي أكواخ يقيمونها في الغابة بعيدا عن القرى السكنية ، وهناك يمارس الاولاد العلاقات الجنسية مع بنات العشائر الاخرى ، وعندما يعيش الولد في بيت العزاب يستمر في تناول طعامه عند والده أو عند خاله اذا كان قد انتقل للمعيشة في قرية خاله ، وذلك لانه عند البلوغ أو قبل ذلك يترك قرية والده ويعيش مع خاله في قريته ، وهناك يرتبط الولد بعشيرة أمه وينتمي اليها وفيها يرث ممتلكات خاله ويوجد استثناءات قليلة من الافراد في اتصالات جنسية متعددة يختار الولد احدى الفتيات ليتزوجها ، ويسكن عروسه الى بيت والده في الفترة التي يبني فيها كوخا مستقلا لنفسه ، وهكذا يعيش العروسان فترة شهر العسل في بيت والد العريس ، وبعد الزواج تختفي الاباحية الجنسية ويحل محلها نظام صارم يشجع على انتشار اتجاه الاخلاص في العلاقات بين الزوجين ، ويجعل من الخيانة الزوجية أمرا نادر الحدوث ، بل انه من المحرمات تبادل نظرات الحب أو الضحكات او تشابك الأيدي بين الأزواج بصورة علنية . ويرى « مالينوفسكي » أن هؤلاء القوم يعيشون في سعادة وهناء ، ويسود الوفاق بين الازواج ، ولا يوجد بينهم حالات من الامراض النفسية أو الذهانية أو حالات الجنسية المثلية ، ولذلك لم يقابل أثناء فترة اقامته الطويلة بجزر تروبرياند أي فرد مصاب بالهستريا أو اللوازم العصبية أو الافعال القهرية والافكار المتطرفة . بعد ذلك العرض لبعض جوانب ثقافة التروبياند نرجع الى الموضوع الأساسي ويتمثل في السؤال التالي **ما هو وضع « عقدة أوديب » في هذا المجتمع ؟ وهل يوجد اي دليل على وجود رغبات شهوية مكبوتة نحو الام ؟ .**

لم يجد مالينوفسكي أي دليل يؤيد وجود مثل تلك الرغبات في تلك القبيلة ،

وحاول ان يجمع بعض الاحلام بغرض تفسيرها ، ولكنه فوجىء بان الاحلام من الأمور النادرة عندهم ، وهنا يؤيد « مالينوفسكي » « فرويد » في قوله ان الاحلام تقوم بوظيفة تخفيف التوترات المكبوتة ، وبالتالي تدل ظاهرة ندرة الاحلام في تلك القبيلة على أن أعضاءها يتمتعون بشخصيات سوية ، وبرغم ذلك نجح « مالينوفسكي » في جمع عدد قليل من الاحلام الجنسية ولاحظ أنها خالية من أي رمز يدل على وجود رغبة مكبوتة للاتصال بالام ، وعندما سأل بعض الاشخاص ما اذا كانوا قد حلموا بممارسة أي علاقة جنسية مع الام ، قوبل سؤاله بالاستنكار الشديد ، وأجابوا بالنفي ، ولكنهم اعترفوا بوجود بعض احلام تشمل ~~ممارسة~~ جنسية مع الاخوات ، ولم يستطع « مالينوفسكي » اكتشاف وقوع حالة اتصال واحدة بين الاصول والفروع ، ولكنه اكتشف حالات نادرة عن اتصالات بين بعض الاولاد وأخواتهم ، وعند تحليله القصص الشعبية والاساطير لم يعثر على « مالينوفسكي » في مذكراته الميدانية على أدلة تؤيد وجود مثل تلك الاتجاهات ، وانما عثر على أدلة تؤيد أن الابناء يحملون مشاعر طيبة نحو آبائهم ، ولكنه لاحظ ظاهرة هامة هي أن الابناء يظهرون ، في بعض الاحيان ، مشاعر عدوانية نحو أحوالهم ، ومن أهم ما استرعى انتباه مالينوفسكي ندرة حدوث جريمة القتل في تلك القبيلة ، لم يعثر على أية حال من حالات قتل الام أو الاب او الخال أو الاقارب بصورة عامة .

ان النتيجة النهائية التي وصل اليها مالينوفسكي هي عدم وجود عقدة أوديب ، كما وصفها فرويد ، في مجتمع تروبرياند ، وبالتالي لا يجب ان نفترض الوجود العالمي لعقدة أوديب ، وقد شرح تلك النتيجة بقوله :

« في مجتمع تروبرياندلا يوجد أي عداء بين الابن وأبيه ، وتسمح الانماط الثقافية بوجود مشاعر تعلق الطفل بأمه وشوقه اليها ، وتنمو تلك المشاعر بصورة طبيعية تلقائية ، ويشعر الابن بالكراهية لخاله ، ويتمثل الاتجاه الجنسي المكبوت الخاص بنظام المحارم في الاتصال بالاخت ، وهكذا نلاحظ انه في حين تؤكد عقدة أوديب وجود رغبة مكبوتة عند الابن لقتل الاب للزواج من الام نجد أن

ثقافة الترويبرياند التي تأخذ بنظام التسلسل القرابي الأمي تتضمن رغبة مكبوتة تتمثل في الزواج من الأخت رمز الخال » .

ثانيا : موضوع الانثروبولوجيا النفسية :

يتضمن موضوع الانثروبولوجيا النفسية في تحديد العلاقة بين الثقافة والشخصية ، ولا تسير تلك العلاقة في اتجاه واحد وانما في اتجاهين ، أثر الثقافة في الشخصية وأثر الشخصية في الثقافة . ولنتناول الآن في ايجاز شرح كل جانب على حدة .

أ - أثر الثقافة الشخصية :

يستخلص الانثروبولوجيون مفهوم الثقافة على أنه أسلوب الحياة الذي يميز مجتمع ما عن غيره من المجتمعات ، وأهم مميزات هذا المفهوم النظرة الكلية الشاملة ، فالثقافة تشمل جميع أنماط السلوك المكتسبة ، سواء أكانت تمثل علاقة الانسان بالمادة أم علاقته بغيره من البشر أم علاقته بالأفكار والرموز ، وبالتالي يمكن تمييز ثلاثة قطاعات متداخلة الثقافة ، القطاع المادي أو التكنولوجي والقطاع الاجتماعي والقطاع الفكري والرمزي . ان هذا التعريف البسيط للثقافة لا يعبر عن المدارس الفكرية والنظريات الانثروبولوجية التي بحثت بعمق مفهوم الثقافة ، وتوصلت الى تعريفات مختلفة ومبادىء متعددة لهذا المفهوم ، وانما يعطينا فكرة مبسطة تسمح بشرح أثر الثقافة في الشخصية ، ولكن لا يعني ذلك ان الباحث في الثقافة والشخصية لا يحتاج الى دراسة دقيقة لمفهوم الثقافة .

بينما يتميز مفهوم الثقافة بالشمول وبتنميط السلوك ، فان مفهوم الشخصية - على النقيض - يتميز بالتفرد وتخصيص السلوك ، فالشخصية هي تنظيم دينامي ثابت نسبيا داخل الفرد يتمثل في مجموعة من السمات الجسمية والنفسية . ويستدل على ذلك التنظيم من خلال ملاحظة سلوك الفرد واخضاع تلك الملاحظة للقياس الكمي الذي يمكن التعبير عنه بتكوينات متوسطة مثل السمات أو الاتجاهات ، لكل فرد شخصية منفردة ومتميزة ، ولا يشاركه فيها أي شخص

آخر ، ومن هنا كان القول ان الفرد من ناحية معينة لا يشبه أي فرد اخر . ولكن وعلى الرغم من هذا الاختلاف الواضح بين المفهومين ، الثقافة والشخصية نلاحظ أن العلاقة بينهما علاقة ضرورية وجوهرية ، فدون الثقافة لا توجد الشخصية ، ودون الشخصية لا توجد ثقافة ، وذلك لأن الثقافة هي مجموعة من أنماط السلوك التي تميز مجتمع ما ، واذا حللنا أنماط السلوك نجد أنها أكثر الحالات تكرارا لسلوك معين ، وهذا السلوك المعين صادر عن فرد معين أي من شخصية معينة .

سبق القول أن الفرد من ناحية معينة لا يشبه أي فرد آخر ، وفسر ذلك القول على أساس أن كل فرد له شخصية مميزة وفريدة ، لا يشاركه فيها أحد ، بمعنى انه لا يوجد فردان ، حتى في حالة التوائم ، يتشابهان تماما في جميع السمات الجسمية والنفسية ، ولكن ، هناك حقيقة أخرى ، وهي أن الفرد من ناحية أخرى يشبه بعض الافراد الاخرين ، ويقصد بذلك ان الفرد كعضو في جماعة معينة وكحامل لثقافة معينة كذلك يشبه في بعض السمات النفسية الكثير من أعضاء ذلك المجتمع ، قد يتبادر الى الذهن وجود بعض التعارض بين القولين السابقين ، ولكن الحقيقة أنه لا يوجد تعارض وانما تكامل بينهما ، فالفرد ككل له شخصية فريدة متميزة ، ولكن بعض عناصر تلك الشخصية يشاركه فيها أفراد آخرون . فمن الواضح أن اعضاء أي مجتمع يشتركون في مجموعة من سمات الشخصية أو عناصرها ، ولا شك أن تلك العناصر المشتركة تحتوي على مدى واسع مع الاختلافات الفردية ، وتتنوع تلك العناصر المشتركة من الاستجابات الظاهرية البسيطة مثل آداب المائدة الى الاتجاهات العامة جدا مثل القيم .

ويتفق الانثروبولوجيون على وجود الاختلافات والفروق الفردية في شخصيات أعضاء المجتمع الواحد ، ويتفقون على وجود تفرع وتعدد لاشكال الشخصية في المجتمع الواحد . ولكنهم يتفقون كذلك على أن العناصر المشتركة في شخصيات اعضاء المجتمع الواحد تكون معا « صيغة كلية » متكاملة يمكن أن تسمى « الشكل الرئيسي للشخصية » هذا بالنسبة للمجتمع ككل . تمد تلك «الصيغة الكلية » أفراد المجتمع الواحد بالمفاهيم العامة والقيم التي تعمل في

الامكان حدوث استجابة عاطفية موحدة لاعضاء المجتمع نحو مواقف تتضمن قيمهم العامة المشتركة . وإضافة الى تلك « الصيغة الكلية » العامة والمتعلقة بالمجتمع ككل ، كذلك توجد في كل مجتمع « صيغ كلية » اضافية ، أو أقل عمومية، للاستجابات الخاصة بجماعات معينة داخل المجتمع وهكذا ، ففي كل مجتمع توجد « صيغ كلية » مختلفة ومتميزة لكل من جماعات الرجال والنساء والمراهقين والكبار وما الى ذلك ، وفي المجتمع الطبقي توجد اختلافات مشابهة في الاستجابات المميزة لاعضاء المستويات الاجتماعية المختلفة مثل النبلاء والعامة والعبيد ، ويطلق العلامة لينتون على « الصيغ الكلية » الخاصة بالاستجابات المرتبطة بالمراكز الاجتماعية اصطلاح « شخصيات المركز » ، ويؤكد لينتون على أهمية شخصيات المركز في نجاح تفاعل أعضاء المجتمع الواحد على أساس المركز وحده ، فعندما يقابل احد الافراد فردا آخر غريبا تماما عنه، فان أي تعرف بسيط على الاوضاع الاجتماعية للفردين يجعل في الامكان أن يتنبأ كل منهما بنوع الاستجابات التي تصدر عن الآخر في المواقف المختلفة . ويجب ملاحظة ان شخصيات المركز لا تتعارض مع الشكل الرئيس للشخصية وانما تتكامل معه ، ولكنها تختلف عن الشكل الأخير من ناحية انها تتضمن الكثير من الاستجابات الظاهرية المتخصصة ، في حين يتضمن الشكل الرئيس للشخصية الاتجاهات والقيم العامة . ويفرق « لينتون » بين معرفة نظام قيمة ــ اتجاه معين والمشاركة في هذا النظام ، فمن النادر أن تشمل شخصية المركز أي نظام قيمة ــ اتجاه يكون غير معروف لاعضاء المراكز الاخرى في المجتمع الواحد ، هذا على الرغم من امكانية وجود عداء قوي بين جماعات تلك المراكز ، ولكن كثيرا ما تشتمل شخصيات المركز على نظم قيمة ــ اتجاه لا يشاركها فيها أعضاء جماعات المراكز الاخرى ، فمثلا ، قد يعرف الرجال الاحرار بقيم العبيد واتجاهاتهم بل ويسمحون بوجودها ، ولكن دون المشاركة الواقعية فيها ، أي دون الاقناع بتلك القيم ، ويجب ملاحظة أن الاستجابات الظاهرية المتخصصة ، وليست القيم والاتجاهات ، هي التي تعطى شخصيات المركز معظم دلالتها الاجتماعية ، فطالما أن الفرد يتمى تلك الاستجابات ، فهو يستطيع ان يؤدي أدوار المركز بنجاح ، سواء أكان الشخص يشارك أو لا يشارك في القيم والاتجاهات .

ويقدم المجتمع أنماط الاستجابة الظاهرية المتخصصة لشخصيات المركز في صورة بسيطة ومحسوسة ، تجعل تعلمها أمرا سهلا ، ثم يقوم المجتمع من خلال عملية التنشئة الاجتماعية وعلى الخصوص من خلال الضغط الاجتماعي بتعليم الافراد المختصين بالاخذ بتلك الاستجابات بصورة ثابتة مستمرة ، فيكافأ الفرد على تعلم تلك الاستجابات ويعاقب من ينحرف عنها ، حقا من الممكن أن تظهر صراعات داخلية عند الفرد اذا قام بتعلم استجابات تخصصية تتعارض مع القيم والاتجاهات المناسبة به ، ولكن تأخذ الصراعات في الضعف الى أن تختفي تماما عندما تصبح الاستجابة آلية لا شعورية ، ينتهي لينتون من المناقشة السابقة الى حقيقة هامة وهي ان لكل مجتمع شكلا رئيسيا للشخصية خاصا به ، ولديه كذلك مجموعة محددة من شخصيات المركز .

ولننتقل الآن الى موضوعنا الاساسي هو كيف تؤثر الثقافة في تكوين تلك الصيغ الكلية للشخصية ؟

يهتم الانثروبولوجيون النفسيون بتحديد سمات الشكل الرئيس الشخصية وكذلك سمات شخصيات المركز في المجتمع قيد الدراسة ، وهنا يتضح اختلاف ميدان التخصص بين الانثروبولوجيا النفسية وعلم نفس الشخصية ، وان كان التعاون بينهما أمرا ضروريا ، الا يمكن ان نتوصل الى تحديد تلك الصيغ الكلية للشخصية دون معاونة الاطباء والمحللين النفسيين الذين يطبقون الاختبارات الاسقاطية على عدد مناسب من الافراد ، وبالتالي يمكن استخراج الموصفات التي تحدد الشكل الرئيس للشخصية وشخصيات المركز ، ويقوم المتخصصون في الانثروبولوجيا النفسية بهذا العمل ، سواء أكانوا من علماء النفس أم من الانثروبولوجيين ، ويلي ذلك تحديد أثر الثقافة في تلك الصيغ الكلية للشخصية ، وهو الجانب الاول من موضوع الانثروبولوجيا النفسية ، ان الانثروبولوجيين الامريكيين وعلى رأسهم العلامة « بواز » كانوا أول من اكتشف قصور التوجيهات السيولوجية والوراثية في تفسير الاشكال العامة للشخصية في المجتمعات المختلفة ، ولكنهم في ضمرة حماسهم في التصدي للمذاهب المتحيزة غفلوا عن تقديم

بديل للعناصر السلالية التي ثبت قصورها ، والثقافة هي هذا البديل ، وهنا يجب ملاحظة أن قصور العوامل الفسيولوجية والوراثية في تفسير الاشكال العامة للشخصية في المجتمعات ، لا يعني عدم تأثيرها في تكوين الشخصية الفردية ، ويشرح هذا التأثير في الفصل الرابع عند دراسة محددات الشخصية .

ترتب على ازدهار الدراسات الاثنوجرافية والاثنولوجية في نهاية القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين ان حصل الانثروبولوجيون على مادة وفيرة تسمح باجراء الدراسات المقارنة بين الثقافات المختلفة ، وملاحظة الفروق الشاسعة بين الاشكال الرئيسة الشخصية في تلك الثقافات ، مما أدى الى تأكيد قصور العوامل البيولوجية والوراثية في شرح تلك الاختلافات ، واتجه البحث الى تحديد أثر العوامل البيئية ، ويقصد بها هنا الناس والأشياء ، تتعدد وتتنوع أشكال سلوك الافراد في أي مجتمع وكذلك أشكال معظم الاشياء التي يستخدمونها ، وتدخل تلك الاشكال في اطار الأنماط الثقافية ، وذلك على حسب التعريف الكلي لعلوم الثقافة ، وهو التعريف المذكور سابقا والذي يأخذ به الانثروبولوجيون . فمن خلال نمو الفرد في مجتمعه تنمو وتتشكل شخصيته من خلال الخبرات التي يستقيها من اتصاله بالأنماط الثقافية المختلفة ، ولا يختلف أحد على أنه دون هذا الاتصال لا يكون للفرد شخصية ، فالشخصية تنمو وتتشكل من خلال عملية التنشئة الاجتماعية أو عملية التثقف ، وتمثل تلك العمليات التربوية تأثيرات الثقافة على الشخصية ، ويقسم « لينتون » هذه التأثيرات الى مجموعتين مختلفتين ، فأولا : تأثيرات ترجع للسلوك المنمط ثقافيا والذي يعلمه الآخرون للطفل ، وتبدأ تلك التأثيرات في العمل منذ اللحظة الاولى للولادة ، وتكون ذات أهمية كبرى أثناء مرحلة الطفولة ، وثانيا : تأثيرات ترجع لاكتساب الفرد وتعلمه بنفسه لأنماط السلوك المميزة لمجتمعه ، ولا تؤثر تلك الانماط في الفرد مباشرة ، وانما تمده بنماذج يحتذيها في تكوين الاستجابات المتساوقة للمواقف المختلفة ، ان هذه التأثيرات الاخيرة لا تكون ذات أهمية في مرحلة الطفولة المبكرة .

تتميز أنماط التربية المبكرة ، وما يصاحبها من تعويدات وتنظيمات يخضع لها

الاطفال ، بتأثيرها على المستويات العميقة لشخصيات هؤلاء الاطفال ، ويتفق الرأي بين علماء النفس والانثروبولوجيين وعلماء التربية على أن السنوات الاولى في حياة الفرد هي مرحلة حاسمة في تكوين القيم والاتجاهات العامة جدا ، وتمثل تلك الامور المستويات العميقة من مضمون الشخصية ، واتفاق الرأي على اهمية مرحلة الطفولة المبكرة في تكوين الشخصية يرجع للدراسات والابحاث التي أجريت في المجتمعات الغربية وغير الغربية والتي شملت معظم ثقافات العالم . وتبين بعض تلك الدراسات التي تركزت حول دراسة الاشخاص غير الاسوياء والشواذ أن بعض سمات شخصياتهم ترجع الى تعرضهم لخبرات غير عادية في مرحلة الطفولة ، وتقرر الدراسات المقارنة للثقافات المختلفة ان الكثير من الصفات السوية لشخصيات الاوربيين ، والتي قبلت في أول الامر على أنها ترجع لعوامل غريزية ، قد ثبت انها ترجع لانماط ثقافية خاصة بتربية الاطفال .

وبرغم حداثة الانثروبولوجيا النفسية فانه يوجد عدد كاف من الابحاث يسمح باكتشاف بعض الترابطات بين الانماط المختلفة في تربية الاطفال والاشكال الرئيسة لشخصيات الكبار . فمثلا لوحظ انه في المجتمعات التي يسود فيها نمط ثقافي يحتم الطاعة المطلقة من الطفل لوالديه كشرط مسبق للحصول على مكافأة ما ، تتسم شخصيات البالغين الاسوياء بالخضوع والتبعية وعدم الخلق ، هذا على الرغم أن هؤلاء الافراد يكونون قد نسوا تماما خبرات الطفولة التي أدت الى تكوين تلك الاتجاهات العامة ، وفي تلك المجتمعات ذات السلطة المطلقة للاباء ، يكون رد فعل الشخص البالغ في أي موقف جديد هو البحث عن شخص له سلطان أو نفوذ ليطلب منه الدعم والتوجيه . ومن الامور الجديرة بالملاحظة حول هذا الموضوع أن في بعض تلك المجتمعات ذات السلطة المطلقة للوالدين ، يوجد برامج لتدريب عدد قليل من الافراد على القيادة ، وذلك لعدم امكانية ظهور قادة من خلال الانماط الثقافية العامة ، ففي قبيلة تانالا بمدغشقر ، يعامل أكبر الابناء سنا معاملة خاصة منذ المولد ، وتهدف تلك المعاملة الخاصة الى تنمية الارادة والمبادأة وتحمل المسؤولية ، في حين يخضع باقي الاطفال للانماط الثقافية العامة القائمة على الصرامة والكبت .

وفيما يتعلق بالترابط بين الانماط الثقافية وسمات الشخصية عند الكبار ، تشير الابحاث التي أجريت على الاسر الصغيرة جدا في المجتمعات الغربية الى ان الاشخاص الاسوياء في تلك المجتمعات يميلون الى تركيز عواطفهم وتوقعاتهم وسلوكاتهم أو العقاب على عدد قليل من الافراد ، ويرجع هذا التركيز بصورة أساسية لمواقف معينة في مرحلة الطفولة ، وهي المواقف التي يستقي منها الاطفال كل الاستجابات والاحباطات من والديهم فقط ، أما في المجتمعات غير الغربية ذات الاسر الممتدة فان الطفل يتصل بعدد كبير من البالغين وبالتالي لا يركز عواطفه وانفعالاته عند الكبير بعدد قليل من الافراد ، وتتضمن كل علاقاتهم الشخصية انماطا لاسوياً يتمثل في عبارة « حسنا هناك آخرون للتعامل معهم » ، ولذلك لا تنتشر في تلك المجتمعات غير الغربية مفاهيم الحب الرومانتيكي التي تركز علاقة الحب على فرد معين بالذات بدون الاقتران به تصبح الحياة دون معنى ، والكمن وراء هذه المفاهيم في الثقافة الغربية .

يتضح لنا من المثالين السابقين أن ثقافة أي مجتمع تحدد المستويات العميقة لشخصيات أعضائها عن طريق الانماط الثقافية الخاصة بتربية الاطفال ، ولا ينتهي أثر الثقافة في الشخصية عند ذلك الحد ، وانما يستمر هذا في تشكيل الكثير من العناصر الباقية في شخصيات أفراد المجتمع ، وذلك عن طريق تزويدهم بنماذج يقلدونها في استجاباتهم التخصصية أيضا ، وتستمر تلك العملية طوال حياة الفرد ولا تقتصر على مرحلة الطفولة ، ويختلف هذا التأثير الثقافي في الشخصية عن التأثير السابق في عدة جوانب ، فبينما يستمر تزويد الفرد بالنماذج طوال فترة الحياة ، فان تطبيق أنماط تربية الاطفال خاص بمرحلة الطفولة فقط ، وبينما تختص أنماط تربية الاطفال بتكوين المستويات العميقة الشخصية والتي تتمثل في القيم والاتجاهات العامة جدا ، يختص تزويد الفرد بالنماذج بالمستويات السطحية للشخصية والتي تتمثل في الاستجابات الظاهرية التخصصية ، وهذا يؤيد القول المأثور « التعلم في الصغر كالنقش على الحجر » .

وخلاصة القول ان الثقافة هي المسؤولة عن التشكل الرئيس للشخصية في أي

مجتمع ، وباختلاف الثقافات تختلف أشكال الشخصية ، ويقصد بشكل الشخصية مجموعة السمات الأكثر تكرارا بين أفراد المجتمع الواحد ، وقد مين ليتونيه بين شكلين ، الشكل الرئيس للشخصية وهو يميز معظم شخصيات أفراد المجتمع ويمثل هذا الشكل الرئيس في مجموعة من القيم والاتجاهات العامة التي تشترك في المستويات العميقة من شخصية الفرد ، وتؤسس تلك القيم والاتجاهات في الشخصية أثناء مرحلة الطفولة من طريق العمليات الداخل المستمرة والقوية بأعضاء أسرته ، والى جانب الشكل الرئيس للشخصية يوجد في المجتمع الواحد عدة أشكال أخرى للشخصية وهي شخصيات الثانوي ، وذلك لان الافراد الذين يشغلون مركزا اجتماعيا واحدا في المجتمع ، يقومون بأداء عدة أدوار متشابهة ، وتطبع هذا الاداء شخصياتهم بسمات مشتركة ، فمثلا في أي مجتمع يوجد اختلاف بين شخصيات النساء وشخصيات الرجال ، وبين شخصيات الاطفال والبالغين والشيوخ وفي المجتمعات المتقدمة تلاحظ تشابها بين شخصيات الاطباء ، ويختلف الاطباء عن شخصيات المرشدين الاكليريين ، وما الى ذلك من ذلك .

ان الشرح السابق لاثر الثقافة في تكوين اشكال عامة للشخصية في المجتمع الواحد لا يعني مطلقا القول انما فراد المجتمع الواحد تتشابه شخصياتهم ، لانه يوجد فرق كبير جدا بين شكل الشخصية والشخصية الفردية أو الشخصية ، يقصد بشكل الشخصية مجموعة تجريدية من السمات المشتركة بين عدة شخصيات فردية أما الشخصية فيقصد بها شخصية فرد معين بالذات ، ويتفق الانثروبولوجيون مع علماء النفس على أنه لا يوجد فردان في العالم متشابهان تماما في الشخصية ، وينطبق هذا التعميم على التوائم كذلك ، وعلى التوائم المتماثلين المتين تطبق نظام التواج من الداخل ، وذلك لان الافراد يختلفون في امكانياتهم الوراثية للنمو ، كما يختلفون في العوامل البيئية التي يمرون فيها ، وتتأثر بها تلك الامكانيات الوراثية ، منذ الولادة كذلك يختلف الافراد في الحجم والقوة تسم في الذكاء وفي القدرة على التعلم ، وبما أن عملية تكوين الشخصية هي في الاصل عملية تكامل للخبرة ، وتستمد تلك الخبرة من تفاعل الفرد مع بيئته الثقافية ، فان الافراد سيكتسبون خبرات مختلفة حتى في البيئات المتشابهة ، وبالتالي تنمو شخصيات

بالغة متباينة ، ان الثقافة تعبر عن ذاتها للفرد في اطار سلوك الناس الآخرين وفي أشكال الانتاج التي عادة يستخدمها ويستخدمها أفراد مجتمعه ولا شك ان اختلاف أشكال سلوك الافراد ، وتعددها واختلاف الاشياء من الامور الراسخة في المجتمعات التقليدية المعقدة ، وهي بالنسبة للمجتمعات البسيطة التي تتميز بالتجانس وصرامة الانماط الثقافية وبساطة الاشياء التي يستخدمها الفرد فانه توجد اختلافات في المكونات الايديولوجية الفردية ، وتسمح الانماط الثقافية الصارمة جدا بقدر من التنوع في السلوك الفردي . هذا بالاضافة الى ان أنماط العلاقات الاسرية لا يمكن أن تكون صارمة جدا من الناحية العملية ، فان التفاعلات الشخصية المتكررة بين الطفل ووالديه تؤدي الى نمو أنماط متنوعة للسلوك ، ويتحدد مدى هذا التنوع عن طريق الخوف مما قد يقوله الآخرون وعن طريق الانماط الثقافية التي تسمح بمثل هذا التنوع ، وفي اطار الحدود المفروضة عن طريق الثقافة ، فانه من الممكن للآباء في كل مجتمع أن يكونوا عاطفيين أو لامبالين أو صارمين أو متسامحين أو متسلطين ، ان الاختلافات الفردية والاختلافات البيئية تتفاعل في مجموعة لانهائية تقريبا من الترابطات والتغيرات ، وان الخبرة التي يمكن للافراد أن يستمدوها من تلك الترابطات تكون كذلك مختلفة لدرجة كبيرة وبالتالي تنمو كل شخصية فردية كحالة منفردة لا تطابقها شخصية اخرى .

يتفق الانثروبولوجيون النفسيون على حدوث تغيرات في الشخصية العامة للمجتمع عبر الزمان ، وتختلف معدلات تلك التغيرات ، ويرجع ذلك لتأثير عوامل متنوعة ومتشابكة ، ومن أهم عوامل تغير الشخصية العامة لمجتمع التغير الثقافي ، وتوجه الرأي الى التسليم بأن تغير شخصية المجتمع يسير بمعدل أبطأ من معدل التغير الثقافي ، وتتضح تغيرات شخصية المجتمع عبر الاجيال ، فان اختلاف سمات شخصيات الآباء عن شخصيات الابناء من الظواهر النفسية التي تبرز بوضوح في المجتمعات المعقدة التي تتميز بوضوح عملية التغير الثقافي ، وترى الملانة ميد ، أن كل عضو في كل جيل ، من الطفولة حتى الشيخوخة ، يساهم في اعادة شرح الاشكال الثقافية ، وبالتالي يسهم أعضاء المجتمع في عملية التغير الثقافي ، ولكن يجب ملاحظة ان التغيرات الثقافية التي تصطدم مع الشخصية العامة للمجتمع يكون

مثالها التشيل في الغالب . وهكذا فان التأثير متبادل بين الثقافة والشخصية فحدوث تغير في احدهما أو معهما معا .

ويرى الكثيرون من المتخصصين في الثقافة والشخصية ان تأثير التغيرات البيئية والاقتصادية في مجتمع ما في شخصية هذا المجتمع ، لا يتم الا عن طريق احداث تغير في اساليب تربية الطفل . وهكذا فان التغيرات بين شخصيات الاجيال قد تنحقق عن طريق التغيرات الثقافية التي تؤثر اولا في الخبرات الخاصة بمرحلة الطفولة . فمثلا ، يرى العلامة « ريسمان » وجود علاقة عامة بين الوضع الديموجرافي والنظام الاقتصادي وبناء الاسرة وبناء الشخصية ، فالشخصية ينظر اليها على انها متغير تابع ، في حين ينظر للتغير الاقتصادي على أنه متغير مستقل ، واساليب التنشئة الاجتماعية على أنها متغير وسيط ، ولكنها تمثل متغيرا تابعا للتغير الاقتصادي في الوقت نفسه .

وكان هناك رأي سائد الى عهد قريب يقرر بأن التغيرات الثقافية التي تزيد حالة اللاتجانس في مجتمع ما ، مثل امتزاج الثقافات والتحضر ، تمثل تهديدا خطيرا لشخصية ذلك المجتمع ولتكامله الاجتماعي ، ويستند هذا الرأي على افتراض أن الثقافات غير المتجانسة أي المنقسمة الى أجزاء غير منسجمة ، لابد أن تؤدي الى شخصيات من خصائصها الصراع . ويعتمد هذا الرأي على نظرية الدوافع التي تقرر أن التكامل والاتساق هو وظيفة للتجانس . ولكن تعارض الدراسات الميدانية الحديثة لعمليات التغير الثقافي حول هذا الرأي قد بينت أن التغير الثقافي العادي هو حالة عادية وطبيعية للثقافات ولا يعد بالضرورة خطرا وضررا ، لأن معظم الثقافات المعاصرة هي ثقافات غير متجانسة ، وفي حالة تغير ثابت وسريع نسبيا ، وبالتالي اختفت معاني الصراع النفسي والتفكك الاجتماعي والثقافي التي كانت مصاحبة لظهور اللاتجانس والتغير الثقافي ، ومن الواضح ان الدراسات الميدانية لا تنكر وجود حالات من التفكك الاجتماعي والصراع النفسي في كثير من المجتمعات التي تتصف باللاتجانس والتغير الثقافي ، وانما تنكر ارجاع تلك الحالات لخواص اللاتجانس والتغير الثقافي . حقا ان اللاتجانس والتغير الثقافي السريع يؤديان الى

ايجاد تنوع عريض لاشكال الشخصية في المجتمع قيد البحث ، ويتمثل ذلك في كثرة شخصيات المركز . ولا يوجد مثل هذا التنوع في الثقافات المتجانسة ذات التغير الثقافي السريع البطيء ، ولا يعني تنوع أشكال الشخصية في المجتمعات غير المتجانسة ذات التغير الثقافي السريع كثرة الشخصيات غير السوية ، لان كل شكل من أشكال الشخصية يمكن أن يكون مستقرا وثابتا في اطار الثقافة الفرعية التي ينتمي اليها ، تماما مثل الحال بالنسبة لشكل الشخصية الذي يوجد في ثقافة متجانسة ثابتة . ان مشكلة المجتمعات المعقدة ذات التغير الثقافي السريع لا تتمثل في أن كل أعضائها يعانون من أمراض نفسية وذهانية ، وانما هي مشكلة متعلقة بان التنظيم الاجتماعي والثقافي يتطلب المزيد من قدرات أعضائها وتخصصاتهم ، وفي تلك الظروف قد يتعرض بعض الافراد بصورة ثانوية لحالات الاحباط وحرمان المركز وفقدان الوظيفة ، وبالتالي يعانون من بعض الامراض العصابية والذهانية . ولكن يجب ارجاع تلك الحالات المرضية لاسبابها الحقيقية ، وهي فشل بعض النظم الاجتماعية في اشباع حاجات اعضاء المجتمع ، فمثلا ، لا يمكن القول ان الجماعات الفرعية الفقيرة في المجتمعات المعاصرة ، مثل الاقليات الدينية والثقافية والطبقات الاقتصادية السفلى والمؤرخين الذين يعانون من استعمار أوطانهم ، يعانون من كثرة حالات المرض والقلق بسبب وجود حالة اللاتجانس أو التغير الثقافي او هما معا في تلك المجتمعات ، أن الاسباب الحقيقية تتمثل في الظروف الاقتصادية والاجتماعية السيئة التي تفرض على تلك الجماعات من البشر . ومن أمثلة تلك الظروف سوء التغذية والامراض الوبائية والاحتقار والايذاء الجسمي وصدمة فقدان الثقافة والصدمة الثقافية .

ومن أهم الموضوعات المتعلقة بأثر الثقافة في الشخصية دراسة الآثار النفسية لصدمة فقدان الثقافة ، ويقصد بفقدان الثقافة الظروف الاستثنائية القاسية التي يتعرض لها المجتمع والتي يترتب عليها انهيار ثقافة المجتمع أو انهيار بعض أنماطها ، ومن أمثلة تلك الظروف القاسية الكوارث الطبيعية مثل الزلازل والاعاصير والاوبئة وكذلك الحروب المدمرة وحالات انهيار المدنيات الكبرى المدنية الاغريقية والمدنية الرومانية ومدنية أسبانيا الاستعمارية وحالات انقراض الكثير من الثقافات البدائية .

يواجه أعضاء المجتمع في أثناء تلك التحولات بما يعرف بسمة الفقدان الثقافي ، اذ يتابط الفرد بأن ثقافته قد اختفت ، وانه مضطر الى التخلي عنها فجأة أو الى التخلي عن بعض عناصرها من قلم أو عادات أو قيم ، وفي أحيان اخرى يتم التخلي عن الثقافة او عن بعض عناصرها تهربا من الأذى أو الضرر الذي يلحق بالأفراد في حالة عدم التخلي .

ب ـ أثر الشخصية في الثقافة :

الثقافة مكتسبة ، والانسان هو صانعها ، وتشير الحقيقة العلمية السابقة الى أهمية موضوع أثر الشخصية في الثقافة ، وهي الجانب الثاني من موضوع الانثروبولوجيا النفسية . ومن أهم الدراسات المرتبطة بموضوعنا هذا دراسة عملية التجديد والاختراع ، وهناك عدة نظريات تشرح عملية التجديد ، نتدرس منها على سبيل المثال نظرية العلامة بارنت المعروفة باسم نظرية « اعادة الربط » ، يعرف العلامة « بارنت » التجديد بأنه عملية عقلية يتم فيها اعادة تركيب لاثنين أو أكثر من الصيغ الكلية العقلية ، وفيها يقوم المجدد بثلاث عمليات عقلية ، وهي ، اولا : أن يحلل بعض الصيغ الكلية العقلية ، وأن يحلل كل صيغة منها بحيث يميز العناصر المكونة لها والعلاقات التي بين تلك العناصر ، وثانيا : يقوم المجدد بمقارنة ومضاهاة تلك العناصر بعضها ببعض ، بحيث يستطيع ملاحظة أوجه التشابه والاختلاف بين تلك العناصر ، وثالثا : يعيد المجدد الربط بين عناصر تلك الصيغ الكلية ، وذلك عن طريق تلك العناصر ، ويمكن توضيح العمليات العقلية السابقة بمثال أبسط يتكون من العبارات اللفظية التالية :

الوحدة الاولى ـ عملية التحليل :

النموذج الاصلي : « النواصات ذات شكل غواصة ، تتحرك ببط بالنسبة لطولها » .

المنبه : « الاسماك ، ذات شكل نسكة ، تعوم بسرعة بالنسبة لطولها » .

المرحلة الثانية ـ مقارنة تطابق :

تطابق « سمكة » مع « غواصة » .

تطابق « يسبح » مع « يتحرك » .

تطابق « شكل سمكة » مع « شكل غواصة » .

المرحلة الثالثة ـ مقارنة استبدال :

استبدال « شكل غواصة » بـ « شكل سمكة » .

استبدال « بطيء » بـ « بسرعة » .

العبارة الموسعة :

الغواصات « ذات شكل سمكة » تتحرك بسرعة بالنسبة لطولها .

وجدير بالملاحظة أنه على الرغم من أن العبارة الجديدة هي صيغة كلية جديدة تماما ، فإن العناصر والعلاقات المتضمنة فيها لا توصف بالجدة ، لأنها مأخوذة من العبارات السابقة ، ولكن إذا طبقنا نظرية « بارت » هذه على التغير الثقافي ، نصل إلى نتيجة هامة وهي أن كل تغير يجب أن ينظر إليه على أنه إعادة ربط بين العناصر الثقافية الموجودة من قبل ، وبالتالي لا بد من وجود « نقطة الابتداء » حتى يستطيع المفسر أن يعيد صياغتها الوصول إلى صيغة كلية جديدة ، هذا إضافة إلى أن النظرية السابقة تتضمن الافتراض بوجود عدد محدد ، حتى ولو كان كبيرا ، من الصيغ الكلية الممكنة ، ويحدد هذا العدد حجم المجموعات الأصلية من العناصر والعلاقات وعدد محدد من الثقافات الممكنة ، وهو أمر لا تقبله النظريات الأنثروبولوجية الحديثة ، ويضيف العلامة « والاس » إلى أوجه القصور السابقة ، عدم اهتمام تلك النظرية بتحديد الشروط التي على أساسها سوف يحدث تجديد معين ، وكذلك بالتنبؤ بالارتباطات التي سوف تحدث ، والتنبؤ بالأشخاص الذين سيقومون بها ،

وبالتحديد الذي يمكن أن نظهر فيه ، وربما تعني به مثل تلك التغيرات التي ترجع بصفة خاصة بالدوافع الشخصية والخبرات الخاصة والوسط الموقفي والثقافي ، ولذلك يرفض العلامة « والاس » الأخذ بتلك النظرية كأساس لدراسات التغير الثقافي .

وتفادي بعض أوجه النقص السابقة يقدم العلامة « والاس » نظرية « الحد الاقصى » ، وهي تخرج على أساس المسلمة التي تؤكد أن الكائن في أفعاله يسعى الى تحقيق الحد الاقصى — في اطار الشروط الموجودة وفي حدود قدراته — لكمية التنظيم في النظام الديناميي الممثل في الصورة الفعلية التي يطلق عليها اصطلاح « تصور الفرد لذاته والعالم الخارجي » ، وهكذا يكون الكائن مزوداً بدافع فطري يدفعه الى زيادة كل من درجة التعقيد والتنظيم في خبراته ، ويرى « والاس » أن مبدأ الحد الأقصى هذا ، يسمح بامكانية حدوث تجديدات من عناصر وعلاقات غير موجودة من قبل ، وذلك اذا توافرت الشروط اللازمة .

واذا انتقلنا الى موضوع الخواص النفسية الخاصة بالمجددين ، وهي وجه الخصوص الحوافز ، نجد أن كلا من نظرية « اعادة الربط » للعلامة « بارت » ونظرية « الحد الاقصى » للعلامة « والاس » تفترض أن المجددين يجددون في اطار الحدود التي تفرضها ثقافاتهم والموقف المحلي والقدرات الفردية ، هذا بالاضافة الى عامل قبول المجتمع أو عدم قبوله للتجديد ، وعامل العملية المعرفية التي يصاغ فيها التجديد ، ولا تمنع العوامل السابقة امكانية حدوث التجديد عن طريق المصادفة أو عن طريق الخطأ المعرفي .

ولا يقتصر موضوع أثر الشخصية في الثقافة على دراسة عمليات التجديد والاختراع في ذاتها ، وانما يتعلق أيضا بدراسة استجابة الجماعات للتجديد ، سواء كانت تلك الاستجابة بالقبول أو بالرفض . يهتم الانثروبولوجيون النفسيون بدراسة العمليات النفسية ، التي تحدد ما اذا كان تجديد مقترح سوف يقبل استخدامه أو سوف يرفض عن طريق المجدد نفسه وباقي المجتمع الذي يبزغ فيه التجديد ، وكذلك يهتمون بدراسة حالات الانتشار الثقافي والامتزاج الثقافي واستجابة أعضاء المجتمعات الاخرى لتلك الحالات ، ويمكن القول بصورة عامة

إن التجديد يبدأ في صورة صيغة كلية جديدة تظهر في ثقافة ما عن طريق عامل من عوامل التغير ، قد يكون مخترعا أو تاجرا أو مصلحا دينيا أو قائدا سياسيا أو أميرا حربيا أو زوجا أجنبيا ، وعادة لا يقبل المجتمع هذه الصيغة الكلية الجديدة كما هي وانما يجري عليها بعض التعديل بغرض ملاءمتها مع صيغة كلية أكبر وهي ثقافة المجتمع ، ولكن ، لا تحدث تلك العملية دفعة واحدة ، وانما يتخللها عملية تتمثل في مرور التجديد في الشاشة النفسية للمجتمع قيد البحث ، ويحدد بناء الشخصية العامة للمجتمع تلك الشاشة النفسية ، وتقوم الشاشة النفسية بعملية فحص وتصنيف للتجديدات المقدمة ، ويترتب على ذلك الفحص تقسيم تلك التجديدات الى مجموعتين ، مجموعة التجديدات التي تنسجم مع البناء العام للحوافز ، ويقصد به بناء على مستوى عال من التجريد ، ويتكون من قيم عريضة متضمنة في روح الثقافة أو الشخصية القومية أو الشخصية المنوالية في المجتمع قيد البحث ، ومن أمثلة تلك القيم العريضة الاتجاه المادي والرغبة في الثراء والاهمية النسبية لنظام القرابة أو التزامات المجتمع المحلي أو لصفات الرجولة أو لدقة المواعيد . أما المجموعة الثانية فهي التجديدات التي لا تنسجم مع البناء العام للحوافز ، وهكذا تعمل القيم الاساسية في مجتمع ما كمقياس ثابت لاختيار ما يصلح من التجديدات الثقافية ، وتعطي تلك القيم المعاني لمعظم الظواهر وما تتضمنها من تجديدات مقترحة . واذا نجح التجديد المقترح في المرور من خلال شاشة القيم الاساسية بحيث يدخل في المجموعة الاولى من التجديدات ، ينتقل الى اختبارات أخرى في طريقة للحصول على قبول الثقافة المستقبلية ، وفي الغالب يكون مقياس القبول في تلك الاختبارات هو اقتناع المستقبلين بأن هذا التجديد سيسهم في اشباع شبكة من الرغبات والحاجات ، وليس في احباط تلك الرغبات والحاجات ، وعندما يكتسب التجديد المقترح مثل هذا المعنى الثقافي عند المستقبلين ، يكون قد وصل الى مرحلة القبول . وفي حالة الاستعارات الثقافية ، وعمليات الامتزاج الثقافي يجب التمييز بين الثقافة المانحة للتجديد والثقافة المستقبلة له ، وجدير بالذكر ملاحظة أنه كثيرا ما يحدث اختلاف بين فهم الثقافة المانحة لرغبات وحاجات أعضاء الثقافة المستقبلية وفهم الثقافة المستقبلية لرغبات أعضائها وحاجاتهم ، ومن أهم

أسباب هذا الاختلاف قصور المتخصصين في الثقافة الناتجة عن الفهم والتعرف على الشخصية العامة للثقافة المستقبلة ، وهناك أمثلة لمحاولات عديدة فاشلة قامت بها الدول الاستعمارية لادخال تجديدات في ثقافات مستعمراتهم .

ويمكن إضافة عائق آخر في طريق قبول الثقافة المستقبلة للتجديدات المقترحة ، وهو وجود جماعات ذات مصالح متعارضة في داخل المجتمع قيد الملاحظة . ومن أمثلة ذلك : الطبقات الاجتماعية المتصارعة ، وكثيرا ما يكون من الصعب الحصول على موافقة جميع جماعات المجتمع على التجديد المقترح ، وذلك لقوة الشعور بالانتماء والاخلاص للجماعات ، ولوجود التعارض بين مصالح تلك الجماعات ، وقد يحدث أن التجديد الواحد يصبح مقبولا لدى فريق في المجتمع في حين يرفضه فريق آخر ، وقد ينشأ صراع قوي بين الفريقين عندما ينقسم المجتمع ويتمسك كل فريق بموقفه ، وأحيانا يسود هذا الصراع بين الفريقين بالنسبة لاي تجديد مقترح بغض النظر عن موضوع التجديد ، ويتضح ذلك في المجتمعات المتدنية التي ينقسم فيها الاعضاء الى فريق محافظ يرفض التجديد والتغير الثقافي السريع ، وفريق تقدمي يحبذ التجديد بصورة عامة ، وقد تبلورت تلك الاتجاهات في صورة أحزاب سياسية في كثير من المجتمعات المعاصرة ، وقد أطلق العلامة « كارل مانهايم » ، وهو عالم اجتماع يستخدم المنهج الانثروبولوجي في التحليل اصطلاحي الايديولوجيا واليوتوبيا للتعبير عن هذين الاتجاهين . ويعرف اتجاه الايديولوجيا بانه تصور المفكر المحافظ الذي يعقل ويحسم التنسيق الاجتماعي والثقافي الموجود والذي يرغب فيه بعض اعضاء المجتمع ، أما اتجاه اليوتوبيا فهو تصور المفكر الثائر الذي يعقلن ويحسم الموجودات الهادفة التي تغير التنسيق الاجتماعي والثقافي الذي لا يرغب فيه بعض اعضاء المجتمع ، ويولي هذا التغير الاشباع الكامل لرغبات الفريق الثائر وحاجاته .

يتصل موضوع الصراعات داخل المجتمعية بين الايديولوجيا واليوتوبيا بموضوع الامتزاج الثقافي ، وما يحدث فيه من استمرارات ثقافية ، وذلك لأن في مثل تلك الحالة ستكون استجابة الاتجاه اليوتوبي لأي تجديد مقترح ورفض

الاتجاه الايديولوجي لأي تجديد مقترح ، غير نابعين من الاعتبارات الخاصة بمدى توافقه الوظيفي مع النسق الاجتماعي الثقافي الموجود ، وانما من اعتبارات أخرى فان فريق اليوتوبيا يقوم التجديد المقترح على أساس مدى فاعليته في تحطيم النسق الاجتماعي والثقافي الحالي وفي رسم صورة أفضل للمستقبل ، وهكذا فان تجديدا ما قد يكون منسجما وظيفيا مع النسق الموجود في المجتمع ولا يحدث إلا أقل قدر ممكن من المشكلات ، وعلى الرغم من ذلك ترفضه اليوتوبيا ، ومن الواضح أن يكون التجديد ذاته مقبولا من فريق الايديولوجيا . ويمكن ملاحظة نتيجة أخرى للصراع بين فريق المحافظين وفريق المجددين في المجتمعات المعاصرة . وهي امكانية تقويم التجديدات المقترحة بغض النظر عن قيمتها الوظيفية ، وهكذا تصبح التجديدات رموزا للانتماء في جماعة اجتماعية معينة ، وبالتالي ، اذا كان التجديد يعني تأكيد الانتماء للجماعة التي ينتمي اليها الفرد فانه يقبله بصورة آلية ودون تقويم قيمته الوظيفية الذاتية وبصورة عكسية ، اذا كان قبول التجديد يتضمن الانتماء الى جماعة معادية أو جماعة ضعيفة أو محتقرة مثل جماعات الاقليات ، فان الفرد يرفض هذا التجديد بصورة آلية ، وذلك لان قبوله لمثل هذا التجديد يتطلب منه التخلي عن الجماعة التي ينتمي اليها ، أو تخلي تلك الجماعة عن الفرد ، ولذلك عندما يتضمن قبول تجديد ما الانتماء المانح له قيمة سالبة ، فان قبول مثل هذا التجديد يكتنفه الكثير من الصعوبات . ولا يقتصر موضوع أثر الشخصية في الثقافة على دراسة عملية الاختراع أو التجديد الثقافي ذاتها ودراسة عوامل قبول التجديدات الثقافية ورفضها ، وانما يشمل أيضا دراسة أنواع الضغوط التي قد يستخدمها أعضاء الثقافة المانحة على أعضاء الثقافة المستقبلة لتأكيد قبول تجديد ما أو رفضه . وتبين الدراسات الخاصة بالاستعمارات الثقافية ندرة حياد الثقافة المانحة في عملية استجابة الثقافة المستقبلة لتجديد ما ، وذلك ، لأنه عادة يكون لاعضاء الثقافة المانحة مصالح في قبول الثقافة المستقبلة لتجديد معين ، وتتنوع تلك المصالح من مجرد الاهتمام الامين والمخلص برفاهية المجتمع المستقبل الى مصالح أنانية ذات طابع عسكري أو اقتصادي أو سياسي أو جميعها ، ويزخر تاريخ الاستعمار الاوربي لافريقيا بأمثلة المصالح الانانية سابقة الذكر .

وعادة تشمل الوسائل التي يستخدمها أعضاء المجتمع المانح أساليب تشير الى أن قبول المجتمع المستقبل للتجديد المقترح سيصاحبه تقديم مكافأة ما ، قد تكون معونة اقتصادية أو دعما سياسيا أو عسكريا ، بينما يعني رفضه انزال العقاب على المجتمع المستقبل ، ويحدث ذلك الموقف عندما تكون المجتمعات المانحة في مركز القوة . وفي كثير من الاحيان تختفي تلك الاساليب الصريحة ويحل محلها أساليب رقيقة مهذبة تختفي وراءها مصالح المجتمع المانح ، وهنا تقدم المكافآت بصورة وكأنها بعيدة عن موضوع قبول المجتمع المستقبل لتجديد ما ، وكذلك لا تشير التهديدات بصراحة الى أي فعل عقابي يقوم بـه المجتمع المانح في حالة رفض المجتمع المستقبل للتجديد قيد البحث ، وتظهر تلك التهديدات على أنها مجرد تنابع غير مرغوب فيه للحوادث ، أو على أنها أمور لا يمكن تجنبها في ظل الظروف الموجودة ، وأنها غير مرتبطة بمصالح المجتمع المانح ، وبرغم عدم تعارض الوسائل الاجبارية لفرض العناصر الثقافية الجديدة مع المبادىء الاخلاقية ، فانها تستخدم كثيرا في معظم المجتمعات بما في ذلك المجتمعات المتقدمة . وتشهد الحروب الدينية والثورات السياسية والصراعات الطبقية وحملات البعثات التبشيرية والصراع حول الحقوق المدنية والكثير من حالات التوتر بين الجماعات على ميل الجماعات المانحة لاستخدام الوسائل الجبرية لتشجيع قبول التجديدات ، ويتأكد ذلك عندما ترى الجماعة المانحة أن قبول الجماعة المستقبلة للتجديد من الامور الضرورية لاشباع رغباتها . ويمكن النظر للوسائل الاجبارية كمتصل يبدأ في نقطة تتصف بأقل قدر ممكن من القسوة وينتهي الى نقطة تمثل أعلى درجات القسوة ، ويمكن تمثيل نقطة البدء بالمواقف التي تقدم فيها الجماعات المانحة التجديد في أسلوب محايد ، وفي تلك الحالة يكون للجماعة المستقبلة حرية القبول والرفض ، ويؤثر في تحديد نوع استجابة الجماعة المستقبلة للتجديد في تلك الحالة خصائص الشخصية العامة للجماعة وروح الثقافة وما أطلق عليه من قبسل بالحساسية النفسية ، هذا اضافة الى القيمة الوظيفية للتجديد نفسه بالنسبة للجماعة المستقبلة . وفي حالة رفض الجماعة المستقبلة للتجديد ، تستخدم الجماعة المانحة وسائل أخرى ذات صيغة سلمية ولكنها لا تتسم بالحياد ، ومن أمثلة تلك الوسائل

الاقناع والتفاوض والتعاون ، وفي هذه المواقف تؤسس الجماعة المانحة مع الجماعة المستقبلة علاقة تبادلية يتخللها اشباع كاف لمصالح الجماعتين ورغباتهما في المدى الطويل ، ولا تتضمن تلك الوسائل أي تهديد صريح ، وإذا انتقلنا من هذا الموقف المتصل الخاص بالاجبار الى الموقف التالي ، نجد أن التهديد يأخذ صورة صريحة تتمثل بصورة مبسطة في العبارة التالية « اقبل أو أرفض هذا الجديد ، وإلا سوف أمنع اشباع أحد رغباتك » ، ولا يقتصر استخدام هذا الاسلوب على العلاقات بين المجتمعات وانما يطبق أيضا في العلاقات الاجتماعية بين الافراد ، اذ يميل الوعاظ الدينيون والزعماء السياسيون وحتى الاصدقاء لاستخدام هذا الاسلوب عندما تفشل وسائل الاقناع والتعاون . وكثيرا ما يستخدم خبراء الاعلان هذا الاسلوب التهديدي لتشجيع جماعة معينة على قبول سلعة ما ، فكثيرا ما نسمعهم في أجهزة الاعلام يهددون المستهلكين بفقدان الاصدقاء أو العمل أو الصحة في حالة رفضهم شراء سلعة ما مثل الصابون أو معجون الاسنان أو الروائح العطرية ، ويشبه أسلوب الايحاء الجمعي الاسلوب التهديدي من حيث وضع الجماعة المستقبلة في جو يستحيل فيه الهروب من وسائل الاعلان ، ان مثل هذا الايحاء يكون فعالا في تشجيع القبول الجماعي لانماط سلوكية جديدة قد تتعرض لرفض الجماعة في حالة توافر امكانية حرية الاختيار . وأخيرا ، نصل الى أكثر الوسائل قسوة ، وتتمثل في التعذيب الجسدي والارهاق الذي يحدث في الفرد حالة نفسية فسيولوجية تجعل قبول التجديد يتم بصورة آلية تقريبا ، وتستخدم تلك الوسائل المتطرفة في حالات تغيير الدين وغسل المخ .

يتضح مما سبق أن التنبؤ بقبول جماعة ما أو رفضها لتجديد ما يتحدد عن طريق الموازنة بين مجموعة من العلاقات النفسية المرتبطة بعضها ببعض بصورة معقدة ، وهي علاقات بعضها موجب والآخر سالب ، وتتم تلك الموازنة في عقول أفراد الجماعة ، وهكذا على الفرد أن يحسب ، بصورة مقصودة أو غير مقصودة ، مجموع الخسائر والارباح التي ستترتب على قبول التجديد ، وكذلك مجموع الخسائر والارباح التي ستترتب على الرفض ، فاذا كان المجموع الاجمالي لكل الخسائر والارباح يشير الى زيادة الارباح فانه يقبل التجديد ، وفي حالة العكس

يرفضه ، ان القيم المتضمنة في مثل تلك الحسابات ستكون في التحليل النهائي قيما شخصية ، وهنا نعود الى موضوع الشخصية . وهنالك عدة عوامل تساعد على التنبؤ باحتمال قبول جماعة ما أو رفضها لتجديد معين ، وهي معرفة شاشة القيم التي تفرضها روح الثقافة ومعرفة الشخصية النموذجية او الشخصية الرئيسة للجماعة ، ومعرفة البناء الوظيفي للثقافة الواقعية للجماعة ، ومعرفة طبيعة وسيلة الاجبار (اذا وجدت) المستخدمة في تقديم التجديد ، وكذلك معرفة القوى الموجهة للاتجاهات الايديولوجية والاتجاهات اليوتوبية للجماعة . ولكن برغم ذلك ، يجب ملاحظة أن قبول الجماعة أو رفضها لتجديد ما ، قد لا يكون أمرا موحدا بالنسبة لجميع أفراد الجماعة ، وذلك لوجود اختلافات في مصالح الجماعات الفرعية المكونة للمجتمع أو الجماعة الكبرى ، ويتطلب هذا دراسة مفصلة للعوامل السابقة في الجماعات الفرعية حتى يمكن التنبؤ باحتمال قبول جماعة ما أو رفضها لتجديد ما . وخلاصة القول ان الشخصية وما تحتوي عليه من قيم واتجاهات تؤثر في الثقافة من زاوية قبول الجماعات أو رفضها للعناصر الثقافية الجديدة .

كذلك يرتبط موضوع أثر الشخصية في الثقافة بصورة أخرى بعمليات التغير الثقافي ذات المدى القصير وهي العمليات الاحيائية ، وتعرف العمليات الاحيائية على انها محاولات منظمة ومقصودة يقوم بها بعض اعضاء مجتمع ما بهدف بناء ثقافة تمدهم باشباع أفضل لرغباتهم ، ويتحقق هذا الهدف عن طريق قبول سريع نسبيا من التجديدات المتعددة الممكنة ، وعادة تظهر الحركات الاحيائية في المجتمعات التي تتعرض لحالات من التفكك الثقافي والاجتماعي ، وتحدث تلك الحالات عن طريق ضغط بعض العوامل وتأثيرها التي من شأنها أن تدفع بثقافة المجتمع خارج وضع التوازن العادي ، ومن أمثلة تلك العوامل التغيرات المناخية والطبيعية التي تدمر الاساس الاقتصادي لمجتمع ما ، والامراض الوبائية التي تغير بصورة واضحة البناء السكاني في المجتمع ، والحروب التي تستنزف موارد المجتمع من القوى العاملة ومصادر الثروة أو التي تؤدي الى احتلال أو هزيمة ، وكذلك الصراعات الداخلية بين الجماعات ذات المصالح المختلفة وما تلحقه من أضرار لاحدى تلك الجماعات على الاقل ، وخضوع المجتمع للاستعمار وما يصاحبه من التبعية

الواضحة والمباغة والاستغلال ، يترتب على العوامل السابقة حدوث تغيرات اجتماعية وثقافية غير متسقة مما يؤدي الى حالة من اللاتوازن الاجتماعي والثقافي يمكن تسميتها بحالة الانهيار والتفكك الاجتماعي والثقافي ، ومن وجهة نظر بعض أعضاء هذا المجتمع ، تصبح تلك الثقافة المفككة غير قادرة على توفير الأشباع المتوقع لبعض القيم الاساسية في المجتمع مثل قيمة الوحدة الوطنية أو قيمة احترام الذات أو قيمة العدالة أو قيمة الوضع الاقتصادي الكريم ، ويعيش معظم أفراد هذا المجتمع في حالة من الانهيار النفسي ، وبالتالي يتكون « تصور الفرد لذاته وللعالم » من صورة لعالم لا يمكن التنبؤ بأحداثه في المستقبل ، أو صورة لعالم مجدب وقاحل ، أو الصورتين معا ، وكذلك ينتشر مزاج من خصائص القلق المصاحب بالرعب والخجل والشعور بالذنب والكبت أو اللامبالاة ، ويقوم بعض أفراد هذا المجتمع بمحاولات منظمة لاعادة التوازن الاجتماعي والثقافي ، وتتمثل تلك المحاولات في تشجيع أعضاء المجتمع على قبول تجديدات ثقافية واستخدامها من شأنها القضاء على حالات الانهيار النفسي والاجتماعي والثقافي .

ويقدم العلامة « والاس » مثالا توضيحيا من احدى قبائل الهنود الحمر وهي قبيلة سينيكا في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ، كانت تضفي تلك الجماعة قيمة مرتفعة جدا على مفهوم الفرد الحر والمستقل بصورة مطلقة ، وهو فرد لا يهتم بآلامه الشخصية أو بآلام الآخرين ، ويطلق هذا الشخص العنان لدوافعه العاطفية ولكن في حالة الملمات ، يخضع هذا الشخص بمحض ارادته رغباته لحاجات مجتمعه المحلي ، كانت هذه الصورة المثالية للانا من العناصر الاساسية في شخصيات الرجال على وجه الخصوص ، وقد حددت ثقافة الجماعة أدوار الصيد والحرب والزعامة على أنها الشروط الاساسية لتحقيق تلك القيمة ، وحددت صور النجاح الرجولي في حصول الرجال على مراكز الصياد الماهر والمحارب الشجاع وزعيم القبيلة ، ولكن حدثت تغيرات جوهرية في بيئة تلك القبيلة جعلت من المستحيل القيام بتلك الادوار فلم يعد الصياد الماهر قادرا على الصيد لندرة الحيوانات ، ولم يعد المحارب الشجاع قادرا على شن الحرب لقوة جيرانه البيض ، أما زعيم القبيلة ، فقد أصبح موضع ازدراء واحتقار من أعضاء القبيلة ، لأنه تنازل عن سلطاته ومعظم أرضه

ووقع معاهدة سلام مع الامريكيين . كانت استجابة أعضاء جماعة « سينيكا » لتلك الظروف القاسية ، التي تمثل حالة واضحة من حالات الانهيار الاجتماعي والثقافي ، استجابة شبه مرضية ، اذ انتشرت عبادة الادمان على الخمر وزاد الخوف من السحرة ، وانتشرت النزاعات الداخلية ، وأخفق الزعماء في وضع سياسة عامة مشتركة ، واستمر هذا الوضع فترة طويلة الى أن ظهرت حركة احيائية في عام (١٧٩٩) ، قام بها أحد زعماء القبائل عن طريق الالهام الديني ، فنادى باصلاح ديني وثقافي يتكون من مجموعة من التجديدات الثقافية ، فمثلا حرم شرب الخمر ومنع السحر ، وأدخل تعديلات في النظام الاقتصادي بأن أقنع الرجال بالاشتغال في الزراعة بعد أن كانت مقصورة على النساء ، وركز المسؤوليات في داخل الاسرة الصغيرة بعد أن كانت مركزة في العشيرة ، وأقنع أعضاء القبيلة بقبول واحترام القوانين الامريكية المتعلقة بتنظيم قبائل الهنود الحمر ، وهكذا ظهرت فجأة في تلك المنطقة مجتمعات محلية زراعية نظيفة وعصرية ، وتعلم أعضائها القراءة والكتابة ، واختفت الاحياء القذرة القديمة . بعد تلك التغيرات الجذرية من المعجزات ، وذلك لصعوبة تحقيقها في فترة قصيرة من الزمان ، ويرجع بعض الفضل في نجاح تلك الحركة الاحيائية الى شخصية زعيم النابة وقدرته على التجديد ، ثم قدرته على اقناع الآخرين بقبول التجديدات واستخدامها .

وهكذا تتميز الحركات الاحيائية باحداث تغيرات مكثفة أو عميقة في الانماط الثقافية في فترة قصيرة من الوقت ويمكن تمييز خمس مراحل وظيفية ذات تداخل زمني في بناء الحركات الاحيائية بصورة عامة ، تمثل المرحلة الاولى حالة الثبات النسبي ، وهي فترة يكون المجتمع فيها في حالة توازن ، ويحدث التغير الثقافي في أثنائها ببطء وبصورة منظمة لا يقاسي منها الافراد . أما المرحلة الثانية فهي فترة الضغط الفردي المتزايد ، وهنا تتعرض الثقافة لحالة من التفكك والانهيار بتأثير عوامل خارجية أو داخلية سبق ذكرها ، وهنا ينعكس هذا التفكك الاجتماعي والثقافي على شخصيات الافراد ، فيتعرضون لحالة من الضغط غير المحتمل بسبب فشل الانماط الثقافية في اشباع حاجاتهم ، ويحدث انهيار نفسي في شخصياتهم ، فتكثر الانحرافات والتحرر من القوانين والنظم الاجتماعية ، ويرتفع معدل الجريمة

وتنتشر الامراض كاستجابات اجتماعية فردية ، ويطلق على المرحلة الثالثة اصطلاح فترة التشويه الثقافي ، وفيها يستمر الانهيار الثقافي ، وكذلك يستمر الانهيار النفسي لكثير من أعضاء المجتمع ، ويحاول بعضهم استرجاع حالة التوازن النفسي عن طريق تكرار تصرفات أنانية نفسية ، ولكنها تزيد من حالة الانهيار الثقافي ، ومن أمثلة ذلك الفساد والرشوة في المكاتب الحكومية وانتشار السوق السوداء والتجار القامرة والدعارة وانتشار ظاهرة « كبش الفداء » ، وتأخذ تلك الانحرافات صورة المجهودات المنظمة ، بحيث يصور البعض أن الانماط الثقافية الاصلية قد انهارت تماما وحلت محلها تلك الانحرافات وهذا هو المقصود باصطلاح التشويه الثقافي . وفي تلك الفترة تتصارع الجماعات الداخلية لتحقيق مصالح خاصة على حساب المصلحة العامة . وتتمثل المرحلة الرابعة في فترة الحركة الاحيائية ، عندما يسود التشويه الثقافي في مجتمع ما ، يصبح من الصعب استرجاع حالة التوازن والثبات دون عملية احيائية ، وذلك لان دون الحركات الاحيائية يكون المجتمع معرضا للانهيار التام عن طريق انقراض السكان أو انقسامهم الى مجتمعات مستقلة أو انضمامهم لمجتمع آخر أكثر استقرارا وقوة . وتعتمد الحركة الاحيائية على نجاح صاحب الحركة والمؤيدين له في القيام بعدة وظائف ، وهي صياغة برنامج عمل لتحقيق مجتمع مثالي أو ثقافة مثالية ، ويجب ملاحظة أن صياغة هذا البرنامج يتطلب اعادة صياغة أفكار صاحب الحركة الاحيائية بصورة تمده بالثقة في المستقبل وبامكانية التخلص من حالة الانهيار الثقافي وبامكانية تحقيق الثقافة المثالية ، وبعد ذلك يقوم أصحاب الحركة الاحيائية بالاتصال بالناس لشرح التجديدات المقترحة واقناعهم بقبولها ، وفي الغالب يقدمون هذه التجديدات على أنها وسيلة للتطهير الروحي بالنسبة للفرد وللتطهير الثقافي بالنسبة للمجتمع ، ويتلو ذلك ، النجاح في تنظيم الاتباع والمؤيدين ، وفي الغالب ينقسمون الى مجموعة من المنظمين ومجموعة من جمهور التابعين والمؤيدين ، وهنا يصبح أصحاب الحركة الاحيائية هم المؤسسون لها وبجانبهم يوجد المنظمون والتابعون ، وفي الغالب ينظر لمؤسس الحركة على أنه يتمتع بقوى خارقة أو بمواهب فذة وهذه الخصائص تبرر مطالبة الجماهير التابعة بالطاعة المطلقة والاعتقاد التام في

حكمته ، ويأتي بعد ذلك النجاح في تكييف الجماهير مع التجديدات الثقافية التي ينادي بها أصحاب الحركة الاحيائية ، وفي سبيل ذلك تستخدم أساليب متعددة بعضها سلمي وبعضها عنيف الغاية ، وذلك عندما يوصف غير المتكيفين مع التجديدات الثقافية بالخيانة ، ويتعرضون لأقسى العذاب ، ويتلو التكييف حدوث التحول الثقافي ، وهنا تحل الثقافة الجديدة مكان الثقافة القديمة التي أصابها التشوه . وبعد ذلك يسود النظام في الثقافة الجديدة وتسمى تلك الحالة بالعملية الروتينية ، وهكذا تتطلب الحركة الاحيائية النجاح في القيام بالعمليات سابقة الذكر ، وهي عمليات صياغة الثقافة الجديدة والاتصال والتنظيم والتكيف والروتينية . وبعد أن تثبت الحركة الاحيائية أقدامها تأتي المرحلة الخامسة والاخيرة وهي مرحلة الحالة المستقرة الجديدة وتبدأ عندما تحدث التغيرات في بناء قيم للثقافة القديمة ، ويحل محلها بناء القيم الخاصة بالثقافة الجديدة ، وبرغم تمتع المرحلة بالاتزان والهدوء النسبي الا أنها لا تخلو من التغيرات الثقافية المتتابعة والتي تستمر لفترات طويلة ، ومن أمثلة ذلك التغيرات الاقتصادية والتكنولوجية التي تتابعت بعد انتشار الاخلاق البروتستانتية .

وخلاصة القول إن أثر الشخصية في الثقافة يتضح من طريق دراسة الحركات الاحيائية وتحليلها ، وبالتالي تدخل تلك الدراسات في اطار موضوع الانثروبولوجيا النفسية .

* * *

المبحث الرابع

الميدان السياسي(*)

تبدو الانثروبولوجيا السياسية ، كمشروع ـ قديم جدا ، ولكنه جديد أيضا ـ وفي الوقت ذاته كاختصاص في البحث الانثروبولوجي ، يظهر بتركيب متأخر . وهي بشكلها الاول ، تضمن تخطي التجارب والعقائد السياسية الخاصة . وهكذا تسعى لتأسيس علم الموضوع السياسي ، معتبرة الانسان بشكل المبيس الوحيد ، وباحثة الخصائص المشتركة لكل التنظيمات السياسية المعترف بها ، في تنوعها التاريخي والجغرافي . وبهذا المعنى ، فانها موجودة سلفا في « السياسة » لارسطو ، الذي يعتبر الكائن البشري كائنا سياسيا ، بشكل طبيعي ، يسعى لاكتشاف القوانين ، أكثر من سعيه للتعريف بأفضل دستور قابل للتحقيق من اجل دولة ممكنة . وفي شكلها الثاني ، فان الانثروبولوجيا السياسية تحدد حقل دراسة في كنف الانثروبولوجيا الاجتماعية أو الاثنولوجيا . انها تتعلق بالوصف وبالتحليل للنظم السياسية ، (بنيات ، سيرورة ، وأشكال) ، الخاصة بالمجتمعات المعتبرة ، بدائية او سلفية . وبهذا المعنى ، فانها نظام مميز منذ فترة وجيزة ، ساهم في تكوينها نووي أسفا على اللاكفاية للاعمال الانثروبولوجية في الموضوع السياسي .

(*) هذا الميدان هو ترجمة للفصل الاول ، من كتاب جورج بالنديه : « الانثروبولوجيا السياسية » ـ المنشورات الجامعية في فرنسا ، باريس . الطبعة الاولى ، ١٩٦٧ ، وهو بحث قام بترجمته غسان زيادة ونشر في مجلة الفكر العربي ، العدد .

وهناك حدث ذو دلالة : ان الاسس المأخوذ بها في الولايات المتحدة في (١٩٥٢) لم تعر الموضوع أبدا أي اهتمام . وفي تواريخ أقرب أيضا ، فان الانتروبولوجيين استبروا في اقامة محضر للنقض : ان اكثريتهم يعترفون « بأنهم اهملوا الدراسة المقارنة للتنظيم السياسي للمجتمعات البدائية » . ومن هنا ، سوء الفهم والاخطاء والتأكيدات المخادعة ، التي قادت الى استبعاد الاختصاص والفكر السياسيين لعدد كبير من المجتمعات .

ومنذ عشرين سنة تقريبا ، بدا الاتجاه ينعكس . فالدراسات على الارضية تتضاعف ، وبشكل خاص في أفريقيا السوداء حيث بحثت أكثر من مئة حالة ، ويمكن لها ان تكون خاضعة لملاحظ علمي . والاعدادات النظرية بدأت تعبر عن النتائج المحصلة بفضل هذه البحوث الجديدة . ان هذا التقدم المجائي يفسر بالحاجة — الاخذ بعين الاعتبار المجتمعات المتغيرة المتحدرة من الاستقلال عن الاستعمار — وبالقدر نفسه بالصيرورة الداخلية للعلم الانتروبولوجي . ان علماء السياسة يعترفون ، من الآن وصاعدا ، بضرورة وجود انتروبولوجيا سياسية . (فالموند) يجعل من ذلك شرطا لكل علم سياسة مقارن ويستنتج (ر . آرون) بأن المجتمعات المسماة نامية « هي بصدد سحر علماء السياسة الراغبين بتجنب الاقليمية الغربية أو الصناعية » . أما (باركنسن) فيعتقد « بأن دراسة النظريات السياسية كان ينبغي أن يسلم أمرها الى الانتروبولوجيين الاجتماعيين » .

هذا النجاح المتأخر لايمضي دون جدال أو غموض . وبالنسبة لبعض الفلاسفة — وبخاصة (ر . ريكور) فان الفلسفة السياسية هي وحدها المبررة ، قياسا الى أن الموضوع السياسي ، هو بشكل رئيسي الموضوع نفسه من مجتمع لآخر ؛ حيث السياسة هي « منحى » وهدفها طبيعة المدينة . وهذا رد كامل على علوم الظاهرة السياسية ؛ وهذا الرد لايمكن أن يكون منقوضا بدوره الا بتفحص متعمق لهذه الظاهرة . ان الشكوك المعبر عنها مطولا من قبل هذه النظم ، ان بالنسبة لمبادئها أو مناهجها أو أهدافها المعتبرة ، ليست أبدا مناسبة لمثل هذا المشروع . وينبغي ، اذا ، محاولة اختصارها .

أولا ـ دلالة الانتروبولوجيا السياسية :

بوصفها ، نظاما يسعى للحصول على وضع علمي ، فان الانتروبولوجيا السياسية تفرض ذاتها ، أولا ، كطريقة اعتراف ومعرفة للغرائبية السياسية ، والاشكال السياسية « الاخرى » ، انها اداة للكشف عنه ولدراسة مختلف المؤسسات والممارسات الضامنة لحكم البشر ، وأيضا لنظم التفكير والرموز التي تكونها .

ان (مونتسكيو) ، بالواقع هو المؤسس لمشروع علمي ، كان قد عرف خلال زمن ما ، بوظائف الانتروبولوجيا الثقافية والاجتماعية ، انه يقيم جدولا ، يظهر تنوع المجتمعات الانسانية ، ولهذا الهدف ، فهو يلجأ لمعطيات التاريخ القديم ، لوصف الرحالة ، وللملاحظات المتعلقة بالبلاد الاجنبية والغريبة ، انه يضع خطوط منهج مقارنة وتصنيف ، ونموذجية ، وهذا ما يقود الى اعطاء قيمة للميدان السياسي ، والى أن يحدد ، بطريقة ما ، نماذج المجتمعات حسب انماط الحكم ، وبالرؤية نفسها ، فان الانتروبولوجيا حاولت ، بادىء ذي بدء ، تحديد نطاق الثقافات والمشاهد الثقافية ، آخذة بعين الاعتبار المعايير التقنية ـ الاقتصادية ، وعناصر الحضارة ، وأشكال البنيات السياسية ، ان نجعل مما هو سياسي ، خاصة مميزة لتمييز المجتمعات الشاملة والحضارات ، هو أن نعطيه ، أحيانا ، وضعا علميا مفصلا ، ان الانتروبولوجيا تظهر كنظام ، يأخذ بالاعتبار مجتمعات «سلفية» ، حيث الدولة ليست مكونة بشكل واضح ، ومجتمعات ، معاصرة وحيث الدولة توجد وتبدي مظاهر متنوعة جدا ، انها تعرض ، بالضرورة ، مسالة الدولة ، ومراحل تكونها وتعبيرها الاولى ، ان (ر ، لوري) بتكريسه واحدا من مؤلفاته الرئيسة لهذه المسالة ، (أصل الدولة ١٩٢٧)، يكتشف بذلك ، الاهتمامات التي كانت لرواد البحث الانتروبولوجي ، ان الانتروبولوجيا السياسية تمس أيضا مسالة المجتمعات البيزئية ، التي لا سلطة سياسية مركزية فيها ، والتي هي مسادة لنقاش قديم ، يلد دائما من جديد ، ان المؤرخ(تيغرت)، الذي يستشهد به أحيانا كثيرة ، المؤلفون البريطانيون ، يؤكد : « ان التنظيم السياسي هو شيء خارق ، انه

ميزة لبعض الجماعات فقط ... كل الشعوب كانت خلال زمن ما ، أو انها مازالت، منظمة على قاعدة مختلفة » . وعلى فترة ثلاثين عاما ، فان عالم الاجتماع الاميركي ماكلفر يستمر بقبول فكرة ان : « الحكومة القبلية تختلف عن كل أشكال الحكومة الاخرى » . ويفارق جوهري أو بغياب ماهو سياسي ، فان الفكرتين كانتا مطلوبتين ، أكثر مما هما مؤكدتان ، وان المجتمعات المتأتية من الدراسة الانتروبولوجية توضع جانبا وهناك تفرعات ثنائية تدعي التعبير عن هذه الوضعية : مجتمعات دون تنظيم سياسي / ومجتمعات ذات تنظيم سياسي ، دون دولة / ذات دولة ، دون تاريخ أو بتاريخ تكراري / ذات تاريخ جمعي الخ ... ان هذه التعارضات مخادعة ، انها تخلق، بشكل خاطئ، قطعا علميا (ابستمولوجيا)؛ علما بأن التمييز القديم بين المجتمعات البدائية والمجتمعات المتحضرة ، قد طبع الانتروبولوجيا السياسية لحظة ولادتها ، ان الانتروبولوجيين ، بتمييزهم الدراسة المنهجية عن « المذاهب البدائية للتنظيم السياسي » ، قد حولوا التفسيرات السلبية الى ممكنة ، تلك التفسيرات للمنظرين الغرباء عن مذهبهم والذين ينفون وجود مثل هذه النظم .

ان استحضار هذه المسائل ، يوحي بالاهداف الرئيسة ، والتي أمكنها ان تكون موجهة بواسطة الانتروبولوجيا السياسية ، وأن تستمر بتعريف هذه الاخيرة:

آ) تحديد ما هو سياسي ، ودون أن يربط هذا الاخير بالمجتمعات المسماة تاريخية فقط ، ولا بوجود جهاز للدولة .

ب) توضيح سيرورات التشكل والتحول للنظم السياسية ، من أجل بحث مواز لبحث المؤرخ ، واذا كان في الامكان بشكل عام ، تجنب الخلط بين « البدائي » و « الاولي » ، فان تفحص الشهادات التي تعود الى زمن البدايات ، « الشباب النعلي للعالم » حسب تعبير (روسو) أو التي تأخذ بالحسبان التحولات، تبقى مفضلة .

حـ ـ دراسة مقارنة . تضبط التعابير المختلفة لفواقع السياسي ، ليس بحدود

تاريخ خاص ـ تاريخ أوروبا ، ولكن في كل اتساعه التاريخي والجغرافي . وبهذا المعنى ، فان الانتروبولوجيا السياسية تريد لذاتها أن تكون انتروبولوجيا بكل ما يقتبله هذا التعبير . وهكذا ، فانها تسهم بحسم « الاقليمية » عند علماء السياسة ، المنقوضة من قبل (آرون)، وتسهم ببناء « التاريخ العالمي للفكر السياسي » الذي تمناه (باركنسون) .

ان التبدلات ، المتأتية في المجتمعات النامية ، تعطي معنى اضافيا ، لمشاريع الانتروبولوجيا وعلم الاجتماع السياسيين ، المعمول بها ، انها (التبدلات) تسمح بدراسة حالية وليس ارتجاعية ، للسيرورات التي تضمن التحول من الحكم القبلي ومن الدولة التقليدية الى الدولة الحديثة ، من الاسطورة الى العقيدة والى الايديولوجية السياسيتين . تلك لحظة مناسبة للدراسة ، واحدة من المراحل « المفاصل » التي بحث عنها (سان سيمون) عندما فسر الثورة الصناعية،أي تكون نموذج جديد للمجتمع والحضارة .

ان الوضع الراهن للمجتمعات السياسية الفرانكية ، يحث برؤية ديناميكية ، على فحص العلاقات بين التنظيمات السياسية الحديثة والتنظيمات السياسية التقليدية ، بين التقليد والحداثة . وامتضاع التنظيمات التقليدية ، زيادة على ذلك، لتجربة واقعية ، ان التجربة تحصل بصددهم على نظرة جديدة وأكثر نقدية . وان التطابق يتخطى دراسة التنوع والتكون للاشكال السياسية ، انه يطرح أيضا مسألة وضعها موضع الملاقة المعمة ، ومسألة عدم انسجامها وتعارضاتها ومسألة اندماجاتها وتبدلاتها .

ثانية ـ تأسيس الانتروبولوجيا السياسية :

اذا كانت الانتروبولوجيا السياسية تعرف ذاتها أولا ، بالاخذ بعين الاعتبار للفرانكية السياسية ، وبالتحليل المقارن الذي تقود اليه ، فان أصولها يمكن ايضا أن تكون معتبرة كأصول بعيدة . وبغض النظر عن الايحاءات المستعادة في مراحل مختلفة ، فان الانتروبولوجيا لم تتأسس الا بعده ، وان ولادتها المتأخرة لها أسباب تفسر بشكل جزئي مخاضها :

ان الانثروبولوجيين ، وهم يبدون تركيب مسار علمهم ، يميلون اكتشاف الاوتاد البعيدة أحيانا ، والتي تشهد على الميزة الدائمة (وغير القابلة للاختيار) لاهتماماتهم الرئيسة . ان (غلوكمان) يشير (لارسطو) : « كتابة عن الحكم » ، ويحثه عن الاسباب التي تثير انحطاط الحكومات القائمة ، ومحاولته لتحديد قوانين التغير السياسي وبوكولك يستحضر الانتباه المكرس سابقا من قبل فرانسيس بيكون للشهادات المتعلقة بالمجتمعات المختلفة أو « المتوحشة » ، وليود فارز يذكر بأن (ماكيافللي) ـ في الامير ـ يميز بين اثنين من النماذج المثالية المميزة من قبل (ماكس فيبر) في على اجتماعه السياسي .

وفي الواقع ، فانه من الملائم البحث عن رواد المسيرة الانثروبولوجية ، بين خالقي الفكر السياسي للقرن الثامن عشر . ان السلف المفضل يبقى (مونتسكيو) . وبوكولك يشدد على ذلك ، برجوعه الى « روح الشرائع » : « انها المحاولة الاولى الجدية لجدول لتنوع المجتمعات البشرية ، بنية تصنيف هذه الاخيرة ومقارنتها ، وبنية دراسة العمل الماكن للمؤسسات في كنف المجتمع » . لان المجتمعات معرفة حسب طريقة الحكم فيها ، ان هذا الاسهام يحضر لمجيء علم الاجتماع والانثروبولوجيا السياسيين . ولكن يجب العثور على أكثر من هذا التجسيد ، ويجب حفظ أكثر من هذا التعريف لشكل سياسي مسمى بنجاح علمي مميز : « الاستبداد الشرقي » ، ان (مونتسكيو) حسب تعبير (التوسير) ، يحدث « ثورة في المنهج » . انه ينطلق من الوقائع : « القوانين ، التقاليد ، ومختلف أعمال الشعوب على الارض » ، انه يؤسس مفاهيم النماذج والقوانين ، انه يقترح تصنيفا شكليا وتاريخيا للمجتمعات ـ وخاصة المرئية ، ومن المهم التذكير بذلك ، كمجتمعات سياسية .

يوصف (روسو) ، في أكثر الاحيان بالفيلسوف السياسي استنادا الى كتابيه « خطاب حول اللا مساواة » والى « العقد الاجتماعي » . ان مساهمته لم تكن دائما مقبلة من قبل الاخصائيين في علم الاجتماع والانثروبولوجيا السياسيين ،

وانها لا تتلخص ، في الواقع ، بالعقد الافتراضي الذي بواسطته ، يخرج النوع البشري من الحالة « البدائية » ويغير طريقة وجوده ، أو بتلك البرهنة التي يعالجها (باركنسون) على أنها « علم أسلوب من القرن الثامن عشر » وعلى أنها «شيخوخة» ، ان (روسو) ـ وهو يتابع البحث اللا ممكن عن اصول ـ يأخذ بالاعتبار وبأسلوب عدسي أعمال « الشعوب المتوحشة » ، ولديه حدس بأبعادها التاريخية والثقافية ، انه يستعيد لحسابه نسبية روح الشرائع ، ويعترف بأن الدراسة المقارنة للمجتمعات، تسمح بفهم كل منها بشكل أفضل ، انه يؤسس تفسيرا بتعابير مرحلة التكون : « اللامساواة وعلاقات الانتاج هي محركات التاريخ » ، انه يعترف في الوقت ذاته ، بنوعية كل نسق اجتماعي وعدم توازنه ، وبالنقاش الدائم بين « قوة الاشياء» و « قوة التشريع » ، ان موضوعات « خطاب حول اللامساواة » ، تجسد مسبقا، أحيانا ، تحليل (انجلز) الموضح لـ « أصل العائلة ، والملكية الخاصة ، والدولة » .

وفي الواقع ، فمع (ماركس وانجلز) ، تنبعث بعض تيارات الفكر السياسي في القرن الثامن عشر ، ومؤلفاتهم تحتمل وضع خطوط لانتروبولوجيا اقتصادية ، ـ مع التوكيد على « شكل انتاج آسيوي » ـ ولانتروبولوجيا سياسية خاصة مع اعادة الاخذ بعين الاعتبار للاستبداد الشرقي ولظاهرة التاريخية ، انهما ينظمان هذه الملاحظة ، انطلاقا من توثيق غرائبي : ان قصص الرحالة و «وصفهم »، كتابات تعد الجماعات القروية ودولة الهند خلال القرن التاسع عشر ، أعمال مؤرخين وعلماء عراقة (أثنوغرافيين) ، مشروعها (المصمم أكثر مما هو مكتمل) يخضع لضرورة مزدوجة : البحث عن سيرورة تكوين الطبقات الاجتماعية والدولة بذوبان التجمعات البدائية ، وعن تحديد خصائص مجتمع « آسيوي » يبدو انه خاص .

ان هذه المسيرة تحتمل تناقضا داخليا ما ، خاصة اذا درسنا مساهمة (أنجلز) . فهذا الاخير يعالج التاريخ الغربي كمثل للنمو التام للبشرية ، مدخلا بذلك نظرة توحيدية لصيرورة المجتمعات والحضارات ، ومن جهة أخرى ، وبالقياس ذاته ، حيث أن المجتمع « الاسيوي » ، والدولة التي يمكن أن تديره معتبران على حدة

فان المجتمع يوجد بطريقة ما مسحوبا خارج التاريخ ، ـ محكوما بالسكون النسبي وبالثبات . ان هذه الصعوبة ، تبقى حية في كنف أول الابحاث الانتروبولوجية ، من جهة ، تسعى لدراسة التكونات ، وسيرورات التكون والتحول ، وهي تقبل في الوقت نفسه ، بأنه من شبه المستحيل أن « يتم اكتشاف أصل المؤسسات البدائية » (فورت وايفانز ـ بريتشارد) ؛ من جهة اخرى ، فانها تتعلق بالاشكال الاكثر نوعية للمجتمعات والحضارات ، وأحيانا تقصص ، بخسارة، الخصائص المشتركة والسيرورات العامة التي ساهمت في تكوينها .

ب ـ الانتروبولوجيون الاوائل :

لقد اعتبروا الظاهرات السياسية ، خاصة تحت مظهر تكونها ، ومع رصانة مؤكدة جدا ، تم التمكن من نفي أهميتهم لهذا الميدان . ان (ماكس غلوكمان) ينقض الفقر الكامل : « لا أحد من الانتروبولوجيين الاوائل ، ولا حتى (مالينوفسكي) ، اذا كنا نطالب به كسلف ، قد بحث المسألة السياسية ، ربما لان الابحاث الاولية في الانتروبولوجيا قد كرست لمجتمعات ذات المنحى الصغير في أميركا وأوستراليا، وأوقيانيا والهند » . بيد أن الرجوع الى الرواد يبقى شائقا ، الى السير (هنري مان)، في اللحظة المستحضرة والمهملة أحيانا ، وهو مؤلف الكتاب الشهير وهذه الدراسة المقارنة للمؤسسات الهند ـ أوروبية تكشف عن « ثورتين » في صيرورة المجتمعات : انتقال المجتمعات القائمة على الوضعية الى مجتمعات مشادة على العقد، وانتقال التنظيمات الاجتماعية المتمركزة على القرابة الى تنظيمات نابعة من مبدأ آخر ـ بخاصة مبدأ « التماس المحلي » الذي يعرف بـ « قاعدة العمل السياسي المشترك » . هذا التمييز المزدوج هو في الاساس فتاش مفتوح دائما . ان المرجع المستشهد به، بشكل شائع ، يبقى « المجتمع القديم » لمؤلفه (لـ.هـ. مورغان) . انه يعترف بشكلين للحكم «مميزين بشكل رئيس » ولهما دلالة على التطور القديم للمجتمعات : « الاول ، حسب ترتيب الزمن ، قائم على الاشخاص والعلاقات الشخصية البحتة . ويمكن اعتباره كمجتمع ... والثاني قائم على الارض والملكية،

ويمكن اعتباره كدولة ... ان المجتمع السياسي منظم على بنيات أرضية ، ويأخذ بالحسبان علاقات الملكية بقدر العلاقات التي تقيمها الارض بين الاشخاص هذا النمط في التفسير ، يقود عمليا الانثروبولوجيا ، الى حرمان مجموعة واسعة من المجتمعات من الصفة السياسية ، ان (مورغان) كان ضحية لمذهبه النظري الخاص المأخوذ في هذه الحالة ، بجانب منه ، من أعمال (هنري ماين) . لقد كرس عدة فصول من مؤلفه الكبير لـ « فكرة الحكم » ، ولكنه لم ينف منها ، بشكل أقل ، تلاؤم مذهب العشائر (المجتمع البدائي) مع بعض أشكال التنظيم السياسية ، بشكل جوهري ، (أرستقراطية ، ملكية) . وهكذا ، أثار جدلا متجددا دون توقف ، في كيف النظرية الانثروبولوجية ، وفي سنة (١٩٥٦) ، أعاد (شابرا) هذا الجدل في كتابه (الحكم والسياسة في المجتمعات القبلية) .

جـ ـ الانثروبولوجيون السياسيون :

بعد عام ١٩٢٠ ، تأسست انثروبولوجيا سياسية مميزة مغايرة ، جلية وليس مضمرة . انها تنطلق من الاشكالية القديمة ، ولكنها تستفيد من الادوات الجديدة الناتجة عن البحث الاتنوغرافي .

انها تناقش مجددا في موضوع الدولة ، وأصلها ، وتعبيراتها الاولى ، وهي مسألة أعيد تناولها سابقا من قبل (فرازر أو بنهامس) في مطلع القرن (١٩٠٧) ومع فارق بضعة سنوات ، تم طبع دراستين هامتين تجيبان على الاهتمام ذاته ، دراسة (فورتس ، ماكلاود) ، الذي يستعمل التوثيق المجموع من قبل علماء العراقة المتآمرين ودراسة لووي (أصل الدولة) ، التي تحدد الدور المعتبر للعوامل الداخلية (تلك المثيرة للتماسك الاجتماعي) والعوامل الخارجية (تلك الناشئة عن الغزو) في تكوين الدول . انها اتجاهات السيرانت التي تريد أن تكون علمية ، والمبنية على الوقائع ، والمميزة بشكل واضح عن أعمال الفلسفة السياسية . وان مسألة الاصول هي أيضا تلك التي يأخذها (فرازر) بعين الاعتبار ، انه يعرض العلاقات بين السحر والدين والحكم الملكي ، وهو يسمح بذلك ، الباحث للاعمال الموضحة لعلاقة السلطة بما هو مقدس . ان ميادين جديدة قد فتحت ، وبعضها يفتح على الاعتراف

والتفسير للنظريات الغرائبية للحكم : وقد نشر « بينى برازد » كتابه (نظرية الحكم في الهند) في سنة (١٩٢٧)، والمؤلفات العامة لعلماء السياسة ، بدأت بتطبيق بعض المداخلات الانثروبولوجية، ومنها كتاب (تاريخ النظريات السياسية) (١٩٢٤) لـ (أ.أ. غولد نيوشر)، الذي يشير بوضوح، الى النمط السياسي لشعوب (ايركوا) في أميركا الشمالية .

ان أول المؤلفات في الانثروبولوجيا ، تمنح مكانا محدودا جدا للوقائع السياسية، فكتاب (ف.ق بواس)، (الانثروبولوجيا العامة)، يخصص فصلا لمسائل الحكم ، وكتاب (لووي) (المجتمع البدائي) ، ينظم مقولات المؤلف ويحمل جدولا شموليا للنتائج الرئيسة . ولكن الثورة الانثروبولوجية المجددة ، هي تلك التي قامت في الثلاثينات ، في مرحلة تضاعفت فيها الدراسات على الأرضية ، والتحضيرات النظرية والمنهجية الناتجة عنها .

ان الابحاث المكرسة للمجتمعات الجزئية (المسماة « بدون دولة ») ، لبنيات القرابة ولاشكال العلاقة التي تحكم هذه الاخيرة ، ان هذه الابحاث ، تقود الى تحديد أفضل للحقل السياسي والى حصر أفضل لتنوع أشكاله .

وفي الميدان الافريقي ، سيكتمل التقدم الاكثر سرعة ، فالمجتمعات الخاضعة للبحث هي منظمة بمقياس كبير ، ان تمييز علاقات القرابة وتمييز العلاقات السياسية البحتة يبدو من خلالها (المجتمعات) بشكل أوضح منه في المجتمعات الصغيرة « السلفية » . في (١٩٤٠) ، نشرت ثلاثة مؤلفات ، تعد اليوم تقليدية . اثنتان منها ، يعود الفضل فيهما الى (أيفانز برتشارد) وهي تعبر عن نتائج البحوث المباشرة وتحمل اسهامات نظرية جديدة . وكتاب (شعب النوير)، الذي يظهر الخطوط العامة لمجتمع نيلي (نهر النيل) ؛ وهو يوضح في الوقت ذاته ، العلاقات والمؤسسات السياسية لشعب محروم من الحكم ، لاول وهلة ، كما يثبت امكانية وجود « فوضى منظمة » . أما كتاب (النسق السياسي لشعب الانيوائك) فهو بالنتيجة دراسة في الانثروبولوجيا السياسية حول شعب سوداني ، قريب من النوير ، وقد أنشأ شكلين متناقضين ومتنافرين لحكم البشر ، وأما الكتاب الثالث

فهو مؤلف جماعي بتوجيه من (ايفانز — بريتشارد) : « النظم السياسية الافريقية » ، انه يضطلع لضرورة مقارنة باظهاره « حالات » متمايزة بشكل واضح، انه مقدم بمدخل نظري ، ويقترح وضع لبنات لنموذجية ما ، وهو مقيم من قبل (غلوكمان) كأول مساهمة تسعى لاعطاء وضع علمي للانثروبولوجيا السياسية ومن الصحيح ، ان المؤولين عن هذا الكتاب يحددون ابتعادهم عما يتعلق « بفلسفة السياسة » ، وهم أقل اهتماما بأن يصغوا من أن « يقولوا أي حكم كان ينبغي على البشر أن يضعوه لذاتهم » . ان هذا التوكيد ، يحيي ، دون شك ، بعض التحفظات ، ولكن ليس هناك بدا ، مختص لا يظهر تأثيره فيما يتعلق بهذين الانثروبولوجيين الكبيرين . وبعد (١٩٤٥) ، فان عدد الافريقيين السياسيين ، كبر بسرعة . وان دراساتهم ، بادىء ذي بدء ، هي نتاج عمل كثيف مكمل على الارضية ، ان هذه الدراسات ، تأخذ بالاعتبار في الوقت ذاته ، المجتمعات الجزئية (فورت ، ميدلتون ، تيت ، سوثال ، بالنديه) ومجتمعات الدولة (نادل ، سميث ، ماكية ، مرسية ، ابتر ، بياتي) ، انها تؤدي لابحاث نظرية ولمقولات اقليمية تطابق بين نظم متقاربة ، وهكذا بالنسبة للمجتمعات ذات النسب ، كتاب « قبائل بلا حكام » وقد نشر سنة (١٩٥٨) باشراف (ميدلتون وتيت) ، وبالنسبة للدول في المنطقة الشرقية القائمة على الجزر ، كتاب (الحكم البدائي) المنشور سنة ١٩٦٢ من قبل ل. مار . أما كتاب شابيرا (الحكم والسياسة في المجتمعات القبلية) ، فهو كتاب ذو محمل عام ، كما يوحي بذلك عنوانه ، علما بأنه مبني بالنتيجة على أمثلة مأخوذة من افريقيا الجنوبية . انه يفحص الآلات (ميكانيزم) ، الضامنة لعمل الحكومات البدائية ويوضح بعض مسائل المصطلحات . أما بالنسبة للابحاث الاكثر حداثة ، الموجهة من قبل الاوضاع الناتجة عن الاستقلال ، فانها تقيم علاقة بين الانثروبولوجيا السياسية وعلم السياسة (ابتر ، كولمان ، هودكان ، بوتفين ، زيغلر) ، انها تظهر ضرورة التعاون بين مذاهب عدة . وخارج الميدان الافريقي ، هناك مؤلف يغلب عليه الادب المتخصص ، وهو كتاب « النظام السياسي في مرتفعات بورما » الذي كرسه ليخ للبنيات وللتنظيمات السياسية لشعوب الكاشن للبنيات وللتنظيمات السياسية لشعوب الكاشن في بورما وقد نشر في سنة

١٩٥٤ . وهذه الدراسة تقوم المظهر السياسي للظاهرات الاجتماعية . وبعد تأمل (وأسلافه) ، فقد حدد المجتمع الشمولي و « الوحدة السياسية » ، علما بأن البنيات الاجتماعية قد عرضت ذاتها ، بالرجوع الى « الافكار المتعلقة بتوزيع السلطة بين الاشخاص وجماعات من الاشخاص » .

ثالثا ـ مناهج الانثروبولوجيا السياسية وتياراتها :

ان المناهج لا تختلف في البداية ، عن تلك التي تميز مجموع المنحى الانثروبولوجي . انها تصبح أكثر نوعية ، عندما تتطرق الانثروبولوجيا السياسية ، المضمرة ، الى مسائل خاصة بها : سيرورة تكون المجتمعات السلطوية ، طبيعة الدولة البدائية ، اشكال السلطة السياسية في مجتمعات حكم العد الادنى الخ .. انها تحصل على أصالتها الكاملة ، فورا ، حتى تصبح الانثروبولوجيا السياسية مشروعا علميا ساعيا الى مادة والى أهداف واضحة جدا . وهي تتلقى بذلك ، تأثير العلوم الاجتماعية السياسية القائمة ـ علوم (ماكس فيبر) أو بشكل أكثر تداولا، علوم (ماركس) و (انجلز) (مثلا في حالة) . انها تتمتع مع ذلك ، من التقدم المحقق من قبل الانثروبولوجيا العامة .

ان هذه المناهج تتميز بالأدوات التي تلجأ اليها ، وبالمسائل التي طبقت هذه المناهج عليها . ولا يتم التعريف بها ، بشكل كامل ، اذا وضعنا في الجهة المعارضة، الاعمال النظرية ، التي تقيم ميدان دراستها وهي تنشأ على اسهام الابحاث الميدانية، والاعمال التي تعد ذاتها بالتحضير الفوري للمعطيات الناشئة عن البحث المباشر . ومن الملائم اقامة جدول عام لهذه المناهج ، قبل تقويم فاعليتها العلمية في الاعتراف بالحقل السياسي .

آ) المنحى التوليدي او المدرسة التوليدية :

انها ، في الوقت ذاته ، الاولى في تاريخ النظام والاكثر طموحا ، انها تطرح على ذاتها مسائل « الاصول » و « التطور » ، بنفس طويل : الاصل السحري أو الديني للحكم الملكي ، محضر لتركيب الدولة البدائية، انتقال المجتمعات المبنية

على « القرابة » الى مجتمعات سياسية ،.الخ. انها موضحة بسلسلة مؤلفات ـ منذ مؤلفات الرواد حتى الدراسة التاريخية لماكلود (أصل وتاريخ السياسة) ، وهي تجد ، بطريقة ما ، نتيجة لها في الابحاث الاتنية ، تلك الابحاث المستوحاة من الماركسية ، وتضم اليها مفهوما جدليا لتاريخ المجتمعات .

ب) المدرسة الوظائفية :

انها تحدد هوية المؤسسات السياسية ، في المجتمعات المسماة بدائية ، انطلاقا من الوظائف المعمول بها . وحسب تعبير (رادكليف ـ براون) ، فانها تقود لدراسة « التنظيم السياسي » كمظهر لـ « التنظيم الكامل للمجتمع » . وفي الواقع ، فان التحليل يستحضر مؤسسات سياسية متعددة (وهكذا ، جهاز الحكم الملكي) ومؤسسات متعددة الوظائف مستعملة في بعض المناسبات لغايات سياسية ، (وهكذا « التحالفات » المشادة بين العشائر أو الانساب) .

هذا النوع من المنحى ، يسمح بتعريف العلاقات السياسية ، والتنظيمات والمذاهب التي تكونها ، ولكنه ساهم قليلا ، بايضاح طبيعة الظاهرة السياسية . ان هذه الاخيرة ، مميزة بوجه عام بمجموعتين من الوظائف : الوظائف التي تقيم أو تساند النظام الاجتماعي مرتبة التعاون الداخلي (رادكليف ـ براون) : والوظائف التي تشكل ضمانة للامن بتأمينها الدفاع عن الوحدة السياسية .

جـ) المدرسة التنموذجية :

انها استمرار للمدرسة السابقة . انها تسعى لتحديد نماذج النظم السياسية ولتصنيف اشكال تنظم الحياة السياسية،ان وجود الدولة البدائية أو عدم وجودها يبدو أنه يمنح معيارا أوليا للتمييز : انه ذلك الذي يقلب في (النظم الافريقية السياسية) . ان هذا التفسير ثنائي التفرع هو الآن قيد المناقشة . وفي الواقع ، فمن الممكن بناء سلسلة نماذج تمتد من النظم ذات حكم الحد الادنى ، الى نظم الدولة واضحة التكوين ، وبالتقدم من نموذج الى نماذج أخرى ، فان السلطة السياسية تتغير بشكل أفضل ، وتتنظم بطريقة اكثر تعقيدا وتصبح مركزية . ان

المعارضة بين المجتمعات الجزئية ومجتمعات الدولة المركزة (المركزية) ، تبدو قابلة للنقاش أكثر فأكثر ، حتى أن الباحث الافريقي (سوتال) أوضح ضرورة ادخال فئة ثالثة ، على الأقل ، : تلك المتعلقة بالمجتمعات الجزئية . وعلاوة على هذا النقد ، فان المنهج بحد ذاته ، موضوع موضع الشك ، الى درجة أن النموذجية هي أحيانا مشبهة بتكرار لفظي غير مجد وكان من الملائم على الأقل عدم خلط وجمع النماذج « القابلة للوصف » والنماذج « القابلة للاستنتاج » (استون) ، وكان من المهم عدم حذف الصعوبة الكبرى وهي أن : النماذج المعرف بها هي « منحترة » ؛ وحسب التعبير الحماسي لـ (ليخ) ، « لا يمكننا أن نرضى لوقت طويل بالمحاولات التي تقيم نموذجية لنظم ثابتة » .

د) مدرسة المصطلحات :

ان تأشيرا أوليا للظاهرات ، وللنظم السياسية ، ينطلق بالضرورة من محاولة تأسيس للفئات الاساسية . انها مهمة صعبة تتطلب مسبقا ، حصرا دقيقا للحقل السياسي . انها تبقى غير مكتملة أبدا : ان الباحث السياسي (أستون) في دراسة له حول الانثروبولوجيا السياسية ، يؤكد بأن موضوع هذا العلم يبقى معرفا بشكل سيء « لان مشاكل عدة في المفهوم لم تجد حلا » . واحدى المبادرات الاكثر اندفاعا هي مبادرة (سميث) ، انها تحاول ، بحماس ، اقامة المفاهيم الاساسية : العمل السياسي ، التنافس ، السلطة ، الهيمنة ، الادارة ، الواجب ... الخ ... ، وهي ، اضافة الى ذلك ، مفيدة (بنتائجها) ، عندما تعرض « العمل السياسي » بطريقة تحليلية ، بهدف وضع اشارة للجانب المشترك لكل النظم . ويبقى مع ذلك من الاسهل وضع معجم المفاهيم ـ الاساسية من منح هذا المعجم مضمونا . ان تأسيس هذه المفاهيم ، يجب أن يكمل بدراسة منتظمة للفئات والنظريات السياسية الاصيلة ، وسواء كانت هذه الاخيرة واضحة أو ضمنية ، ومهما تكن الصعوبات المعترضة لترجمتها . ان علم الالسن هو بذلك أحد الادوات الضرورية للانثروبولوجيا وعلم الاجتماع السياسيين . ولم يكن سيعرف تجاهل حقيقة ان المجتمعات المتأتية من أول هذين الامرين (الفئات) ، تفرض توضيح

النظريات التي تفسرها ، والايديولوجيات التي تبررها ، لقد اقترح (سوتال وبياتيه وبالنديه) الوسائل التي يجب استعمالها بغية بناء هذه النظم المظهرة للفكر السياسي الاصيل .

هـ) المدرسة البنيوية :

انها تستبدل الدراسة التوليدية أو الوظائفية ، بدراسة للموضوع السياسي، موضوعة انطلاقا من الانماط البنيوية . ان ما هو سياسي يرى بمظهر العلاقات الشكلية ، التي تأخذ بالحسبان ، علاقات السلطة القائمة فعليا بين الافراد والجماعات ؛ واذا كنا نريد اللجوء الى التفسير الاكثر بساطة ، فان البنيات السياسية ـ ككل بنية اجتماعية ـ هي النظم المظهرة للمبادىء التي توحد العناصر المكونة للمجتمعات السياسية الملموسة . وفي مقال محفز مكرس لـ « بنية السلطة عند الحاجراي » وهي مجموعة من الجماعات السكانية التشادية ؛ فان بويون يدقق ويوضح واحدة من امكانيات المنهج البنيوي المطبق في ميدان الانثروبولوجيا السياسية . ان التطبيق يتطرق الى مجموعة من المجتمعات ـ المصغرة تظهر في الوقت ذاته قرابات (الاسم العام ـ الحاجراي ـ يوحي بها) ، وتظهر تنوعات ذات دلالة ، وخاصة في معالجة « موضوع السلطة » . ان شرطا مزدوجا ، وهو وجود عناصر مشتركة وتمييز في الترتيب لهذه العناصر،هو ضروري لهذه المدرسة. انه يسمح ، بدرجتين ، ببناء نظم عائدة لمجموع صيغ التنظيم الاجتماعي ـ السياسي ، و « نظام للنظم » ـ ذلك النظام المعتبر معرفا لسلطة الحاجراي . ومن هنا ، تحظىالدراسة ، في الوقت الاول، تأثير « العلاقات البنيوية الداخلية لكل تنظيم معتبر كنظام » ؛ وفي الوقت الثاني ، تفسير لمجموع التنظيمات المدروسة « وكانها نتاج مزيج » . وفي الحالة المدروسة ، فان المنهج يؤكد خاصة على الاختلاطات المختلفة (المعادلة ، التمييز الجزئي ، التوكيد المتغير) للسلطتين الدينية والسياسية ، وعلى لعبة المنطق التي تتحقق تحت أشكال مختلفة داخل البنية الشمولية نفسها . والتنوعات تستطيع بذلك أظهار « الحالات » للبنية نفسها . ان المنحى البنيوي ، المطبق على دراسة النظم السياسية ، يثير صعوبات خاصة به ـ

وعلى مستوى أهم ، وخاصة تلك الصعوبات التي يأخذها ليخ بعين الاعتبار ، وهو البنيوي المعتدل ، في دراسته للمجتمع السياسي للكاشيين ، انه ينطلق من الواقعة الحتمية ، وهي أن البنيات المعدة من قبل الأنثروبولوجي ، هي أنماط موجودة فقط بوصفها « تركيبات منطقية » ، وهذا ما يقود الى سؤال أول : كيف نمتلك اليقين بأن النمط الشكلي هو الأكثر كمالا ؟ ومن جهة أخرى ، فان ليخ يدرس صعوبة أكثر جوهرية ، وهي أن « النظم البنيوية كما يصفها الانثروبولوجيون هي دائما نظم ساكنة » ، انها أنماط للواقع الاجتماعي تظهر حالة انسجام وتوازن مشدد عليه ، بينما هذا الواقع ليس له ميزة الكل المنسجم ، انه يخفي تناقضات ، ويظهر تنويعات وتغييرات للبنيات . وفي الحالة الخاصة للتنظيم السياسي للكاشيين ، فان ليخ يشير الى ظاهرة التذبذب بين قطبين — النموذج « الديمقراطي » والنموذج « الارستقراطي » — أي عدم ثبات النظام ، والاحكام المتغيرة للثقافة ، وللبنية الاجتماعية — السياسية وللوسط البيئوي . ان دقة العديد من التحليلات البنيوية هي ظاهرة وخادعة . انها تفسر بشرط ضروري ، ولكنه أحيانا مقنع : « الوصف لبعض النماذج غير الواقعية للوضع ، آخذين بالعلم ، بنية نظم التوازنات » . (ليخ) .

ج) المدرسة الديناميكية :

انها تكمل ، بجزء ما ، المدرسة السابقة ، بتصحيحها في بعض النقاط . انها ترغب بفهم ديناميكية البنيات بقدر فهم النظام للعلاقات التي تكون هذه البنيات : أي الاخذ بعين الاعتبار عدم التلاؤم ، والتناقضات ، والضغوط ، والحركة الملازمة لكل مجتمع . انها تعرض ذاتها بقدر أكبر من الانثروبولوجيا السياسية لان الميدان السياسي ، هو ذلك الميدان حيث الضغوط تفهم بأحسن شكل وحيث التاريخ يطبع علامته بأوضح شكل .

ان ليخ ، قد ساهم مباشرة في تشييد هذه المدرسة ، بعد أن بحث أسباب ظهورها المتأخر ، انه يتساءل حول التأثير السائد (لدور كهايم) — على حساب تأثير (باريتو) أو (ماكس فيبر) — هذا التأثير الذي كان سيسمح بمفهوم يشدد على التوازنات

البنيوية ، وعلى التماثلات الثقافية ، وعلى أشكال التضامن ، علما بأن المجتمعات الحاملة لنزاعات ظاهرة والمنفتحة على التغيرات كانت ستصبح « متهمة بالفوضوية » ، انه ينقض « الاحكام المسبقة الاكاديمية » والمركزية الاتنية للانتروبولوجيين الذين عملوا لابعاد بعض معطيات الواقع ، لكي لا يعالجوا الا مجتمعات ثابتة ، غير مهددة بالتناقضات الداخلية ومعزولة داخل حدودها . وباختصار ، فان (ليتش) يدعو للاخذ بعين الاعتبار ، لما هو متناقض ، لما هو صراعي ، لما هو مقارب ، ولما هو متعلق بالخارج ، وهذا التوجيه يظهر ضروريا لتقدم الانتروبولوجيا السياسية ، لان ما هو سياسي يعرف ذاته أولا بالتماس الفوائد بالتزاحم .

ان انتروبولوجيي مدرسة مانشستر ، تحت تأثير (غلوكمان) ، يوجهون أبحاثهم نحو تفسير ديناميكي للمجتمعات . لقد درس (غلوكمان) طبيعة العلاقات القائمة بين « التقليد » و « الصراع » (التقليد والصراع في افريقيا ـ ١٩٥٥) ، بين « النظام » و « التمرد » (النظام والتمرد في افريقيا القبلية ـ ١٩٦٣) . ان اسهامه يتعلق ، في الوقت ذاته ، بالنظرية العامة للمجتمعات التقليدية والسلفية ، وبمنهج الانتروبولوجيا السياسية . ان هذه الاخيرة تجد اقتراحات ، في نظريته عن التمرد ، وفي دراساته المكرسة لبعض الدول الافريقية . ان التمرد يرى كصيرورة دائمة وتظهر ، بطريقة ثابتة ، العلاقات السياسية ، بين ماهو طقسي ، مطروح ، بجزء منه ، كأداة تعبير عن النزاعات وكأداة تنظيما ، مؤكدا على وحدة المجتمع . ان الدولة الافريقية التقليدية تبدو غير ثابتة وحاملة لجدل منظم ـ محول الى طقوس ـ يسهم أكثر في مساندة النظام من تغييره ، وللاثبات النسبي والتمرد المراقب ، كان يمكن ان يكونا ، بذلك ، المظاهر الطبيعية للصيرورات السياسية الخاصة لهذا الشكل من الدولة . ونحن نرى ذلك ، ان التجديد النظري هو فعلي ، ولكنه ليس مقادا حتى أقصاه . ان (غلوكمان) يعترف جيدا بالديناميكية الداخلية ، كعامل مركب لكل مجتمع ، ولكنه يقلل من محمله التغييري ، وهذه الديناميكية مأخوذة بالحسبان ـ مثل التأثيرات الناتجة عن « الشروط الخارجية » ـ ولكن الديناميكية الداخلية تندرج ضمن مفهوم للتاريخ يربط المجتمعات المتأتية من الانتروبولوجيا بتاريخ معتبر تكراريا .

ان هذا التفسير يثير جدلا ، لا يمكن تجنبه ، وتظهر أهميته ، في الواقع ، من خلال الفائدة المتصاعدة المعطاة لابحاث الاثنروبولوجية ، ذات الفكر التاريخي ومن خلال تضاعف الدراسات النظرية التي تقوم هذه الفائدة . وبعد فترة طويلة من الرسائة ، والتي تجد تفسيرا لهـا في الطموحـات الكبيرة للمدرسة التطورية ، وبيلاهات المدرسة الانتشارية ، وفي الموقف السلبي المتخذ للمدرسة الوظائفية ، فان هذه الاسئلة تجد مكانا أوليا لها في حقل البحث الاثنروبولوجي . ان مؤلفـا صغيرا لـ (ايفانز ـ بريتشارد) « الانثروبولوجيا والتاريخ » يسهم في اعادة تأهيل التاريخ . ان هذا الجدل ، لن يجد نفعا له ، الا اذا بدأنـا بتمييز ، دون مخاطر الخلط ، لوسائل المعرفـة التاريخية ، وللتعبيرات الايديولوجية التي تغطي التاريخ الحقيقي .

وبالنسبة للانثروبولوجيا السياسية ، فان توضيح العلاقات القائمة بين هذه الحقول الثلاثة هو شرط ضروري .

وفي ميدان اعتبر مطولا ، خارجا عن التاريخ ـ ميدان المجتمعات والحضارات الافريقية السوداء ـ فان الاعمـال حديثة العهد ، بدأت باثبـات خطأ التفسيرات السكونية جـدا . ان حقيقة التاريخ الافريقي ، الظاهرة من خـلال تلاقي حيـاة المجتمعات السياسية والحضارات السوداء ومن خلال موتها ، لم يعد مـن الممكن تجاهلها . وان الابحاث ، التي تأخذ بالحسبان ، هذه الابعـاد ، تظهر بأن الوعي التاريخي لم يظهر عرضا ، تبعا لتجارب الاستعمار وللتغيرات الحديثة ؛ ان هـذه الدراسات تثبت ـ بتشويه وجهة نظر (جان بول سارتر) ـ بأن الموضوع لا يتعلق فقط بتاريخ أجنبي « حصول الى تاريخ داخلي » ان (نادل) في دراسته عن النوب (نيجيريا) يميز بين مستويين للتعبير عن التاريخ (مستوى التاريخ الايديولوجي ومستوى التاريخ الموضوعي) ، ويستنتج بأن الانوب لديهم وعي تاريخي . وهذا الوعي يعمل على كل من المستويين . ان أبحاثا جديدة أثبتت هذا النزاع للتعبير التاريخي وللمعرفة التي تدير هذا التعبير : تاريخ عام (اثبت هذا النزاع للتعبير التاريخي وللمعرفة التي تدير هذا التعبير : تاريخ عام (مثبت في خطوطـه العامة

ومتعلق بكيان أتنية كامل) وهو يتمايش مع تاريخ خاص (معرف به في التفاصيل ، وخاضع لاعوجاجات ، ومرجعه جماعات خاصة واهتماماتها النوعية) ان دراسه لـ (ايان كينيزون) التي وصلت الى شعب اللابيولا في افريقيا الوسطى تحمل توضيحا ملموسا ، انها تعرف بالوضع المتغير لهذين النمطين للتاريخ الافريقي : على مستوى التاريخ المسمى لا شخصي ، فان الزمن والوضع هما مجموعان ، وعلى مستوى التاريخ المسمى شخصي ، فان الزمن ملغى والمتغيرات معتبرة وكأنها لاشيء ـ ان الاوضاع والاهتمامات الجماعات هي مجمدة ، بشكل ما .

ان هذا التحليل يظهر ، من جهة أخرى ، الى أية درجة ، كان لدى اللابيولا وعي للدور الحدث في صيرورة مجتمعهم ، وقد حصلوا على معنى السببية التاريخية وبالنسبة لهم ، فان هذه السببية لا تتأتى من النظام فوق الطبيعي ، لان الاحداث خاضعة مبدئيا لارادة الناس .

ان العلاقة بين التاريخ والسياسة هي بادية للعيان ، حتى في حالة المجتمعات المتروكة للمذاهب الانتروبولوجية ومنذ اللحظة ، التي لا ترد بها ، المجتمعات ترى ، كنظم متخذة ، فان القراءة الجوهرية لديناميكيتها الاجتماعية ولتاريخها لا يسود بالامكان تجاهلها .

وهناك سبب آخر يفترض ذاته بقوة أكبر أيضا ، وهو أن : درجات الوعي التاريخي متصلة بأشكال تمركز السلطة السياسية ودرجته . وفي المجتمعات الجزئية ، فان حراس المعرفة المتعلقة بالماضي ، هم الماسكون بزمام السلطة ، على العموم . وفي مجتمعات الدولة ، فان الوعي التاريخي يبدو أكثر حيوية وأكثر شمولا . وفي الواقع ، فانه في كنف هذه الاخيرة ، يتم الفهم ، بشكل واضح ، لاستعمال التاريخ الايديولوجي بغية أهداف الاستراتيجية السياسية ، وقد أوضح (فانسينا) ذلك ، بشكل جيد ، بصدد رواندا القديمة . ويبقى التذكير بأن سير الدول المستعمرة (بفتح الميم) نحو الاستقلال ، قد وضع في خدمة القوميات تاريخا حقيقيا محاربا .

وهكذا ، اذا ، فمن خلال لعبة الضرورة أصبحت ظاهرة الملامح ، فان النظرية الديناميكية للمجتمعات ، والانثروبولوجيا وعلم الاجتماع السياسيين والتاريخ ، قد تم تسييرها نحو توحيد جهودها . وهذا اللقاء يعطي صياغة جديدة لتلك الرؤية المسبقة (لدور كهايم) : « نحن مقتنعون ... بأن يوما سيأتي ، وفيه لن يختلف الفكر التاريخي والفكر الاجتماعي (السوسيولوجي) عن بعضهما بعضا الا ببعض الاقتباسات » .

* * *

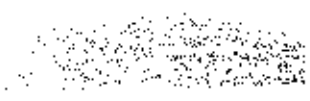
القسم الرابع

علم دراسة الانسان (الميدان الاجتماعي)

«الانثروبولوجيا الاجتماعية»

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University



المبحث الأول

في النشأة والتطور (*)

تدرس الأنثروبولوجيا الاجتماعية السلوك الاجتماعي الذي يتخذ شكل نظم اجتماعية : كالعائلة ونظام القرابة والتنظيم السياسي والاجراءات القانونية والعبادات الدينية والعادات والتقاليد والنظام الاقتصادي . وتهدف دراسة تلك النظم الاجتماعية الى تحديد العلاقة والتأثير المتبادل فيما بينها سواء بالنسبة للمجتمعات القديمة التي نعرفها عن طريق الآثار التي تركتها أو فيما يتعلق بالمجتمعات المعاصرة التي ندرسها عن طريق الملاحظة المباشرة .

وتهتم الأنثروبولوجيا الاجتماعية بدراسة المجتمعات الصغيرة البسيطة التي يمكن فيها دراسة العلاقات المتبادلة بين النظم الاجتماعية جميعا ، ولذلك بدأ العلم بدراسة المجتمعات شبه البدائية[1] صغيرة الحجم ذات النسيج الاجتماعي المتكامل والمحدود والتي تمتاز ببساطة الفنون الآلية والاقتصادية وقلة التخصص في الوظيفة الاجتماعية اذا قورنت بالمجتمعات المتقدمة ، وبعض العلماء يضيفون مقاييس أخرى لتحديد المجتمعات شبه البدائية منها عدم معرفة القراءة والكتابة وعدم التخصص في الزراعة والاعتماد في المعيشة على الصيد أو الرعي أو هما معا وعدم وجود علم بالمعنى الصحيح .

(*) د. عاطف وصفي ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية . الطبعة الثالثة ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٧٧ . مع الاشارة الى اننا قمنا بالتصرف العلمي ببعض الفقرات .

(١) أن الترجمة الدقيقة للاصطلاح هي « بدائية » ونظرا لان تلك الشعوب لا تمثل بدء الحياة الاجتماعية للانسان فاني استخدم اصطلاح « شبه بدائية » .

وقد استمر اهتمام علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية بالشعوب شبه البدائية فترة طويلة بل الى يومنا هذا ، وقد حدث منذ فترة قصيرة تغير أساسي وهو عدم اقتصار دراسات الانثروبولوجيا الاجتماعية على المجتمعات شبه البدائية وانما شملت كذلك المجتمعات المتمدنة وبخاصة الصغيرة منها مثل مجتمع القرية أو الاحياء السكنية في المدن الكبيرة .

بعد هذه المقدمة السريعة عن مجال الانثروبولوجيا الاجتماعية أعرض لتاريخ هذا الفرع الهام ومدارسه من الانثروبولوجيا .

اولا ـ التمهيد لظهور الانثروبولوجيا الاجتماعية (القرن الثامن عشر الميلادي):

من أهم الدراسات التي مهدت لظهور الانثروبولوجيا الاجتماعية بحث الفيلسوف الفرنسي « مونتسكييه » (١٦٨٩ ـ ١٧٥٥ م) « روح القوانين » ، وهو بحث يجمع بين الفلسفة والسياسة والاجتماع ، والموضوع الذي يثير اهتمامنا في هذا البحث ما أكده « مونتسكييه » من أن المجتمع ذاته وما يحيط به يتكون من نظم ترتبط ببعضها ارتباطا وظيفيا ، وبالتالي لا يمكن فهم القانون الدولي أو القانون الدستوري أو القانون الجنائي أو القانون المدني لدى شعب من الشعوب الا اذا درسنا العلاقات بين كل هذه القوانين ثم دراسة علاقة تلك القوانين بالبيئة الطبيعية والحياة الاقتصادية وعدد السكان ومعتقداتهم والعرف والاخلاق وكذلك أمزجة الناس .

وقد ميز « مونتسكييه » بين البناء الاجتماعي للمجتمع ونظام التقسيم الذي يعمل في هذا البناء ، وأطلق على المفهوم الأول اصطلاح « طبيعة المجتمع » ويقصد به البناء الخاص المتميز للمجتمع ، ويسمى المفهوم الثاني « مبدأ المجتمع » ويعرفه بأنه الرغبات والاهداف الانسانية التي تدفع البناء الاجتماعي للعمل .

وعندما وصلت تلك النظرة الفلسفية للانثروبولوجيا الاجتماعية الى العلامة الفرنسي « سان سيمون » (١٧٦٠ ـ ١٨٢٥ م) ، اتخذت صورة جديدة ، فهو أول من اقترح بصراحة ضرورة انشاء علم المجتمع ، وكان يؤمن ايمانا شديدا بالعلم

والتقدم ، وكان يقصد بذلك انشاء علم وضعي للعلاقات الاجتماعية التي كان يعدها مماثلة للعلاقات المضوية ، ونادى بأن واجب العلماء تحليل الحقائق والوقائع وليس المفهومات أو التصورات .

ولاشك أن « سان سيمون » لم يكن يرمي الى إنشاء الانثروبولوجيا الاجتماعية بالذات ، وانما يقصد أي علم اجتماعي يدرس النظم الاجتماعية والعلاقات التي تربطها ببعضها دراسة موضوعية ، وقد تحقق هدفه على يد تلميذه « اوجست كومت »[٢] (١٧٩٨ — ١٨٥٧ م) وهو أول من أطلق اصطلاح « علم الاجتماع » .

لم يقتصر ظهور تلك المرحلة التمهيدية على فرنسا وانما نجد دراسات تمهيدية أخرى في انجلترا ، وأهم تلك الدراسات أبحاث كل من « دافيد هيوم » (١٧١١ — ١٧٧٦ م) وآدم سميث (١٧٢٣ — ١٧٩٠ م) ، وقد نظر هذان العالمان الى المجتمع الانساني على أنه « نسق طبيعي » بمعنى أنه ينشأ من الطبيعة البشرية ذاتها وليس عن طريق التعاقد الاجتماعي ، وبهذا المعنى انتشرت مفاهيم « الاخلاق الطبيعية » و « الدين الطبيعي » ، وترتب على هذا الفهم للمجتمع الانساني — أي عده ظاهرة طبيعية — ضرورة استخدام المنهج التجريبي الاستقرائي في دراسته والبعد عن مناهج الفلسفة العقلية الديكارتية . وكان الفلاسفة الانجليز شأنهم في ذلك شأن الفلاسفة الفرنسيين — يؤمنون بتقدم المجتمعات الانسانية غير المحدود ، وتوصل بعضهم الى قوانين تحدد مراحل ذلك التقدم .

وظهرت في تلك المرحلة بعض بوادر الاهتمام بالمجتمع البدائي وكانت مصادر المعلومات عن تلك المجتمعات لا تخرج عن العهد القديم والكتابات الكلاسيكية التخمينية وبعض رحلات الاستكشاف في القرن السادس عشر الميلادي . وكان الاتجاه الغالب يصور الانسان البدائي على أنه شخصية فظة متوحشة ، ويضع

---

(٢) رغم أن « أوجست كومت » هو أول من أطلق اصطلاح « علم الاجتماع » فان منشىء ذلك العلم هو العلامة العربي ابن خلدون (من عام ١٣٣٢ الى ١٤٠٦ م) لاحظ الفرق الزمني الكبير .

المجتمع البدائي الهمجي على طرفي نقيض بالنسبة للمجتمع المتمدن المتقدم عند التعرض لشكل المجتمع قبل تكوين الحكومة سواء عن طريق التعاقد أو الخضوع للطغيان . ويشير (جون لوك) (١٦٣٢ الى ١٧٠٥ م) الى ما كتب عن الهنود الحمر في ولاية « نيو انجلند » بأمريكا ، وقد أصدر أحكاما عامة عن الشعوب البدائية اعتمادا على تلك الفئة من الهنود الحمر ولذلك لم يكن دقيقا في تعميماته .

وقد اعتمد كذلك مفكرو القرن الثامن عشر في تصورهم عن المجتمع الانساني البدائي على دراسات كل من « جابريل ساجارد » و « جوزيف لافيتو » عن قبائل « الهيرون » و « الايراكو » وهي خاصة بالهنود الحمر في أمريكا الشمالية .

وخلاصة القول إن فلاسفة القرن الثامن عشر الميلادي قد مهدوا لظهور علوم موضوعية تدرس النظم الاجتماعية ، ومن أهم تلك العلوم التي مهدوا لها الاثنروبولوجيا الاجتماعية . وأهم مظاهر هذا التمهيد الاهتمام الشديد بالنظم الاجتماعية وعد المجتمعات الانسانية نسقا طبيعية تطبق في دراستها المناهج التجريبية الاستقرائية وكذلك الاهتمام بالمجتمعات البدائية . ومن الملاحظات الهامة في دراسات فلاسفة القرن الثامن عشر الميلادي أنه رغم تأكيدهم على ضرورة استخدام المناهج الاستقرائية في دراسة المجتمعات الانسانية نجد أبحاثهم خالية تماما من تلك المناهج والاعتماد على التخمين والتعليلات الصورية .

ثانيا ـ نشأة الانثروبولوجيا الاجتماعية (القرن التاسع عشر) :

تعد الفترة من عام (١٨٦١) الى عام (١٨٧١) م ، فترة نشأة الانثروبولوجيا الاجتماعية نظرا لصدور مجموعة من الكتب الهامة في تلك الفترة ، حددت تلك الكتب المعالم الاساسية للعالم موضوع دراستنا . ومما يثير الانتباه انتماء أصحاب تلك المؤلفات الى جنسيات مختلفة ، فمن الانجليز نجد العلماء « مين » و « تيلور » و « ماكليناند » ، ومن الفرنسيين نقابل « فوستيل دي كولنج » .

ومن الامريكيين نجد العلامة « مورجان » ، ومن سويسرا نتعرف على « باخوفين » .

كانت تلك المؤلفات الهامة التي وضعت أسس الانثروبولوجيا الاجتماعية تحصيل حواصل هؤلاء العلماء ولم تكن نابعة عن تخصصاتهم لعدم وجود تخصص الانثروبولوجيا في الجامعات ، عمل كل من « مورجان » و « باشوفين » و « ماكلينان » و « مين » في المحاماة ، أما « فوستيل دي كولنج » ، فقد كان مؤرخا للعصور الكلاسيكية والوسطى ، وكان العلامة « تيلور » متخصصا في دراسة اللغات .

من المتفق عليه عد « تيلور » و « ماكلينان » و « مورجان » أول من درس المجتمعات البدائية كموضوع جدي متكامل يمكن للعلماء أن يتخصصوا فيه وأن يقصروا عليه جهودهم وأبحاثهم ، وهم أيضا أول من اهتم بتجميع المعلومات المتعلقة بالشعوب البدائية واستخلاصها من عدد كبير من المؤلفات المتنوعة ثم قاموا بابرازها في صورة منهجية منظمة واضعين بذلك أسس الانثروبولوجيا الاجتماعية . ولذلك تحددت نشأة العلم بتلك الفترة بالذات .

وتتميز دراسات علماء القرن التاسع عشر الميلادي في مجال الانثروبولوجيا الاجتماعية باتجاهات جديدة ، من أهم تلك الاتجاهات دراسة النظم الاجتماعية من زاوية اجتماعية صرفة أي في حدود البناء الاجتماعي وليس في حدود علم النفس الفردي أو المسلمات الفلسفية ، بمعنى أن النظم الاجتماعية كانت تفسر بنظم اجتماعية أخرى ، فمثلا عندما درس « ماكلينان » نظام الزواج الاكسوجامي رفض صراحة ارجاع تحريم زواج المحارم الى العوامل والاسباب البيولوجية أو النفسية وانما فسره بالرجوع الى ظواهر اجتماعية مثل « وأد البنات » وبعض العقائد الطوطمية ، وعندما فسر طريقة الزواج التي تتمثل في عملية اختطاف العروس لم يلجأ الى النظريات النفسية والفلسفية وانما أرجعها الى بعض قواعد الزواج « الاكسوجامي » ، والى عادات مترسبة من ممارسة السبي والاغتصاب في الماضي . يتضح مما سبق أن « ماكلينان » يؤيد بقوة نظرية التساند الوظيفي بين النظم الاجتماعية واعتماد بعضها على بعضها الآخر . ومن أمثلة ذلك الاتجاه اهتمام العلامة « مين » بالترابط بين النظم الاجتماعية ، وقد اتخذ من علاقة القانون بالدين

والاخلاق والنتائج الاجتماعية المترتبة على التشريعات القانونية في مختلف العصور التاريخية نموذجا لذلك الترابط .

يعرف رواد الانثروبولوجيا الاجتماعية في القرن (١٩) باسم « علماء المقاعد الوثيرة » ويقصد بذلك عدم اعتمادهم على أنفسهم في جمع المعلومات عن المجتمعات التي يدرسونها ، أي أنهم لم يستخدموا منهج الدراسة الميدانية ، وانما اعتمدوا في أبحاثهم على أقوال الرحالة والمستكشفين ورجال الادارة من المستعمرين الاوربيين ، ولم يحدث أن ذهب أحدهم الى المجتمعات البدائية لدراستها دراسة ميدانية .

وبما أن الدراسة الميدانية هي ركن من الأركان الاساسية للانثروبولوجيا الاجتماعية فانه لا يمكن عد القرن التاسع عشر فترة نضوج الانثروبولوجيا الاجتماعية واستكمال عناصرها وإنما فترة نشأة هذا العلم .

ونميز في تلك المرحلة مدرستين متداخلتين وهما « المدرسة أو الاتجاه النشوئي » . « المدرسة التطورية » ويرجع الارتباط التقليدي بين المدرستين الى انه عندما يقوم العالم بوضع قانون يفسر به تطور النظام الاجتماعي من الماضي السحيق الى الحاضر يجد نفسه مضطرا الى تحديد نشأة النظام الاجتماعي ، سيطرت هاتان المدرستان على معظم دراسات القرن التاسع عشر في الانثروبولوجيا الاجتماعية ، بل ان اهتمام هؤلاء العلماء بدراسة المجتمعات البدائية لم يكن لذاتها وانما لاستخدامها في إقامة نماذج افتراضية تمثل التاريخ المبكر للجنس البشري عامة وتمثل بخاصة نشأة النظم الاجتماعية وتطورها ، ان البحث عن أصول الاشياء أو النظم لم يكن مقصورا على دراسات الانثروبولوجيا الاجتماعية في القرن التاسع عشر وانما كان سائدا في كثير من فروع المعرفة مثل القانون واللاهوت والاقتصاد والفلسفة ، فكانت جهود علماء ذلك القرن تهدف الى تفسير الشيء القريب بالشيء البعيد . تركز اهتمام أصحاب «المدرسة النشوئية التطورية» حول نظامين اجتماعيين هما الأسرة والدين ، يرى العلامة « مين » أن « الاسرة الأبوية الكبيرة هي الصورة الاصلية الأولية للحياة الاجتماعية عامة ولنظام

الاسرة خاصة ، كما تصور ان السلطة المطلقة التي كان يتمتع بها « رئيس الاسرة الابوية » هي السبب في ظهور قاعدة « القرابة عن طريق الاب » ـ مبدأ الانتساب الى أقارب الاب فقط ـ في كل المجتمعات في مرحلة معينة من تطورهـا . أما العلامة « باخوفين » فقد وصل الى نتيجة مخالفة تماما رغم أنه نشر آراءه في السنة نفسها التي نشر فيها « مين » استنتاجاته ، يلخص رأيه في الاباحية أو الشيوعية الجنسية كانت منتشرة في الاصل في كل مكان ، ثم جاء بعد ذلك نظام عائلي يقوم على أساس الانتساب الى الام والخضوع لسلطانها ولم يظهر الانتساب الى الاب الا في مرحلة متأخرة من تاريخ الانسان . وجاء العلامة الامريكي « مورجان » بنظرية تشبه رأي « باخوفين » اذ حدد ما لا يقل عن خمس عشرة مرحلة لتطور الأسرة تبدأ بالاباحية الجنسية وتنتهي بالزواج « المونوجامي » أي وحدانية الزواج (وحدانية الزوجة) .

أما العلامة « ماكلينان » فقد رسم صورة أخرى لنشأة الاسرة وتطورها تتلخص فيما يأتي : كان يعيش الانسان الاول حرا طليقا في جماعات صغيرة تقوم على أساس القرابة ، وكانت تطبق تلك « الزمر » المستقلة عن بعضها نظام الزواج « الاكسوجامي » نتيجة لعادات وأد البنات التي اضطر الرجال ازاءها الى الزواج من الجماعات الاخرى ، ثم لم تلبث تلك الجماعات ان انتقلت الى نظام « الزواج البوليناندري » أي تعدد الأزواج ووحدانية الزوجة ، ثم ظهر نظام الانتساب الى الام ثم نظام الانتساب الى الاب ، وبعد ذلك أخذ نظام الاسرة الصغيرة (المونوجاميـة) في الظهور بالتدريج ، وهكذا ظهرت العشيرة أولا ثم الاسرة الكبيرة ثم الاسرة الصغيرة .

وأخذ هذا الرأي العلامة الانجليزي « وليم سميث » وطبقه على الوثائق القديمة المتصلة بتاريخ العرب القدماء .

ان التعارض والتناقض بين النظريات السابقة يرجع الى أنها مجرد تخمينات واستنتاجات ولا تقوم على الأدلة الاستقرائية الواقعية ، ويجب ملاحظة أن النظريات

السابقة قامت على أساس ظواهر اجتماعية معينة أطلق عليها العلامة « تيلور » اصطلاح « الرواسب » أو « البقايا » أما العلامة « ماكليناز » فقد استخدم اصطلاحا آخر وهو « الرموز » والمقصود بذلك تلك الظواهر أو المادات الموجودة في النظم الاجتماعية الحالية والتي تتميز بأنها لا تؤدي وظيفة على الاطلاق أو تؤدي وظيفة ثانوية ، ويعتقد أصحاب تلك النظريات أنها رواسب متخلفة من العصور السابقة ولذلك تساعد على معرفة نشأة النظم الاجتماعية وتطورها فمثلا يرى كل من « ماكليناز » و « وليم سميث » أن نظام الزواج « الليفراتي » — وهو عادة تزوج الرجل من أرملة أخيه — يدل على وجود نظام الزواج « البولياندري » في العصور القديمة للانسانية . ويعتقد « مورجان » ان اطلاق الفرد اصطلاح « أب » على كل أقاربه الذكور من جيل والده ، واصطلاح « أم » على كل قريباته الاناث من جيل والدته يدل على وجود شيوعية العلاقات الجنسية في العصور الاولى . وأعود فأكرر أن تلك الاستنتاجات لاتزيد على كونها تخمينات وتصورات .

واذا انتقلنا الى الحديث عن الدين نجد نظرية العلامة « تيلور » ، وتتلخص في ان الانسان القديم قد استرعت انتباهه بعض الظواهر مثل الاحلام والرؤى والمرض واليقظة والنوم والموت ، وأخذ الانسان القديم يتأمل تلك الظواهر وغيرها وتوصل كذلك الى عدة من طقوس مترتبة على العقائد ، وكانت تلك العقائد والطقوس الصورة الاولى للاديان . ويرى العلامة « فريزر » (من عام ١٨٥٤ الى ١٩٤١) — ان المجتمع الانساني يتطور في ثلاث مراحل هي مرحلة سيطرة السحر على المجتمع ثم مرحلة سيطرة الدين ثم مرحلة سيطرة التفكير العلمي . ويعد كتاب « فريزر » « الغصن الذهبي » من اهم الكتب في الانثروبولوجيا الاجتماعية ومن الموضوعات التي نوقشت فيه « الطوطمية » ومشكلات « التابو » وأصول نظام القرابة والزواج في المجتمعات البدائية والمفاهيم البدائية للروح والحياة الاخرى .

أثارت تلك النظريات والمؤلفات الكثير من المناقشات والحوار في كثير من الدول وبخاصة بريطانيا وفرنسا والمانيا وامريكا مما ساعد على نمو المدارس الانثروبولوجية وازدهارها فيما بعد ، ويدل على ذلك كثرة عدد العلماء الذين

درسوا موضوعات الانثروبولوجيا الاجتماعية وكانت أبحاثهم أكثر تقدما من الأبحاث السابقة ومنهم « كرولي » و « ماريت » و « دور كهايم » و « موس » و « فان جنب » و « فوند » و « فرويد » ومدرسته ، ولقد تأثرت تلك المجموعة من العلماء بنظرية العلامة « فريز » ، واضافة الى الاسرة والدين نجد أن تطور القانون قد اثار انتباه العلامة « مين » الذي شرح انتقال المجتمع الانساني من المرحلة التي يقوم فيها القانون على أساس المكانة الاجتماعية للفرد كعضو في جماعة معينة وليس كفرد مستقل أي كانت المسؤولية جماعية تعود الى المرحلة التي يقوم القانون فيها على أساس التعاقد وفيه تسود المسؤولية الفردية وتظهر شخصية الفرد عن طريق تعاقده مع الآخرين ، وأطلق على القانون الأول اصطلاح « القانون البدائي » ويرى من أهم عناصره نظام الثأر ، أما القانون الثاني فهو « القانون المتمدين » ، ويرى « مين » أنه لا يمكن تأويل القانون البدائي أو فهمه في حدود عقلية الرجل المتمدين ، لأن عقليته هي ثمرة نوع مختلف من النظم والاوضاع .

أثار تطبيق **الاتجاه التشوئي التطوري** في الانثروبولوجيا الاجتماعية الكثير من التعليقات : يقوم هذا الاتجاه على النظرية القائلة إنه لا يمكن فهم أي نظام اجتماعي أو تفسيره الا بالرجوع الى أصوله سواء أكان المقصود بالاصول والبدايات أم الاسباب أم حتى مجرد الأشكال الأكثر بساطة ، يرفض الكثيرون هذا الاتجاه لان معرفتنا بتاريخ تطور نظام ما لا يمكن في حد ذاتها أن توضح وظيفة هذا النظام في الحياة الاجتماعية ، هنالك فرق كبير بين أن نعرف كيف صار نظام ما الى ما هو عليه وان نحدد كيف يعمل هذا النظام ، هذا اضافة الى عدم امكان الوصول الى أصول النظم الاجتماعية بصورة دقيقة لعدم توافر الأدلة والوثائق ، وكل ما سبق مجرد تأملات .

واضافة الى ما سبق توجد مفاهيم ونظريات أخرى توصل اليها الانثروبولوجيون الاجتماعيون في القرن التاسع عشر ، فمثلا بين العلامة «ماكليلان» لأول مرة كيف أن الزواج « الاكسوجامي » (وهو أيضا مخترع هذا الاصطلاح) والطوطمية من أكثر الظواهر الاجتماعية انتشارا في المجتمعات البدائية ، ويرجع

الى « مورجان » فضل إدخال الدراسة المقارنة لنظم القرابة في الانثروبولوجيا الاجتماعية ، وقد وجه كل من « ماكلينان » و « باشوفين » الانتباه الى وجود « المجتمعات ذات القرابة عن طريق الام » وفيها ينسب الطفل الى الام دون الاب ، وكان « تيلور » أول من ادخل اصطلاح « النزعة الاحيائية » الاعتقاد في تقمص الأرواح لجميع عناصر الطبيعة — في الانثروبولوجيا ، وهو كذلك أول من لاحظ انتشار تلك النزعة في المجتمعات البدائية .

وخلاصة القول إن القرن التاسع عشر يمثل عصر نشأة الانثروبولوجيا الاجتماعية ، ولا شك ان الصورة التي بدأت بها الانثروبولوجيا الاجتماعية لم تكن هي الصورة الناضجة الكاملة للعلم ، اذ يحتاج الكثير من جهود العلماء ويستغرق وقتا طويلا .

تبين لنا ما سبق أن الانثروبولوجيا الاجتماعية في مرحلة نشأتها كانت تمثل العلم الذي يدرس النظم الاجتماعية في المجتمعات البدائية بغرض الوصول الى أصل النظم ، ولتحقيق ذلك الغرض طبق علماء ذلك القرن المنهج المقارن الذي يحلل ويقارن المعلومات المختلفة عن المجتمعات البدائية ، وكان مصدر تلك المعلومات هم المستكشفون ورجال الادارة وبعض أعضاء البعثات العسكرية الاستعمارية التي كان يشنها الاوربيون على المجتمعات البدائية المسالمة .

ثالثا — مرحلة استكمال عناصر الانثروبولوجيا الاجتماعية (نهاية القرن التاسع عشر) :

استطاع الانثروبولوجيون استكمال عناصر الانثروبولوجيا الاجتماعية في نهاية القرن التاسع عشر عندما قام بعضهم بتصنيف المجتمعات على أساس أنيتها الاجتماعية بدلا من ثقافاتها ، وكان ظهور ذلك الاتجاه الذي يفرق بين البناء الاجتماعي والثقافة الخطوة الحاسمة لتمييز الانثروبولوجيا الاجتماعية عن فروع الانثروبولوجيا الاخرى وبخاصة الاثنوجرافيا والاثنولوجيا ، وبالتالي أصبح موضوع الانثروبولوجيا الاجتماعية هو العلاقات الاجتماعية وليس الثقافة بجميع عناصرها الاجتماعية والمادية والفكرية .

لم تقتصر مرحلة استكمال عناصر الانثروبولوجيا الاجتماعية على تحديد موضوع العلم بصورة أدق مما سبق ، وانما شملت أيضا تحديد المنهج الرئيس للانثروبولوجيا الاجتماعية الا وهو « الدراسة الحقلية أو الميدانية » وكان العلامة الانجليزي « هادون » أول من طبق منهج الدراسة الميدانية بدقة وبصورة موضوعية ، وذلك عندما رأس بعثة جامعة « كمبردج » المؤلفة من بعض العلماء لدراسة منطقة مضايق توريس ، في المحيط الهادي ، واستغرقت تلك الدراسة عامين من (١٨٩٨) الى (١٩٠٠) .

يعد العلامة « ايفانز ريتشارد » تلك الرحلة نقلة تحول في تاريخ الانثروبولوجيا الاجتماعية اذ ترتب عليها موضوعان هامان هما :

الاول : النظر الى الانثروبولوجيا الاجتماعية كعلم يحتاج الى التخصص والتفرغ الكاملين .

الثاني : عد الدراسة الميدانية عنصرا جوهريا ليس فقط دراسة الطلاب لهذا العلم وانما في تكوين العلم ذاته ، بمعنى ان المنهج الرئيسي لهذا العلم اصبح الدراسة الحقلية أو الميدانية .

عانت الدراسات الحقلية الاولى بعض أوجه النقص منها قصر مدة الدراسة الحقلية وجهل اللغة الوطنية وعدم توافر الثقة بين الاهالي والباحثين ، ولكن استطاعت الدراسات الحقلية التالية أن تتخلص تدريجيا من نقط الضعف السابقة ، وأصبحت أكثر تفصيلا ووضوحا ، مما أدى الى دقة المعلومات التي تسجلها الدراسات الحقلية وواقعيتها والى امكان الاعتماد عليها بغرض التحليل أو عمل المقارنات للوصول لبعض المبادىء والمفاهيم العامة .

لقد كان للعلامة « هادون » دور هام في الانثروبولوجيا الاجتماعية ، فبالاضافة الى تحديد منهج الانثروبولوجيا الاجتماعية والقيام بأبحاث هامة ، استطاع ان يجذب بعض العلماء الى التخصص في دراسة الانثروبولوجيا الاجتماعية

بدلا من تخصصاتهم الاصلية . وقد أصبح بعضهم من أئمة الانثروبولوجيا الاجتماعية في بداية القرن العشرين مثل العلامة « ريفر » الذي كان في أول الامر متخصصا في علم النفس ، وكذلك العلامة « سليجمان » الذي كان متخصصا في علم الامراض ، بل ان العلامة هادون نفسه قد تحول عن تخصص « الحيوانات البحرية » الى الانثروبولوجيا الاجتماعية .

ويجب الاشارة الى أن بعثة « هادون » وزملائه لم تكن أول دراسة ميدانية في مجال الانثروبولوجيا ، فقد كان العلامة الامريكي « مورجان » أول من قام بدراسة حقلية عند بعض قبائل الهنود الحمر في امريكا الشمالية في منتصف القرن التاسع عشر ولكن لم يكن لها آثار مباشرة وسريعة ، وقد سبقت بعثة « هادون » فترة وجيزة الدراسة الحقلية التي قام بها العلامة الامريكي « بواز » لدراسة بعض قبائل الاسكيمو وبعض قبائل الهنود الحمر في كولومبيا البريطانية .

رابعا ـ مرحلة التخصص والتوسع في الانثروبولوجيا الاجتماعية (من عام ١٩٠٠ الى ١٩٢٤) :

وصلت الانثروبولوجيا الاجتماعية في تلك الفترة الى مرحلة التخصص ، وهي مرحلة ذات مظاهر متعددة ، أولها التمييز بين الانثروبولوجيا الاجتماعية من ناحية والاثنولوجيا والاثنوجرافيا من ناحية أخرى ، وقد تم ذلك عن طريق وجود شبه اتفاق عام على مفاهيم محددة لموضوعات تلك الفروع الانثروبولوجية الثلاثة، فبينما اختصت الاثنوجرافيا بالدراسات الوصفية لثقافة مجتمع بالذات ، أصبح موضوع الاثنولوجيا إعادة بناء (تصور) ثقافات المجتمعات القديمة الماضية وكذلك المقارنة بين الدراسات الاثنوجرافية . اما الانثروبولوجيا الاجتماعية فقد اختصت بدراسة البناء الاجتماعي وبخاصة للمجتمعات البدائية مع تأكيد مبدأ « الدراسة العميقة لمنطقة أو نظام اجتماعي محدد » .

ومنذ بداية تلك المرحلة اتخذت الدراسات الميدانية تتوالى وتصبح أكثر

فضلا ، ولا شك ان اهمها جميعا دراسة العلامة الانجليزي الشهير « رادكليف براون » — من أشهر علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية وكان تلميذا لكل من « ريفرز » و « هادون » — وتلك دراسة ميدانية لسكان جزر « أندامان » وهي مجموعة جزر في خليج البنجال (جنوب بورما) تتبع الهند ، واستغرقت تلك الدراسة عامين من (١٩٠٦) الى (١٩٠٨) ، ويعدها العلامة « ايفانز بريتشارد » أول محاولة بحق يقوم بها أحد الانثروبولوجيين الاجتماعيين لفحص النظريات الاجتماعية بالرجوع الى مجتمع بدائي معين ولوصف الحياة الاجتماعية في ذلك المجتمع بطريقة تبرز بوضوح النواحي التي تتفق مع تلك النظريات ، وتفوق أهمية هذه الدراسة ما قامت به بعثة « هادون » في مضيق توريس التي اهتمت بالنواحي النفسية أكثر من اهتمامها بالجوانب الاجتماعية . وقد وصل تعميق الدراسة الميدانية وتركزها الى القمة على يد العلامة البريطاني الجنسية والبولندي المولد « مالينوفسكي » والذي انفق في دراسته لسكان جزر « التروبرياند » بمنطقة ميلانيزيا مدة أربع سنوات من عام ١٩١٤ الى ١٩١٨ (فترة الحرب العالمية الاولى) وهي أطول مدة لبحث ميداني ، وكان « مالينوفسكي » أول انثروبولوجي يستخدم لغة الاهالي أنفسهم في جمع المعلومات وكذلك كان أول من عاش مع الاهالي متبعا في ذلك عاداتهم وتقاليدهم طوال مدة الدراسة ، وبفضل تلك الظروف استطاع أن يتغلغل في الحياة الاجتماعية عند سكان جزر « التروبرياند » وأن يحللها ويفهمها فهما عميقا وبالتالي تمكن من تأليف كتب كثيرة تدور كلها حول الحياة الاجتماعية لتلك الجزر .

خامسا — مرحلة ازدهار الانثروبولوجيا الاجتماعية (من عام ١٩٢٤ الى ١٩٥٠):

وفي تلك المرحلة بدأت الانثروبولوجيا الاجتماعية تنتشر كفرع مستقل للانثروبولوجيا في الجامعات الاوربية وبخاصة الجامعات البريطانية ، وقد تركزت الانثروبولوجيا الاجتماعية في بريطانيا ولا يزال هذا التركز حتى اليوم .

يرجع اتجاه تطبيق منهج الدراسة الميدانية المركزة الذي يميز الانثروبولوجيا الاجتماعية المعاصرة الى تعاليم « مالينوفسكي » لانه كان يؤمن ويؤكد بانه لا يمكن

فهم الحياة الاجتماعية لدى شعب من الشعوب البدائية الا اذا درست بعمق وتركيز ، وكان يؤمن أيضا بأن القيام بدراسة ميدانية مركزة واحدة على الأقل يعد شرطا أساسيا للتخصص في الانثروبولوجيا الاجتماعية .

ومع بداية عام (١٩٢٤) بدأ « مالينوفسكي » بتدريب مجموعة من الانثروبولوجيين الاجتماعيين الأذكياء من كل أجزاء (الكومنولث) في مجال الدراسة الميدانية والنظرية الوظيفية التي تراءت عن دراسته الشهيرة في جزر (تروبرياند) . وفي عام (١٩٣٧) اعاد العلامة « راد كليف براون » تنظيم معهد الانثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة « اكسفورد » وعمل على تطوير مناهجه ، وهكذا ازدهرت الانثروبولوجية الاجتماعية بفضل مجهودات كل من « مالينوفسكي » و « راد كليف براون » ، وظهر تلاميذ لهما ذوو خبرة وذكاء في الدراسة الميدانية ونشروا الأبحاث العميقة واصبحت منطقة وسط افريقيا وجنوبها مثلا غنيا للبحث وتكونت الجمعيات العلمية لدراسة المجتمعات الافريقية ، هذا اضافة الى انشاء المعهد الدولي الافريقي بجامعة اكسفورد ، ويصدر هذا المعهد مجلة علمية متخصصة في الانثروبولوجيا الاجتماعية تحمل عنوان « أفريقيا » .

تركزت الدراسات الميدانية للانثروبولوجيا الاجتماعية في أول الأمر في جزر « ميلانيزيا » و « بولينيزيا » ، ثم اتجهت تلك الدراسات الى بعض قبائل السكان الأصليين لاستراليا ، وكان موضوع تلك الدراسات مجتمعات صغيرة مثل «المعشر» و « العشيرة » وكان الاهتمام موجها لدراسة « نظم القرابة » و « التطوير » أما النظم الاجتماعية الأخرى فقد أهملت لدرجة ما وبخاصة « النظام السياسي » . ولم الاهتمام بدراسة الجانب السياسي للمجتمعات البدائية عندما اتجهت الدراسات الميدانية نحو « افريقيا » ففي عامي (١٩٠٩ ، ١٩١٠) زار العلامة « سليجمان » السودان ولكنه لم يقم بدراسة اجتماعية مركزة ، اذ كانت اول دراسة مركزة يقوم بها الانثروبولوجيون الاجتماعيون في افريقيا هي دراسة العلامة « ايفانز برتشارد » لقبائل «الازاندي» بالسودان التي بدأت عام (١٩٢٧) ، أخذ الاهتمام بدراسة النظام السياسي للمجتمعات الافريقية يظهر بوضوح ومن أمثلة تلك

الدراسات ما قام به العلامة الانجليزي « شابيرا » في منطقة « بصوانا » ، وكذلك دراسة العلامة « فورت » لبعض قبائل ساحل الذهب ، ودراسة العلامة « نادل » لقبائل « نوبي » بنيجيريا ، قام العالمان « ايفانز بريتشارد » و « فورت » بدراسة مقارنة ممتازة للنظم السياسية للمجتمعات الافريقية .

ظهرت عدة من عوامل في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية وقويت بعد تلك الحرب وكان من شأنها تشجيع البحوث الانثروبولوجية الاجتماعية وازدهارها بخاصة في أفريقيا ، وهذه العوامل هي قيام الحكومة البريطانية وبعض المؤسسات الثقافية الامريكية بتقديم المنح السخية للقيام بالبحوث الانثروبولوجية والاجتماعية في المجتمعات المتخلفة والنامية ، ومن أمثلة المؤسسات الامريكية « برنامج فولبرايت » و « زمالات بعث المنطقة لمجلس بحوث العلوم الاجتماعية» « والمؤتمر الدولي الخاص بالانثروبولوجيا الخاص بمؤسسة ويتر ـ جرن » .

هذا الاضافة الى المنح والاعانات التي تقدمها جميع أقسام الانثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية بجميع جامعات اوربا وامريكا بشأن القيام بالابحاث الانثروبولوجية الاجتماعية . ويجب الاشارة في هذا المجال الى ان بعض تلك الاموال التي قدمت بسخاء للابحاث الانثروبولوجية والاجتماعية في المناطق البدائية والنامية لم يكن هدفها الوحيد خدمة العلم لذاته ، اذ ثبت أن بعض تلك الاعانات المالية قدمت بغرض المصالح البريطانية الاستعمارية في المجتمعات الافريقية البدائية والنامية وكذلك الحال بالنسبة للحكومة الامريكية فلا يخفى عن احد ما نشر في عام (١٩٦٧) في صحف العالم عن استخدام « وكالة المخابرات الامريكية » للمؤسسات الثقافية سابقة الذكر لجمع المعلومات اللازمة لخدمة مصالحها الاستعمارية ، ولذلك فإنني أناشد الزملاء في مجال الانثروبولوجيا الاجتماعية بأن يكونوا على حذر عند قبول تلك الاعانات المادية والتأكد من ان أبحاثهم سوف تخدم العلم والحقيقة ذاتها وليس المصالح الاستعمارية .

أدى التوسع والازدهار للبحوث الاجتماعية والانثروبولوجية في العصر

الحالي الى وجود التقارب بين فروع الانثروبولوجيا وبخاصة الانثروبولوجيا الاجتماعية التي تركزت في بريطانيا والانثروبولوجيا الثقافية التي تركزت في أمريكا . وقد ترتب على ذلك تحديد مفاهيم العلمين بصورة واضحة والتفكير في وسائل للتعاون بينها . فقد أصبح أهم مفهوم في الانثروبولوجيا الاجتماعية هو مفهوم « البناء الاجتماعي » ، ويرى كل من « راد كليف براون » و « فورت » أن البناء الاجتماعي هو أساس الحياة الاجتماعية لاي مجتمع مستمر . قامت الجامعات البريطانية بتنظيم برامج تدريب في مجال الانثروبولوجيا الاجتماعية وكان من نتائجها ظهور مجموعة كبيرة من الأبحاث المتمازة عن النظم الاجتماعية في المجتمعات الافريقية وتعرف تلك المجموعة « بالمسح الاثنوجرافي لافريقيا » ، ويشرف على نشر تلك المجموعة « المعهد الدولي الافريقي » ، ورغم ان فكرة القيام بهذا المسح لافريقيا قد وفق عليها في عام (١٩٣٧) الا ان قيام الحرب العالمية الثانية قد اعاق تنفيذها ، وعندما انتهت الحرب بدأ العلماء في تنفيذ الفكرة السابقة وبخاصة بعد ان حصل المعهد الدولي الافريقي على منحة سخية لمدة خمس سنوات من الحكومة البريطانية ، واستمرت الابحاث من عام (١٩٤٥) حتى اليوم ، ومن أهم الشخصيات التي ساعدت على نجاح المشروع مجهودات العلامة « رادكليف ـ براون » . تهدف برامج « المسح الاثنوجرافي لافريقيا » الى تقديم عرض دقيق ومتماسك ونقدي للمجموعات القبائلية في افريقيا من حيث توزيعاتها والبيئة الطبيعية والبناء الاجتماعي بنظمه الاقتصادية والعائلية والسياسية والاخلاقية والفنية والعادات والتقاليد وما الى ذلك ، وتقدم تلك الابحاث المعلومات الانثروبولوجية بصورة مختصرة مزودة بالخرائط والاشكال التوضيحية مع الاشارة الى المراجع الخاصة بكل بحث . وتنشر الابحاث في صورة مجموعات لدراسات مستقلة ، تخص كل دراسة بمجتمع معين بالذات أو عدة من مجتمعات متشابهة ، فمثلا هناك مجموعة خاصة بغرب افريقيا وأخرى متخصصة في قبائل شرق افريقيا وما الى ذلك ، وقد نشر حتى الآن عدد كبير من الابحاث حتى انه ليخيل الي أن معظم القبائل الافريقية قد درست عن طريق ذلك المسح الاثنوجرافي ، ورغم ان بعض تلك الدراسات تنتمي الى الانثروبولوجيا الاجتماعية ، فان بعضها

العقائد والطقوس الدينية التي توجد في المجتمعات البدائيـة ، وفيما يلي عرض مختصر لصورتين الأولى خاصة بنظام « عبادة الأجداد » والثانية «بنظام الطوطمي» .

ينتشر نظام « عبادة الأجداد » في معظم المجتمعات البدائية بأفريقيا ، ويقوم هذا النظام على مبدأ تماسك الجماعة القرابية ووحدتها ، « فالبدنة الابويـة » لا تتكون من الأحياء فقط وانما يدخل فيها الاباء والأجـداد الموتى ، ويوجد هـذا الفهم عند بعض « البدنات الامية » مثل قبيلة « مانكانجو » بأفريقيا وقبيلة «نايار» في الهند ، وأساس القرابة في تلك البدنات علاقة الام بأطفالهـا ، ويشترك كـل أعضاء البدنة في انحدارهم من نسل مشتركة ، ولا تنتهي عضوية الفرد في البدنة في حالة موته وانما تستمر عضويته . يعتقد اعضاء تلك البدنات التي تطبق نظـام « عبادة الاجداد » في أن الاجداد والآباء الموتى يتمتعون بقوى غيبية أو سحريـة ويستطيعون الحاق الاذى بأعضاء البدنة ويستطيعون ايضـا مساعدتهم ، أي انهم يتمتعون بخصائص الآلهة ولذلـك يعتقـدون في ضرورة عبادتهم وفي غدهم في مرتبة الآلهة ، بل ان بعض القبائل تعدهم آلهة ، وترتبط تلك المعتقدات بمجموعـة من الطقوس اذ يجتمع أعضاء البدنة الواحدة في مكان عـام أو في بيت أكبرهم سنا أو مركزا ويمارسون بعض الطقوس بغية الحصول على رضاء أرواح اجدادهم وآبائهم الموتى ومساعداتهم ، وتتمثل تلك الطقوس في الادعية والصلوات وكذلك تقديم القرابين ، وتتكون القرابين من الأطعمة والمشروبات وذبح الحيوانـات ، ويعتقد أصحاب تلك الطقوس ان الموتى يشتركون معهم في تناول تلك القرابين .

واذا تذكرنا أن المجتمع المحلي السائد في المجتمعات البدائيـة هو العشيرة التي تتكون من عدة « بدنات » فان وجود تلك العقائد والطقوس المشتركة بين أفراد البدنة الواحدة يؤدي الى تماسك أفراد النسب ووحدتهم وبالتالي الى تماسك العشيرة ذاتها واستمرارها ، ويقول العلامة « رادكليف براون » في هذا الشأن :

وفيما يتعلق بالفرد في ذلك المجتمع ، تكون واجباته الاولية نحو البدنة وهي تشمل واجباته نحو الأعضاء الاحياء الموتى وهؤلاء الذين لم يولدوا بعـد ويدفعه

مجتمعات على الأكثر بحيث يقضي العالم حياته كلها في الكتابة عنها وتحليل البناء الاجتماعي لكل منها ، ولكن التمسك بتقليد مالينوفسكي على أنه المنهج السائد في الانثروبولوجيا الاجتماعية يجعلنا نتساءل : ما هو وضع الدراسات المقارنة في تلك الحالة ؟ لا شك أنه من الصعب استخدامها في حالة تعميم تقليد «مالينوفسكي» ، ولقد ثار العلامة « ايفانز ـ بريتشارد » بهذه المشكلة ونادى بتطبيق « المنهج التجريبي » ليحل محل المنهج المقارن ، وملخص « المنهج التجريبي » أن يقوم كل انثروبولوجي باستنتاج عدة من نتائج دراسته العميقة لمجتمع واحد أو أكثر ثم يقوم الباحث نفسه أو باحث آخر بالتأكد من صحة تلك النتائج وواقعيتها بالنسبة لمجتمعات اخرى ، وهكذا تتسع دائرة فحص تلك النتائج تدريجيا ، وهي في حقيقتها فروض ، وتصبح تلك الفروض في النهاية تعميمات أو مبادىء عامة ، أما « المنهج المقارن » الذي سار عليه علماء الانثروبولوجيا في القرن التاسع عشر في اطار « المدرسة التطورية » فقد ثبت عقمه لأن جميع النظريات التي توصلوا اليها بخصوص نشأة النظم الاجتماعية وتطورها لم تعد عن مستوى التأملات والآراء الشخصية ، ويعطي العلامة « شنيدر » مثلا لتطبيق « المنهج التجريبي » عن طريق فحص التعميمات التي توصل اليها « ايفانز ـ بريتشارد » في دراسته لقبائل « النوير » بتطبيقها على الدراسات الخاصة بقبائل « الزولو » ، ولدينا مثل آخر عندما قام العلامة « نادل » بدراسة السحر في اربعة مجتمعات افريقية ، ويرى العلامة « شابيرا » ان في الامكان المقارنة بين المجتمعات المتقاربة مكانيا ثم تتسع المقارنة تدريجيا ، ولقد ساعد برنامج « المسح الاثنوجرافي في افريقيا » سابق الذكر على سد النقص الواضح في استخدام المنهج المقارن عند الانثروبولوجيين الانجليز الذين يسيرون على تقليد «مالينوفسكي» ، ولكن من العقبات الهامة التي تقف أمام تقدم تلك الدراسات المقارنة ضعف الاهتمام باللغويات في برامج التدريب والأبحاث ، ويجب الاشارة أيضا الى عدم اهتمام الانثروبولوجيا الاجتماعية وبخاصة في انجلترا بعامل الزمن في أبحاثها ، وهذا موقف مخالف للصورة العامة للانثروبولوجيا الثقافية وبخاصة في امريكا ، تلك الصورة التي تهتم بالجانب التاريخي في الأبحاث الميدانية ،

نتنقل الآن الى عرض ملخص للمدارس الانثروبولوجية الاجتماعية التي نشأت في تلك المرحلة والمرحلة التي سبقتها .

آ ـ المدرسة الانتشارية :

نلاحظ أن المدرسة « الانتشارية » توجد في كل من الانثروبولوجيا الثقافية والانثروبولوجيا الاجتماعية ولكنها تتخذ في كل من العلمين صورة خاصة ولا يمنع هذا من ان يكون بعض مؤسسي الاتجاه الانتشاري ومؤيديه ينتمون الى الفرعين في الوقت نفسه . ان تطبيق الاتجاه الانتشاري في مجال الانثروبولوجيا الثقافية يتعلق بجميع العناصر الثقافية وأقصد بذلك العناصر التكنولوجية والاجتماعية والفكرية ، أما فيما يتعلق بتطبيق هذا الاتجاه في مجال الانثروبولوجيا الاجتماعية فانه يكون مقصورا على العلاقات والنظم الاجتماعية في المجتمع ، وتلك تكون بعض عناصر الثقافة ولكنها لا تشملها جميعا . تقوم المدرسة الانتشارية في مجال الانثروبولوجيا الاجتماعية على مبدأ هام وهو ان النظم الاجتماعية كثيرا ما تستعار وتنتقل من مكان لآخر ، وبناء على ذلك فسان تشابه النظم الاجتماعية والعادات في المجتمعات المختلفة لا ينشأ عن النمو التلقائي الناتج عن تشابه الامكانات الاجتماعية والطبيعية الانسانية .

ونلاحظ أن تتبع انتشار النظم الاجتماعية والعادات من مجتمع لآخر يحتاج الى جهد أكبر من الجهد المستخدم في تتبع الاختراعات التكنولوجية ، وكلما كان المجتمع قديما وبدائيا احتاج تتبع انتشار النظم الاجتماعية من والى ذلك المجتمع الى مجهود اكبر ، ولا شك ان تطبيق الاتجاه الانتشاري يعد سهلا ميسورا بالنسبة للمجتمعات الحديثة التمدينة لوجود السجلات التاريخية الخاصة بكل فكرة أو اختراع جديد .

وتطبيق الاتجاه الانتشاري على المجتمعات البدائية يفترض ان النظم الاجتماعية والعادات قد انتشرت من مجتمعات معينة هي المنبع الاصلي التي ظهرت فيها تلك النظم لأول مرة ، ولا شك أن النظم الاجتماعية تتغير خصائصها أثناء

عملية الاستعارة والاندماج في المجتمعات الاخرى ، وهكذا تتغير خصائص تلك النظم من مجتمع لآخر . ولا تهتم تلك المدرسة « بالاتجاه التشوئي » الذي ساد في القرن التاسع عشر وكان يرمي الى تحديد أصول النظم الاجتماعية . ولكن كل من المدرستين « التشوئية » و « الانتشارية » تهتم بالماضي ، بحيث عنده دراستها للنظم الاجتماعية تقومان بتتبع تاريخ تلك النظم ، ويجب ملاحظة ان المدرسة الانتشارية قد نشأت ونمت في المرحلة السابقة ، ولكنها خمدت تماما في الوقت الحالي نظرا للعقبات التي قابلتها في مجال الانثروبولوجيا الاجتماعية وهي تشبه المشكلات التي تعرضت لها في مجال الانثروبولوجيا الثقافية وتبين أن آراء أصحابها لا تخرج عن كونها تخمينات وافتراضات ينقصها الدليل القاطع .

ب ـ المدرسة الوظيفية :

تعد هذه المدرسة أقوى مدارس الانثروبولوجيا الاجتماعية في الوقت الحاضر ، وينتمي اليها معظم الانثروبولوجيين الاجتماعيين في بريطانيا وعدد غير قليل من الامريكيين . وتتميز تلك المدرسة عن « المدرسة التشوئية التطورية » و « المدرسة الانتشارية » بعدم اهتمامها بالماضي أو بتاريخ النظم الاجتماعية ، وانما تهتم بالكشف عن وظائف النظم الاجتماعية ، وينظر معظم أصحاب تلك المدرسة الى المجتمعات الانسانية على أنها « نسق اجتماعية » تعتمد اجزاؤها بعضها على بعض ، ويمثل كل جزء منها في عدد من العلاقات المعقدة مع الأجزاء الأخرى ، ويمكن عن طريق تحديد تلك العلاقات الضرورية الوصول الى القوانين التي تنظم الحياة الاجتماعية وبالتالي يصبح التنبؤ العلمي ممكنا . والمقصود من وصف المجتمع الانساني بأنه نسق أن الحياة الاجتماعية يسودها نوع من الترتيب والاستمرار ودون ذلك لا يتيسر لفرد أن يشبع أبسط حاجاته الاولية أو الثانوية ، ويرجع هذا الترتيب الى تجمع العلاقات الاجتماعية في مجموعات تتخذ كل مجموعة صورة نظام اجتماعي ، ويمارس الأشخاص الذين يخضعون للنظم الاجتماعية ادوارا اجتماعية معينة ومحددة ، كما يؤدي كل نظام اجتماعي وظيفة اجتماعية في الحياة الاجتماعية .

يرجع الفضل للعلامة البريطاني « هربرت سبنسر » (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣ م والعلامة الفرنسي « اميل دوركيم » (١٨٥٨ ـ ١٩١٧ م) في توجيه انتباه الانثروبولوجيين الاجتماعيين الى التحليل الوظيفي ، لاحظ « سبنسر » تشابها المجتمع والجسم الحي ولكنه تشابه غير كامل اذ يستمد كل منهما كيانه ووحدة وتماسكه من عوامل خاصة به ، فالعوامل التي تؤدي الى وحدة الجسم هي عوا مادية داخل الجسم ، أما المجتمع فيستمد وحدته من عوامل خارج جسم الأفراد ا غير عضوية مثل العادات والعرف والتقاليد وما شابه ذلك ، وقد اطلق على تا العوامل الاجتماعية اصطلاح « ما فوق العضوي » . وكذلك لاحظ « سبنسر أن الجماعات الانسانية تميل دائما الى النمو فيكبر حجمها ويزداد فيها التنظ والتكامل ، وكلما ازداد التباين البنائي ازداد تساند أجزاء الكائن الاجتماع واعتماد بعضها على بعضها الآخر .

ورغم خطورة المماثلة البيولوجية وعقمها التي نادى بها « سبنسر » فقد ساعدت على وضوح فكرتي « البناء » و « الوظيفة » في الانثروبولوجيا الاجتماعية.أما فيما يتعلق بدور العلامة(دوركايم) فقد أثرت مؤلفاته بصورة أقوى في التمهيد للمدرسة الوظيفية فعندما حدد خواص الظواهر أو النظم الاجتماعيا أكد على خاصتي التلقائية والخارجية أي تواجد الظاهرة الاجتماعية خارج عقول الافراد ونشأتها تلقائيا وشرح خاصة الجبر أو القهر أي أنها تفرض نفسها على سلوك الأفراد وعلاقاتهم ويعاقب كل من يخالفها . وتكون الظواهر الاجتماعيـة في مجموعها بناء اجتماعيا تختلف درجات ثباته واستقراره وتماسكه من مجتمع لآخر ، وينتقل البناء الاجتماعي من جيل الى جيل ويستمر مدة طويلة ، اما الفرد فانه يمر فقط خلال البناء الذي يجد نفسه فيه ، وهكذا لا يوجد البناء الاجتماعي مع الفرد ولا يموت معه ، وذلك لانه نسق اجتماعي له شعور جماعي يختلف تماما عن الشعور الفردي . وهكذا مهد كل من(سبنسر) و (دوركايم) لظهور المدرسة الوظيفية عندما اكدا أهمية التساند الوظيفي بين النظم الاجتماعية واستقلال النظام الاجتماعي عن عواطف الافراد الشخصية واتجاهاتهم . وفيما يلي عرض موجز لاهم مبادىء المدرسة الوظيفية ومفاهيمها :

* ـ مفهوم « الوظيفة الاجتماعية » : يرى العلامة « راد كليف براون » ان فكرة الوظيفة التي تطبق على النظم الاجتماعية تقوم على المماثلة بين الحياة الاجتماعية والحياة البيولوجية وهي الدور الذي يؤديه أي نشاط جزئي في النشاط الكلي الذي ينتمي اليه وهكذا تكون وظيفة أي نظام اجتماعي هي الدور الذي يلعبه في البناء الاجتماعي الذي يتألف من افراد الناس الذين يرتبط بعضهم ببعض في كل واحد متماسك من علاقات اجتماعية معقدة ، ويتحقق استمرار البناء الاجتماعي بعملية الحياة الاجتماعية ذاتها ، بمعنى ان الحياة الاجتماعية في مجتمع ما هي التي تخلق ذلك البناء وتحافظ على كيانه ، وتبعا لهذا التصور يكون للنسق الاجتماعي وحدة وكيان وظيفي ، فليس هو مجرد تجمع وحشد وانما كل متكامل ، وترتب على الاهتمام بفكرة « النسق الاجتماعي » و « التكامل الوظيفي » بين أجزائه المناداة بأن النظام الاجتماعي يفقد معناه في الأغلب حين ينتزع من النسق الاجتماعي الذي ينتمي اليه ، ولذلك نظر أصحاب « المدرسة الوظيفية » بشيء من الشك الى دراسات القرن التاسع عشر التي كانت تدور حول ايجاد التشابه بين النظم الاجتماعية في المجتمعات المختلفة لكي يصلوا الى مراحل تطورية عامة ، تؤكد تلك المدرسة ان النظام الاجتماعي لا يتحقق وجوده ووظيفته الا في داخل النسق الاجتماعي الشامل ، أما اذا انتزع فانه يفقد أهم خصائصه ومن الصعب التعرف على حقيقته ، وترتب على ذلك أيضا الاهتمام بدراسة الحياة الاجتماعية ككل ، وهكذا يجب دراسة النظام الاجتماعي أثناء تفاعله في داخل النسق الاجتماعي كله لتحديد الوظائف الاجتماعية التي يقوم بها وبالتالي نتعرف على حقيقته . ويجب أن نعرف ان غرض الدراسات الميدانية هو تحديد النشاطات الاجتماعية وبيان وظائفها داخل نطاق النسق الاجتماعي ، واصبح هدف الدراسات المقارنة هو مقارنة النظم من حيث هي أجزاء في النسق الاجتماعي وليس عقد المقارنات بين عادات جزئية .

* ـ مفهوم « البناء الاجتماعي » : من المفاهيم الأساسية عند « المدرسة الوظيفية » ، وعلى الرغم من عدم وجود اتفاق عام على تحديد طبيعته فانه توجد بعض التفسيرات الشهيرة التي يوافق عليها عدد كبير من الأنثروبولوجيين وقبل

عرض تلك التفسيرات الخمس المقصود من مفهوم « بناء » عام ، ان البناء يتكون من « نموذج » له خواص معينة هي :

١ ـــ يتكون البناء ـــ شأنه في ذلك شأن النسق ـــ من عناصر متشابكة بحيث لا يمكن أن يحدث تغير في عنصر منها دون التأثير في العناصر الاخرى .

٢ ـــ بالنسبة لاي « نموذج » لابد ان يكون هناك امكان حدوث عدة من تغيرات تنتج عنها مجموعة من « النماذج » التي تشبه النموذج الاصلي .

٣ ـــ يترتب على ما سبق انه أصبح في الامكان التنبؤ بما سيحدث لعناصر « النموذج » وهو « مركب نظري » وقد وضع بطريقة تجعلنا نفهم الوقائع التي نلاحظها فورا .

واذا انتقلنا الى تحديد مفهوم « البناء الاجتماعي » بعد ان حددنا ما المقصود من اصطلاح « بناء » ،أجد من الأوفق تلخيص تعريف العلامة «رادكليف ـــ براون» لانه يمثل دعامة من الدعائم الاساسية للمدرسة الوظيفية ان لم يكن مؤسسها،ولقد بدأ تحديده للبناء الاجتماعي بأن عرض أولا لرأي « ايفانز بريتشارد » الذي عرف البناء الاجتماعي « بأنه نسق اجتماعي يتميز بدرجة معينة من الثبات والاستقرار ويتألف من جماعات وزمر ـــ مثل العشائر والقبائل والاسر ـــ تقوم بتنظيم علاقات الافراد التي تدخل في نطاقها بعضهم ببعض ، كما يسمح بالتكيف الخارجي مع البيئة الطبيعية وبالتكيف الداخلي بين الافراد أو الجماعات ، وقد وافق «رادكليف ـــ براون» على التعريف السابق ولكنه أضاف اليه عدة من عناصر أخرى هي : ـــ العلاقات الاجتماعية التي تجمع بين شخصين أو أكثر تدخل في البناء الاجتماعي ، فمثلا في كل « بناء قرابة » في أي مجتمع نجد علاقات اجتماعية ثنائية مثل تلك التي توبط بين الأب والابن أو بين الام والابن أو بين الاخ والاخت . بل في احدى القبائل الاسترالية كان كل البناء الاجتماعي يتكون من شبكة من تلك العلاقات الاجتماعية التي تقوم على أساس القرابة .

ـ وتدخل كذلك في نطاق البناء الاجتماعي عمليات التمييز بين الأفراد في المجتمع على أساس الدور الاجتماعي ، فمثلا الأدوار الاجتماعية الخاصة بالرجال والنساء أو الخاصة بالزعماء والاتباع أو تلك الخاصة بأصحاب العمل والعمال .

ويؤكد « رادكليف ـ براون » أن الحالات الفردية التي تتجسد فيها تلك العلاقات الاجتماعية ليست هي موضوع الدراسة العملية للبناء الاجتماعي وانما الذي نهتم به الحالات العامة التي تتكرر كثيرا والتي تمثل نمطا اجتماعيا فمثلا لكي أحدد العلاقة الاجتماعية بين الأب والابن في قبيلة ما ، لا يمكن ان اقتصر على أب معين بالذات وانما لابد أن الاحظ أكبر عدد ممكن من الآباء وأسجل علاقتهم مع ابنائهم ثم استخلص « الانماط » أي العلاقات التي تتكرر عند معظمهم ؛ ومن هذه الانماط يتكون البناء الاجتماعي .

ويعرض كذلك لموضوع ثبات « البناء الاجتماعي واستقراره » ويفسر هذا الاستمرار بأنه لا يعني الجمود وعدم التغير وانما الاستقرار الديناميكي الذي قد يتغير بدرجات متفاوتة . ويشير « براون » كذلك الى الجانب المكاني « للبناء الاجتماعي » ويعرض موضوع ارتباط المجتمعات الانسانية ببعضها في الوقت الحالي بحيث من الصعب القول بوجود مجتمع منعزل ، ولذلك تجد دراسة شبكة العلاقات التي تربط بين أفراد المجتمع الواحد داخليا وكذلك العلاقات التي تربط تلك المجتمعات بالخارج أي بالمجتمعات الاخرى .

وأشير الى تأثر العلامة « براون » بالتفسير البيولوجي الذي جاء به « هربرت سبنسر » فهو يكرر المماثلة بين الحياة الاجتماعية والحياة العضوية عند شرحه للوظيفة الاجتماعية والبناء الاجتماعي . وهكذا ترى المدرسة الوظيفية أن من أهم واجبات الانثروبولوجي الاجتماعي هو تحديد البناء الاجتماعي بجانب تحديد الوظائف اجتماعية للنظم الاجتماعية .

* ـ **الاهتمام بخاصر النظم الاجتماعية دون ماضيها** : تختلف مبادىء المدرسة

الوظيفة عن المدرستين السابقتين في اهتمامها بواقع النظم الاجتماعيـة وحاضرها لتحديد وظائفها الاجتماعية في النسق الاجتماعي أو البناء الاجتماعي الكلي ، ولا تهتم تلك المدرسة بتتبع ماضي النظم الاجتماعية وتاريخها في المجتمعات البدائية ، وذلك لاسباب متعددة أهمها عدم وجود السجلات التاريخية الدقيقة التي تشرح تاريخ النظم البدائية وكذلك لا يمكن الاعتماد على ذاكرة كبار السن لاعادة بناء النظم الاجتماعية القديمة ، وقد لخص العلامة « مالينوفسكي » هذا الاتجاه في فقرة صغيرة في كتابه الشيق عن دينامية التغير الثقافي في افريقيا فقد قال :

« وهكذا بدلا من تصيد الأدلة عن طريق تتبع عامل الزمن واسـقاطه في حوادث الماضي والمستقبل للوصول الى تتابع تاريخي أو تطوري ، يجب علينـا تنظيم العلاقات الاجتماعية في مجموعات « نظم اجتماعية » تعيش كلهـا متداخلة ومتواجدة معا في الحاضر ، وبالتالي يمكن دراستها ككل عن طريق دراسة ميدانية وضعيـة » .

ويؤكد العلامة « ايفانز ـ بريتشارد » الاتجاه السابق ، فيقول إن إغفـال التاريخ في دراسـة المجتمعات البدائية أمـر لا مناص منـه ، ولكن موضـوع الانثروبولوجيا اخذ يتسع بحيث شمل دراسة المجتمعات التاريخية مثل المجتمعات الريفية والمدن الصغيرة . وفي بعض الاحيان المجتمعات الصناعية المتقدمة ، ولذلك يجب بالنسبة لتلك المجتمعات التاريخية الحديثة عـدم إغفال دراسة تاريخها نظرا لوجود الوثائق المؤكدة .

يخالف هذا الاتجاه الانثروبولوجيا الثقافية التي تعطي اهتماما لماضي الثقافات التي تدرسها ، ويؤكد العلامة « كروبر » أن معرفة التاريخ تساعد بصورة فعالـة على تفهم المجتمع أو الحضارة .

* ـ **الوصول للقوانين ليس هدف الانثروبولوجيا الاجتماعية** : يتفـق مؤيدو « المدرسة الوظيفية » ومعظم الانثروبولوجيين المعاصرين على انه من الصعب جدا الوصول في مجال الانثروبولوجيا الاجتماعية الى قوانين عامة مثل قوانين العلوم

الطبيعية ، وانما من الممكن الوصول الى نوع من التصنيفات والنماذج والانماط العامة وما شابه ذلك ، ولذلك يتفق معظم الانثروبولوجيين على عد الانثروبولوجيا الاجتماعية فرعا من العلوم الاجتماعية أو العلوم الانسانية، وليس فرعا من العلوم الطبيعية . ولذلك لم تصل التعميمات القليلة التي توصل اليها الانثروبولوجيين الى درجة عمومية التعميمات في العلوم الطبيعية، ودرجة دقتها ويقول العلامة « رادكليف ـــ براون » : « إن المقارنة المنهجية لظواهر عديدة خاصة بالعالم بأسره ـــ رغم انها الغرض النهائي للانثروبولوجيا الاجتماعية ـــ فانه لايمكن تحقيقها حاليا لعدم الاحاطة بالنسق الاجتماعي في العالم » .

سادسا ـ الاتجاهات المعاصرة في مجال الانثروبولوجيا الاجتماعية :

أخذت تظهر بعض الاتجاهات الحديثة منذ فترة قريبة في أبحاث الانثروبولوجيين ومقالاتهم ، ويصعب تحديد تاريخ دقيق لظهورها لأنها نمت بصورة تدريجية واظهر كل منها بصورة مستقلة عن الاتجاهات الاخرى وفي زمن مختلف . ويجب الاشارة الى ان هذه الاتجاهات في طور التكوين والنضج ولم تكتمل جميعا في صورة « مدرسة علمية » او مرحلة في تاريخ الانثروبولوجيا الاجتماعية ـــ وتتلخص تلك الاتجاهات فيما يلي :

١ ـــ دراسة المجتمعات المعقدة : اعتقد ان القارىء قد لاحظ مما سبق ان اهتمام الانثروبولوجيا الاجتماعية يتركز حول المجتمعات شبه البدائية والتي تسمى تجاوزا المجتمعات البدائية ، وهي مجتمعات صغيرة الحجم لا تخرج عن كونها عشائر أو قبائل تعيش حياة تكنولوجية بسيطة وان كان لا يعني ذلك بساطة النظم الاجتماعية فيها . فان بعضها قد يعيش على الصيد وجمع الثمار وفي الوقت نفسه يطبق نظم قرابة أو نظما دينية على درجة كبيرة من التعقيد .

وقد يخيل للقارىء ان أبحاث الانثروبولوجية الاجتماعية مقصورة على المجتمعات البدائية ، ولكن الواقع يثبت غير ذلك ، فقد ظهر عدد قليل ـــ يتزايد تدريجيا ـــ من الدراسات التي تدرس المجتمعات المتمدنة صغيرة الحجم مثل القرى

في المجتمعات النامية والمتخلفة أو المدن الصغيرة أو أحياء المدن الكبيرة الصناعية ، وقد يتبادر الى الذهن السؤال التالي :

ولكن كيف نميز تلك الأبحاث عن أبحاث علم الاجتماع ؟ إن هذا السؤال قائم على أساس ان كلا من الانثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع يدرس النظم الاجتماعية ، ولكن التفرقة التقليدية بينهما تتلخص في ان الانثروبولوجيا الاجتماعية تدرس المجتمعات البدائية بينما يدرس علم الاجتماع المجتمعات المتمدنة لدرجة ان عرفه بعض العلماء الانثروبولوجية الاجتماعية بأنها « علم الاجتماع الذي يدرس المجتمعات البدائية » . تتلخص الاجابة عن ذلك السؤال بأن التمييز يقوم على أساس المنهج المتبع ، اذ بينما تتبع ابحاث الانثروبولوجية الاجتماعية منهج الدراسة الميدانية المركزة وتهتم بتحديد العلاقات الوظيفية بين النظم الاجتماعية نجد أبحاث علم الاجتماع تتبع المناهج الاحصائية سريعة التطبيق وتهتم بالنظام الاجتماعي — موضوع الدراسة — في ذاته أو بالربط بينه وبين نظام أو عامل آخر بصورة احصائية ، ويجب ألا يفهم من ذلك عدم استخدام الطرائق الاحصائية في أبحاث الانثروبولوجية الاجتماعية ، وذلك لوجود اتجاه حديث يجمع بين منهج الدراسة الميدانية المركزة والمقاييس الاحصائية .

ان الاتجاه نحو دراسة المجتمعات المتمدنة يوجد أيضا في مجال الانثروبولوجية الثقافية ، واعتقد ان هذا الاتجاه يرجع الى عدة من عوامل أهمها تناقص عدد المجتمعات البدائية بدرجة ملحوظة منذ أوائل القرن العشرين نتيجة لانتشار الحضارة الغربية والاستعمار الغربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وكذلك تقدم وسائل الاتصال بين الشعوب بصورة تساعد على تطور الشعوب البدائية وانتقالها الى مرحلة التمدين . وأوضح مثل لهذا التناقض ما حدث لقبائل الهنود الحمر السكان الاصليين في الامريكيتين ، ان الصورة البدائية الاصلية لتلك القبائل على وشك الانقراض والاختفاء تماما ، وكذلك الحال بالنسبة للصورة البدائية التي كان يعيشها السكان الاصليون لاستراليا ، وهناك عملية تخطيطية يقوم بها المستعمر الغربي في جنوب افريقيا وروديسيا للقضاء على ثقافة القبائل

الافريقية الاصلية عن طريق توطين الاوربيين في تلك الأماكن وسيطرتهم على الاغلبية الافريقية التي تقوم بالأعمال اليدوية وتعيش في مستوى اجتماعي منخفض يسوده الجهل والفقر والمرض بينما يعيش البيض في يسر ورخاء ، ترتب على ذلك قلة عدد المجتمعات البدائية في الوقت الذي زاد فيه عدد الباحثين في الانثروبولوجيا الاجتماعية نظرا لانتشار الجامعات في اوربا واسيا وافريقيا ، ولذلك اتجه البحاث نحو دراسة المجتمعات المتمدنة صغيرة الحجم مستخدمين في ذلك منهج الانثروبولوجيا الاجتماعية . وتدور معظم تلك الأبحاث حول دراسة البناء الاجتماعي للقرى في آسيا وامريكا اللاتينية ، ويجب ملاحظة ان كثيرا من تلك الابحاث ينتمي الى الانثروبولوجيا الثقافية أكثر مما انتمائه الى الانثروبولوجيا الاجتماعية .

ب ـ محاولات التعاون الوثيق بين الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية :

لا شك أن القرن العشرين هو قرن التخصص الدقيق في فروع المعرفة وتفاصيلها . ولكن لوحظ أن التخصص الدقيق قد يؤدي الى تجزئة العلوم والموضوعات بصورة قد تضر تقدم العلم ذاته ولذلك نجد في أيامنا محاولات تنادي بضرورة التعاون بين فروع الانثروبولوجيا ، بل هناك محاولات ترمي لتحقيق مثل ذلك التعاون في نطاق أوسع يشمل الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس . وفيما يتعلق بالانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية يمكن تحقيق التعاون رغم وجود بعض الاختلافات التي أهمها أن الانثروبولوجيا الثقافية تهتم بالثقافة وتاريخها والعمليات الثقافية أما الانثروبولوجيا الاجتماعية فتهتم بدراسة البناء الاجتماعي والنظم الاجتماعية ووظائفها . ينادي العلامة الامريكي (بيجان) بضرورة التعاون بين هذين العلمين لاستمرار الدراسات الانثروبولوجية وازدهارها للوصول الى نتائج اكثر عمقا نضجا ، وقد تعرض لهذا الموضوع عندما كان يناقش بعض آراء تشاؤمية للعلامة (كروبر) الذي حذر بأن أحد فروع الانثروبولوجيا وهو الانثولوجيا على وشك الاختفاء وأرجع ذلك الى عدة من أسباب هي تناقص عدد المجتمعات البدائية والفشل في عمل تصنيفات ومقارنات شاملة ودقيقة والميل الى

الأخذ بمبدأ التأملات المطلقة العامة أو الشاملة . والحل الذي يقترحه (كروبر) هو الخلط أو الجمع بين (الانثولوجيا) وتاريخ الثقافة أي العودة الى اتجاه العلامة (بواز) التاريخي . يعارض (ايجان) العلامة (كروبر) : فبالنسبة لنقص عدد المجتمعات البدائية فانه لا تزال توجد مجتمعات بدائية كثيرة في افريقيا ، أندونيسيا وماليزيا وجنوب شرق آسيا ، وفيما يختص بمشكلة ضعف امكانيات فانه من الممكن استخدام مناهج جديدة مثل التي يستخدمها الانثروبولوجيون الاجتماعيون البريطانيون واستخدام المنهج الذي استخدمه العلامة الامريكي (ميردوك) في برنامجه الشهير (سجلات المناطق الخاصة بالعلاقات الانسانية) وهو برنامج يشترك فيه خمس عشرة جامعة أمريكية ويمول بمنح حكومية ، ويهدف الى جمع وترجمة وتصنيف المعلومات الوصفية عن ثقافات المجتمعات الانسانية ونظمها الاجتماعية بغرض طبعها في سجلات يسهل تداولها ، وترميم مجموعة كاملة من تلك السجلات في الجامعات التي تقوم بتنفيذ هذا المشروع ، وهكذا يصبح في الامكان الحصول على معلومات أنثروبولوجية عن أي مجتمع انساني وبالتالي يمكن اجراء المقارنات والوصول الى نتائج هامة . ولقد نجح العلامة (ميردوك) في هذا المجال وكان هو أول مشرف على ذلك البرنامج الذي يرتبط باسمه . وفيما يتعلق برأي (كروبر) الخاص بانتشار التصميمات الفنية فان (ايجان) يعارضه في ذلك ويرى ضعف ذلك الاتجاه في الوقت الحالي وتبدل مجهودات لإحلال القانون العلمي بدلا منها .

ويستمر (ايجان) في معارضته لآراء (كروبر) فيرفض فكرة الخلط بين الانثولوجيا وتاريخ الثقافة للسل على تقدم الابحاث الانثروبولوجية ويعرض فكرة أخرى وهي التعاون بين الانثروبولوجيا الاجتماعية والانثروبولوجيا الثقافية ، بل يجب تنفيذ برنامج تعاون وثيق بين جميع أقسام الانثروبولوجيا وبالتالي تظهر صلات وروابط دائمة بين تلك الفروع وتنشأ مشكلات مشتركة تبحث عن طريق تعاون جماعي مما يؤدي الى اكتشاف ميادين تفصيلية جديدة للدراسة والبحث . ويعطي مثالا لذلك التعاون يتمثل في الجمع بين الاتجاه البنائي ـ الوظيفي للمدرسة

الانثروبولوجية الاجتماعية والاتجاه التاريخي الذي يصاحبه الاهتمام بالعملية الثقافية للمدرسة الانثروبولوجية الثقافية الامريكية ، ولقد نجح العلامة (ايجان) في الجمع بين مبادىء المدرستين الكبيرتين حين درس في مناطق صغيرة محددة — لبعض قبائل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية مشكلات متعلقة بنظام القرابة والبناء الاجتماعي ، وقد لاحظ أن استخدام الاتجاه البنائي — الوظيفي قد ساعده على دراسة مشكلات جديدة وقد مكنه من النظر الى الثقافة ككل والى ثقافة تلك القبائل وكذلك عملية الثقافة ذاتها وكانت تنحصر دراسته في منطقة محددة معينة ، أي كان يستخدم في وقت واحد مفاهيم الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية ومبادئهما ، ولقد علق العلامة (ميردوك) على اتجاه العلامة (ايجان) الذي يدرس الثقافة والبناء الاجتماعي في الوقت نفسه مستخدما في ذلك مناهج الانثروبولوجيا الثقافية ومفاهيمها والانثروبولوجيا الاجتماعية بقوله انه « اتجاه ناجح اذ استطاع ادماج منهج التحليل الوظيفي — والمنهج الثقافي التاريخي وطريقة دراسة العملية التطورية في مركب يتميز بجانب خلاق ومفيد » .

ويكرر (ايجان) بأنه قد توصل الى هذا (المركب) دون مقابلة صعوبات كبيرة على عكس ما يدعيه الكثيرون بأن الجمع بين تلك الاتجاهات المختلفة يؤدي الى مشكلات وصراعات قوية . ويؤكد كذلك أن التحليلات التقليدية التي تفرق مفهوم الثقافة ومفهوم المجتمع لا يشعر الانثروبولوجي بأهميتها أثناء قيامه بالدراسة الميدانية ، يتضح مما سبق بداية ظهور اتجاه جديد للتعاون بين الانثروبولوجيا الاجتماعية والانثروبولوجيا الثقافية .

٣ — انكماش الانثروبولوجيا الاجتماعية امام الامكانات الكبيرة للانثروبولوجيا الثقافية .

ترتب على تركز الانثروبولوجيا الثقافية في أمريكا أن تمتعت أقسامها الجامعية وهيئاتها العلمية بإمكانات مالية كبيرة ولقد ذكرت سابقا الهيئات الحكومية والأهلية التي تمول أبحاث العلوم الاجتماعية في كل مكان بالعالم . ولذلك نجد أعداداً هائلة من المتخصصين في العلوم الاجتماعية بأمريكا نظراً لكثرة الجامعات

وتوافر الإمكانات لديها لإنشاء كليات العلوم الاجتماعية وتدريسها التي تشتمل في نطاقها أقسام الانثروبولوجيا أو أقسام الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع . ولا تتوافر تلك الإمكانات الكبيرة في أقسام الانثروبولوجيا الاجتماعية بانجلترا وقد صرح العلامة الانجليزي (فـورث) بأن الانثروبولوجيا الاجتماعية في انجلترا تنقصها الأعداد الضخمة من الابحاث الانثروبولوجية التي تقدمت بها الانثروبولوجيا الثقافية في أمريكا ولكنه يعود فيقول إن المدرسة الانجليزية قد استطاعت أن تعوض هذا النقص عن طريق المكاسب التي حصلت عليها من الدراسات المركزة العميقة على عدد محدود من المشكلات والمجتمعات . ولقد لاحظ كذلك أن بعض الانثروبولوجيين يهاجرون الى أمريكا للتمتع بالمرتبات المرتفعة وهذا بالطبع على حساب وطنهم الاصلي .

وخلاصة القول إن هناك اتجاها نحو انكماش الانثروبولوجيا الاجتماعية امام اتساع نشاط الانثروبولوجيا الثقافية .

* * *


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المبحث الثـاني(*)

في المنهج والطرائق المنهجيـة

ان التقارب الشديد بين موضوعات العلوم الاجتماعية يصاحبه تشابه في المنهج ، فاذا قلنا ان موضوع الانثروبولوجيا الاجتماعية هو البناء الاجتماعي نلاحظ ان موضوع علم الاجتماع هو المجتمع والسلوك الاجتماعي وموضوع علم اقتصاد هو الطرائق التي يستخدمها الانسان ليكسب عيشه ، أما علم السياسة فيتخذ من « ظاهرة السلطة » موضوعا لدراسته ، ولا شك أن التداخل بين تلك الموضوعات واضح جدا ، ويتضح بصورة قوية عند القيام بالدراسات الميدانية أي أثناء ملاحظة الواقع الاجتماعي ، ويمكن القول إن التمييز بين تلك العلوم يقوم على أساس الاهتمام بموضوعات خاصة تدخل في نطاق الموضوع العام للعلوم الاجتماعية وليس الحياة الاجتماعية .

ولا يقتصر التقارب بين العلوم الاجتماعية على تداخل موضوعاتها وانما ايضا تشابه مناهجها وتداخلها وطرائق البحث فيها اذ تشترك كل العلوم الاجتماعيـة في تطبيق المنهج العلمي الذي يتلخص في :

★ دراسة الظاهرة الاجتماعية دراسة موضوعية بحيث تعبر عن حقيقة ما هـو كائن دون تدخل الميول والمصالح الشخصية .

★ دراسة الظاهرة الاجتماعية دراسة دقيقة وكلما استطعنا ترجمـة تلك الدقة الى رموز كمية سواء أكانت رموز الحساب أم الجبر والهندسة حققنا الدقة المطلوبة في المنهج العلمي .

(*) اعتمدنا في هذا البحث على : د. عاطف وصفي الانثروبولوجيـا الاجتماعيـة (بتصرف) .

★ دراسة الظاهرة الاجتماعية للوصول في النهاية الى القانون الذي تخضع له الظاهرة • ويقصد بالقانون هنا العلاقات الضرورية التي تربط بين طبائع الاشياء، ويترتب على ذلك امكان التنبؤ العلمي عن طريق تحديد شروط حدوث الظاهرة في المستقبل •

ولكن رغم هذا التشابه في مناهج العلوم الاجتماعية يستخدم كل منها طرائق بحث تتفق مع طبيعة الظواهر الاجتماعية التي يتخصص في دراستها وهكذا نلاحظ انه بينما تتفق العلوم الاجتماعية في الموضوع وهو الحياة الاجتماعية فانها أيضا تتفق في المنهج المستخدم في دراسة ذلك الموضوع أي المنهج العلمي•• ولكن هذا الاتفاق يتحول الى اختلافات عند الانتقال من المفهوم العام للموضوع والمفهوم العام للمنهج الى المفاهيم التخصصية أو الفرعية ؛ فنجد ان العلوم الاجتماعية تختلف في الموضوعات الفرعية التي يتخصص فيها كل علم اجتماعي ، وكذلك تختلف في طرائق البحث التي يستخدمها كل علم ، ولكن يجب ملاحظة ان هذا الاختلاف ليس معناه الفصل أو العزل بين الموضوعات التخصصية وطرائق البحث الخاصة بكل علم اجتماعي وانما هو اختلاف يسمح بالتعاون والتكرار والتداخل •

تتعرض العلوم الاجتماعية لبعض المشكلات فيما يختص بتطبيق المنهج العلمي• وترتب على تلك المشكلات قلة عدد القوانين الاجتماعية التي توصلت اليها بالنسبة للعدد الهائل من القوانين التي وصلت اليها العلوم الطبيعية ، وترتب عليها كذلك عدم وصول دقة القوانين الاجتماعية الى دقة قوانين العلوم الطبيعية • وحاول المفكرون تفسير هذا القصور من جانب العلوم الاجتماعية ، فأرجعه بعضهم الى حداثة العلوم الاجتماعية اذا قورنت بعمر الطبيعة • واعتقد ان هذا التفسير يحدد أحد جوانب المشكلة ولا يحدد أسباب تأخير مولد العلوم الاجتماعية عن العلوم الطبيعية واسباب طول الفترة التي تجتازها العلوم الاجتماعية للوصول الى مرحلة النضج واستكمال مقدماتها العلمية ، بينما لم تحتج العلوم الطبيعية مثل الكيمياء أو الطبيعة أو علم الحياة أو علم وظائف الاعضاء لمثل تلك الفترة الطويلة •

ويفسر بعضهم الآخر هذا القصور على أساس أن الظاهـرة الاجتماعية أكثر تعقيدا من الظاهرة الطبيعية ، واعتقد ان هذا التفسير قد تعارضه بعض الاحتمالات اذ يرجع التعقيد في معظم الامور الى عدم فهم بعض الظواهر ، وفيما يتعلق بالعلوم الطبيعية نجد الكثير من ظواهرها غير معروف الى اليوم ، فعالم الفلك لا يـزال يحاول أن يكتشف المجهول في نظام الافلاك والفضاء اللانهـائي وكذلك الحـال بالنسبة لباقي العلوم الطبيعية والدليل على ذلك اكتشاف قوانين جديـدة كل عام ، وعالم المجهـول امام العلوم عامـة هو عالم لا نهائي أي دائمـا سيجد العالـم موضوعات معقدة تحتاج الى الفهم والكشف عن قوانينها ، بـل انني اعتقـد ان الظاهرة الاجتماعية عامة هي أقرب للانسان من الظواهر الطبيعية لانه يعيش مـن خلالها ويعرفها عن طريق الخبرة الذاتية .

واذا حاولت الاجابة عن السؤال السابق وهو « **ما سبب قصور العلوم الاجتماعية عن العلوم الطبيعية ؟** » أجد نفسي متجهـا الى الباحث الاجتماعي ذاته وليس الظاهرة الاجتماعية أو عمر العلوم الاجتماعيـة ، فلا شـك ان الظاهـرة الاجتماعية هي جزء من الطبيعة ولذلك يمكن دراستها بالمنهج العلمي ولا يمكـن تصور ان الحياة الاجتماعية لا تسير وفقا لقوانين ، لان الطبيعة ككل تسير حسب قوانين يترتب عليها ذلك النظام الملحوظ في كل جوانبها حتى في الجانب المتعلـق بالحياة الاجتماعية ، ان المشكلة تتمثل في ان العالم الاجتماعي لا يستطيع في معظم الاحيان ان يكون موضوعيا في دراسته وبالتالي يهمل أهم عنصر من عناصر المنهج العلمي وهكذا تتناقض النظريات وتختلف الآراء حول حقيقة الظاهرة الاجتماعية ، ان العالم الاجتماعي يجد نفسه مدفوعا لا شعوريا او شعوريا الى التحيز لسلالـة معينة أو للنظام الاجتماعي الذي يطبقه أو للقيم التي يعتنقها ، هذا اضافـة الى الامكانات الضخمة المكرسة لخدمة العلوم الطبيعية ، أما العلوم الاجتماعيـة فان امكاناتها محـدودة حتى في الدول المتقدمة ، وفي الدول النامية تفرض معركـة التنمية الاقتصادية تركيز الاهتمام على العلوم الطبيعية فقط ، اما الدول المتخلفـة فلا تشعر بأهمية العلوم الاجتماعية ، ولا يمنع هذا ان بعض العلـوم الاجتماعيـة

تتخصص في الدول المتخلفة ولكن المتخصصين في تلك العلوم ينتمون في الغالب الى دول متقدمة واحيانا الى دول نامية .

ولا أدل على امكان تطبيق المنهج العلمي على الظواهر الاجتماعية نجاح بعض العلوم الاجتماعية في الوصول الى قوانين اجتماعية قريبة جدا في دقتها من القوانين الطبيعية .

انتقل بعد هذه المقدمة السريعة عن المنهج العلمي الذي هو منهج الانثروبولوجيا الاجتماعية الى تحديد أهم طرائق البحث وأهداف الانثروبولوجيا الاجتماعية .

اولا ـ طرائق البحث في الانثروبولوجيا الاجتماعية :

يمثل تاريخ الانثروبولوجيا الاجتماعية ـ في بعض جوانبه ـ المحاولات المستمرة لاحلال المعرفة اليقينية عن الشعوب البدائية مكان الافكار التي تعتمد على التخمينات وأقوال الرحالة والمستكشفين وجنود الاستعمار . وقد وصفت هذه الكتابات الانسان البدائي على أنه حيوان فظ متوحش يختلف عن انسان أوربا والدول المتمدينة ، ثم ظهرت كتابات تالية تمثله انسانا رقيقا مهذبا يعيش على الطبيعة في رخاء وسلام ودعة . يظهر هذا التناقض بوضوح في تاريخ الانثروبولوجيا الاجتماعية ، فقد تصور مفكرو القرنين السابع عشر والثامن عشر الحياة البدائية على أنها حياة منعزلة فقيرة وحشية قاسية ، ويقوم هذا الفهم على أساس التخمينات أو المبالغة وليس على أساس المنهج العلمي . وعندما زادت معلوماتنا عن الشعوب البدائية في الفترة ما بين منتصف القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر تبين للمفكرين خطأ الصورة السابقة وشعروا بالجرم الذي اقترفوه بحق الانسان البدائي ، وكنوع من التعويض اتخذوا موقفا مناقضا للسابق المتمدين ، ولا شك أن هذا الرأي كذلك لم يقم على أساس المنهج العلمي وانما على تصورات ومبالغات غير واقعية واستمر الحال هذا الى ان اكتشف العلماء في نهاية القرن التاسع عشر امكان تطبيق المنهج العلمي في الابحاث الانثروبولوجية عن طريق الدراسة الميدانية . وتتمثل في ملاحظة الواقع الاجتماعي مباشرة أي يقوم العالم نفسه بجمع المعلومات بطرائق معينة ثم يقوم بتحليلها ، وبالتالي يستطيع ان

يتأكد من استخدام المنهج العلمي في جمع المعلومات ، ويختلف هذا الاسلوب عن الاسلوب الذي استخدم قبل ذلك والذي يتمثل في اعتماد الانثروبولوجي الاجتماعي على أشخاص غير متخصصين (الرحالة والمستكشفين ورجال الادارة وجنود الاستعمار)في جمع المعلومات ثم يقوم هو بتحليلها على اساس التسليم بأن المعلومات التي أمامه صحيحة ويمكن الاعتماد عليها ، ولا شك أن تلك المسلمة كانت خاطئة وترتب على ذلك خطأ التحليلات والقوانين التي توصل اليها مفكرو الانثروبولوجيا الاجتماعية في تلك الفترة . ولقد ذكرت سابقاً أن أول دراسة ميدانية في هذا العلم هي دراسة بعثة جامعة كمبردج لمنطقة مضايق توريس في المحيط الهادي في عامي (١٨٩٨) و (١٨٩٩) ورأس العلامة الانجليزي « هادون » تلك البعثة . وأخذت تتوالى الدراسات الميدانية بعد ذلك ، ولا شك ان تلك الدراسات تدعي جميعها تطبيق المنهج العلمي بجميع عناصره ، وقد ذكرت الكثير من تلك الدراسات اثناء بحث تاريخ الانثروبولوجيا الاجتماعية ومدارسها . ويعتمد الانثروبولوجيون الاجتماعيون في تطبيق المنهج العلمي أثناء دراساتهم الميدانية على طرائق بحث معينة أهمها ما يأتي :

١ ـ الملاحظة بالمشاركة :

يطلق بعض العلماء على الملاحظة بالمشاركة اصطلاح « التدخل الوظيفي » يقابل الباحث في بداية دراسته الميدانية مشكلة « الدور » الذي يجب أن يؤديه لكي يحصل على معلومات موضوعية ، وترجع اهمية تلك المشكلة الى الحقيقة القائلة إن تواجد الباحث في عشيرة أو قبيلة ما تدفع الافراد موضوع الملاحظة الى تغيير سلوكهم العادي أو الى الادلاء بأقوال لا تعبر عن الواقع وذلك لشعورهم بأنهم خاضعون لملاحظة الغير . ولذلك لا بد للباحث ان يقوم « بدور » ما في المجتمع ، بحيث يترتب عليه ان يقبله أفراد المجتمع وكأنه أحدهم ، وبالتالي يكتسب ثقتهم ويبدد الشكوك حول مهمته ، ويضعف شعور العداء الذي يواجه الغريب عندما يدخل مجتمعا ما لاول مرة ، وهكذا يذهب الانثروبولوجي الاجتماعي الى المجتمع الذي يدرسه ليعيش فيه فترة من الزمن لاكتساب ثقة الافراد وجمع المعلومات

اللازمة ، ولا يبدأ الباحث الزيارة بالدراسة وتوجيه الاسئلة وانما يتعلم أسلوب الحياة الجديدة ، فعليه ان يتكلم لغتهم ويستخدم في تفكيره التصورات نفسها أو المفاهيم السائدة ويشعر بالقيم التي يعتنقونها ويعمل معهم ويشاركهم طعامهم واحتفالاتهم وارتداء ملابسهم ، وفي بعض الاحيان يدخل كعضو في جمعياتهم اذا سمحت النظم الاجتماعية بذلك • وعليه طوال تلك الفترة ان يكتب تقارير يومية عن كل صغيرة وكبيرة تقابله ، ولا داعي لتكرار أهمية الموضوعية في كتابة التقرير وذلك لانه من المفروض ان طريقة الملاحظة بالاشتراك تدخل في نطاق المنهج العلمي الذي عرضت عناصره من قبل وأهمها عنصر الموضوعية • وعندما تتضح له فكرة عامة عن أسلوب المعيشة في المجتمع يبدأ في التحليل والكشف عن عناصر البناء الاجتماعي أو الترتيب البنائي للمجتمع حتى تصبح دراسته مفهومة وواضحة ليس فقط على مستوى افراد المجتمع ذاته أو الباحث نفسه وانما أيضا على مستوى التحليل الاجتماعي • فكما ان العالم اللغوي لا يقنع بمجرد فهم احدى اللغات الوطنية واجادة التحدث بها وترجمتها وانما يحاول نظم الاصوات والقواعد المطبقة في تلك اللغة ، كذلك فان الانثروبولوجي الاجتماعي لا يقنع بملاحظة الحياة الاجتماعية في مجتمع ما ووصفها وانما يحاول الكشف عن الترتيب البنائي الذي يكمن تحتها ، أي ان يكشف عن النماذج والانماط التي تمكنه من ملاحظة البناء الاجتماعي ككل مترابط الاجزاء ، وقد يتجه الى التركيز في الدراسة على نظام اجتماعي مثل نظام الزواج أو النظام الاقتصادي أو النظام القرابي أو الاخلاقي أو المعتقدات أو الطقوس ، وقد يركز انتباهه على مجموعة محددة من المراكز والادوار الاجتماعية ، وفي أحيان اخرى يركز الباحث ملاحظاته على شكل مورفولوجي معين مثل المعشر أو العشيرة او القبيلة ، وهكذا سواء أكان موضوع التركيز ضيقا أم واسعا فان على الانثروبولوجي الاجتماعي ان يستخدم الملاحظة بالمشاركة في جمع المعلومات عن جوانب البناء الاجتماعي بحيث يمكن ملاحظته ككل ، ويعرف ذلك الاسلوب بالطريقة الكلية وهي احدى الخصائص الرئيسة في منهج الانثروبولوجيا الاجتماعية • ويحدد العلامة « ايفانز بريتشارد » شروط نجاح الملاحظة بالمشاركة في الانثروبولوجيا الاجتماعية فيما يأتي :

١ ــ ان تسبقها مرحلة تخصص ودراسة نظرية كافية في الانثروبولوجيا عامة والعلوم الاجتماعية وبخاصة علم الاجتماع ، ويفهم من ذلك ضرورة الحصول على الدرجة الجامعية الاولى على الاقل في أحد فروع العلوم الاجتماعية قبل القيام بالدراسة الميدانية وتطبيق الملاحظة بالاشتراك .

٢ ــ على الباحث ان يقضي فترة كافية في مشاركة أفراد المجتمع موضوع الدراسة في معيشتهم ، ويجب الا تقل تلك الفترة عن عام ، ويرى بعض العلماء ان ستة اشهر قد تكون كافية ، ولا شك ان تحديد الفترة الكافية يرتبط بعوامل متعددة مثل حجم المجتمع وطبيعة المشكلة المراد دراستها دراسة مركزة .

٣ ــ ان يكون الباحث طوال فترة الملاحظة على صلة وثيقة بالاهالي ويتم ذلك عن طريق اشتراكه في معظم جوانب حياتهم الاجتماعية .

٤ ــ على الباحث ان يستخدم في حديثه مع أفراد المجتمع موضوع الدراسة لغتهم الوطنية ، ولا يستخدم المترجم ، اذ كثيرا ما يفشل المترجم في نقل الافكار والمعاني بدقة كاملة .

٥ ــ وعليه أيضا ان يدرس كل جوانب الحياة الاجتماعية وان كان سيدرس جانبا معينا بالتفصيل . وفي الغالب لا ينشر الباحث سوى جزء يسير من دراسته، ولكن الدراسة الكلية للمجتمع ضرورية حتى يستطيع فهم البناء الاجتماعي وتحديد وظائفه .

٦ ــ لا بد من توافر معين من الشخصية والمزاج ، فبعض الناس لا يستطيعون تحمل مشاق العزلة عن وطنهم الاصلي فغالبا تكون الحياة في المجتمع موضوع الدراسة قاسية ، وخاصة ان الظروف غير الصحية تنتشر في المجتمعات البدائية ، هذا اضافة الى تعرض الباحث لتغيير عادات الطعام والمسكن والملبس والمشرب ، ولذلك لا يستطيع الكثيرون تكييف أنفسهم عقليا ونفسيا وجسميا مع تلك الظروف الجديدة .

٧ ـ على الباحث ان يتخلى عن قيمه وثقافته بقدر المستطاع حتى يستطيع تحقيق الملاحظة الموضوعية ، ولا شك ان الافراد الذين يتقنون الملاحظة يستطيعون الوصف الدقيق للمجتمع ، ولكن عندما ينتقلون الى مرحلة الفهم والادراك العميق فانهم يحتاجون الى الكثير من الذكاء ، ويجب عدم اغفال أهمية مزاج الباحث وطباعه ، فقد يحدث ان يخفق أحد الباحثين في دراسة مجتمع معين ولكنه ينجح في مجتمع آخر .

٨ ـ يحتاج الباحث لمهارة ادبية في نقل البناء الاجتماعي الى لغة الباحث نفسه ووصفه وتحليله اذ عليه ان يبين ويشرح معنى الظواهر الاجتماعية التي لاحظها وان يبرز هذا المعنى بوضوح في صور تجريدية ، ويقتضي ذلك المجهود مهارة في ادراك الصيغ والنماذج اللغوية وتميزها ، ولا يفهم من ذلك أن على الانثروبولوجي الاجتماعي ان يكون اديبا حتى ينجح في عمله وانما يكون قادرا على التعبير والكتابة بلغة واضحة سليمة .

وفيما يتعلق بتدوين التقارير اليومية ، نلاحظ أن أفضل الظروف لتسجيل المعلومات هي في مكان الحادثة وأثناء حدوثها اذ يتردد على ذلك أبسط عامل « التحيز في الاختبار » أي التحيز في تسجيل معلومات معينة واهمال معلومات أخرى ، وكذلك ابعاد عامل ضعف الذاكرة الانسانية ، ولكن في كثير من المواقف تكون عملية تدوين المعلومات أثناء ملاحظة ظاهرة ما أمرا غير ممكن او قد تؤدي الى اثارة شكوك الافراد الخاضعين للملاحظة وقد يؤدي ايضا الى تشويه الصورة الطبيعية للظاهرة ، هذا اضافة الى أن القيام بالملاحظة وتدوين المعلومات في الوقت نفسه يؤدي في الغالب الى عدم دقة الملاحظة اذ تنقطع الملاحظة أثناء التدوين ، ولذلك فقد اتفق على ضرورة تدوين كل المعلومات في أقرب فرصة متاحة بعد الملاحظة مباشرة ، ويجب ان يكون التسجيل بصورة يومية على الاقل وان يشمل تقريرا مطولا عن حوادث اليوم ، وعلى الباحث أيضا أن يحاول تسجيل « النقاط الهامة » أثناء الظواهر ، وخاصة ان هذا التسجيل الخاطف لن يستغرق أكثر من دقيقة ، ويستخدم الباحث قطعة ورق صغيرة أو مظروفا أو قطعة خشب أو ما الى

قد تم كلية ، وان الفتى قد أصبحت تربطه بهم فعلا صلة قرابة ، وتظل الزوجة في مسكن والديها حتى تفطم طفلها . وعندئذ يقيم الزوج لزوجته كوخا بجوار مسكن أسرته ثم يتوجه بعد ذلك لاحضارها من مسكن والديها . وهما لا يمانعان في ذلك حتى ولو كان هنالك بقية مستحقة من المهر لدى الزوج . وعند انتقال الزوجة الى مسكنها الجديد فان أسرتها تعطيها قفة وملعقة واحدة . وللمهر أهمية كبرى، وهو يتمثل بصورة عامة بالماشية ، وأهل العروس يطالبون أثناء مفاوضتهم بشأن المهر بأن يشتمل على حيوانات ذات الوان معينة وأحجام وصفات معينة ، والذي لا شك فيه أن المهر له أهمية بالنسبة لاستقرار الزواج عند النوير ، اما الزوجة التي تهجر منزل الزوجية فيكون أهلها ملزمين برد المهر الى الزوج . واذا كانت الماشية قد ولدت فيجب اعادة ما ولدته ، رغم ما يولده ذلك من صعوبة تقتضي أحيانا السعي بالضغط من قبل أسرة الزوجة لتعود لزوجها(٤) .

والى جانب هذا النمط العادي لنظام الزواج في مجتمع النوير فانه توجد أشكال اخرى منها :

١ ـ زواج المرأة بالمرأة :

قد ترغب المرأة في مجتمع النوير أن تلعب دور الرجل في الحياة الاجتماعية فتختار احدى الفتيات لتتزوجها وتقدم لاسرتها المهر اللازم . وبعد اتمام شعائر الزواج تماما كما هو متبع عند زواج الرجل فان المرأة الزوج تطلب من أحد اقاربها الذكور أو أحد الأصدقاء أو الجيران أن يقوم بالاتصال بالزوجة جنسيا ، وذلك لكي تنجب الزوجة لها اطفالا . واذا كانت المرأة الزوج على درجة من الثراء فانها قد تتزوج عدة من زوجات وهي تعد في هذه الحالة الزوج القانوني لهن ، ويحق لها أن تطالب بالغرامة الخاصة بالزنى بصفتها زوجا لهن ـ اذا ما ثبت لها أن أحد الرجال قد اتصل بهن جنسيا دون الحصول على اذن منها بذلك .

---

(٤) د. علي محمود اسلام الفار ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، ص٢٤١ .

جـ ـ طريقة « سيرة الحياة » :

يستخدم كثير من الانثروبولوجيين الاجتماعيين تلك الطريقة أثناء الدراسة الميدانية ، وتتلخص في تدوين أهم الاحداث التي تمر في حياة بعض أفراد المجتمع موضوع الدراسة ، وعلى « الاخباري » ان يقص على الباحث تاريخ حياته منذ الصغر الى اللحظة التي يتحدث فيها ، ولا شك ان تبادل الثقة بين الباحث و « الاخباري » يساعد على اضفاء صفة الموضوعية على المعلومات المقدمة ، ويؤدي كذلك الى عدم اخفاء بعض المعلومات بطريقة مقصودة . وتوجد بعض العقبات أمام استخدام تلك الطريقة ، منها صعوبة تذكر الحوادث القديمة وامكان الادلاء بمعلومات كاذبة ولذلك يجب التأكد من صحة المعلومات المستفادة عن طريق الاعتماد على أكثر من « اخباري » والمقارنة بين أحاديثهم والاخذ بالمعلومات المشتركة بينهم .

د ـ طريقة « المقابلة الموجهة » :

وتتمثل تلك الطريقة في استخدام استمارة تكون من مجموعة من الاسئلة التي وضعت بدقة حول موضوع معين ، وفي معظم الاحيان مثل الاستمارة كذلك الاجابات المحتملة بحيث يمكن ملؤها بسرعة وتفريغها في جداول . وعلى الباحث ان يقرأ كل سؤال امام الشخص المراد دراسته ، ثم يسجل اجابته في الاستمارة ويتم ذلك في الغالب بوضع علامة (×) أمام احدى الاجابات المكتوبة ، ويلاحظ أن قراءة الاسئلة يجب ان تتم بصورة محايدة بحيث لا تؤثر في اجابات المستمع .وتستخدم تلك الطريقة في أبحاث علم الاجتماع ، ولكنها غير منتشرة في الدراسات الانثروبولوجية الاجتماعية ، ويرجع السبب في ذلك الى ان استخدام طريقة المقابلة الموجهة لا تنجح الا في المجتمعات المتمدينة ، اما في المجتمعات البدائية فانها تثير شكوك الفرد لعدم تعوده على تلك الطريقة الرسمية في الحديث وخاصة انه في الغالب لا يعرف القراءة والكتابة ولم يحدث ان قابله أحد وأخذ يسجل أقواله ، ولذلك لا يستخدمها الانثروبولوجيون الاجتماعيون الا في المجتمعات المتمدينة وبجانب طريقة الملاحظة بالمشاركة وطريقة المقابلة غير الموجهة .

هـ ـ طريقة الاختبارات النفسية :

قد يستخدم بعض الانثروبولوجيين الاجتماعيين أثناء دراساتهم الميدانية بعض الاختبارات النفسية لتحديد خصائص شخصية افراد المجتمع موضوع الدراسة ، ومن أمثلة تلك الاختبارات « اختبار رورشاخ»(*) ويتكون ذلك الاختبار من عشر لوحات ، رسم على كل لوحة صورة مكبرة لنقطة حبر قذف بها على ورقة فاتخذت شكلا غير منتظم ، ويطلب من الشخص ان يصف ما يمكن ان يتصوره من أشكال عندما ينظر لكل لوحة ، وعلى اساس ما يقرره الشخص يمكن التوصل الى تحديد بعض خصائص شخصيته • ويجب ملاحظة أن قليلا من الانثروبولوجيين الاجتماعيين يستخدمون الاختبارات النفسية ، ولكن يستخدمها بكثرة الانثروبولوجيون الثقافيون الذين يتخصصون في تحديد العلاقة بين الشخصية والحضارة في مجتمع ما •

و ـ طريقة المقارنة :

لا يقنع الانثروبولوجي الاجتماعي بوصف الحياة الاجتماعية في المجتمع موضوع الدراسة وانما يعمل على تحليل المعلومات الوصفية ليس فقط لتحديد انماط العلاقات الاجتماعية وانما لفهم البناء الاجتماعي ككل ويتم ذلك عن طريق الكشف عن الوظائف الاجتماعية التي تؤديها النظم الاجتماعية وكذلك الكشف عن التأثيرات المتبادلة بين النظم الاجتماعية ، ولا بد للوصول الى تلك الصورة الكلية سواء أكانت الدراسة ترمي لتحليل نظام اجتماعي واحد أم اكثر • وعلى الانثروبولوجي الاجتماعي بعد الكشف عن طبيعة البناء الاجتماعي والانساط الاجتماعية الاساسية ان يقارن تلك الظواهر الاجتماعية بشبيلتها في المجتمعات الاخرى ، ولا شك أن كل دراسة جديدة لمجتمع ما تساعد على توسيع مجال المقارنة • ويجب عند المقارنة استخدام الدراسات الميدانية التي يمكن الاعتماد عليها والثقة في موضوعيتها ، ونقصد بذلك الدراسات الميدانية التي يقوم بها

(١) ينسب ذلك الاختبار الى مخترعه العلامة السويسري هيرمان رورشاخ .

المتخصصون في الانثروبولوجيا بفروعها المختلفة ، اما الدراسات الوصفية التي يقوم بها الرحالة ورجال الصحافة وغير المتخصصين فهي لا تصلح للمقارنة .

لقد اشرت سابقا الى اتجاه بعض الانثروبولوجيين الاجتماعيين الى تركيز دراساتهم الميدانية في مجتمع واحد أو عدد قليل من المجتمعات ، ويعرف هذا الاتجاه « بتقليد مالينوفسكي » ويتلخص في التخصص في مجتمع واحد أو ثلاثة مجتمعات على الاكثر بحيث يقضي العالم حياته كلها في الكتابة عنهم وتحليل البناء الاجتماعي لكل منهم للوصول الى فهم عميق للانماط الاجتماعية التي يتكون منها البناء الاجتماعي . ويؤمن العلامة مالينوفسكي بأنه لا يمكن فهم الحياة الاجتماعية لاي شعب من الشعوب البدائية الا اذا درست دراسة عميقة مركزة ، وقد نادى بضرورة القيام بدراسة ميدانية مركزة واحدة على الاقل قبل التخصص في الانثروبولوجيا الاجتماعية ، ومعظم الجامعات في العالم قد استجابت للنداء وجعلت الدراسة الميدانية شرطا ضروريا للحصول على الدرجات الجامعية العالية في الانثروبولوجيا الاجتماعية . ولا شك ان اوضح مثال هو دراسات العلامة « مالينوفسكي » ذاته ، فقد استغرقت دراسته الميدانية لقبائل « التروبرياندر » بمنطقة ميلانيزيا مدة أربع سنوات وكان أول من استخدام لغة الاهالي في جمع المعلومات ، وقد اتاحت له هذه المدة الطويلة فرصة التعمق والتغلغل في الحياة الاجتماعية عند تلك القبائل ووضع عنها عدة من مؤلفات تدور كلها حول حياتهم أو الاجتماعية . ولا شك ان « تقليد مالينوفسكي » يتعارض بعض الشيء مع اتجاه اجراء المقارنات بين الابنية الاجتماعية للمجتمعات المختلفة لانه يركز اهتمام العالم بمجتمع معين بحيث يستنفد هذا التركيز كل مجهودات العالم ، هذا اضافة الى أنه يؤدي الى قلة عدد الدراسات مما يعرقل المقارنات ، وقد لاحظ العلامة « بريتشارد » تلك المشكلة ونادى بتطبيق نوع من المقارنة اطلق عليه اصطلاح « المنهج التجريبي » ، ويتلخص في أن يقوم كل انثروبولوجي اجتماعي باستنباط عدة من نتائج دراسته العميقة لمجتمع واحد ، ثم يقوم الباحث نفسه أو باحث آخر بالتحقق من صحة تلك النتائج وواقعيتها ومطابقتها بالنسبة لمجتمعات اخرى ، وهكذا تتسع دائرة فحص تلك النتائج تدريجيا ، وهي في الحقيقة لا تخرج عن كونها

فروضا ، وتصبح تلك الفروض في النهاية قوانين أو مبادىء عامة . ومن العلماء الذين طبقوا هذه الطريقة العلامة « شنيدر » عندما فحص النتائج التي توصل اليها العلامة « بريتشارد » في دراسته لقبائل « النوير » عن طريق تطبيقها على قبائل « الزولو » ، وهناك مثل آخر يتمثل في دراسة العلامة « نادل » الذي فحص ظاهرة السحر في أربعة مجتمعات افريقية . ويرى العلامة « شابيرا » انه يمكن المقارنة بين المجتمعات المتقاربة مكانيا ثم تتسع المقارنة تدريجيا .

ويجب ملاحظة الفرق الكبير بين طريقة المقارنة المبينة فيما سبق وطريقة المقارنة التي استخدمها علماء القرن التاسع عشر ، ان طريقة المقارنة المقصودة هنا تعتمد على دراسات ميدانية موضوعية قام بها متخصصون وبالتالي تؤدي الى مبادىء عامة وقوانين اجتماعية ، أما المقارنة التي طبقها علماء القرن التاسع عشر فكانت تعتمد على أقوال الرحالة وغير المتخصصين وتتسم بالموضوعية ولذلك لم يترتب عليها سوى التأملات والتخمينات التي ثبت عدم واقعيتها . وكثيرا ما تحتاج المقارنات التحليلية الى الاستخدام المناهج الاحصائية واستخدام العينات وقد لاحظنا ذلك في دراسات العلامة « ميردوك » .

ثانيا ـ اهداف الانثروبولوجيا الاجتماعية :

تهدف العلوم سواء أكانت طبيعية أم اجتماعية الى الكشف عن القوانين عن طريق استخدام المنهج العلمي . ولا شك ان الانثروبولوجيا الاجتماعية لا تختلف في ذلك عن العلوم الاخرى ، ولكن القوانين التي توصلت اليها ليست بكثرة القوانين الطبيعية ويمكن عدها قليلة العدد بالنسبة لقوانين العلوم الاخرى . ويرجع السبب في ذلك الى عدم وجود الدراسات المقارنة الشاملة لجميع المجتمعات الانسانية ومما يعوق القيام بتلك المقارنات عدم وجود العدد الكافي من الدراسات الميدانية التي يمكن الاعتماد عليها . ولذلك لم تصل الانثروبولوجيا الاجتماعية الا الى قوانين محددة النطاق أي لا تطبق على المجتمعات الانسانية في كل مكان وزمان وانما على عدد محدود من المجتمعات . ونلاحظ أن الوصول للقوانين الاجتماعية هو الهدف النهائي البعيد للدراسات الانثروبولوجية الاجتماعية ، وللوصول لذلك

الهدف البعيد لابد من تحقيق أهداف قريبة يمكن عدها الوسائل الموصلة للهدف النهائي ، هـذه الاهداف القريبـة هي الشـغل الشاغل اليـوم للانثروبولوجيين الاجتماعيين ، وتدور حول الاهداف القريبـة الغالبية العظمى من الدراسـات ويمكن تلخيص تلك الاهداف القريبة فيما يأتي :

أ ـ تحديد نماذج وانماط عالمية للابنية الاجتماعية :

ان التوصل لنوع من التصنيفات والنماذج للابنية الاجتماعية يعد أمرا صعبا نظرا لعدم اتفاق العلماء مـن ناحية ولعدم وجـود مصطلحات عالميـة لمفاهيـم الانثروبولوجيا الاجتماعية من ناحية أخرى ، هذا اضافة الى المشـكلة الاساسية التي تتمثل في عدم وجود الدراسات الميدانية الشاملة لجميع المجتمعات الانسانية، ويحاول الكثير من العلماء الوصول الى ذلك الهدف ولقد انفق العلامة « راد كليف براون » ثلاثين عاما في الدراسة للوصول لبعض النماذج العامة للابنية الاجتماعية ، وعن طريق جهوده وجهود العلماء الاخرين اصبح هناك اتفاق شبه عام لبعض نماذج اساسية للبناء الاجتماعي مثل المعشر والعشيرة والقبيلة والدولة والامـة والمجتمع المحلي ومـا الى ذلك ، واسـتطاع العلماء تحديـد الاشـكال الاسريـة الرئيسة في المجتمعات الانسانية ، وهذه خطوة هامة نحو الوصول الى القوانين الاجتماعية التي يترتب عليها ذلك التنوع الملحوظ في الابنية الاجتماعية المختلفة .

ب ـ تحديد مظاهر التداخل والترابط بين النظم الاجتماعية :

تبين لنا من المبحث السابق أهمية المنهج الكلي في دراسات الانثروبولوجيا الاجتماعية ويؤدي استخدام ذلك المنهج الى تحقيـق ذلك الهدف الذي يتمثل في تحديد التأثير المتبادل بين النظم الاجتماعية التي تدخل في نطاق البناء الاجتماعي الواحد . ويهتم العلماء اليوم بذلك الهدف بحيث لا يوافقون على اقتصار الدراسة الانثروبولوجية الاجتماعية على الجانب الوصفي فقط وانما لابد من التحليل للكشف عن الوظائف الاجتماعية للنظم الاجتماعية عن طريق تحديد التأثير المتبادل فيما بينها، وقد عرضت لكثير من الامثلة لذلك الموضوع . ويطلق العلامة « رادكليف براون» على الدراسة التي ترمي لتحقيق ذلك الهدف اصطلاح « الدراسة الفسيولوجية » تميزا لها عن الدراسات الخاصة بالهدف السـابق والتي اطلق عليهـا اصطـلاح

« الدراسات المورفولوجية » ويعترف بأنه يستخدم التشبيه بين الكائن الحي والمجتمع ، وهو التشبيه الذي استخدمه فلاسفة القرون الوسطى ، ولكنه يستخدمه لان مثل ذلك التشبيه يساعد التفكير العلمي اذا طبق بحذر ودقة ، والمقصود من ذلك التشبيه توضيح التكامل والتداخل والتساند الوظيفي بين النظم الاجتماعية عن طريق تشبيه بالتكامل بين وظائف اعضاء الجسم الحي .

كذلك تهدف الدراسات الانثروبولوجية الاجتماعية الى تحديد خصائص التغير الاجتماعي وعملياته التي تحدث في الابنية الاجتماعية سواء ذات المعدل السريع أو المعدل المتوسط أو المعدل البطي .. ويلاحظ العلامة « براون » أن الدراسات الخاصة بذلك الهدف اهتمت بدراسة أثر الحروب الاستعمارية هي النظام القبلي في افريقيا واسيا واستراليا والامريكيتين ، ولكن التغير الاجتماعي عملية متعددة الجوانب ومختلفة العوامل . ولذلك هي اعمق من دراستها في صورة الجمع بين عناصر ثقافتين مختلفتين كما حدث في الدراسات سابقة الذكر . ان عملية التطور أو التغير تستلزم ظهور أشكال جديدة للانماط والابنية وتستلزم أيضا الانتقال من الاشكال البسيطة الى الاشكال المركبة . ولذلك لابد للدراسات الانثروبولوجية ان تحدد عمليات التغير الاجتماعي عن طريق الكشف عن الانماط والابنية الاجتماعية الجديدة وكذلك تحديد تطور الظواهر الاجتماعية البسيطة الى ظواهر اجتماعية مركبة ، ويتطلب ذلك الاهتمام بالدراسة المركزة العميقة .

وخلاصة القول ان الهدف الرئيس العام للانثروبولوجيا الاجتماعية يتمثل في الكشف عن القوانين الاجتماعية ، وللوصول لذلك الهدف العام والنهائي لا بد من تحقيق بعض الاهداف القريبة والتي يجب ان تدور حولها الدراسات الميدانية الحالية وهي تحديد نماذج أو أنماط عالمية (أي متفق عليها من معظم العلماء) للابنية الاجتماعية وكذلك تحديد مظاهر التكامل والترابط بين النظم الاجتماعية وفي النهاية تحديد عمليات التغير الاجتماعي . ولاشك أن تحقيق تلك الاهداف القريبة سيوصلنا قريبا الى عدد كبير من القوانين الاجتماعية ، ويجب الاشارة الى نجاح ذلك العلم في الوصول الى مجموعة لا بأس فيها من القوانين العامة يمكن التعرف عليها من خلال المباحث السابقة .

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المبحث الثالث

في الموضوع والمضمون

اولا ـ البنـاء الاجتماعي(١)

يختلف الاثروبولوجيون في تعريف اصطـلاح « البنـاء الاجتماعـي » فاذا بحثنا في قواميس الاثروبولوجيا نجد التعريف التالي :

« البناء الاجتماعي نسيج يتكون من العلاقات التي تربط بين اعضاء مجتمع ما ، وفي راي آخر يتكون ذلك النسيج من العلاقات التي تربط بين الجماعات الاساسية في مجتمع ما » .

واذا رجعنا الى المؤلفات التي تعالج موضوعات الاثروبولوجيـا الاجتماعية نجد تعريفات تقترب من التعريف السابق.

يقول العلامة « كيسينج » :

« يقصد بالبناء الاجتماعي النظم الاجتماعية التي عن طريقها تصل مجموعة من السكان الى حالة التكامل والترابط ، وهي الحالة اللازمة لتكوين المجتمع » .

ولكن يرفض العلامة (ايفانز بريتشارد) التعريف السـابق وينادي في بعض مؤلفاتـه بأن :

« البناء الاجتماعي هـو الجماعات الاجتماعية المستمرة في الوجود لوقت كاف بحيث تستطيع الاحتفاظ بكيانها كجماعات رغم التغيرات التي تحدث للافراد الذين يكونون تلك الجماعات » .

---

(١) د. عاطف وصفي ، الاثروبولوجيا الاجتماعية .

يتبين مما سبق أنه بينما يحدد العلامة (كيسنج) مجال البناء الاجتماعي بالنظ الاجتماعية في مجتمع ما ، يهتم العلامة (ايفانز بريتشارد) بالجانب المورفولوج للمجتمع فيحدد البناء الاجتماعي بالجماعات التي يتكون منها المجتمع وبالعلاقا الاجتماعية بين تلك الجماعات ، ومن الملاحظ ان قاموس الانثروبولوجيا قسد أشا الى التعريفين السابقين .

بحث الانثروبولوجي الاجتماعي الشهير (رادكليف براون) موضوع تعريف البناء الاجتماعي ، واعتقد ان التعريف الذي وضعه لذلك الاصطلاح يتفق مع هدف الميدان الذي يتمثل في اعطاء صورة شاملة مبسطة لمبادىء الانثروبولوجيا الاجتماعية ، فقد قدم (رادكليف براون) تعريفا عاما يجمع التعريفات السابقة ، ويتلخص رأيه في أن البناء الاجتماعي يشتمل على ثلاث مجموعات من الظواهر الاجتماعية وهي :

- **الجماعات الاجتماعية** المستمرة في الوجود لفترة كافية من الزمن وتعرف هذه بالاشكال المورفولوجية للمجتمع الانساني وهي أشكال تكتل الانسان في وحدات اجتماعية مختلفة في الحجم والوظيفة .

- **كل العلاقات الاجتماعية** بين فرد وفرد من اعضاء مجتمع معين ، فمثلا نظام القرابة لاي مجتمع يتكون من عدد من العلاقات الثنائية مثل بين الاب والابن أو بين شقيق الام وابن أخته ويعد نظام القرابة أهم النظم الاجتماعية في المجتمعات شبه البدائية . ففي معظم قبائل السكان الاصليين باستراليا يقوم البناء الاجتماعي كله على أساس شبكة العلاقات القرابية التي تحدد كل العلاقات الاجتماعية في المجتمع ، وهكذا يحدد المجموعة الثانية من الظواهر الاجتماعية المكونة للبناء الاجتماعي بأنها النظم الاجتماعية الموجودة في مجتمع معين .

- **ظواهر التنوع بين أفراد وجماعات ما** وتحدد تلك الظواهر الادوار

الاجتماعية التي يقوم بها الافراد والجماعات في المجتمع الواحد ، وتنتمي كل مجموعة من الادوار الاجتماعية الى مراكز اجتماعية يحددها المجتمع ويشغلها الافراد والجماعات حسب شروط معينة ، فمثلا تتفق المجتمعات الانسانية على تمييز المراكز الاجتماعية التي يشغلها الرجال عن تلك التي تشغلها النساء وكذلك الحال بالنسبة للشيوخ والشبان والاطفال.

وقبل تطبيق مفهوم البناء الاجتماعي وهو الموضوع الرئيس للانثروبولوجيا الاجتماعية على بعض المجتمعات شبه البدائية اعرض باختصار أهم خصائص البناء الاجتماعي وهي :

أ ـ البناء الاجتماعي يتكون من انماط العلاقات الاجتماعية :

عندما ندرس البناء الاجتماعي في مجتمع معين نقوم بملاحظة العلاقات الاجتماعية في صورتها الواقعية المحسوسة المحددة بمكان وزمان معينين . وتحدث تلك الحالات الفردية للعلاقات الاجتماعية بين فردين على الاقل أي قد تجمع عددا كبيرا من الافراد ، ولا توجد العلاقات الاجتماعية الا عندما يوجد بعض التوافق بين مصالح الافراد او يوجد تعارض في تلك المصالح أو عندما توجد محاولات للحد من الصراع الذي قد ينشأ من تعارض المصالح ، والمقصود بالمصلحة هنا المفهوم الواسع لذلك الاصطلاح وليس المفهوم الضيق الذي يستخدمه علماء الاقتصاد ، وقد حدد العلامة (رادكليف ـ براون) المفهوم الشامل بأنه « كل سلوك هادف » ، فعلى الانثروبولوجي الاجتماعي اذن أن يلاحظ عددا ضخما من العلاقات الاجتماعية الواقعية في مجتمع ما ، ولكن هل يستطيع ذلك بمفرده ؟ الواقع انه يستطيع ذلك اذا تحققت عدة من الشروط ، منها صغر حجم المجتمع الذي يلاحظه ولهذا اضطر الانثروبولوجيون الاجتماعيون الى تركيز دراساتهم حول المجتمعات شبه البدائية نظرا لصغر حجمها ، ومن تلك الشروط أيضا ان يمكث الباحث في ميدان دراسته فترة طويلة حتى يستطيع ملاحظة أكبر عدد ممكن من العلاقات الاجتماعية الواقعية وكذلك قد تطول تلك الفترة الى عدة من السنوات ، وترتب على ذلك أيضا ضرورة إتقان اللغة التي يستخدمها أفراد المجتمع موضوع

البحث ، ان جهل الانثروبولوجي بلغة المجتمع الذي يدرسه سيجعله يفقد حتما تسجيل الصورة الواقعية للعلاقات الاجتماعية ، وكثيرا ما يؤدي الاعتماد على المترجمين الى تضليل الباحث وبالتالي الى إلغاء صفة الموضوعية والواقعية من دراسته .

يتضح مما سبق أن البناء الاجتماعي لا يمكن ملاحظته مباشرة الا في صورة علاقات اجتماعية محسوسة بين أفراد أو جماعات مجتمع معين ، ويجب الا يفهم من ذلك ان عمل الانثروبولوجي الاجتماعي هو تسجيل ذلك العدد اللا نهائي من العلاقات الواقعية التي تحدث كل لحظة في المجتمع ، وانما عليه ان يقوم بتنظيم تلك الحالات الفردية وتصنيفها في مجموعات متشابهة في الموضوع والوظيفة والشكل ، وكل مجموعة تمثل نمطا عاما متكررا في الحالات الفردية فمثلا عليه ان يلاحظ تكرار العلاقة الاجتماعية التي تحدث بين أعضاء مجتمع جزر أندامان في صورة البكاء المطقوسي الذي قد يطول او يقصر عندما يقابل واحد منهم صديقا له طال غيابه ، ولا شك ان الحالات الفردية لتلك الظاهرة الاجتماعية تختلف في بعض خواصها مثل فترة البكاء والاشخاص الذين يؤدون تلك الحركات والعلاقات القرابية او غير القرابية التي تربط بين هؤلاء الاشخاص ، والوقت الذي تحدث فيه وكذلك المركز الاجتماعي الذي يحتله هؤلاء الاشخاص ، ويجب على الباحث ان يلاحظ اتفاق تلك الحالات الفردية للعلاقات الاجتماعية في الموضوع وهي تلاقي صديقين أو قريبين بعد فترة من الغياب ، وكذلك تتفق ايضا في الشكل أو الصورة وتتمثل في الجلوس القرفصاء والبكاء بصورة منتظمة ، وتتفق كذلك في الوظيفة الاجتماعية وهي إظهار درجة التماسك الاجتماعي وتقويتها بين اعضاء مجتمع معين ، اننا نطلق على تلك المجموعات المتشابهة من العلاقات الاجتماعية الواقعة اصطلاح أنماط تمييزا لها عن صورها الواقعية ، إن الهدف الاساسي للانثروبولوجي الاجتماعي من ملاحظته المباشرة للعلاقات الاجتماعية الواقعية هو الوصول الى أنماط تلك العلاقات ، ومن تلك الانماط يتكون البناء الاجتماعي ، وخلاصة القول انه بينما تتكون المادة الاولية للبناء الاجتماعي من العلاقات الاجتماعية الواقعية المجسدة فان البناء الاجتماعي ذاته يتكون من أنماط تتبلور حولها العلاقات

الاجتماعية الواقعية ، ووظيفة الانثروبولوجي الاجتماعي هي الكشف عن الأنماط .

ب ـ البناء الاجتماعي كل أو نسيج متشابك الاجزاء :

تبين مما سبق ان البناء الاجتماعي يتكون من انماط العلاقات الاجتماعية ، ولقد صنفت تلك الانماط في ثلاثة اقسام لتسهيل عملية الدراسة وقد لخصنا تلك الاقسام الثلاثة في التجمعات أو الجماعات التي يتكون منها المجتمع موضوع البحث والنظم الاجتماعية التي تمثل الجهاز الذي عن طريقه يستمر البناء الاجتماعي ويبقى على مر الزمن والمراكز الاجتماعية التي يحتلها الافراد والجماعات والادوار الاجتماعية التي يقوم بها الافراد والجماعات من خلال المراكز الاجتماعية . يقوم الانثروبولوجي الاجتماعي بدراسة هذه الاقسام وما ينطوي تحتها من أقسام فرعية مستخدما في ذلك « المنهج الكلي » أي تشمل دراسته كل أجزاء البناء الاجتماعي، وتعد هذه الطريقة من أهم خصائص الانثروبولوجيا الاجتماعية التي تميزها عن غيرها من العلوم الاجتماعية . والحقيقة أن الانثروبولوجي الاجتماعي مضطر لتطبيق هذا المنهج حتى تصبح دراسته موضوعية وواقعية ، ففي الواقع الاجتماعي تتفاعل جميع أجزاء البناء الاجتماعي وعناصره ككل ، وتتصهر في ذلك الكل كل التقسيمات التي وضعناها لتسهيل دراستها ، ولذلك من أهم اعمال الانثروبولوجي الاجتماعي الكشف عن العلاقات المباشرة وغير المباشرة التي توجد بين عناصر البناء الاجتماعي وأجزائه ، والتي توجد بين كل عنصر (كل نمط للعلاقات الاجتماعية) والبناء الاجتماعي ذاته ، ولا شك أن هذا الموضوع هو أصعب جانب في عمله ، فان وصف انماط العلاقات الاجتماعية وتحديد أجزاء البناء الاجتماعي في مجتمع ما يعد سهلا اذا قورن بعملية تحليل تفاعل تلك الأجزاء وتكاملها بصورة موضوعية دقيقة ، وتعد تلك التفرقة بين الوصف والتحليل احدى المميزات التي تميز دراسات الانثروبولوجيا الاجتماعية عن دراسات الاثنوجرافيا التي تقتصر في الغالب على وصف عناصر البناء الاجتماعي . ان التركيز على ضرورة دراسة التأثير المتبادل بين أجزاء البناء الاجتماعي تميز الانثروبولوجيا الاجتماعية عن العلوم الاجتماعية التخصصية مثل الاقتصاد والسياسة واللغويات والاخلاق وعلم الاجتماع بفروعه المتعددة ، تقوم تلك العلوم على مبدأ التخصص والتركيز على دراسة نظام اجتماعي

معين مستخدمة في ذلك الطرائق الاحصائية الحديثة لتحديد العلاقات الممكنة بين عناصره دون الاهتمام بالنظم الاجتماعية الاخرى أو بالبناء الاجتماعي ككل وحجتهم في ذلك أن التخصص يؤدي الى الكشف عن أعماق الظاهرة الاجتماعية ، وقد يكون هذا التبرير صحيحا بالنسبة للمجتمعات المتقدمة كبيرة الحجم والمعقدة في نظمها الاجتماعية ، ولكنه غير صحيح في حالة المجتمعات شبه البدائية والريفية التي تتميز بصغر الحجم وتماسك البناء الاجتماعي في وحدة تكاملية لا يمكن دراسة أي جزء منه بمعزل عن الأجزاء الاخرى . ولا يفهم من ذلك أن الوحدة التكاملية في البناء الاجتماعي لا توجد سوى في المجتمعات شبه البدائية والريفية، لان البناء الاجتماعي كل أو نسيج متشابك الأجزاء بالنسبة لكل المجتمعات ، وانما يحتم تعقيد النظم الاجتماعية في المجتمعات المتقدمة الى التخصص الدقيق عند دراسة تلك النظم ، بينما لا يوجد مثل ذلك التعقيد في المجتمعات شبه البدائية .

وقد يكون التأثير المتبادل بين عناصر البناء الاجتماعي ليس واضحا ومن أمثلة ذلك التأثير المتبادل بين اللغة وباقي نظم البناء الاجتماعي ، فاذا درسنا لغة مجتمع ما من حيث الصوت والتركيب والمفردات فاننا لا نجد علاقة واضحة بين اللغة والبناء الاجتماعي ، وكثيرا ما نجد مجتمعين متشابهين في البناء الاجتماعي ولكنهما مختلفين في اللغة والعكس بالعكس . ولكنا اذا انتقلنا الى دراسة اللغة من حيث انتشارها وتطورها وانقسامها أو انقراضها عبر السنين فاننا نجد أثر البناء الاجتماعي واضحا ، فمثلا انتشار اللغة اللاتينية — التي كانت مقصورة على اقليم صغير يدعى « لاتيوم » في أجزاء واسعة من أوربا واحتلالها مناطق لغات ايطالية اخرى (مثل اتروسكان) ولغات كلتية كثيرة ، ثم حدثت عملية عكسية عندما انقسمت اللغة اللاتينية الى لهجات متعددة تحولت في النهاية الى لغات متميزة لا يمكن فهم هذه الظواهر اللغوية دون الرجوع الى نظم البناء الاجتماعي الاخرى من نظم اقتصادية وسياسية وعسكرية ودينية . واذا تركنا نظام اللغة وانتقلنا الى النظام الاقتصادي فان التأثير يكون أكثر وضوحا ، ورغم ذلك قد يهمله علماء الاقتصاد : فمثلا لا يهتم عالم الاقتصاد بنظام « البوتلاتش » الذي انتشر بين قبائل الهنود الحمر في شمال غرب امريكا ويتلخص هذا النظام في تبادل الهدايا بين

تلك القبائل بصورة موسمية ووفقا لطقوس معينة ، ان عدم اهتمام عالم الاقتصاد بذلك النظام يرجع الى عدم اتساقه مع نظريات القيمة والعرض والطلب ، ولكن بالنسبة للانثروبولوجي الاجتماعي يعد هذا النظام الجهاز الأساسي الذي عن طريقه يستمر وجود البناء الاجتماعي لتلك القبائل لأنه يؤدي الى تماون تلك القبائل وتماسكها .

وقد يظن بعضهم ان التأثير القوي للدين في البناء الاجتماعي يكون واضحا فقط في المجتمعات شبه البدائية ، ولكن يكشف لنا الواقع الاجتماعي ان مثل هذا التأثير القوي قد يوجد في المجتمعات المتقدمة المعقدة ، فمثلا نجد في مجتمعنا العربي علاقات وثيقة بين الدين وباقي عناصر البناء الاجتماعي ، فالدين مثلا ينظم العلاقات العائلية من زواج وطلاق وتربية الأطفال وعلاقة الزوج بالزوجة ونظام الميراث ، ونلاحظ كذلك ان الكثير من المثل العليا العربية من كرم وشجاعة واحترام الوالدين وكبار السن وفضيلة التدين وعفة الفتاة ما هي الا فضائل اوصى بها الاسلام ، واذا نظرنا الى العادات اليومية نجد اثر الدين واضحا ولا أدل على ذلك من كثرة ترديد اسم الجلالة في المحادثات اليومية ، كما يؤثر الدين في حياتنا الاقتصادية وفي عادات المأكل والملبس ، ومن أمثلة ذلك النقاش بين رجال الدين حول شرعية نظام التأمين والقوانين التي تمنع تعاطي المخدرات وغير ذلك . ولا يمكن إغفال أثر الدين في ظهور التطبيق العربي للنظام الاشتراكي في كثير من المجتمعات العربية ، واذا بحثنا في نظام الخلافة يتضح لنا التأثير القوي للدين في النظام السياسي .

وخلاصة القول إن البناء الاجتماعي هو نسيج يتكون من أجزاء متشابكة متداخلة وليس من عناصر منعزلة مستقلة ومن أهم أهداف الانثروبولوجي الاجتماعي تحديد التأثير المتبادل بين عناصر البناء الاجتماعي .

جـ ـ البناء الاجتماعي مستقر ومستمر ولكنه ليس جامدا وليس خالدا :

من أهم الشروط التي يجب توافرها حتى يستطيع بناء اجتماعي معين ان

يقوم بوظيفته الاجتماعية الاساسية ، الا وهي الحفاظ على تماسك المجتمع وكيانه كمجتمع متميز ، شرط تواجد المجتمع لفترة طويلة من الزمن تكفي لظهور البناء الاجتماعي أولا ثم لاستمراره ثانيا ، ولذلك يتميز المجتمع عادة بالاستمرار لفترات طويلة من الزمن بعكس ما يحدث للأفراد الذين يكونونه ، وترتب على ذلك ان يتميز البناء الاجتماعي عادة بخاصية الاستقرار والاستمرار لفترات السنين ، ولكن قد يحدث أن تتعطل أجهزة البناء الاجتماعي بحيث لا تستطيع بعض نظمه الاجتماعية تأدية وظائفها في اوقات الحروب والثورات ، ولكن سرعان ما يعود الاستقرار وبالتالي يستمر البناء الاجتماعي ويبقى . لا يقصد باستمرار البناء الاجتماعي واستقراره لفترة طويلة القول إنه جامد (ستاتيكي) مثل مبنى المنزل أو مبنى المدرسة ، وانما المقصود بذلك استمرار متغير (ديناميي) مثل استمرار البناء العضوي للجسم الحي ، فمن الملاحظ ان خلايا الجسم الحي تتجدد باستمرار ، وبالنسبة للبناء الاجتماعي يحدث تجديد مشابه في اعضائه ، فكل يوم يدخل فيه اعضاء جدد عن طريق الولادة واحيانا عن طريق الهجرة ايضا ، وفي كل يوم كذلك يخرج من نطاقه بعض اعضائه عن طريق الوفاة واحيانا عن طريق الهجرة . وتوجد مظاهر اخرى للتغير في البناء الاجتماعي اهمها التغير في العلاقات الاجتماعية من يوم لآخر نظرا لتغير الافراد وتغير الزمان والمكان ، وتختلف سرعة هذا التغير ، وقد نوحظ ان تغير البناء الاجتماعي يكون بطيئا جدا في المجتمعات شبه البدائية ، مما ادى الى أن يطلق عليها بعضهم اصطلاح المجتمعات الجامدة ، وعلى النقيض تتميز المجتمعات الصناعية المتقدمة بسرعة التغير ، اما المجتمعات النامية فتتغير بمعدل متوسط . وقد يحدث أن يتعرض البناء الاجتماعي لمؤثرات مفاجئة او قوية ، قد تكون من داخل المجتمع او من خارجه يترتب عليها حدوث تغيرات سريعة في بعض أجزاء البناء الاجتماعية .

وكذلك قد يتعرض البناء الاجتماعي الى ضغوط خارجية تعمل على القضاء عليه وانقراضه ، ويتحقق ذلك عن طريق القضاء على المجتمع بقتل اعضائه او تشتيتهم ، وذلك لأنه لا يمكن أن يوجد البناء الاجتماعي دون مجتمع يعمل من خلاله ولا يمكن ان يوجد المجتمع دون عدد من الأفراد يكونونه ، ويقدم لنا

التاريخ بعض الامثلة فقد انقرضت اعداد كبيرة من المجتمعات شبه البدائية وبخاصة في الامريكتين واستراليا ، وقد قضي على بعضها بصورة مقصودة عن طريق الحروب .

ثانيا ـ الاسرة ومؤسسة الزواج(٢) :

وجدت المجتمعات الانسانية بوجود العائلة . ولكن هذه العائلة لم تكن على صورة واحدة منذ تكونت ، وانما تغيرت وتطورت بتغير وتطور المجتمعات الانسانية ، وكذلك فان الزواج الذي به يبدأ تكوين العائلة قد تطور تبعا لتطور المجتمعات ، وعرفت الشعوب أنواعا مختلفة من الوصال تبعا للزمان والمكان ، كما عرفت أنواعا من القواعد الخلقية والقانونية التي أقامتها المجتمعات المختلفة حول علاقات الزواج والأسرة والأنظمة التي تحكم روابطها ، بحيث كانت مجالا خصبا للدراسة الجادة والطريفة .

إن بدء هذه الدراسات الجادة كان في القرن التاسع عشر على يد عدد من العلماء المتطورين الذين أولوا اهتماما بالغا موضوع علم اجتماع العائلة ، وقد عكف عدد منهم على التأمل وصياغة نظريات واجراء دراسات ميدانية ، لتعزيز آرائهم بما تكون معهم من مجموع هذه الدراسات من أفكار جديدة عن تكوين الاسرة وتاريخها ، فنسفوا كثيرا من المعتقدات السابقة . وكان من أبرز العلماء المتطورين الذين تصدوا لهذا الموضوع وأشبعوه استقصاء وبحثا محام سويسري يدعى (باخوفن) وهو من أهم علماء القرن التاسع عشر الذين حاولوا القاء بعض الضوء على دور المرأة في الحضارة والمركز الاجتماعي الذي كانت المرأة تحتله في المجتمعات القديمة والبطائية . وقد قام بدراسة لتركيب العائلة معتمدا على افتراضات أساسية ضمنها كتابه الشهير المسمى (حق الأم) والذي عد بحق بداية رائدة في تاريخ اجتماع العائلة في عام (١٨٦١) . وهذا العنوان للكتاب يشير

---

(٢) عبد الهادي عباس ، المرأة والاسرة في حضارات الشعوب وانظمتها ، الجزء الاول ، دار طلاس ، دمشق ، ص ١٣٤ ـ ١٦٤ .

بشكل صريح الى المكانة التي كانت تحتلها المرأة والى ما كانت تتمتع به من قوة سياسية وقانونية وسلطة في المجتمع ، ولم يعتمد (باخوفن) في كتابه على المعلومات التي كانت بدأت ترد بكثرة عن المجتمعات البدائية أو على التفكير النظري البحت ، وانما كان يعتمد في المحل الأول على معرفته بأساطير الشعوب القديمة ولغاتها ، وكتابه مليء بالاستشهاد بها ، هذا الكتاب الاول من نوعه يبين بطريقة منهجية اهمية النظام المعروف بنظام الانحدار ، من الأم والانتساب اليها وهو يذهب الى القول ان الانتماء الى الأم كان أسبق في الظهور من نظام الانتماء الى الأب ، ويرى انه ليس فقط المعلومات الكلاسيكية المتعلقة بالميثولوجيا تؤيد ذلك بل ان طبيعة الاشياء تحتم ذلك النظام ، فالقانون الطبيعي يقضي بأهمية الأم بينما لم تظهر سيطرة الأب وحقوقه الا بعد ذلك النظام بوقت طويل ، ذلك أن الانسانية تحتاج في بدايتها الأولى المبكرة الى كثير من الرعاية والعناية ، وهو مايمكن للمرأة توفيره من دون الرجل ، كما أن المرأة بطبيعتها أقدر من الرجل على توفير السلام وتحقيق المحبة وبذر بذور الخير ، والمعلومات عن المجتمعات القديمة تؤكد ذلك ، فالحضارة الهلينية كانت تمنح المرأة مكانة مرموقة ، وذكر (هيرودت) أن الليقيين كانوا يتبعون نظام الانتساب للأم ويحملون أسماء أمهاتهم ، وكانت الأم تتولى شؤون البيت والدولة على السواء ، وفي أساطير القديمة تعكس النظام الأمومي الذي كان سائدا في الأحقاب السحيقة كأسطورة (ايزيس) وفكرة (الأم الأرض) التي منها خرجنا ، وأول مظهر للعبادة كان دائما عبادة الآلهة الأنثى ، ويرى أن (حق الأم) وسيطرتها ومركزها العالي الممتاز لم يكن هو المرحلة الأولى وانما سبقتها مرحلة أخرى هي مرحلة التحرر الجنسي المطلق ، الا أن هذا التحرر أو الاباحية لم يظهر في رأيه نتيجة لاغراق الناس في الشهوات والملذات والانقياد لأهوائهم وانما هو عنده مجرد فكرة منهجية تعتمد على الرأي القائل : (المرأة لم تخلق في الأصل لكي تعد قسما بين ذراعي رجل واحد) ، وانتقل (باخوفن) من ذلك الى القول ان ملكية الرجال الواحد لامرأة معينة كانت تعد خروجا على ارادة الآلهة ، وقد ثارت النساء في مرحلة تالية من تطور المجتمع على ذلك الوضع المهين ، وكانت هذه الثورة بداية ايذان بظهور الزواج كنظام اجتماعي ينظم العلاقات الجنسية بين الرجل

والمرأة . وكان من الطبيعي أن تتمسك المرأة الثائرة على الأوضاع بالسلطة والسيطرة ، وظهر بذلك (حق الأم) ، وكرست المرأة المسيطرة نفسها للأغراض السليمة فاخترعت الزراعة . ومع ذلك فلم يكن المجتمع يرضى في بداية الأمر عن هذا الوضع ، وكان ينظر الى الزواج على أنه ثورة على القانون الطبيعي ، وخروج على ارادة الآلهة . وبذلك كانت المجتمعات المبكرة وبعض المجتمعات البدائية الحالية ، تتيح للمرأة في مواسم معينة أن تتصل جنسيا بأي رجل تشاء فيما يعرف باسم (الزنى الموسمي) الذي يعد تكفيرا من المجتمع القديم المبكر والمجتمع البدائي عن (جريمة الزواج) ومع ذلك سار النظام في طريق التطور وترتب على ذلك ظهور أشكال جديدة مختلفة هي الاصل فيما نراه الآن من اختلاف في نظام القرابة والزواج والعائلة ، ذلك أن المرأة فقدت سلطانها وسيطرتها في بعض المجتمعات فيما يتعلق بشؤون العائلة ، بينما فقدت مكانتها السياسية فقط في المجتمعات الأخرى ، وأدى ذلك على العموم الى ظهور الانتساب الى الأب والاعتراف بالقرابة في خط الذكور أو سيطرة الرجل في شؤون السياسة والاقتصاد[٣] .

ويقول (باخوفن) في مقدمة كتابه (يرتبط تطور الجنس البشري وتقدم الاخلاق ارتباطا وثيقا بحكم المرأة ، كما يرتبط به أيضا تنظيم الشعور الديني وتربيته وتهذيبه . وبالمثل يجب أن نرد الى نظام سلطة الأم وسيادة المرأة كل مفاهيم الحياة العليا الراقية . وهي تملك درجة أكمل من القدرة الطبيعية على الارتقاء ، وأن ظهور القانون الاخلاقي بأكمله يعد مرحلة البربرية يرجع في المحل الاول الى المرأة وحدها ، واسهام المرأة في المجتمع لايقتصر على قوة اعطاء الحياة فقط بل في قدرتها على اضفاء الجمال على هذه الحياة ، فهي مصدر الحضارة وضمان استمرارها . فضلا عن كونه مرحلة تدريبية ضرورية في تاريخ الانسان . ومن هنا كان حكم النساء في ذاته تحقيقا للقانون الطبيعي الذي يجب أن تراعي أحكامه الشعوب والافراد على السواء .

---

(٣) د. احمد ابو زيد ، البناء الاجتماعي ، الجزء الثاني ، ص ٢٨٠ — ٢٨٢ .

وقد عارض آراء (باخوفن) كثير من العلماء وظهرت نظريات تنادي بأن (حق الأب) هو الشكل الطبيعي أو الأول للعائلة ، وأن حكم النساء لم يظهر الا في نطاق ضيق وبصورة شاذة ، وفي العام نفسه الذي ظهر فيه (حق الأم) لشخص عمل علمي آخر كان يؤيد رأيا معارضا وهو أن المجتمع الأبوي كان هو الحالة البدائية للجنس البشري ، وقد حاول (هنري سومزمين) في كتابه (القانون القديم) أن يثبت باستعماله اسلوب التشريع المقارن أن جميع المجموعات البشرية كانت أصلا منظمة على غرار النموذج الأبوي وكان برهان (مين) يعتمد على معلومات موجودة في الكتاب المقدس ، وبخاصة اسفار التكوين الأولى ، وعلى القانون الروماني ، وقد تعرب لكل من النظريتين أنصار كثيرون ، ومن أبرز من دافع عن حق الأمومة (مالك لينان) فدرس أصل الزواج والاختطاف وصنوفه الشعوب ، تبعا لنوع الزواج المتبع ، وترجع أهمية دراساته الى أنها وجهت الانتباه لكثرة الزواج الخارجي ، وتعد هذه الدراسات في المقارنة بين القبائل ذات الزواج الخارجي وتلك ذات الزواج الداخلي التي اقام عليها نظرياته كلها ، بحق مفتاح تاريخ العائلة .

هذا ومن علماء القرن التاسع عشر المتطورين الذين كان لهم الاثر الكبير في الدراسة العالم الانثروبولوجي الاميركي (مورغان) الذي وصف مراحل تطور العائلة في كتابه المجتمع القديم (١٨٧٧) والذي استطاع بدراسته عشيرة الهنود الاميركيين (الايركوا) ان يكتشف سلسلة تطور مراحل النمو الكلاسيكية للعائلة ، وتطور النظام الأمومي الى النظام الأبوي ، وهو الذي أكد على أن فكرة (الاباحية الجنسية) كانت هي المرحلة الاولى في حياة المجتمع الانساني ، وقد اعتمد (انجلز) في كتابه أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة على كتابات (مورغان) وبنى عليها كثيرا من أفكاره وتصوراته وتفسيراته لتطور الأسرة والملكية من منظور الفلسفة المادية .

وقد تعاقبت الدراسات الجادة بعدئذ من قبل علماء كثيرين في أوروبا وأميركا بحثوا في تركيب العائلة وتطورها وحظيت دراساتهم باهتمام بالغ في جميع أنحاء

العالم ، وبقيت ضمن نطاق الندرة في الوطن العربي نظرا للمفهوم الخاص السائد لدى مجتمعنا عن مفهوم العائلة والزواج ، هذا المفهوم المرتبط ارتباطا كبيرا في الافكار الدينية والموروثات التراثية والمحرمات والمقدسات والاساطير وسائر مكونات الثقافة القائمة في مجتمعنا .

١ ـ الشيوعية الجنسية :

يرى عدد من الباحثين أن الشيوعية الجنسية كانت هي النظام السائد في فجر الانسانية ، وفي مقدمة هؤلاء الباحثين (باخوفن) ، كما أن هنالك دراسات أخرى تشير أيضا الى أن تاريخ العائلة يظهر أنه كان يوجد وضع بدائي يعيش فيه الرجال في حالة تعدد الزوجات ، وتعيش فيه زوجاتهم في الوقت نفسه في حالة تعدد الازواج ، والواقع أن المسألة كانت أشد تعقيدا من ذلك في رأي هؤلاء العلماء الذين كانوا يعتقدون على العموم بأن دائرة الزواج ـ أي عدد الأفراد الذين تقوم بينهم علاقات زواج مباشر ـ في الوقت نفسه ـ كانت تضيق بتقدم المجتمع، ولذا كانوا يتخذون ذلك علاقة ومحكا لقياس مدى تقدم المجتمع . ويذهب بعضهم في ذلك الى أنه بعد مرحلة الاباحية الجنسية جاءت مرحلة يسميها بعضهم (مرحلة الزواج الجماعي) ويقصدون بها زواج عدد من الرجال لا تقوم بينهم أي رابطة بعدد من النساء لا تقوم بينهن أي رابطة مسبقة أيضا ، بحيث يكون لهؤلاء الرجال دون غيرهم الحق بالاتصال جنسيا بأي امرأة في تلك الجماعة المعددة ، وهذه كسابقتها مرحلة افتراضية لم يثبت صحتها وان كانت هنالك أشكال من الزواج تقوم في بعض المجتمعات في الوقت الحالي يتزوج فيها عدد من الاخوة امرأة واحدة أو عددا من الاخوات لاعتبارات وضرورات اجتماعية .

وصاحب هذه الفكرة في الأساس في تصور هذه المراحل من الزواج هو العالم الامريكي (مورغان) كما ذكرنا ، ويلخص رأيه في هذه القضية بأن مرحلة الاباحية الجنسية خضعت لكثير من عوامل التغير بتقدم الانسانية ، ونشأ عن هذه التغييرات ظهور أشكال القرابة المختلفة بحيث كان كل شكل منها يؤدي الى الشكل التالي الذي كان يعد بذلك أكثر منه تقدما ورقيا . وقد أطلق (مورجان)

على أول شكل من أشكال العائلة اسم (العائلة الدموية) وهي تقوم على أساس الزواج بين الأخوة والأخوات داخل الجماعة أو الزمرة الاجتماعية الواحدة .. ورغم عدم وجود ما يدل على هذا النوع سوى زواج الأخوة والأخوات في العائلات الملكية القديمة ، فان (مورجان) اعتمد في قوله بوجود هذه المرحلة على نظام القرابة الذي كان شائعا في بعض جزر هاواي ، حيث لم يكن الناس يميزون بين الأقارب عن طريق الأب والأقارب عن طريق الام ، كما تشمل معظم الجماعات الانسانية بما فيها (الجماعات البدائية) . وانما كان سكان هاواي يطلقون المصطلح القرابي الواحد على جميع أفراد الجيل الواحد بصرف النظر عن درجة القرابة الفعلية .

ثم جاءت بعد ذلك مرحلة زواج الجماعة ، وكان (مورجان) يرى أن الزواج كان يتم بين جماعة من الأخوة وعدد من النساء لايشترط أن يكن أخوات ، أو على العكس من ذلك بين جماعة من الأخوات وعدد من الرجال الذين لايشترط أن يكونوا اخوة . وقد أطلق (مورجان) على هذا النوع من العائلة القائم على هذا الزواج اسم (العائلة البونالوية) الى علاقة (البونالوا) في جزر (هاواي) ومن هذا النمط من العائلات الجنسية أو الزواج نشأ الشكلان الاساسيان من الزواج التعددي ، وهما تعدد الزوجات للرجل الواحد وتعدد الأزواج للمرأة الواحدة ، وقبل أن يظهر الزواج الأحادي الذي يقوم على ارتباط رجل واحد بامرأة واحدة.

وفي مرحلة الشيوعية الجنسية التي وصفها (مورجان) يعد أولاد هؤلاء وأولائك أولادا مشتركين لهم جميعا ، وهذه الزيجات المشتركة كانت تفرض أن العلاقات الجنسية غير المحدودة في رأي بعضهم كانت تسود داخل القبيلة بحيث أن كل امرأة كانت تخص كل رجل ، وبحيث أن كل رجل كان يخص كل امرأة . وهذه العلاقات غير المنظمة تعني أن القيود المانعة في الزواج والمعروفة منذ مرحلة قديمة من تاريخ الحضارة لم تكن سارية المفعول آنذاك ، لا سيما وأنه غدا من الثابت أن الغيرة شعور تطور في مرحلة لاحقة نسبيا .. ويمكن قول الشيء نفسه بصدد مفهوم سفاح القربى ، فان الاخ والاخت كانا في المرحلة البدائية زوجا وزوجة ،

بل ان هذا وغيره من العلاقة الجنسية بين الآباء والأبناء بقي معروفا الى مراحل متأخرة من التاريخ البشري لدى عدد من الشعوب[٤] . ولا يستغرب اذا وجد لدى القبائل التي عاشت نظام الزواج الجماعي افتقار للكلمات التي تدل على الأب والام والزوجة والزوج ، فأعضاء هذه القبائل متآخون ، كلهم أخوة وأخوات ويقولون أولادنا وأولادهم يقولون أقاربنا ، وتنتفي في هذا النوع من النظام الملكية الشخصية مثلما ينتفي التخصص بالأزواج والزوجات . هذا ويستدل من الدراسات التي قام بها الباحثون أن مظاهر الشيوعية الجنسية ما زالت قائمة لدى بعض الشعوب البدائية ، فعند هنود أميركا الشمالية يتصل الشبان بالشابات اتصالا حرا دون أن يكون ذلك عائقا للزواج ، وكذلك عند قبيلة (بابوا) في غينيا الجديدة التي تبدأ منها الحياة الجنسية في سن مبكرة جدا والقاعدة قبل الزواج هي الشيوعية الجنسية ، وكذلك توجد مثل هذه الحرية قبل الزواج في قبيلة (السويوت) في سيبيريا و (ايجورت) في الفلبين وأهالي بورما العليا وقبائل نيجيريا وبوغندا وجورجيا الجديدة وتاهيتي وجزر الساموا وبولونزيا[٥] حيث يسمح بالعلاقات الجنسية قبل الزواج ، ومجتمع الاسكيمو حيث تشيع عادة إعارة الزوجات . رغم ان للبولونيزيين والاسكيمو مفاهيم صارمة جدا فيما يتعلق بالعائلة وسلوك أعضائها اللائق والتي هي مختلفة عن مفاهيمنا .

هذا وان من العلماء البارزين الذين أيدوا في بحوثهم وجود هذه المرحلة الاولية في تاريخ البشر (مكلينف ــ ١٧٨١ ــ ١٨٢٧) الذي أشرنا اليه سابقا ، حيث ذكر أن المشاعية الجنسية كانت مسيطرة على المجتمع البدائي منذ بداية تكوينه . وفي ظل المشاعية الجنسية تكون جميع النساء في المجتمع حقا مشاعا لجميع الرجال . وجميع الرجال حقا مشاعا لجميع النساء دون أي تقييد بنظام الزواج المعروف . وبعد تقدم الانسانية في المراحل الحضارية تغير هذا النظام الى

---

(٤) انجلز ، اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة .

(٥) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، الجزء الاول ، ص ٨٠ .

نظام القرابة والنسب الأمومي . وبهذا اتفق أيضا مع آراء (باخوفن) المشار اليها سابقا .

وفي العصر الحديث قامت محاولات لانشاء مجتمعات خاصة يمارس فيها الزواج الجماعي ونادى بها بعض أنصار حركة التحرر النسائي وحركات التمرد على الأوضاع الاجتماعية التقليدية ، وبخاصة على الروابط العائلية التقليدية المتوارثة . وأرادوا اقامة علاقات جنسية بين مجموعة من الرجال الأغراب ، ومجموعة من النساء اللاتي لا تربطهن روابط قرابية . وظهرت هذه الحركة الحديثة المتمردة على نظام العائلة التقليدي بخاصة في الدانمارك ، ولكن لم تلبث أن صادفها الكثير من العقبات[٦] . وقبل ذلك قامت محاولة اشتهرت أكثر من غيرها واستمرت فترة أطول وهي مايعرف باسم مجتمع (اونيدا) في وسط ولاية نيويورك وقد أنشأه عام (١٨٤٨) قسيس اسمه (جون همفري نويس) ومعه (٥٧) رجلا وامرأة وأولادهم . ومع أن هؤلاء أصبحوا أغنياء بسبب اختراعهم مصيدة تفضل ما كان في السوق ، وقيامهم بصنعها وبيعها وبعد ذلك نتيجة اشتهارهم بصنع الآنية الفضية المسماة باسمهم الا أن مجتمعهم انهار وتفرقوا عائدين الى زواج الرجل بامرأة واحدة بعد ثلاثين عاما من انشائه .

وقد عارض أصحاب هذه الآراء والنظريات كثير من العلماء وأنكروا هذا الطور الأول من حياة الناس الجنسية ، ولا سيما أن المجموعات التي تعيش معا من القرود الشبيهة بالانسان تتناقض مع هذه المعطيات فكيف بالانسان ؟ وممن أنكر من هؤلاء العلماء مثل هذه الآراء (كلود ليفي شتراوس) الذي قال : ان اختلاق علماء الانثروبولوجيا لمراحل خرافية بدائية للتطور الجماعي والاتصال الجنسي غير الشرعي لتصف المرحلة التي كان فيها الانسان متوحشا ولا يستطيع آنذاك ادراك دقائق الحياة الاجتماعية ، قد ألغيت في معالجة هذه المشكلة بعد أن

---

(١١) د. احمد ابو زيد ، المرأة والحضارة ، مجلة عالم المعرفة ، العدد (٤) ، ١٩٧٦ ، ص ٢٢ .

توفرت المعلومات التي أظهرت الحقائق لدى الشعوب المتوحشة ، حيث أن البناء الاجتماعي الوحيد الذي يحسن الحديث فيه بصددهم هو الأسرة التي تقوم في معظم الحالات على الزواج الاحادي ، وان المراقب لن يجد كبير عناء في التعرف على الزوجين المرتبطين برباط عاطفي وثيق ، وتعاون اقتصادي كبير ، الاضافة الى ارتباطهما بتربية أولادهما الناتجين عن اتحادهما .. ويقول : لقد أخذ الاتجاه العام لدى العلماء عدا ما يعرف بمدرسة « فيينا » يضم الى صفوفه أعدادا متزايدة من علماء الاثنروبولوجيا الذين أخذت تتوافر لهم القناعة بأن الحياة العائلية موجودة عمليا في كل المجتمعات البشرية ، حتى ضمن المجتمعات التي لها عادات ثقافية وجنسية تبتعد عن عاداتنا .. الخ[٧] .

٢ ـ عائلة قريبي الدم :

وهي برأي (مورجان) أول شكل من أشكال العائلة وقد أشرنا في الفقرة السابقة الى رأيه في شأنها ، ويبدو أن رأي العلماء في اعتبارهم لتنظيم الاسرة في أول أمرها كان قائما على أن النسب الأمومي يرتكز على فكرة أن منزلة الرجل كانت تافهة وعارضة بينما مهمة الأم فهي الاساسية ، وان الدور الفسيولوجي الذي يقوم به الذكر في التناسل لايكاد يستوقف النظر لدى القبائل الموجودة لليوم ، وربما كان الامر كذلك في الجماعات البشرية الاولى فشأن الرجل من الانسان شأن الذكر من الحيوان التي تناديهما الطبيعة للتناسل ، اذ يطلب العشير عشيره ويتكاثر النسل دون أن يؤرق وعيهم تحليل هذه العملية الى الاسباب والنتائج ، وكثير من الشعوب البدائية لا تعزو التناسل لسبب العملية الجنسية وانما لدخول شبح في جوف المرأة .. وعليه فان أبسط صور العائلة هو الأم وأبناؤها تضمى بهم في كنف أمها أو أخيها في القبيلة .. وهذا النظام نتيجة طبيعية للأسرة عند الحيوان التي تتكون من الأم وصغارها ، وهو كذلك نتيجة حتمية للجهل البيولوجي الذي

---

(٧) عدد من الباحثين ، الانسان والحضارة والمجتمع ، ترجمة عبد الكريم محفوض ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ص ٤٩٠ .

يتصف به الانسان البدائي .. وقد كان لهذا النظام العائلي بديل آخر في العهد الاول ، وهو الزواج الذي يضيف الزوج الى أسرة زوجته ، اذ يقضي هذا النظام أن يهجر الزوج قبيلته ليعيش مع قبيلة زوجته وأسرتها ، فالانسان في هذه الحالة يقتفي أثرها في جانب الاناث ، والتوريث يكون عن طريق الأم . وفي هذا الطور الاول من العائلة ، كانت الجماعات الزواجية تنقسم حسب الاجيال .. فجميع الجدود والجدات في نطاق العائلة هم أزواج وزوجات فيما بينهم شأنهم شأن أولادهم ، أي الآباء والأمهات ، وعلى النحو نفسه يشكل أولاد الآخرين الحلقة الثالثة من الأزواج المشتركين ويشكل أولادهم أي أولاد أحفاد الأولين الحلقة الرابعة .. وفي هذا الشكل من العائلة لا تنتفي الحقوق والواجبات الزوجية المتبادلة الا بين الأسلاف والأخلاف بين الأولاد والآباء ، أما الاخوة والاخوات من الدرجات الاولى والثانية والثالثة وما يليها فانهم جميعا أخوة وأخوات فيما بينهم ، وهم لهذا السبب بالذات أزواج وزوجات فيما بينهم . وفي هذا الطور من العائلة تشمل علاقة القربى بين الأخ والأخت العلاقة الجنسية فيما بينهما كشيء بدهي ، وكان ذلك أمرا أخلاقيا ومشروعا .. ولهذا يتألف الشكل المثالي لهذه العائلة من ذرية زوج واحد (رجل وامرأة) يكون الجميع فيها في كل جيل من الاجيال المتعاقبة إخوة وأخوات فيما بينهم وبالتالي أزواج وزوجات فيما بينهم[٨] :

ويذكر (ول ديورانت) في كتابه قصة الحضارة[٩] نقلا عن المراجع التي اعتمدها وأشار اليها أن هنالك صورا متعددة لدى الشعوب تشير الى مرحلة انتقال من التوضي الجنسية التي تسود الحياة الحيوانية الأولى الى صنوف الزواج البدائي التي أخذ بها ذلك الانسان ...

ففي (فوتونا) (وهاواي) معظم الناس لم يتزوجوا اطلاقا .. وأهل (بوبو)

---

(٨) انجلز ، اصل العائلة .
(٩) قصة الحضارة ، الجزء الاول ، ص ٦٧ .

تعاشروا في إباحية وبغير اختيار أو تحديد . ولم يكن في رؤوسهم فكرة الزواج . وكذلك بعض القبائل في (بورنيو) كانت تعيش حياتها الجنسية بغير أن يكون الزواج هو الرابط الذي يربط الزوجين ؛ ولذلك كانت العلاقة بين العشيرين أسهل انحلالا مما نراه بين الطيور .

ولدى بعض الشعوب الروسية البدائية كان الرجال يستعملون النساء بغير تمييز بحيث لم يكن لامرأة زوج معلوم . وقد وصف الواصفون أقزام افريقيا بأنهم (لايصطنعون أنظمة الزواج في حياتهم بل تراهم يشبعون غرائزهم الحيوانية اشباعا كاملا بغير ضابط) .

ويعتقد بعض العلماء أن أصل الأمومة يرجع الى عدم معرفة أب الولد وذلك ناتج عن عدم تمسك الهيئة الاجتماعية القديمة بالزواج الشرعي الذي يعد حديثا بالنسبة الى حالة الزواج الفوضوية التي كانت عليها الهيئة الاجتماعية قبل معرفتها الزواج الشرعي ؛ فالأمومة كانت سائدة يوم كان زواج الاشتراك شائعا عند سائر الامم أي قبل ظهور الزواج الفردي ؛ ويذكر (مالينوفسكي) عن سكان جزر (التروبرياند) التي زارها (أن نظام الاسرة السائد عند سكانها هو النظام الأمومي ، فالطفل ينتمي الى عشيرة أمه ، ويرث خاله ، والاهالي لايعترفون باية علاقة فسيولوجية بين الأب وابنه ، ومن ثم فانهم يرون أنه لاتوجد علاقة قرابة بينهما[١٠]) .

وتبين في ضوء نتائج حفريات جرت حديثا أن النظام الأمومي كان قائما في بلاد الأناضول منذ سبعة آلاف سنة قبل الميلاد .

والمعروف أن عددا كبيرا من المجتمعات القبلية في كثير من أنحاء العالم كانت ولا تزال حتى اليوم يقوم تنظيمها الاجتماعي على أساس انتساب الاطفال الى الأم

---

(١٠) بندلي صليبا الجوزي ؛ دراسة في اللغة والتاريخ الاقتصادي عند العرب . ص١٣٢ .

وعشيرتها دون الأب ، كما هو الحال في كثير من قبائل غرب افريقيا . بل أن بقايا ورواسب هذا النظام لا تزال تظهر حتى الآن لدى بعض القبائل والجماعات الاسلامية ذاتها كما هو الشأن عند الطوارق في شمال افريقيا أو عند الهمندوة في شرق السودان ، وان لم تكن هذه القبائل أمومية بالمعنى الدقيق للكلمة .. ومن الطريف أن نجد كبار المستشرقين في أواخر القرن الماضي وهو (ويليام سميث) الذي اهتم اهتماما كبيرا بدراسة نظام القرابة عند العرب في الجاهلية مثلما اهتم بدراسة الأديان عند الساميين ، يرى أن نظام القربى في بلاد العرب كان في وقت من الأوقات يقوم على الانتساب الى الأم ، وان ذلك كان من شأنه تمتع المرأة بمكانة اجتماعية عالية ، وان بقايا هذا النظام لاتزال قائمة حتى الآن وتكشف عن نفسها في تسمية بعض القبائل العربية بأسماء نساء ، وهي ظاهرة نجدها الآن في مصر وشمال افريقيا في قبائل السعادى (نسبة الى سعدى) والهنادي (نسبة الى هند) والجوازي (نسبة الى الجازية) وغير ذلك(١١) .

وقد بقيت آثار القرابة الرحمية ملموسة في العالم ما قبل الاغريقي والصين والهند القديمة* .

وهنالك نموذج من النظام الأمومي الذي انبثق نتيجة حتمية عن تعدد الأزواج كالمرأة في ظل هذا النظام ، وكانت هي التي تختار أزواجها (معا وفي آن واحد أو على التوالي) وهي التي تتزعم العشيرة أيضا .. وقد ثبت وجود هذا الضرب من السلطة النسوية قبل الميلاد بالقرن عام ووجد لدى السليتين والسومريين أيضا ، اذا صدق الملك (أوركاجينا) الذي تباهى بالقضاء على نظام تعدد الأزواج في بلده عام (٢٣٥٠ ق.م) وهذا النظام كان مايزال مطبقا في افريقيا حتى القرن

---

(١١) د. احمد ابو زيد ، المرأة والحضارة ، ص ٢٢ .

(*) الفيدية ـ نسبة الى الفيد : اربعة كتب مقدسة لدى الهندوس ـ منسوبة الى براهما ، فيها الصلوات والاناشيد والفرائض اللازمة للذبيحة وتذكية النار المقدسة .

الماضي من قبل ملكات بلاد (آنى) وهو قائم حتى أيامنا هذه لدى قبائل (مالابار) المحاربة ، وبعض الأقوام الجبلية في التيبت[١٢] .

وفي الصين القديمة الفلاحية ، كانت القرية تحت سيطرة النساء اللواتي كان يطلق عليهن اسم ربات القرية ، وفي حين يوقف الفلاح نشاطه في موسم الأمطار لاتكف المرأة عن العمل أبدا تغزل وتنسج الخ .. مما يوحي أنها رمز الاستمرار والديمومة ، ونظام الأمومة دليل على دكتاتورية المرأة المتوغلة في القدم وقد كان لها ملء حريتها من الأزواج والأملاك وهي غير رحيمة أحيانا حين تطرد الرجل الهزيل للصيد الذي يمضي حاملا عرته دون احتجاج .

وخلافا للآراء والنظريات التي عرضناها عن عائلة قرابة الدم والنسب الأمومي ، فان عددا من الباحثين والعلماء قد عارض هذه الآراء والنظريات ، ومن هؤلاء الفيلسوف والعالم الاجتماعي الفنلندي (ادوارد وستر مارك ــ ١٨٦٢ ــ ١٩٣٩) فقد اهتم بدراسة العائلة البشرية دراسة تاريخية اجتماعية واشتهر بانتقاده لنظرية النسب الأمومي انتقادا علميا حيث كان يعتقد بأهمية النسب الأبوي وتقدمه تاريخيا على النسب الأمومي ، وقد انتهج الاسلوب المقارن والاسلوب التطوري في دراسة العائلة البشرية ، ومن أهم مؤلفاته (تاريخ الزواج البشري) الذي ظهر لأول مرة عام (١٩١٦) وقد ذكر فيه أن الزواج هو أساس تكوين العائلة ، فبعد عقد الزواج بين الرجل والمرأة تتكون العائلة ، ثم بعد ذلك تكبر حجما وتزداد ترسخا بعد انجابهما للأطفال ، والزواج حسب تعريفه هو علاقة اجتماعية جنسية تقوم بين شخصين مختلفين الخ .. ويعتقد بأن الانسان منذ بداية الخليقة يميل نحو الزواج بامرأة واحدة ، وهو يعد أن النظام الأحادي للزواج هو منذ البداية ، ولكنه يرى أن هنالك ظروفا استثنائية تدعو الى ظهور نظام التعدد في الأزواج أو نظام الزواج الجماعي وهذه الظروف تفسر بعوامل مختلفة .

---

(١٢) مونيك بيتر ، المرأة عبر التاريخ ، ترجمة هزيت عبودي ، دار الطليعة ، بيروت ، ص ١٥ .

كذلك فان المحامي الانكليزي الشهير (السير هنري مين ١٨٢٢ ـ ١٨٨٨) يعتقد بأن النسب الأبوي يتقدم تاريخيا على النسب الأمومي ، وقد عزز أفكاره هذه بالدراسة التي أجراها عن المؤسسات الهندية الأوربية بخاصة العائلة المركبة الأبوية ، فقد كانت الملكية تمر من الآباء الى الأبناء في العائلة الهندية القديمة ، وكانت رابطة الآباء بالأبناء بمثابة الوحدة القرابية المعروفة في المجتمع الهندي القديم ، وقد انتقلت هذه الوحدة القرابية الى أوربا من الهند بعد تطور المؤسسات الاجتماعية الأوربية ابان القرن الاول بعد الميلاد[١٣] .

٢ ـ الزيجات المشتركة :

أو مرحلة زواج الجماعة كما أسماها (مورغان) وأطلق عليها أيضا اسم العائلة (البونالوانية) تبعا للعادة التي كانت متبعة في جزر (هاواي) كما ذكرنا .. حيث كانت مجموعة من الاخوة من أم واحدة ، أو على قرابة أبعد تدخل في زواج مشترك مع عدد معين من النساء ولكن من غير أخواتهم ، وكانت هؤلاء النساء يسمين بعضهن بعضا (بونالوا) وكانت السمة المميزة لهذا الشكل من الشراكة المتبادلة للرجال والنساء داخل حلقة عائلية معينة ، ولكنها لم تكن تشمل إخوة الزوجات في البدء ثم أيضا الأخوة على درجات أبعد من القربى وكذلك من الناحية المتقابلة أخوات الأزواج وهذا الشكل طرأت عليه تغيرات فيما بعد ، ثم إن النظام الاميركي البدائي يقدم مثالا عن هذا الشكل من العائلة والذي يجد له أمثلة متعددة ، مع بعض التطور حسبما رواه المؤرخون والباحثون . فقد ذكر أحد المؤرخين القدماء (قيصر) عن البريطانيين القدماء وفي طورهم الاوسط من البربرية أنه كان (عند كل عشرة رجال أو اثني عشر رجلا زوجات مشتركات ناهيك بأنهن في أغلب الاحوال مشتركات بين الاخوة أو بين الاب والابناء) .. الامر الذي يؤكد وجود الزواج الجماعي في مرحلته البربرية .. وكذلك فقد ذكر المؤرخ الاغريقي (هيرودت ٤٨٤ ـ ٤٢٥ ق.م) كما روى غيره من القدماء عن شراكة

---

(١٣) د. احسان محمد حسن ، العائلة والقرابة والزواج ، ص ٢٤ .

النساء عند الشعوب المتوحشة والبربرية ، وهذا ما يصح أيضا على ما يرويه (وطسن) و (كاي) عن سكان الهند في شمال نهر الغانج : (انهم يعيشون معا ـ والمقصود بذلك العلاقات الجنسية ـ بغير نظام تقريبا في نطاق جماعات كبرى ، واذا كان اثنان منهم يعدان زوجا وزوجة فان علاقة الزواج هذه ليست الا اسمية)[١٤] .

وفي قبيلة (موريا) في باستر بأواسط الهند عندما يحين سن البلوغ يرسل الصبيان والبنات ليعيش بعضهم مع بعض في أكواخ مشتركة حيث يتمتعون بقسط كبير من الحرية الجنسية ، ولكن بعد مضي سنوات قليلة على هذا الانحراف يتزاوجون طبقا لقانون لا يسمح لعاشقين سابقين مراهقين بالاتحاد . ثم يتزوج ـ في قرية أصغر كل رجل من امرأة يعرفها خلال سنوات حياته على أنها كانت عشيقة بجاره الحالي[١٥] .

واذا كانت المعلومات عن الزواج الجماعي قليلة فيما سلف ، وكانت نقطة الانطلاق عند (مورغان) في أبحاثه عن نظام القرابة السائدة عند الهنود الحمر الاميركيين فان أبحاث العلماء المتتالية والمستمرة قد أغنت هذه المعلومات ، وقد ساهم فيها مرسلون وعلماء وتجار ، ـ كما عرضنا ـ ولكن عددا غير قليل منهم قد شك في وجود الزواج الجماعي وعده مجرد زواج أحادي واهي العرى كما ذكرنا آنفا . أو أنه نظام لتعدد الزوجات ترافقه الخيانة الزوجية بين الهينة والاخرى[١٦] . وهو وان أخذ صورا متعددة في التاريخ ، فان الدراسات المتعمقة لهذه الصور دلت على وجود قانون أخلاقي صارخ يحكم هذه العلاقات ، بحيث يمنع كل علاقة جنسية خارج الطبقتين الزواجيتين اللتين تخص احداهما الأخر .. وحتى حالة خطف النساء التي تجري في كثير من الأحياء في العالم .. ولدى شعوب متعددة فانه يجري فيها تطبيق عرف الطبقات الزواجية بكل دقة ، وفي الخطف للنساء

---

(١٤) انجلز ، اصل العائلة .
(١٥) قصة الحضارة ، ص ٥٠٧ .
(١٦) د. احمد ابو زيد ، البناء الاجتماعي ، ص ١٨٠ .

تتبدى علائم الانتقال الى الزواج الأحادي ، ويشكل الزواج الثنائي على الأقل (بين اثنين) ، فعندما كان الشاب يخطف فتاة بمساعدة أصدقائه بالقوة أو الاغراء فانهم جميعهم يضاجعونها بالدور ، ولكنها بعد ذلك تعد زوجة ذلك الشاب الذي كان صاحب فكرة الخطف ومن أجله جرى الخطف .. وعلى العكس فان المرأة المخطوفة اذا هربت من زوجها ، وقبض عليها آخر فانها تصبح زوجة هذا الاخير ، ويفقد الاول حقه المفضل عليها .

وعادة الخطف وان كانت تتماثل لدى الشعوب في أساسها فانها تطورت وتباينت وهي ما زالت سارية لدى كثير من الشعوب والقبائل البدائية والتقليدية ، حيث يعد خطف الزوجة عنصرا هاما من عناصر اتمام الزواج ، فكثير من قبائل افريقيا واستراليا تحتم على الزوج أن (يسرق) زوجته ويفر بها ، ولا يعد الزواج شرعيا الا اذا أفلح في الاختفاء بها لفترة معينة من الزمن ، كما أن بعضهم الآخر يحتم على الزوج أن يخطف عروسه عنوة ، وأن يدخل في معركة تمثيلية مع أهلها ينتصر الزوج أثناءها ويفوز بزوجته . ولقد كان هذا نفسه يحدث حتى عهد قريب في كثير من صحارى الشرق الاوسط ، حيث كان العريس يخطف عروسه ويفر بها على صهوة جواد ويطارده أهلها وهم يطلقون النار في أثره ، بينما العروس تصرخ وتقاوم[١٧] . وما زالت عادة الخطف متبعة لدى عشائر البركس في سورية وخلافها . والى جانب الزواج الجماعي الذي ما زال له وجود ، وفي ضمنه تبرز بالتالي علاقات تستبعد الآخرين ، ويبرز تزاوج شخصين (رجل وامرأة) لفترة من الزمن ، قد تطول أو تقصر ، والى جانب ذلك يقوم تعدد الزوجات ، مما يشير الى أن الزواج الجماعي في طريقه للزوال .. ومع ذلك تدل دراسات عدد من الباحثين على وجود أنواع مختلفة من الزواج الجماعي في بلدان متعددة لدى جماعات بدائية فيها .. ففي مناطق متعددة من افريقيا لاتحترم ثنائية الجنسين بل يسمح فيها لنساء الطبقات العليا بالزواج من نساء أخريات .. اللواتي يحبلن عن

---

(١٧) الانسان والحضارة والمجتمع ، ص ٥٠٦ .

طريق خدمات عشاق غير معترف بهم .. ويعهد عندها الى المرأة النبيلة أن تصبح (أبا) لأطفالها وتنقل اليهم ، طبقا لحقوق الأب السائدة اسمها ومنزلتها وثروتها[١٨] .

ومن الامثلة على أنواع الزيجات الجماعية وأشكالها يمكن الاشارة الى أن العادة التي كانت متبعة في التبت أن تتزوج طائفة من الاشقاء طائفة من الشقيقات بحيث تقوم الشيوعية الجنسية بين الطائفتين ، ولكل رجل أن يعاشر كل امرأة ، وهذا ما يماثل العادة التي أشرنا اليها والتي ذكرها المؤرخ (قيصر) عند سكان بريطانيا القديمة ، وكان من بقاياها عادة الزواج بزوجة الأخ بعد موته وهي العادة التي شاعت عند اليهود الأقدمين وانتقلت عبر التاريخ كما شاعت عند غيرهم من الشعوب القديمة كما سنرى[١٩] .

ولدى قبيلة (نايار) الكبيرة التي تعيش على ساحل (مالابار) في الهند عادات في هذه العلاقات تؤدي الى الزواج المشترك ، حيث أنه في القديم لم تكن حياة الغزو تسمح لرجال هذه القبيلة بتأسيس الأسرة ، وكان الزواج مجرد احتفال رمزي ، ولم يكن ينتهي الى رباط دائم ، ولقد كان يسمح في الحقيقة للنساء المتزوجات بالحصول على العدد الذي يرغبن فيه من العشاق وينتمي الاطفال الى نسب الأم ، كما أن السلطة العائلية والتسلط على الارض لم يكن يمارسها الزوج المؤقت بل أخوة الزوجة . ولكنه كان يوجد جنبا الى جنب مع هذه العلاقة اللا شرعية ، الاسرة ، أي العلاقات العائلية بين الجنسين .

وقد ساد هذا الزواج لأسباب مختلفة في قبيلة (بورورو) وغيرها من القبائل في أواسط البرازيل وفي قبيلة (بوريا) وغيرها من قبائل الهند وسام . هذا وان تتبع دراسات الباحثين والعلماء في هذا الشأن يعطي نماذج متعددة من الزيجات الجماعية تظهر بصور تلتقي مع الامثلة التي أشرنا اليها أو تختلف أحيانا في أشكالها .

---

(١٨) قصة الحضارة ، ص ٦٩ .
(١٩) الانسان والحضارة والمجتمع ، ص ٥٠٦ .

وهنالك أمثلة وقصص كثيرة عن شعوب في أميركا الجنوبية ما زالت في الطور الأعلى من الوحشية ، ولا تزال حرية العلاقات الجنسية متبعة لديها ، مما يعني بقاء آثار الزواج الجماعي ماثلة ، ومن هذه الأمثلة :

آ ـ أنه من بين أربعين قبيلة في أميركا الشمالية على الأقل ، يحق للرجل الذي يتزوج الأخت الكبرى أن يتزوج أيضاً جميع أخواتها متى بلغن السن المقررة ، وهذا أثر لمشاعية الرجال بالنسبة لمجموعة كاملة من الأخوات .

ب ـ يروي (بانكروفت) عن سكان شبه جزيرة (كاليفورنيا) الطور الأعلى للوحشية إنهم يقيمون احتفالات تجتمع فيها عدة من قبائل بقصد المضاجعة غير المنظمة .

ويرجح أن هذه الاحتفالات بالنسبة للعشائر ما هي إلا بقايا غامضة عن ذلك الزمن الذي كان فيه جميع رجال العشيرة الواحدة أزواجاً مشتركين لنساء عشيرة أخرى والعكس بالعكس ... ومثل هذه العادة لا تزال سارية في أستراليا .

جـ ـ عند بعض الشعوب يستغل الشيوخ والزعماء والكهنة السحرة في مصلحتهم مشاعية النساء ويحتكرون أغلبية النساء لأنفسهم ، ولكن يتعين عليهم مقابل ذلك في أعياد معينة ، وفي زمن الاجتماعات الشعبية الكبيرة ، أن يجيزوا من جديد مشاعية النساء التي كانت قائمة من قبل ويسمحوا لنسائهم بالترفه مع الشبان .

د ـ هنالك أمثلة كثيرة عن (الساتورنالات) السورية التي كانت تقام لفترة قصيرة وتباح فيها العلاقات الجنسية الحرة ، لدى عدد من القبائل منها (الهو والسانتال) و (الدرافيدا) و (الكوتا) في الهند ، وعند بعض الشعوب الأفريقية البدائية . ولكن بعضهم استنتج خطأ أنها ليست من بقايا الزواج الجماعي ، وإنما من بقايا فترة الهيجان المشتركة بين الإنسان البدائي والحيوانات الأخرى .

وزواج المرأة بأكثر من رجل واحد عرفه وأقره عدد من المجتمعات في التبت ، والماركيز في المحيط الهادي الجنوبي ، وعدة من مجتمعات صغيرة في الهند ، وسيلان (سيرالانكا) ، وفي هذه المجتمعات يحدث هذا النوع من الزواج ، بأن تتزوج فتاة عدداً من الأخوة الذكور ، مع أنه في حفل الزواج الرسمي تجري مراسيم الزواج بينها وبين الأخ الأكبر ، وفي هذه الحالة لا يستطيع أي من الأخوة أن يطالب بحقوق زوجية خاصة به ، كما لا يستطيع أن يطالب بقطعة أرض تكون له خاصة ، أو بمنزل خاص أو حيوانات معينة ، وتبدو كل حالات تعدد الأزواج كما لو كانت تكيفات لظروف محلية خاصة جداً ، فمثلاً يقتضي اقتصاد تلك الجماعات أن يسافر عدد من الأخوة الذكور لفترات طويلة للاتجار ، وعندها تضمن العائلة (متعددة الأزواج) بقاء واحد من الأزواج على الأقل للعناية بالزوجة والأولاد ، كما يحدث في تلك المجتمعات أن يرث عدد من الأخوة قطعة أرض صغيرة واحدة ، وبدلاً من تقسيمها بعدد الورثة يشترك الأخوة في الأرض جماعياً ، كما يشتركون في زوجة واحدة ، لتقليل كلفة زواج كل منهم بواحدة ، كما يقل عدد الأولاد الذين يولدون لمثل تلك العائلة وبهذا تقل المنافسة على قطعة الأرض الصغيرة بعد موتهم .

وهكذا يحل تعدد الأزواج عدداً من المشكلات الخاصة بالمجموعة ، على أنه لوحظ أنه في حالة تحسن وضع الأخوة اقتصادياً تحسناً ملموساً ، فإن كل منهم يتزوج عدة من نساء ، كما أن بعضهم يترك العائلة ليؤسس عائلته الخاصة التي قد تكون مكونة من زوجة أو عدة من زوجات ، وهكذا يبرز العامل الاقتصادي بدوره الكبير في تطور الأسرة وبنائها ...

٤ ـ العائلة الثنائية وتعدد الزوجات :

إن العائلة الثنائية التي تقوم على الاقتران بين شخصين رجل وامرأة ، لمدة قد تطول أو تقصر مع بقاء تعدد الزوجات ضمن نطاقه الضيق لأسباب اقتصادية ، ومع وجود الخيانة الزوجية التي هي حق للرجل وحده .. على ما يقول (انجلز) .. قد أخذت تحل محل الزيجات الجماعية ، وهذه الزيجات التي أخذت تتخلى عن الساحة لمجموعة أسباب قد يكون منها التشوش المتشدد في مواقع الزواج وتطور

العشيرة التي تتزايد فيها جماعات الأخوة والأخوات ، الأمر الذي غدا الزواج مستحيلاً فيه فيما بينهما . وقد عبر (مورغان) عن هذا كما يقول (انجلز) بقوله : « إن تطور العائلة في العصر البدائي يتلخص في استمرار تقلص تلك الحلقة التي كانت في البدء تشمل القبيلة كلها ، والتي كانت تسود في داخلها مشاعية علاقات الزواج بين الجنسين وبالاستمرار على استبعاد الأنسباء الأكثر قرابة بادىء ذي بدء ، ثم الأنسباء الأكثر بعداً ، وأخيراً حتى الأنسباء بالمصاهرة ، أمام كل شكل من أشكال الزواج الجماعي بمستحيل عملياً ، ولم يبق في آخر المطاف إلا زواج من اثنين تجمع بينهما علاقات زواج غير متينة » .. ويقول : « إنه مع ظهور الزواج الثنائي ، تبدأ في الظهور علامتان اتسع انتشارهما وهما خطف النساء وشراؤهن » .. ويعرض (ول ديورانت)[٢٠] أنه وإن كان التأميم للنساء الذي يقابل الشيوعية البدائية في الأرض والطعام زال من مرحلة مبكرة ، بحيث لم يعد من آثاره اليوم إلا القليل ، فإن بعض ذكرياته ما زالت عالقة في الأذهان في صور مختلفة : في شعور كثير من الشعوب النظرية ، بأن وحدانية الزوجة التي يعرفونها بأنها احتكار — رجل واحد لامرأة — ينافي الطبيعة ويجافي الأخلاق* والأعراف التي سادت لدى بعض الحضارات القديمة ، وما زالت آثارها لدى بعض الشعوب في إقامة أعياد يتم التحلل فيها من القيود الجنسية مؤقتاً هي من بقايا الصور القديمة .. ومن ذلك ما كان يجري في معبد (مايلتا) في (بابل) القديمة حيث كان ينبغي على

(*) منذ عشرين عاما تقريبا جرت دراسة مسحية على ٥٦٥ مجتمعا وقد تبين منها ان ٧٥٪ من تلك المجتمعات يمارس فيه تعدد الزوجات وهذا يعني ان كل رجل في تلك المجتمعات له عدد من الزوجات الا ان ذلك مستحيل ، اذ أن عدد الاناث في المجتمع يساوي بشكل عام عدد الذكور ، ولذا فان مجرد شيوع تعدد الزوجات يسبب نقصا في الاناث القابلات للزواج مما يحرم عددا من الذكور من ذلك ، كما أن العامل الاقتصادي يتدخل لمنع انتشار هذه الظاهرة رغم رغبة الذكور فيها . ويعلى ذلك يقتصر تعدد الزوجات عادة على الاغنياء دون الفقراء . فمثلا مع ان الاسلام يسمح بان يتخذ المرء له حتى اربع زوجات فان دراسة المجتمع في مدينة كراتشي اظهرت ان اقل من ١٪ من الرجال المتزوجين عندهم اكثر من زوجة ولا يوجد واحد منهم عنده اربع زوجات .

(٢٠) قصة الحضارة ، ص ٦٨ .

النساء البابليات مضاجعة الرجال مرة واحدة في السنة . وكانت شعوب أخرى في آسيا الصغرى ترسل بناتها لمستودات بكاملها الى هيكل (انا ليتس) حيث كان ينبغي عليهن ممارسة الحب العمر مع محظيين من اختيارهن قبل أن ينلن الحق في الزواج .

وفي عادة (العذراء المزوجة) ، وهي عادة ضرورية بالنسبة الى كثير من أخلاق الكرم كما يعرفها البدائيون . وفي حق الليلة الأولى وهو حق كان يتمتع به الشريف في أوائل العهد الاقطاعي في أوروبا ، وربما كان الشريف في ذلك يمثل حقوق القبيلة القديمة ، ذلك الحق الذي يجيز للشريف أن يقضي الليلة الأولى مع العروس قبل أن يؤذن للعريس بمباشرة الزواج .

وهذا الحق ما زال قائماً عند أغلبية سكان (آلاسكا) وعند (التاهو) في المكسيك الشمالية . وقد كان شائعاً في القرون الوسطى على الأقل في البلدان التي كانت في البدء (سلتية) كما في (أراغون) مثلاً ، والتي نجم فيها مباشرة عن الزواج الجماعي ، وكان من أمر هذا الزواج أن استمر كقانون معترف به الى أن أصدر (فرديناند الكاثوليكي) في عام (١٤٨٦) اعلاناً جاء فيه : « إننا نقرر ونعلن أن السادة المذكورين أعلاه (البارونات) لا يملكون كذلك الحق في قضاء الليلة الأولى مع المرأة التي يتزوجها الفلاح ، ولا الحق في القفز ، في ليلة العرس ، كدليل على سيادتهم ، فوق المرأة ، أو فوق السرير ، بعد أن تضطجع المرأة ، كذلك لا يملك السادة المذكورين أعلاه الحق في استخدام ابنة الفلاح أو ابنه رغماً عنهما سواء بأجر أو بدون أجر (٢١) .

ويقول انجلز : « لقد ظهرت العائلة الثنائية على التخوم بين الوحشية والبربرية وظهرت على الأغلب في الطور الأعلى من الوحشية ، وهنا وهنالك في الطور الأدنى من البربرية . وهي شكل العائلة المميز بالنسبة لعصر البربرية ، مثلما الزواج

---

(٢١) انجلز ، اصل العائلة .

الجماعي بالنسبة للوحشية وأحادية الزواج بالنسبة للحضارة » (٢٢) . ويرجع (ول ديورانت) الدافع الى الزواج وتطوره الى العوامل الاقتصادية بالدرجة الأولى ويقول : إنها كانت مرتبطة بمنشأة نظام الملكية ، ويعلل الزواج الفردي بأنه كانت نتيجة لرغبة الرجل أن يسترق لنفسه رقيقاً بثمن رخيص ، ونتيجة أيضاً لرغبة في توريث ملكه لأبناء غيره من الرجال . وأنه ظهر من صور الزواج صورة تبيح للعشير أن يتعدد عشراؤه ، فاتخذت صورة تعدد الأزواج للزوجة الواحدة كما هي الحال في قبيلة (تودا) وبعض قبائل التبيت ، وانما تظهر هذه العادة حيثما زاد عدد الرجال على عدد النساء زيادة كبيرة ، لكنها سرعان ما تنتفي على يد الرجل الغلاب ، ولم نعد نفهم من نظام تعدد العشراء للعشير الواحد إلا إحدى صورتيه ، ألا وهي تعدد الزوجات للزوج الواحد وهذا النظام سابق للإسلام بأعوام طوال .

وقد ساد نظام تعدد الزوجات العالم البدائي وله من الأسباب المبررة كثير ، عملت كلها على تصحيح هذا النظام ونشره . ومنها أن حياة الرجال في هذه المجتمعات الأولى كانت أشد عنفاً وتعرضاً للخطر بسبب اضطلاعهم بالصيد والقتال ، ولذا زاد الموت في الرجال عما عليه في النساء ، واضطراد الزيادة في عدد النساء يضع المرأة اختياراً بين حالتين : فإما تعدد الزوجات للرجل الواحد ، وإما عزوبة عقيمة ليس عنها محيص لبعض النساء .. ومثل هذه العزوبة للمرأة لا تنظر إليها بعين الرضى شعوب تريد نسبة عالية من الولادة تقابل بها نسبة عالية في الوفاة ، ولذا نرى أن أمثال تلك الشعوب تزدري المرأة العانس والعاقر . ومن الأسباب أيضاً ميل الرجال للتنوع مما جعل زنوج (أنجولا) يعبرون عنه أنهم (لم يكن في وسعهم أن يأكلوا طعاماً واحداً) .

كذلك يجب أن تكون عشيراتهم في سن الشباب ، والنساء يكتهلن بسرعة في المجتمعات البدائية ، بل إن النساء أنفسهن كن أحياناً يحبذن تعدد الزوجات

---

(٢٢) المصدر ذاته .

حتى يباعدن بين فترات الولادة دون أن ينتقص عند الرجل شهوته وحبه للنسل ، وأحياناً ترى الزوجة الأولى ، وقد أنهكها عبء العمل تشجع زوجها على الزواج من امرأة ثانية حتى تقاسمها مشقة العمل ، وتنسل المرأة أطفالاً يزيدون من انتاجها وثرائها ، والأبناء عند هؤلاء كسبب اقتصادي ، والرجال بمثابة من ينتفع بالزراعة انتفاعه برأس المال ، يستولدها الأبناء الذين يقابلون الربح في رأس المال ، ففي الأسرة الأبوية لا تكون الزوجة وأبناؤها بمنزلة العبيد لرأس الأسرة ، وكلما ازداد الرجل زوجات ازداد مالاً ، وقد كان الفقير يتزوج مرة واحدة ، ولكنه كان ينظر الى ذلك نظرته الى وصمة عار ، وينتظر اليوم الذي يعلو فيه الى المنزلة العالية التي ينزلها صاحب الزوجات الكثيرات في أعين الناس .

وتعدد الزوجات لاءم حاجة المجتمع البدائي أتم ملاءمة ، لأن النساء فيه يزدن عدداً على الرجال .. وقد كان لتعدد الزوجات فضل في تحسين النسل أعظم من فضل الزواج من واحدة الشائع اليوم ، لأنه بينما ترى أقدر الرجال وأمكنهم في العصر الحديث هم الذين يتأخر بهم الزواج عن سواهم ، وهم الذين لا ينسلون إلا الأقل عدداً من الأبناء ، ترى العكس في ظل تعدد الزوجات الذي يتيح لأقدر الرجال أن يظفروا على الأرجح — بخير النساء — أن ينسلوا أكثر الأبناء ، ولهذا استطاع تعدد الزوجات أن يطول بقاؤه بين الشعوب الفطرية كلها تقريباً بل بين معظم جماعات الإنسان المتحضر ، ولم يبدأ في الزوال في بلاد الشرق إلا في عصرنا الحاضر لعدد من العوامل سنشير إليها في محلها .

هذا وقد كان من الأسباب التي كان لها أثرها في تعدد الزوجات ، السبي للنساء في الحروب ، فالنساء عند هنود أميركا الشمالية جزء من أسلاب الحرب ، وكذلك لدى الكثير من الشعوب البدائية والقبائل ، وقد كان السبي للنساء من الشيوع بحيث ترى الأزواج وزوجاتهم في بعض القبائل يتكلمون لغات مختلفة فلا يفهم الزوج لغة زوجته ولا الزوجة لغة زوجها ، ولبث السلاف في الروسيا والصرب يأخذون بزواج الاغتصاب أحياناً حتى في فترة قريبة ، ولا تزال بعض قبائل الجركس تمارس هذه العادة مع بعض التعديل — كما أشرنا — ولما زادت

الثروات بات أيسر على الخطيب أن يدفع لوالد العروس هدية ثمينة أو مبلغاً من المال ثمناً لابنته ، ونتيجة لذلك أصبح الزواج بالشراء تحت إشراف الوالدين هو القاعدة السائدة في المجتمعات الأولى ...

وحدث خلال ذلك حلقات وسطى تم فيها الانتقال .. فأهالي (ماليزيا) كانوا يسلبون زوجاتهم سلباً ، ولكنهم كانوا يعودون بعدئذ فيجعلون هذه السرقة مشروعة بأن يدفعوا لأسرة الزوجة مبلغاً من المال .. كذلك عند بعض أهالي (غانا) الجديدة كان الرجل يخطف الفتاة وبينما هي في مخبئها يرسل أصدقاءه ليساوموا أباها في ثمنها .. والزواج بالشراء يبدو أضعافاً كثيرة وهو تطور طبيعي لنظام الأسرة الأبوية لأن الوالد يملك ابنته .

ولدى قبائل (البابو) في(أندونيسيا) حتى عصرنا هذا ، يعد نظام تعدد الزوجات أمراً طبيعياً بل هو أكثر من ذلك دلالة على الثراء وعظم المقام ، فالنساء والخنازير هي من حيث الدلالة سواسية على الثراء ، وهي مفتاح الزعماء نحو السلطة والتمتع بالامتيازات والنفوذ .. وكبير الزعماء يملك خمساً وأربعين امرأة ، وللزواج شروط وتقاليد يحترمها ويعمل بها الجميع دون استثناء ، وعلى الزوج قبل أن ينفرد بزوجته أن يمنح عائلة الزوجة ثلاثة خنازير ، أما في حال تخلف المرأة عن زوجها فعليها أن تعيد الخنازير الثلاثة الى مكانها الأصلي هذا إذا ما رغب في ذلك .

٥ ـ الزواج الفردي او العائلة الاحادية :

إن نمو ملكية الثروات وتطورها وتحولها من مشاعية تعود للعشيرة الى ملكية خاصة للعائلات ، أخذ يستدعي تطوراً في أسس نظام الزواج الثنائي والعشيرة الأمومية ، وبينما كان تقسيم العمل السابق الفصول آنئذ يقسوم على استحصال الزوج على الغذاء وأدوات العمل الضرورية ، وكان له بالتالي حق ملكيته لهذه الأدوات بحيث يأخذها معه عند انتهاء الزواج ، وبحيث تحتفظ الزوجة بالآلية المنزلية ، وبحيازة الرجل لملكية خاصة تثبت سيطرته على النساء في الأسرة والمجتمع ، وأصبح وضع المرأة ثانوياً ومحصوراً بالمنزل نتيجة تطور الملكية .

كان المتوفى في العشيرة يرثه أنسباؤه في هذه العشيرة التي ينبغي بقاء الارث ضمنها ، وكانت الموروثات الفضيلة تنتقل منذ القديم الى أقرب الأنسباء أي الاقرباء بالدم من ناحية الام ، وكان أولاد الرجل المتوفى لا ينتمون الى عشيرته ، بل الى عشيرة أمهم .. الخ . ولكنه بمقدار ما كانت الثروات تتنامى ، كانت من جهة تعطي للزوج في العائلة مركزا أهم من مركز الزوجة ، وكانت من جهة أخرى تولد السعي الى الاستفادة من هذا المركز المترسخ لاجل تغيير نظام الوراثة التقليدي في مصلحة الاولاد . غير أنه لم يكن من الممكن أن يتحقق هذا طالما كان النسب يجب تبعا للحق الامومي . ولهذا كان ينبغي الغاء هذا الحق فالغي ، ولم يكن ذلك صعبا بالقدر الذي نتصوره الآن ، وكان يكفي فيه اتخاذ موقف بسيط يتضمن بأن تبقى ذرية أعضاء العشيرة الرجال في المستقبل ضمن العشيرة ، وبأن تخرج ذرية أعضاء العشيرة النساء منها وتنتقل الى عشيرة والدها ، وهكذا ألغي الانتساب حسب حبل النسل النسائي وحق الوراثة حسب خط الوالد .. أما متى حصل هذا ومدى يقينيته فإنه مجرد افتراضات وملاحظات ومعلومات مجمعة عن الشعوب البدائية التي تم فيها التغيير والانتقال .

ونتيجة إقرار سلطة الرجال على هذا النحو ، أخذ يظهر تلقائيا شكل العائلة البطريركية (الابوية) التي تتميز بخضوعها للسلطة الابوية وبضم العبيد اليها . ومثالها النموذجي الاسرة الرومانية والتي تعبر عنها كلمة (فاميليا) التي تعني مجموعة عبيد يخضعون رجلا واحدا ، هو الرئيس والسيد على المرأة والاولاد وعدد معين من العبيد يملك عليهم بحكم سلطته الابوية جميعا حق الحياة والموت . فشكل العائلة هذا يعني الانتقال من الزواج الثنائي الى أحادية الزواج ، ولأجل ضمان أمانة المرأة ، وبالتالي لأجل ضمان أبوة الاولاد توضع الزوجة المطلقة تحت سلطة زوجها ، واذا قتلها فإنه لا يفعل غير ممارسة حق مباح له .

ومع ظهور العائلة البطريركية ندخل ميدان التاريخ المكتوب الذي يعطينا القانون المقارن فيه معلومات واسعة في هذا الشأن .

ولكن آراء (انجلز) المعروضة هنا قد جوبهت بآراء مخالفة ، وما جوبهت به ، أنه توجد بيانات كثيرة تبين أن النساء لسن مساويات كليا الرجال في معظم المجتمعات اللاطبقية التي تنعدم فيها الملكية الخاصة ، كما أن هنالك مجتمعات طبقية وغير طبقية تملك النساء فيها وترث .

ومع ذلك بقيت هذه الآراء المتفقة مع آراء العلماء التطوريين في القرن التاسع عشر سائدة بصورة عامة ، لا سيما أن الادلة التي سيقت لتأكيدها والاستدلال عليها كثيرة .. ومن هذه الامثلة أن المشاعية البيتية البطريركية التي كانت عند الصرب والبلغار باسم (زاد روغا) وتعني تقريبا رابطة تعاونية أو (براتشنو) أخوية ، وفي شكل آخر عند الشعوب الشرقية ، قد شكلت الدرجة الانتقالية من العائلة التي انبثقت من الزواج الجماعي وقامت على الحق الامومي الى العائلة الفردية في العالم الحالي . وهذا على ما يبدو ثابت فعلا ـ على الاقل ـ فيما يخص الشعوب المتمدنة في العالم القديم ، وفيما يخص الآريين والساميين (فزاد روغا سلافيني) الجنوب كانت تضم بضعة أجيال من أصناف ينحدرون من أب واحد مع زوجاتهم ، وأنهم يعيشون في بيت واحد ويمرثون حقولهم بصورة مشتركة ويأكلون ويلبسون من الاحتياطات المشتركة ، ويملكون معا الدخل الفائض ، وتخضع المشاعة للادارة العليا لرب البيت الذي يمثلها حيال العالم الخارجي ، والنساء يخضعن مع ما يقمن به من أعمال لقيادة ربة البيت التي هي عادة زوجة رب البيت ، وهي أيضا تضطلع بدور هام غالبا ما يكون الدور الحاسم ، عند اختيار الازواج لأجل فتيات المشاعة .. ولكن السلطة تنحصر في المجلس العائلي في اجتماع جميع أعضاء المشاعة الراشدين سواء منهم النساء والرجال .

وهذه المشاعات العائلية كانت تمد جذورها عميقا في العادات الشعبية الروسية ، وهي ترد في أقدم المجموعات الروسية للقوانين ، كما توجد أيضا اشارات اليها في المصادر التاريخية البولونية والتشيكية .

إن العائلة الابوية القائمة على سيادة الزوج ، مع الرغبة الصريحة في ولادة أولاد تكون أبوتهم ثابتة ، إنما نشأت من العائلة الثنائية في المرحلة الواقعة بين

الطورين الاوسط والاعلى من أطوار البربرية ، وانتصارها النهائي هو علاقة من العلائم على بداية تطور الحضارة . وهي تمتاز عن الزواج الثنائي بكون عرى الزواج أمتن ، وبأنه لم يبد من الممكن فسخ هذه العرى كلما طاب لأحد الزوجين .. فالزوج وحده على العموم هو الذي يسعه أن يفسخها ويطلق امرأته .. وحق الخيانة الزوجية يكاد يكون مباحا للرجل ، بينما تتعرض الزوجة لأقسى عقاب ..

وشكل العائلة الاحادية الجديد يظهر بكل صراحته عند الاغريق كما سنرى .. ولكننا نشير هنا الى أن أحادية الزواج قد نشأت كما تشير الابحاث ، عند أكثر الشعوب في العالم القديم حضارة وأكثرهـا تطورا ، وانهـا لم تكن ثمرة الحب الجنسي الفردي ، وكانت أول شكل للعائلة لم يرتكز على الشروط الطبيعية ، بل ارتكز على الشروط الاقتصادية ، أي انتصار الملكية الخاصة على الملكية المشتركة البدائية والعفوية ، فالهدف الوحيد من الزواج الاحادي كما نادى به اليونـان بكل وضوح أن يرث أولاد الرجل من صلبه ثروته . وإن هذا الزواج لم يدخـل التاريخ بوصفه اتحادا اختياريا بين رجل وامرأة بل انه يظهر كاستعباد جنس مـن قبل الآخر كاعلان لتناقض بين الجنسين لم يعرفه التاريخ كله من قبل .

ولهذا يعد أول اضطهاد طبقي يصادف استعباد جنس النساء من قبل جنس الرجال ، هذا وسنرى أن العائلة لم تتخذ مطلقا في كل مكان وكل زمان الشـكل الكلاسيكي الصارم المعروف لدى الاغريق بل إنها تطورت عبر تاريخها فوصلت الى الزواج الاحادي الذي لا بد له أن يتطور كما يقول (مورغان) بتطور المجتمع . وطالما أنه نتاج نظام اجتماعي معين ترقت فيه العائلة الاحادية الزواج منذ بداية عصر الحضارة ، فإنه لا بد أن يقود التطور المستمر الى تطور حتمي في وضع الأسرة وإن كان من الصعب التنبؤ باتجاهه ومداه .

وقد بدأت تباشير التطور والتغيير تبرز في هذا القرن ـ كما سنرى ـ ولكننا ونحن ننهي هذه النبذة عن الزواج الاحادي نرى من المفيد الاشارة الى أن هـذا الزواج بواحدة هو أكثر أشكال الزواج شيوعا في عصرنا ، فرغم أن بعض الدراسات

التي أشرنا اليها والتي جرت لـ / ٥٦٥ / مجتمعا أشارت الى أن / ٢٥٪ / فقط منها يطبق الزواج الاحادي بدقة ، فإن هذا الشكل في الحقيقة هو الشكل الوحيد المنتشر في جميع مجتمعات العالم في عصرنا ، ومع ذلك يبدو أن الرجال ميالون للزواج بواحدة فقط مع التردد ، حيث يلاحظ في المجتمعات التي تمنع الزواج بأكثر من واحدة مثل مجتمع الولايات المتحدة الاميركية تحدث سلسلة من طلاق يتبعه زواج ثان ، وربما ثالث ورابع ، ومما يجعل الشكل السائد هنالك أقرب الى أن يكون تعدد زوجات وأزواج بالتسلسل ، أي تعدد الازواج والزوجات فعلا ولكن الواحدة تلو الاخرى أو الواحد تلو الآخر .. على أن الهام في الزواج بواحدة ليس عدد المرات التي يتزوج فيها المرء ولكن كون الزوج مرتبطا بزوجة واحدة خلال فترة زواجه منها وكذلك الزوجة .

ثالثا ـ العشيرة(٢٢)

العشيرة وحدة اجتماعية تعد امتدادا للأسرة وتتميز بتسلسل قرابي معين يتفق مع نظام سكني خاص ولذلك هي وحدة مكانية ، ويعتقد افراد العشيرة الواحدة بوجود جد مشترك قام بتاسيس العشيرة وأحيانا يكون ذلك الجد شخصية أسطورية . وفيما يلي مناقشة أهم خصائص العشيرة :

آ ـ اختلف الانثروبولوجيون في تعريف العشيرة ، واعتقد أن أحدث تلك التعاريف وأكثرها انتشارا تعريف العلامة « ميردوك » ويتلخص هذا التعريف في ان العشيرة جماعة ـ تتميز بقيامها على اساس تسلسل قرابي واحد من جانب الاب اي ابوي او من جانب الام وتتميز ايضا بتوافر وحدة مكانية لافراد العشيرة ، اي ان يعيش افرادها في مكان واحد ، ولذلك لا بد ان تكون القاعدة السكنية التي تتبعها العشيرة متوافقة مع قاعدة التسلسل القرابي ، وهناك ايضا شرط ثالث للعشيرة تتمثل في وجود تماسك اجتماعي قوي بين افراد العشيرة وتظهر تلك العناصر الثلاثة بصورة اوضح في عرض الخواص الاخرى للعشيرة .

---

٢٢) الفقرات من ثالثا حتى سادسا من كتاب د. عاطف وصفي الانثروبولوجيا الاجتماعية .

ب ـ للعشيرة ثلاثة أشكال ، يسمى الشكل الأول والأكثر انتشارا « العشيرة الابوية » وهي تتكون من تجمع جماعة أبوية حول أعضائها الذكور عن طريق قاعدة « السكنى مع والد الزوج » وبالتالي تجمع تلك العشيرة كل الذكور والاناث غير المتزوجات للجماعة الابوية وكذلك زوجات الذكور المتزوجين ، وعندما تتزوج الانثى تترك عشيرتها وتنقل الى عشيرة زوجها تبعاً لقاعدة السكنى . يتبع ذلك الشكل من العشيرة التسلسل القرابي الابوي ولذلك يورث اسم العشير الى أعضائها الذكور ، ويصبحون مشتركين جميعا في هذا الاسم المشترك ، أما الاناث فهن يحتفظن بالاسم لفترة محدودة تنتهي عندما يتزوجن وعند ذلك يتخذن اسم عشائر أزواجهن وتوافق قاعدة التسلسل القرابي الابوي مع قاعدة السكنى مع والد الزوج . وهكذا فان الابن يرث ممتلكات ابيه واسم العشيرة وكذلك يعيش في منزل والده أو بالقرب منه . ولاحظ العلامة « ميردوك » وجود العشيرة الأبوية في (٧٢) مجتمعا من عينته التي تبلغ (٢٥٠) مجتمعا .

الشكل الثاني يمكن تسميته « العشيرة الامية » نسبة لسلام وتتكون عندما تتجمع « جماعة أمية حول أعضائها الاناث في طريق قاعدة السكنى مع أم الزوجة ، وهكذا تشمل كل الاناث والذكور غير المتزوجين وأزواج الاناث المتزوجات . وعندما يتزوج الذكور فانهم يتركون عشيرة والدتهم وينضمون الى عشائر زوجاتهم . ونلاحظ هنا أيضا توافقا بين قاعدة النسبة وقاعدة السكنى ، فهذا الشكل يطبق قاعدة التسلسل القرابي من جانب الام حيث ترث الفتاة من أمها اسم العشيرة وممتلكات الام ، ويطبق كذلك قاعدة السكنى مع أم الزوجة وهكذا تعيش الفتاة بعد زواجها مع أو بالقرب من أمها وبالتالي يسهل انتقال الارث اليها ، ولكن هذا الشكل أقل انتشارا من العشيرة الابوية فبينما وجد « ميردوك » أن (٧٢) مجتمعا في عينته يأخذ بنظام العشيرة الابوية وجد (١١) مجتمعا يطبق نظام العشيرة الامية .

أما الشكل الثالث والاخير فهو نادر اذ لاحظ « ميردوك » أن أربعة مجتمعات

فقط من عينته البالغة (٢٥٠) مجتمعا تطبق شكلا اطلق عليه اصطلاح «عشرة الخال» التي تتكون عندما يجتمع اعضاء « جماعة أمية » حول أعضائها الذكور (الاخوال) وليس حول اعضائها الاناث، ويتم ذلك عن طريق الاخذ بقاعدة « السكنى مع الخال » ويبدأ ذلك الشكل في التكوين عندما يأخذ المجتمع بقاعدة ترك الاولاد لمنازل آبائهم والسكنى مع أخوالهم ، وعندما يتزوجون يأتون بزوجاتهم الى منازل أخوالهم أو يقطنون بالقرب منهم ، وينتج عن ذلك في النهاية مجموعة من الذكور الاقارب الذين يشتركون في علاقة قرابية ثنائية وهي علاقة الخال بابن أخته ، ومع هؤلاء الذكور زوجاتهم وأطفالهم . وكثيرا ما يتزوج الذكور في تلك العشائر من بنات أخوالهم ، ويوجد في ذلك الشكل تسلسل قرابي امي وأيضا قاعدة « السكنى مع الخال » ، ويجب ملاحظة ان الذكور فقط هم الذين يسكنون مع أخوالهم ويتزوجون بنات اخوالهم وبالتالي تتكون عشيرة الخال ، اما الاناث فهن يطبقن نظام « السكنى مع أم الزوجة »، وبالتالي يتكون الشكل الثاني للعشيرة وهو « العشيرة الامية ».

ونظرا لندرة هذا الشكل الاخير أشير الى أسماء بعض المجتمعات التي تأخذ به ، فمن الهنود الحمر في الخليج الشمالي الغربي لامريكا الشمالية نجد قبائل « هايدا » و « تلينجت » ، كما يطبق في قبيلة « لونجودا » في شمال نيجيريا

جـ ـ تختلف العشائر في الحجم فأحيانا تكون كبيرة الحجم بحيث تشمل المجتمع المحلي كله وتصبح العشيرة وحدة سياسية شبه مستقلة ويرأسها رئيس العشيرة . وقد تكون العشيرة صغيرة الحجم وبالتالي لاتشتمل على المجتمع المحلي المؤلف من عدة عشائر وتسكن كل عشيرة في حي أو مكان خاص بها ، وبالنسبة لعينة السلامة « ميردوك » نلاحظ ان المجتمعات ذات العشيرة الواحدة اكثر انتشارا من المجتمعات متعددة العشائر ، بينما يوجد الشكل الاول في (٤٥) مجتمعا يطبق الشكل الثاني في (٢٧) مجتمعا فقط .

د ـ يعتقد أعضاء العشيرة الواحدة أنهم من نسل جد مشترك سواء أكان

ذكر أم انثى تبعا لتشكل العشيرة ، وأحيانا يكون هذا الجد خرافيا فمثلا في قبائل « داهومي » بغرب افريقيا نجد عشيرة يعتقد افرادها ان مؤسس عشيرتهم هو ابن حصان ، وتروى اسطورة قصة هذا المؤسس بأن حصانا جامحا خرج من النهر واتصل جنسيا بأنثى بشرية على شاطىء النهر ، ويعتقد أفراد عشيرة أخرى انهم من نسل ابناء أنثى بشرية وخنزير ، وعشيرة ثالثة تعتقد أن مؤسسها أحد ابناء انثى بشرية وكلب ، ويجب ملاحظة ان أفراد تلك العشائر يعاملون تلك الحيوانات بطرائق خاصة تتمثل في طقوس معينة وغالبا ما يطلقون على عشائرهم اسم ذلك الحيوان فيقال عشيرة الحصان وعشيرة الخنزير وما الى ذلك . ولا شك ان السبب في ذلك الاساطير هو عدم معرفة أفراد العشيرة أصولهم وأجدادهم القدماء .

هـ ـ تقوم العشيرة بعدة من وظائف اجتماعية أهمها ما يأتي :

١ ـ التضامن الاجتماعي :

العشيرة وحدة اجتماعية يسودها التماسك والتضامن الاجتماعي ولذلك يسارع جميع افراد العشيرة الى مساعدة العضو الذي يحتاج الى العون . ويترتب على هذا التضامن الاجتماعي شعور أفراد العشيرة بالامن والاستقرار ، وهو شعور أقوى من ذلك الذي يسود الاسرة الواحدة ، وذلك لان العشيرة أكبر حجما من الاسرة وأكثر قوة . ويقدم أعضاء العشيرة الواحدة أنواعا من العون لبعضهم فمثلا قد يشتركون جميعا في جمع النقود اللازمة لدفع مهر عروسه أحد أفراد العشيرة ، وقد يصل العون الى درجة حماية حياة أحد افرادها ، ويلعب نظام «الاخذ بالثأر» دورا هاما في هذا المجال ، حيث لاتشمل الحماية فترة حياة عضو العشيرة وانما لا بد للعشيرة ان تأخذ بثأره اذا اعتدى على حياته . ان هذه المسؤولة الجماعية المتوافرة لاعمال أعضائها وحياتهم تجعل من العشيرة وحدة اجتماعية متماسكة .

٢ ـ الامن الداخلي والخارجي :

تقوم العشيرة بعملية الضبط الاجتماعي وتوفير الامن الداخلي لاعضائها ، ويتم ذلك عن طريق قيام رئيس العشيرة وأعوانه بالاشراف على تطبيق القانون

الذي يتمثل في مجموعة من التقاليد والاعراف ، ويوضح لنا العلامة « هوجين » تلك الوظيفة عن طريق ذكر حادثة وقعت في قبيلة « أو تنتج جاواه » في بولينيزيا ، فقد حدث أن قام رئيس العشيرة بتقريع اخوين فشلا في القيام بالعمل المطلوب منهما ، ولكنهما لا يقبلان هذا التقريع وبدلا من كبت ذلك الشعور فانهما يردان على رئيس العشيرة ويشتمانه ولكن يحدث بعد فترة من الزمن أن يتهم أحد الاخوين بجريمة الزنا مع زوجة أحد اعضاء العشيرة المحسنين ، فيصدر الرئيس أمره بان يترك الاخوان العشيرة ، ويعد عقاب النفي من اشد العقوبات في معظم العشائر ، ونلاحظ هنا المسؤولية الجماعية فان أحد الاخوين عوقب على جريمة لم يرتكبها أخوه ، وبما أنهما لم يصبحا من أعضاء العشيرة ، فان الرجل الذي انتهكت حرمته يصبح حرا في تعقب الزاني ومعاقبته بطريقته الخاصة ولن يساعد الزاني أحد من أسرته أو عشيرته السابقة ، يعطينا المثال السابق صورة عن الوسائل المستخدمة في حفظ الامن الداخلي وفي عملية الضبط الاجتماعي في العشيرة .

٣ ـ تنظيم الزواج :

تقوم العشيرة الطوطمية بتنظيم عملية اختيار الطرف الثاني في الزواج وأساس هذا التنظيم نظام أو قاعدة « الزواج من الخارج » ، وبما أن أعضاء العشيرة أقارب فانه تبعا لتلك القاعدة يحرم الزواج بين أعضائها وعلى العضو ان يتزوج من خارج عشيرته أي من عشيرة أخرى . ويعلق العلامة « مالينوفسكي » على تلك الوظيفة الهامة بأنها جهاز يهدف لتأكيد تماسك العشيرة عن طريق توجيه اشباع الدافع الجنسي نحو أفراد من خارج العشيرة ، فلا تحدث مشاجرات بين أعضاء العشيرة الواحدة بسبب التنافس على زواج الفتيات الجميلات . وتؤدي « قاعدة الزواج من الخارج » دورا هاما في توفير علاقات الود والتعاون بين العشائر التي يجمع الزواج بين بعض أفرادها ، ويجب ملاحظة ان العشائر غير الطوطمية مثل القبائل البطون العربية تتبع نظام الزواج من داخل العشيرة وتفضل الزواج من ابنة العم .

٤ ـ تنظيم النشاط الاقتصادي :

العشيرة هي مالكة الارض التي تعيش عليها ، ويقوم رئيس العشيرة بتوزيع

العمل عن طريق تقسيم الارض الى أقسام وتقوم عائلة أو أكثر بالعمل في القسم الواحد ، والعمل في الارض واستغلالها حق لكل أعضاء العشيرة اذا كانوا حسني السيرة أي لم يرتكبوا جرائم ، وهؤلاء لهم حق استخدام الارض دون ملكيتها ، وقد يحدث أن تملك العشيرة بصورة مشاعة المباني الهامة مثل المعابد وأماكن الاجتماعات والاشياء المقدسة وأدوات الطقوس .

٥ ـ اجراء الطقوس الدينية :

يكون رئيس العشيرة في معظم الاحيان رئيس الكهنة في الوقت نفسه ، وينظر اليه على أنه الواسطة بين أعضاء العشيرة وأجدادهم الموتى الذين يوضعون في منزلة مقدسة ، وفي حالة تجمع عدة من عشائر في قبيلة واحدة تقوم كل عشيرة بطقوس دينية معينة في الاحتفالات العامة التي تحضرها عشائر القبيلة . ويراقب الكاهن ومساعدوه احترام الطقوس الدينية ويعاقبون المخالفين .

٦ ـ تنظيم النشاط السياسي :

يظهر النشاط السياسي بصورة واضحة عندما تجتمع مجموعة من العشائر في قبيلة ، عند ذلك يجمع مجلس القبيلة رؤساء العشائر ، ويقوم ذلك المجلس بتنظيم النشاط السياسي في كل العشائر التابعة للقبيلة ، وقد يحدث أن تصبح عشيرة النشاط السياسي في كل العشائر التابعة للقبيلة ، وقد يحدث ان تصبح عشيرة رئيس القبيلة هي العشيرة الملكية وتحظى بامتيازات خاصة ، ومن أمثلة ذلك قبائل « التروبريانذر » بن بلانيزيا وقبائل « داهومي » و « اشانتي » في افريقيا . ومن أوجه النشاط السياسي عمليات اختيار رؤساء العشائر أو انتخابهم واعلان الحرب وتنظيم شؤون الدفاع .

رابعا ـ القبيلة

القبيلة وحدة اجتماعية تجمع عدة من عشائر أو مجتمعات محلية وتنتشر في المجتمعات البدائية وتتميز بما يأتي :

أ ـ وحدة المكان واللغة والثقافة ، ويلاحظ أن كل عنصر من تلك العناصر لا يكون وحده القبيلة وانما لابد من توافر تلك العناصر معا ، وينتشر استخدام اصطلاح قبيلة ، فنقول الشلوك وقبيلة الاشانتي وقبيلة هايدا وقبيلة ماساي وقبيلة البجة .

ب ـ يشمل أفراد المجتمعات المحلية التي تتكون منها القبيلة قطعة أرض مشتركة ويتكلمون لغة واحدة ويطبقون انماطا حضارية مشتركة ، ويترتب على ذلك سهولة التفاعل الاجتماعي بين أعضاء القبيلة الواحدة لاشتراكهم في المكان واللغة والثقافة ، ولذلك يشعرون باتمائهم جميعا الى مجتمع واحد وتسود بينهم مظاهر التعاون والود والتماسك الاجتماعي ، يتضح هذا التماسك في المناسبات الدينية حيث تقام طقوس عائلية يشترك فيها ممثلون عن جميع الوحدات الاجتماعية الفرعية ، كذلك الحال في حالة الخطر فعندما يتعرض أي جزء من القبيلة للخطر تهب القبيلة كلها للدفاع .

جـ ـ توجد تنظيمات شكلية في القبيلة تعمل على تأكيد وحدتها وتماسكها الاجتماعي وبالتالي تحافظ على كيانها واستمرار وجودها ، أهم تلك التنظيمات التنظيم السياسي ، يمثل القبيلة رئيس يحظى باحترام الجميع ، ويشاركه في رعاية شؤون القبيلة مجلس يسمى « مجلس القبيلة » ويتكون في الغالب من رؤساء العشائر اذا كانت القبيلة تتكون من عشائر أو من رؤساء المناشر اذا كانت القبيلة دون عشائر .

ويتعلم أعضاء القبيلة منذ صغرهم ومن خلال تجوالهم في انحاء القبيلة التنظيمات الرسمية مثل كيفية الاشتراك في مجلس القبيلة ، وكذلك أنماط السلوك غير الرسمي مثل كيفية التعرف على أعضاء القبيلة وماذا يتوقعون منهم في الظروف المختلفة ومتى يقدم لهم الطعام وكرم الضيافة ، وهكذا تستمر القبيلة من جيل الى جيل حيث يعلم الجيل القديم الجيل الجديد تقاليد القبيلة ونظمها .

د ـ أهم وظائف القبيلة كوحدة اجتماعية وتظهر أهميتها وظائفها ، ويترتب

على قوة الشعور الجماعي بوحدة القبيلة أن يسرع كل أعضاء القبيلة للدفاع في حالة تعرض أي جزء من القبيلة للغزو وكأن هذا الغزو قد شملهم جميعا ونلاحظ فرقا كبيرا بين معاملة أعضاء القبيلة لبعضهم ومعاملتهم لاعضاء القبائل الاخرى ، فهي الغالب يعاملون الغرباء كما يعاملون الحيوانات التي يصيدونها ، وهكذا يتحول الفرد الذي يعامل أعضاء قبيلته بكل رفق وحب وتعاون الى شخصية أخرى عندما يتعامل مع الغرباء (من خارج قبيلته) فيصبح قاسيا عنيفا .

ونلاحظ أنه بينما تقوم القبيلة بوظيفة هامة في شؤون الحرب والدفاع نجدها ضعيفة التأثير في ظواهر اجتماعية اخرى مثل التربية والضبط الاجتماعي والزواج، فهذه الشؤون يقوم بتنظيمها الاسرة أو المجتمع المحلي. خلاصة القول ان القبيلة تقوم بوظيفتين أساسيتين الاولى تتعلق بالتنظيم السياسي للاقسام الفرعية بحيث تظهر كوحدة اجتماعية ، والوظيفة الثانية هي تنظيم شؤون الدفاع والحرب ، أما في حالة السلم فان القبيلة وحدة القبيلة تكون اضعف واقل وضوحا وذلك لان قسم في القبيلة يتكون مهتما بشؤونه الداخلية ، فالعشيرة هي وحدة اجتماعية شبه مستقلة اقتصاديا واجتماعيا . ويترتب على ذلك ان القيادة في القبيلة اضعف في تأثيرها في سلوك الافراد من القيادة في العشيرة ، وذلك لان أساس الحياة الاجتماعية في العشيرة تقوم على الاتصالات الشخصية اي وجها لوجه ، اما الحياة الاجتماعية بالنسبة للقبيلة كلها فانها لا تتوافر الا في فترات موسمية مثل المناسبات والاعياد الدينية أو في فترات مؤقتة مثل وقت الحروب .

انتقل بعد ذلك الى الجانب الثاني للبناء اجتماعي وهو النظم الاجتماعية وإتساقا مع اتجاه الكتاب فان التطبيقات تنحصر في المجتمعات شبه البدائية .

خامسا ـ النظم الاجتماعية للمجتمعات شبه البدائية :

لا يمكن للمجتمع أو يوجد أو يستمر دون تفاعل أفراده أي دون علاقات اجتماعية تربط بينهم وتساعدهم على اشباع حاجاتهم الاولية والثانوية ولا يتم تفاعل الافراد بعضهم بصورة عشوائية غير منتظمة وانما هناك ضوابط تحدد

الصور التي يجب أن تسير عليها العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع الواحد وكذلك بين أفراد المجتمع والغرباء ، وهذه الضوابط للسلوك الاجتماعي هي ما نقصده باصطلاح النظم الاجتماعية ، وكلما استمرت النظم الاجتماعية في تأدية وظائفها استمر واستقر المجتمع ، ويقول العلامة (رادكليف ـ براون) في هذا الشأن:

« النظم الاجتماعية أساليب نمطية للسلوك الاجتماعي ويتكون منها الجهاز الذي عن طريقه يستطيع البناء الاجتماعي أن يستقر ويستمر » .

يتضح مما سبق ان النظم الاجتماعية تمثل انماطا للعلاقات الاجتماعية وليس الحالات الفردية لتلك العلاقات ، ويقوم الانثروبولوجي الاجتماعي بتصنيف انماط العلاقات الاجتماعية في مجتمع ما على وأساس مبادىء عامة متفق عليها ، فمثلا يدخل كل أنماط العلاقات الاجتماعية الخاصة بالانتاج والتوزيع والاستهلاك في مجال النظام الاقتصادي وكذلك الحال بالنسبة للنظم الاجتماعية الاخرى مثل النظام القرابي أو الديني أو السياسي أو الاخلاقي ، ولا تخرج الوظيفة العامة التي تقوم بها تلك النظم عن الحفاظ على البناء الاجتماعي للمجتمع حتى يستطيع البقاء والاستمرار ، ويستمر المجتمع في الوجود لان جميع أفراده يعرفون نوع السلوك الذي يتوقعه اخوانهم منهم وكذلك أنواع السلوك التي يتوقعونها هم انفسهم من اخوانهم في مختلف مواقف الحياة الاجتماعية .

وهكذا يستطيع أعضاء المجتمع التكهن بالعلاقات الاجتماعية التي يمكن ان تحدث في ظروف معينة وبالتالي يستطيعون ترتيب حياتهم بما يتفق مع توقعات الاخرين .

وخلاصة القول ان النظم الاجتماعية هي في مجموعها الجهاز الذي يعمل على استقرار المجتمع واستمراره وبنائه الاجتماعي .

وفيما يلي عرض موجز لأهم النظم الاجتماعية التي تعمل على استقرار الاشكال المورفولوجية سابقة الذكر واستمرارها .

٢ ـ النظم القرابية :

يقول العلامة (ايفانز بريتشارد) في وصف قبيلة « النوير » بالسودان :

« اذا أردت أن تعيش بين مجتمع « النوير » عليك ان تحترم النظم التي تسير ذلك بذلك ، وتنص تلك النظم على معاملتهم كأقارب لك وهم يعاملونك كأحد أقاربهم ، ويترتب على تلك العلاقات القرابية حقوق وواجبات ومسؤوليات ، وفي ذلك المجتمع يكون الفرد اما قريبا لجميع أفراده واما غريبا ويعامل معاملة الاعداء ».

يتبين من تلك الفقرة الاهمية الكبرى للنظام القرابي في ذلك المجتمع شبه البدائي فان أي فرد في العالم اما قريب لهم او عدوهم ، ولا يمكن لاحد أن يعيش في مجتمعهم الا اذا كان قريبا لهم ، وليس من اللازم ان تكون قرابة بيولوجية (حقيقية) فكثيرا ما تكون قرابة اجتماعية ، وعن طريقها يصبح الفرد قريبا لأفراد المجتمع بعد أداء طقوس معينة ، وقد أشارت الدراسات الميدانية اهتمام المجتمعات البدائية بالنظام القرابي بصورة أقوى كثيرا من المجتمعات المتمدينة وفيما يلي عبارات بسيطة جاءت على لسان أحد الهنود الحمر من قبيلة « يوميو » بكاليفورنيا ، وهو رجل عجوز أخذ يناجي نفسه وقد تعرض لذلك الموضوع بأسلوب بسيط يتفق مع مجتمعه ، فيقول :

« ما هو الرجل ؟ الرجل لا شيء ، فهو دون أسرته يصبح أقل احتمالا من بصقة ! فعلى الاقل يمكن استخدام الاهل في المساعدة على وضع السم بعد أما اذا كان الرجل دون أهل فلن توافق امرأة على الزواج منه .. وسيصبح كذلك من طفل حديث الولادة وحتى افقر مسن دودة .. أما عند الرجل الابيض (في الولايات المتحدة الامريكية) فالاسرة ليست بتلك الاهمية ، حيث يقوم البوليس والجيش بحماية الفرد ، وتعطيه المحاكم الحكم العادل ، وتقوم مكاتب البريد بتوصيل رسائله ، وتوجد المدرسة التي تعلمه هو وأولاده ، كل شيء يعتني به حتى الاطفال بعد موت أبيهم ، أما هنا فتقوم الاسرة بكل تلك الاعمال ».

يوجد النظام القرابي في كل مجتمع انساني وكل ثقافة ولذلك يعد نظاما

عالميا ، فلا يوجد مجتمع انساني دون نظام يحدد العلاقات القرابية بين أفراده ، وتعرف الجماعات الانسانية التي تقوم على أساس الصلات القرابية باصطلاح « الجماعات الاسر » و « الجماعات القرابية الدموية » ، والفرق بينهما أن القسم الاول يتميز بالسكنى معا في مسكن مشترك ولذلك تسمى « جماعة قرابية سكنية » أما الجماعة القرابية الدموية فلا تتميز بالمسكن المشترك . وكذلك يتميز القسم الاول بوجود علاقة قرابية أساسها الزواج بينما لا توجد تلك العلاقة في القسم الثاني .

يطلق على القواعد التي تحدد أعضاء الجماعة القرابية الدموية لاعضاء مجتمع ما اصطلاح « قواعد التسلسل القرابي » وتختلف تلك القواعد بصورة كبيرة من مجتمع لآخر ، ويجب ملاحظة ان هذه القواعد من وضع المجتمع وليست هي العلاقات السلالية البيلوجية التي يدرسها علم الوراثة ، وفي أحيان كثيرة لا يحترم المجتمع تلك العلاقات البيولوجية ، ويمكن تلخيص أهم قواعد التسلسل القرابي التي تشير عليها المجتمعات فيما يلي:

١ ـ التسلسل القرابي الابوي:

عندما يولد الطفل في أسرة ما ، يكون المجتمع قد وضع من قبل القاعدة التي تحدد أقارب هذا الطفل ومن هم غير أقربائه ، وتبعا لتلك القاعدة فان الطفل سواء أكان ذكرا أم انثى يلحق أو ينتمي الى « الجماعة القرابية الدموية » التي ينتمي اليها والده ، ويصبح بالضرورة عضوا فيها ، أما أهل والدته فلا يعدون أقاربه . والجماعة القرابية لها أهمية كبرى لاعضائها ، فهي تمثل وحدة تعاونية دفاعية ، ولذلك يرجع اليها الفرد عند الحاجة .

٢ ـ التسلسل القرابي الامي :

تحدد تلك القاعدة أقرباء الفرد بأنهم الجماعة القرابية الدموية التي تنتمي لها أمه ، أما أهل ابيه فليسوا أقاربه . وبذلك يتسلسل خط القرابة عن طريق الاناث وليس الذكور .

٣ ـ التسلسل القرابي الثنائي الاختياري:

تحدد تلك القاعدة الجماعة القرابية التي ينتمي اليها الطفل على أنها تتكون من بعض أهل أبيه وليس كلهم وكذلك من بعض أهل امه وليس كل اهلها .

ونلاحظ ان معظم المجتمعات التي تأخذ بذلك النظام تحدد تلك الجماعة بالاقارب القريبين مثل العم والخال والجد سواء أكان ذلك من ناحية الام أم من ناحية الاب ، تطبق كل المجتمعات الاوروبية هذا النظام مع وجود اختلافات تفصيلية ، ولكن الصفة الغالبة هي حرية اختيار الاقرباء الذين يتعاون معهم الفرد بصورة قوية سواء أكانوا من أهل الام أم من أهل الاب .

٤ ـ التسلسل القرابي الثنائي الاجتماعي:

تحدد تلك القاعدة تكوين الجماعة القرابية التي ينتمي اليها الفرد على أنها تجمع الجماعة القرابية الابوية لابيه وكذلك الجماعة القرابية الامية لأمه ، ولذلك فان المجتمع الذي يأخذ بتلك القاعدة لابد ان يشمل جماعات قرابية ابوية وجماعات قرابية أمية ويجب ملاحظة ان الفرد حسب تلك القاعدة لا ينتمي الى الجماعات القرابية لابيه أو الى الجماعة القرابية الابوية لأمه وتختلف القاعدة عن السابقة في ان الشخص ليس حرا في اختيار الاقارب الذين يرتبط معهم بصورة قوية .

أهم تلك القواعد وأكثرها انتشارا في المجتمعات البدائية هي القواعد ذات الخط القرابي الواحد وبخاصة قاعدة التسلسل القرابي الابوي فنلاحظ أن (٥٠٪) من مجتمعات عينة العلامة « ميردوك » تطبق هذا النظام ، وتحتل قاعدة التسلسل القرابي الامي المرتبة الثانية اذ يطبقها (٢٥٪) من العينة أما القواعد الثنائية فهي أقل انتشارا في المجتمعات البدائية ، ولكنها تنتشر في المجتمعات المتمدينة .

تبين مما سبق أن قواعد التسلسل القرابي تحدد نطاق الجماعة القرابية الدموية التي ينتمي اليها الفرد ، ويوجد أنواع مختلفة لتلك الجماعات ، وأهمها « البدية » وتتكون من الاشخاص الذين يستطيعون تتبع تسلسلهم القرابي سواء

عن طريق الاب وهي البدنة الابوية أو عن طريق الام وتسمى « البدنة الامية »، وعندما لا يستطيع الافراد تذكر تسلسلهم القرابي وتتبعه بصورة دقيقة نظرا لكثرة عددهم أو لامتداد جذور جماعتهم الى الماضي البعيد ، فان الجماعة القرابية لا تعد « بدنة » وانما « بطنا » ، وقد يحدث أن تتكون العشيرة من بطنين فقط ، وبالتالي لابد أن ينتمي أي عضو في العشيرة الى أحد البطنين ، وفي تلك الحالة يطلق على كل « بطن » اصطلاح « النصف » ويرتبط « نصفا » العشيرة بعلاقات تبادلية تقوي التماسك الاجتماعي بينهما ومن أهم صورها الزواج ، فعلى كل بالغ في « نصف » العشيرة أن يتزوج من « النصف » الآخر .

ويجب ملاحظة ان « العشيرة » هي أيضا جماعة قرابية ولكنها تتميز بانها وحدة اجتماعية مورفولوجية يسكن جمع أفرادها في مكان مشترك .

ان الخاصية الغالبية عند جميع الجماعات القرابية الدموية هي تطبيق قاعدة « الزواج من الخارج » أي أن أفراد الجماعة القرابية الواحدة يتزوجون من خارج جماعتهم وذلك لشعورهم بأن روابط القرابة تصل في قوتها قوة روابط الاخوة والابوة ، ولذلك يمتد نظام المحارم فيشمل كل أعضاء الجماعة القرابية الدموية الواحدة ، ولكن هذه القاعدة ليست قاعدة عالمية اذ تبيح وتفضل العشائر العربية الزواج من داخل الجماعة القرابية الدموية اذ يتزوج الفرد من ابنة عمه .

لا يمكن دراسة النظم القرابية دون التعرض لموضوع « المصطلحات القرابية » ، فكل مجتمع انساني يميز بين « الاقارب » ويضع لكل واحد أو مجموعة منهم مركزا واصطلاحا خاصا ، ومن أهم وظائف الانثروبولوجي الاجتماعي تحديد المصطلحات القرابية وكذلك تحديد الدور الاجتماعي لكل مصطلح وقد استطاع العلامة « كروبر » أن يحصر المبادىء أو الاسس التي تستخدمها المجتمعات الانسانية في تصنيف « الاقارب » الى فئات وتسمية كل فئة باصطلاح معين، وقد لاحظ « كروبر » أن « المصطلح القرابي » قد يستخدم للدلالة على قريب واحد بالذات مثل اصطلاح أب في مجتمعنا وقد أطلق على هذا النوع اسم : « المصطلح

التخصصي أو الوصفي » ، وتوجد مصطلحات قرابية أخرى يستخدم الواحد منها للدلالة على الاقارب مثل اصطلاح عم في مجتمعنا وتسمى « مصطلحات تصنيفية» .

وفيما يتعلق بالمبادىء التي على أساسها تصنف المجتمعات « الاقارب » الى فئات وتعطى كل فئة اسما خاصا فقد حصرها العلامة « كروبر » في تسعة مبادىء وهي :

- **اختلاف الجيل** ، وبما أن « الاقارب » ينتمون الى أجيال مختلفة فقد اتفقت معظم المجتمعات الانسانية على تمييز أقارب كل جيل باصطلاحات خاصة مثل الجد والاب والابن والحفيد .

- **اختلاف اساس العلاقة القرابية** ، فقد يكون علاقة الدم وقد يكون علاقة الزواج ، ولذلك نجد « أقارب الدم » مثل الاب والاخ والاخت والجد والحفيد ، ويوجد « أقارب المصاهرة » مثل زوج الاخت وزوجة الاخ الزوجة وهكذا .

- **الاختلاف بين علاقة القرابة الراسية المباشرة والقرابة الافقية المتعالية** ، يقوم هذا الاساس على الحقيقة البيولوجية بأنه توجد في فئة « أقارب الدم » ذات الجيل الواحد والنوع الواحد أقارب أقرب صلة للانا من أقارب آخرين ، فمثلا أيهما أقرب لي ابي أم عمي ؟ لا شك أبي ، لوجود صلة قرابة رأسية مباشرة تربطني به ، ولا شك ان ابني أكثر قربا لي من ابن اخي ، وقد أخذت معظم المجتمعات بذلك الاساس واستخدمت اصطلاحات مختلفة للتمييز بين الاقارب تبعا له .

- **اختلاف نوع الاقارب** (ذكرا أم انثى)، فيطلق على الاخ اصطلاح مختلف عن اصطلاح الاخت رغم ان علاقة الاخوة واحدة ، وكذلك بالنسبة للخال والخالة أو العم والعمة ، وهذا بالنسبة للنظام القرابي العربي وكذلك النظام الاوربي .

ـ **اختلاف نوع الشخص الذي عن طريقه تكونت علاقة القرابة** فمثلا يستخدم العرب اصطلاح خال بالنسبة لشقيق الام واصطلاح عم للدلالة على شقيق الاب ، بينما لا يطبق الانجليز ذلك المقياس ولذلك يستخدمون اصطلاح للدلالة على العم والخال معا .

ـ **اختلاف الاصطلاحين في كل علاقة قرابية** ، فمثلا في حالة علاقة الابن والاب ، كلاهما يستخدم اصطلاحا مختلفا ، وبالنسبة للنظام القرابي العربي نجد هذا الاساس مطبقا في كل العلاقات القرابية فيما عدا العلاقة بين ابن العم والانا المذكر فكلاهما ينادي الاخر باصطلاح واحد هو « ابن عمي » . ان الاسس الستة السابقة هي الاكثر انتشارا في المجتمعات الانسانية اما الثلاثة التالية فهي نادرة التطبيق .

ـ **اختلاف نوع الانا** (ذكرا أو انثى) ، فمثلا عندما يكون (الأنا) مذكرا يستخدم اصطلاحا معينا لقريب معين ، ويتغير هذا الاصطلاح عندما يكون « الانا » أنثى رغم أن القريب المتحدث اليه هو الشخص نفسه .

ـ **اختلاف الاصطلاح القرابي في حالة وفاة الشخص الذي عن طريقه تكونت تلك العلاقة القرابية** ، فمثلا في حالة تطبيق تلك القاعدة لابد ان يتغير اصطلاح « خال » في حالة وفاة والدة الانا ، (لا يطبق النظام القرابي العربي هذا الاساس) .

ـ **اختلاف العمر في نطاق اعضاء الجيل الواحد** ، فقد يحدث ان تميز الاخت الكبرى عن الاخت الصغرى باصطلاح خاص ، وقد يحدث في مصر ان تنادي بعض الفتيات اختهن الكبرى باستخدام اصطلاح « أبله » وبالنسبة لبعض عائلات الطبقة المتوسطة العليا في مصر يستخدم الاطفال اصطلاح (أبيه) عند التحدث لاخيهم الاكبر ولكن هذه العادات ليست منتشرة في كل أرجاء الوطن العربي ولذلك لا تعد من خصائص النظام القرابي العربي . قليل من النظم القرابية في العالم يستخدم جميع الاسس السابقة ، ولكن الكثير من

المجتمعات البدائية تطبق الاسس الستة ويطبق المجتمع العربي خمسة من تلك الاسس وهي : الاول والثاني والثالث والرابع والخامس ، أما المجتمعات الاوربية فتطبق اسس الاول والثاني والثالث والخامس .

تقوم الاصطلاحات القرابية بوظيفة تنظيمية للسلوك الاجتماعي وبالتالي تؤدي الى تماسك البناء الاجتماعي واستمراره اذ يدل كل اصطلاح على دور معين يتمثل في مجموعة محددة من أنماط العلاقات الاجتماعية ، فمثلا في حالة الزوج والزوجة نجد تعاونا اقتصاديا مع نوع من التخصص في العمل ، وكذلك يبيح المجتمع الاتصال الجنسي وتوجد أيضا مسؤولية مشتركة في تربية الاطفال . أما العلاقة بين الاب وابنته فتميز بعلاقات اجتماعية مختلفة ، فعلى الاب حماية ابنته وتوفير الطعام لها والعناية بها وتربيتها مع احترام نظام المحارم ، وهكذا يقوم كل مجتمع بتحديد الادوار الاجتماعية المصاحبة للمراكز التي تعبر عنها الاصطلاحات القرابية.

ومن أهم المشكلات التي قابلت علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية مشكلة الكشف عن العوامل التي تدفع مجتمع ما للاخذ بأساس معين من الاسس السابقة الخاصة بتنظيم العلاقات والاصطلاحات القرابية بينما قد يهمل اساسا اخر ، ولقد درس العلامة « ميردوك » تلك المشكلة دراسة علمية احصائية مستخدما عينة كبيرة من المجتمعات الانسانية يصل حجمها الى (٢٥٠) مجتمعا ، ولقد بدأ دراسته بعرض النظريات المختلفة التي حاولت تفسير العوامل المؤثرة في عملية اختيار أسس النظام القرابي واصطلاحاته ولقد ناقش تلك النظريات وأثبتت عدم دقتها وصلاحيتها ، هذه النظريات هي : نظرية المراحل التاريخية المتعددة وتلك تعتمد على رسم خط تطوري معين يحدد أسس النظام القرابي أما النظرية الثانية فترجع اختلاف المجتمعات في اسس النظام القرابي الى اختلاف لغات تلك المجتمعات ، والنظرية الثالثة تنادي بالعوامل النفسية المتعلقة بالشخصية . اما النظرية الرابعة فترى ان العوامل الاجتماعية العالمية هي التي تحدد نظام القرابة الذي يتبعه مجتمع ما ، وتؤكد النظرية الخامسة ان نظم الزواج تؤثر في نظم القرابة ، اما الرأي السادس والاخير فيحدد الاسباب على انها طبيعة تكوين الجماعات القرابية والمحلية الموجودة في المجتمع .

استخدم العلامة « ميردوك » في دراسته العلمية أدق الطرائق الاستقرائية في التحقيق من صحة الفروض ، تسمى الطريقة التي استخدمها « الطريقة الاقترانية في البحث العلمي » وتتطلب تلك الطريقة القيام بدراسات منطقية واسعة للتأكد من دقة الفروض وعدم خضوع البحث لاي نوع من التحيز أو الخطأ ، وبعد ذلك تصاغ النظرية المراد اثباتها في صورة فروض ذات طبيعة عامة ، ويستنتج من تلك الفروض العامة مجموعة أخرى من الفروض أكثر تخصيصا واقترابا الواقع الاجتماعي المحلي ، وتعرف تلك الفروض الخاصة باصطلاح « النظريات » وقد وضع مردوك ثلاثين فرضا خاصا مستنتجة من فرض عام واحد ، وينص الفرض العام على أن نوع اصطلاحات القرابة ومدى امتدادها في أي مجتمع يرجع الى مجموعة من العوامل الحضارية والوراثية المتداخلة التي تؤثر في درجة التشابه والاختلاف بين الفئات القرابية المختلفة ، أما فيما يتعلق بالفروض الخاصة فهي مستقاة من الفرض العام السابق ولكنها ذات طبيعة تخصصية محددة ، وقد فسرت العوامل الثقافية والوراثية المتداخلة بنظام محدد لتسلسل القرابي مثل النظام الابوي » وكذلك بقاعدة سكني محددة مثل قاعدة « السكنى مع والد الزوج » ، وقد ربط « ميردوك » تلك العوامل بنظم قرابية محددة (الاسس التسعة سابقة الذكر) ، وبعد وضع تلك الفروض الخاصة قام العلامة « ميردوك » باستخدام الطرائق الاحصائية في تطبيق تلك الفروض الخاصة على الواقع الاجتماعي أو الدراسات الميدانية مستخدما في ذلك عينة تتكون من (٢٥٠) مجتمعا انسانيا ، وقد اثبتت تلك التطبيقات صحة الفروض الخاصة وبالتالي صحة الفرض العام الذي وضعه ، ولا يمكن هنا عرض فروضه الثلاثين وجداوله الاحصائية وانما يمكن الاشارة الى ملخص نظريته ، تتلخص العوامل المتداخلة التي تحدد النظام القرابي المتبع في مجتمع ما فيما يأتي :

(☆) قواعد التسلسل القرابي التي تحدد « الجماعات القرابية » .

(☆) نظم الزواج .

(☆) قواعد السكنى وتلك أضعف فاعلية من العاملين السابقين ، فمثلا تبين

أن المجتمع الذي يطبق قاعدة (التسلسل القرابي الزدوج) — التي تنص على أن أهل الاب واهل الام يدخلان في نطاق اقارب الابن — يأخذ بنظام اختلاف اصطلاحات القرابة على أساس اختلاف الجيل .

يعطي الانثروبولوجيون أهمية كبرى لتلك الدراسة العلمية التي قام بها العلامة (ميردوك) ، فقد اثبت نجاح تطبيق المناهج العلمية الدقيقة على الموضوعات الانثروبولوجية الاجتماعية شأنها في ذلك شأن موضوعات العلوم الدقيقة ، وأثبت كذلك امكان اكتشاف القوانين الاجتماعية بعد القيام بدراسات مقارنة دقيقة وبخاصة بعد أن كثرت الدراسات الانثروبولوجية الميدانية .

ب — نظم الزواج :

توجد رابطة ضرورية وثيقة بين الاسرة والزواج ، فكلاهما مكمل للاخر ولا يوجد دونه ، ولكن رغم هذا الترابط الوثيق يجب التفرقة بينهما اذ ان الاسرة جماعة اجتماعية تتميز بمسكن مشترك وتعاون اقتصادي وعملية التناسل ، اما الزواج فهو مجموعة من القواعد تحدد صور العلاقات بين شخصين بالغين مباح بينهما الاتصال الجنسي وكيف يدخل هذان الشخصان في نطاق الاسرة ولا تتكون الاسرة دونها .

الزواج ظاهرة اجتماعية معقدة ويرجع ذلك الى اختلاف صوره وعناصره ونظمه بدرجة واضحة تصل الى درجة التناقض ، وعلى الرغم من بساطة التكنولوجيا في المجتمعات البدائية نلاحظ تعقد ظاهرة الزواج بها .

ينطبق التعريف السابق للزواج على كل المجتمعات ، ولذلك فهو تعريف عام شامل ، ويتخذ الزواج صورة خاصة في المجتمعات البدائية ويمكن تعريف تلك الصورة الخاصة بأن الزواج يتكون من عقد بين جماعة قرابية معينة وجماعة قرابية أخرى ، وفي ذلك العقد تكون أضعف رابطة هي التي تجمع بين الشخصين الذي يربط بينهما الزواج .

حاول العلماء حصر نظم الزواج وتصنيفها ، وأهم الاسس التي وضعت لذلك التصنيف هي مايأتي :

١ ـ عدد المشتركين في علاقة الزواج :

تختلف المجتمعات في نظم الزواج المتعلقة بعدد المشتركين في علاقة الزواج وتلك النظم هي :

(★) **نظام الزواج الفردي** يتمثل في أن الزواج علاقة تجمع بين رجل واحد وامرأة واحدة وهو نظام واسع الانتشار في المجتمعات الانسانية .

(★) **نظام الزواج المتعدد** : هو نظام يبيح وجود علاقة الزواج بين أكثر من رجل واحد أو أكثر من امرأة واحدة ، وينقسم هذا النظام الى صورتين ، احداهما واسعة الانتشار في المجتمعات الانسانية وهي (تعدد الزوجات وزوج واحد) وتطبقه معظم المجتمعات الافريقية ، وتبيحه في ظروف معينة المجتمعات الاسلامية، أما الصورة الثانية فهي نادرة الوجود وهي « التودا » في أقصى جنوب الهند وقبيلة « ماركيزان » في بولينيزيا ويرجع ذلك لقلة عدد الاناث عن عدد الذكور .

٢ ـ نظم السكن بعد الزواج :

تختلف المجتمعات كذلك في تحديد المكان الذي يضم العروسين بعد الزواج ولقد عرضت ذلك الموضوع عند التحدث عن الاسرة المركبة ، وتتلخص نظم السكنى في :

(١) نظام السكنى مع أسرة الزوج .

(٢) نظام السكنى مع أسرة الزوجة .

(٣) حرية اختيار السكنى مع أسرة الزوج أو اسرة الزوجة .

(٤) نظام السكنى مع اسرة خال الزوج .

(٥) عدم التقيد بمكان معين لا ترتبط تلك النظم بالزواج ذاته وانما بتحديد المسكن الذي سيعيش فيه الزوجان بعد الزواج .

٣ ـ نظم اختيار شريك الزواج :

لا يترك المجتمع الفرد حرا في اختيار شريكة حياته وانما يضع له النظم التي يجب أن يستمر عليها ، وأهم تلك النظم ما يأتي :

(١) نظام المحارم وهو النظام الذي يحرم الزواج من أشخاص أو فئات أو مجتمعات معينة بسبب وجود علاقة قرابة ، وتختلف المجتمعات في نطاق المحارم الذي تفرضه ، ولا شك أن أضيق نطاق هو منع الزواج بين الشخص وأصوله (والديه) وفروعه (أطفاله) وأخوته ، وهو نظام عالمي مطبق في كل المجتمعات الانسانية الحالية ، وقد دفع هذا الانتشار العالمي لبعض كبار الانثروبولوجيين الى الاعتقاد في وجود غريزة تحتم نظام المحارم هذا ويجب ملاحظة وجود عدد قليل جدا من المجتمعات القديمة التي كانت تبيح الزواج بين الاخ والاخت بالنسبة للعائلة المالكة فقط وليس لعامة الشعب ، وذلك للاعتقاد ان العائلة المالكة عائلة مقدسة وخالدة لا تموت تلك المجتمعات هي مصر الفرعونية ومجتمع هاواي القديم ومجتمع الانكا من الهنود الحمر . وفي مجتمع (بالينير) يبيحون الزواج بين التوأمين اذا اختلف نوعهم على أساس أنهما قد تزوجا في داخل رحم الام قبل الولادة .

ويتسع نطاق المحارم في المجتمعات البدائية بحيث يشمل جميع أقارب البدنة التي ينتمي اليها الفرد وكثيرا ما يتسع لتشمل جميع أفراد العشيرة التي ينتمي اليها الفرد ، وذلك لان الفرد ينظر الى أفراد عشيرته كأقربائه .

وتختلف المجتمعات في تحديد العقاب لحالات مخالفة نظام المحارم ، فعند قبائل سكان استراليا الاصليين ومجتمعات أخرى كثيرة يعاقب المخالف بالاعدام ، وتفسر (الاشانتي) بالسودان سبب فرضها عقوبة الاعدام على مخالفة نظام المحارم بأن ترك تلك الجريمة بغير عقاب سيؤدي الى عدم قدرة الرجال على صيد الحيوانات وستصاب جميع النساء بالعقم ولن تثمر الاشجار وستغضب أرواح الموتى وكذلك

الآلهة وستموت وتختفي قبيلتهم . وتطبق معظم المجتمعات الانسانية أقصى العقوبات عند مخالفة نظام المحارم ، وفي مجتمعات قليلة جدا يكون العقاب بسيطا مثل عند قبائل الهنود الحمر المعروفة باسم « قبائل السهول » . خلاصة القول إن نظام المحارم يحتم الزواج من خارج دائرة معينة من الاقارب .

(٢) اختلاف الطبقة او الدين او المركز الاجتماعي : يتزوج الرجل من الفتاة التي تتفق مع مركزه الاجتماعي ، فقد لوحظ أن الزواج يتم داخل فئة معينة وقد تكون تلك الفئة القبيلة التي ينتمي اليها الفرد أو المجتمع القومي (الامة) أو الجماعة الدينية ، وقد تكون الطبقة أو القبيلة التي ينتمي اليها الفرد . وتمنع بعض القبائل الافريقية الزواج من الاوربيين أو الاوربيات ، وتمنع أغلب الاديان الزواج من شخص ينتمي الى ديانة أخرى .

٤ ـ من يختار شريكة الزواج ؟

اختلفت المجتمعات انسانية في تحديد الشخص أو الاشخاص الذين يختارون الزوجة المستقبلة لفرد ما . وأهم النظم في ذلك الشأن هي :

(١) الوالدان والاقارب ، في معظم المجتمعات البدائية لا يختار الشاب شريكة حياته وانما يقوم بتلك المهمة اما والداه أو احدهما ، وكثيرا ما يشترك الاقارب مثل الاعمام أو الاخوال أو العمات أو الخالات أو الجدود .. او جميعا في اختيار شريكة حياة قريبهم الشاب .. وفي كثير من المجتمعات النامية يقوم الوالدان أو أحدهما باختيار شريكة حياة ابنهما وهذا واضح في معظم المجتمعات الريفية .

(٢) علاقات قرابية معقدة ، في كثير من المجتمعات البدائية التي تطبق « نظام السكنى مع الخال » ، يحتم المجتمع على الفتى ان يتزوج بنت خاله وبخاصة أنه من المفروض أن يعيش في مسكن خاله بعد الزواج ، أما في حالة عدم وجود بنت خال غير متزوجة فللفرد حرية الزواج من أخرى ، وفي مجتمعات متمدينة مثل القرى العربية .. يحتم على الفتى أن يتزوج بنت عمه .

(٣) المخاطبة أو الخاطب ، في بعض المجتمعات البدائية وفي كثير من المجتمعات النامية وبخاصة في الريف ينتشر نظام المخاطبة ، وهو أن تقوم امرأة ـ على اتصال بعدد كبير من العائلات ـ بتعريف الفتى الذي يريد الزواج بعدد من الفتيات للاختيار بينهن ، وأحيانا يقوم رجل بتلك الوساطة وغالبا يكون ذلك الرجل كاهن القبيلة أو زعيمها .

(٤) الشخص راغب الزواج : في كثير من المجتمعات البدائية وفي كل الفتاة لخطبتها ، أما في المجتمعات المتقدمة يتقدم الشاب الى الفتاة ذاتها وتقوم هي بتقديمه لاهلها .

٥ ـ طرائق الزواج :

تختلف المجتمعات الانسانية في النظم التي تحدد الطريقة التي يتم بها الزواج المجتمعات المتقدمة يقوم الشخص راغب الزواج باختيار شريكة حياته ، وفي المجتمعات البدائية يلزم الشاب أهله باختياره فتاة معينة ، فيذهب أهل الشاب لاهل وأهمها ما يأتي :

(١) تقديم مهر العروس واهلها .

ينتشر هذا النظام عند معظم المجتمعات البدائية وبخاصة في أفريقيا حيث ينتشر في كل مجتمعاتها تقريبا ولكن بصورة مختلفة ، فقد لاحظ بعض الانثروبولوجيين وجود ذلك النظام في (٧٠٪) من المجتمعات البدائية التي جمعوا عنها معلومات كافية ، وقد يفهم بعضهم من الاصطلاح السابق أن المرأة تباع وتشترى في مزاد يشبه سوق العبيد أو ان المرأة في تلك المجتمعات ذات مركز اجتماعي أقل من الرجل ، فهذا الفهم خاطئ من أساسه ، فان المهر يلعب وظيفة اجتماعية هامة تساعد على اعطاء صفة الجدية لتلك العلاقة الاساسية في الحياة الاجتماعية وتساعد كذلك على استقرار تلك العلاقة وبالتالي استقرار الاسرة وهي الخلية الاولى في المجتمع ، وينظر الانسان البدائي للمرأة على أنها ذات قيمة وتقوم

بوظيفة بيولوجية هامة لا تتوافر في الذكر الا وهي انجاب الاطفال ومد الاسرة أو العشيرة بالرجال والنساء وبالتالي يستمر المجتمع ولا يموت • وفي المجتمعات البدائية لا يكون الزواج من شأن العروسين بقدر ما هو من اختصاص أهل العروسين ، ولذلك يقوم أهل العريس بجمع المهر بصورة تعاونية ويقدم ذلك المهر لاهل العروس ، وتختلف قيمة المهر تبعا لاختلاف المرأة الاجتماعي الذي يحتله أهل العروس في المجتمع ، وقد لوحظ أن الصفات الشخصية للعروس مثل الجمال والصحة والسن لا تلعب دورا كبيرا في تحديد مهر العروس في المجتمعات البدائية وقد بين العلامة « ايفانز بريتشارد » في احدى مقالاته كيف أن مهر العروس في قبيلة « النوير » يوزع حسب نظام خاص على عدد كبير من أقارب العروس ، فعادة يكون مهر العروس اربعين رأسا ماشية ، يوزع على أعضاء اسرتها عشرون رأسا وعلى أعضاء أسرة أبيها عشرة رؤوس ومثلها توزع على أعضاء اسرة أم العروس • ويجب ملاحظة أن الوظيفة الاقتصادية التي يقوم بها نظام المهر في المجتمعات الاسلامية ونظام « الدوتا » في المجتمعات الاوربية لا توجد تقريبا في المجتمعات البدائية ، ففي تلك المجتمعات المتمدينة يسود المهر أو (الدوتا) للعروسين بالذات اذ يستخدمانه في تجهيز بيت الزوجية الجديد ، اما في المجتمعات البدائية فتستفيد أسرة العروس وعشيرتها من المهر وليس العروسان ، ويلعب تبادل المهور بين الاسر والعشائر دورا هاما في تأكيد تماسكها وبالتالي تماسك المجتمع •

(٢) الفصل عند أهل العروس : يقوم الشاب الراغب في الزواج بالعمل عند أسرة عروس المستقبل لفترة من الزمن قد تطول وقد تقصر ، ويطبق هذا النظام في عدد قليل من المجتمعات نحو (١٣٪) من مجتمعات عينة العلامة « ميردوك » ، وفي بعض المجتمعات تكون الطريقة الوحيدة للحصول على الزوجة ، وفي بعضها الآخر ، يستخدم هذا النظام عندما لا يملك العريس قيمة المهر فيعمل لدى أسرة العروس بما يساوي قيمة المهر •

(٣) الزواج المتبادل : وتلك طريقة لا تكلف العريس مالا وفيها يتم عقدا زواج معا بصورة تبادلية فبينما يتزوج شاب ما بعروس معينة فان أخت ذلك الشاب تتزوج من شقيق عروسه ، وهذه الطريقة نادرة الحدوث في المجتمعات البدائية •

(٤) طريقة خطف العروس : لقد ظن الانثروبولوجيون الاوائل ان هذه الطريقة منتشرة بين المجتمعات البدائية بل لقد عدّها العلامة « ماكليناني » الصورة الاولى للزواج التي تطورت منها الطرائق الاخرى ، وقد أثبتت الدراسات الميدانية ان المجتمعات البدائية لا تعترف بوجود تلك الطريقة كنظام متعارف عليه اجتماعيا للحصول على زوجة ، ومما دفع المفكرون الى ذلك الاعتقاد كثرة انتشار مظاهر العنف في طقوس الزواج عند الكثير من المجتمعات البدائية فعند قبائل « باهيما » و « البوشمن » بأفريقيا تدور معركة صورية بين أهل العريس وأهل العروس وتنتهي دائما بفوز العريس وأهله واستيلائهم على الزوجة . ويفسر العلماء المعاصرون تلك المعارك الصورية المصاحبة لطقوس الزواج بأنها ترمز الى مظاهر العداء القديم الذي يوجد عادة بين العشائر والقبائل .

ولكن قد تحدث حالات فردية في كثير من المجتمعات البدائية التي يقوم فيها الرجل بخطف امراة من قبيلة أخرى ويتزوجها بالقوة ، وكثيرا ما يترتب على ذلك اندلاع الحرب بين القبيلتين ، وتطبق تلك الطريقة على سبايا الحروب بين القبائل ، ولكنها لا تخرج عن كونها حالات فردية ولا تمثل نظام زواج يأخذ به معظم أفراد القبيلة الواحدة .

(٥) طريقة الميراث : تحتم كثير من المجتمعات البدائية ان يرث الرجل زوجه أو زوجات شقيقه اذا مات ذلك الشقيق ويعرف ذلك النظام باصطلاح

وقد يتم ذلك في مجتمعات أخرى باختيار الرجل وبارادته الذي توفي شقيقه كنوع من التكافل الاجتماعي بين الاخوة . وفي قبيلة « بورا » يسمح للرجل عندما يموت جده عن طريق الاب بأن يرث زوجاته ويتزوجهن .

(٦) طريقة التبني : يطبق قليل من المجتمعات البدائية هذه الطريقة التي تتمثل في أن تقوم العائلات التي لم ترزق بذكر أن تتبنى صبيا على أن يتزوج من احدى بناتها عندما يكبر ، ويطبق هذا النظام في بعض المجتمعات في اندونيسيا واليابان .

(٧) طريقة الهرب : يسمي بعضهم هذه الطريقة « صمام أمان » وذلك لانه قد يحدث الا يقبل أحد الافراد القيود التي يضعها المجتمع للحصول على زوجة فبدلا من العمل على هدم هذا النظام الاجتماعي فانه يهرب مع الفتاة التي يحبها الى مكان آخر حيث يمكن له أن يتزوجها دون التقيد بالتقاليد والعادات . وعند قبيلة « شيين » من الهنود الحمر لا يترتب على عملية الهرب أية عقوبات اذا كانت الفتاة غير مرتبطة بعلاقة « خطبة » ولكن اذا كانت الفتاة « مخطوبة » لرجل آخر فانها تجلب العار على أسرتها وقد يحدث أن ينتحر أحد أشقائها تخلصا من ذلك العار ولكن يندر حدوث تلك الطريقة في المجتمعات البدائية وتوجد بصورة أوسع في المجتمعات المتمدنة .

٦ ـ مدى قوة علاقة الزواج :

تختلف المجتمعات الانسانية في تحديد مدى قوة علاقة الزواج ، وقد لوحظ أن المجتمعات البدائية التي لا تعطي أهمية للعلاقات العاطفية بين الفتى والفتاة قبل الزواج لا تنظر للزواج على أنه علاقة ابدية بين الزوج والزوجة ولذلك نجد الغالبية العظمى منها تبيح الطلاق ، فقد جمع العلامة « هوبهوس » وزميلاه معلومات عن (٢٧١) قبيلة فوجدوا أن (٤٠٪) فقط من تلك القبائل تمنع الطلاق وتجعل الزواج علاقة دائمة مدى الحياة أما الغالبية العظمى ، فتبيح الطلاق بشروط مختلفة ، وتختلف المجتمعات البدائية في اعطاء حق الطلاق للزوج أو للزوجة ولا يمكن القول إن معظم المجتمعات البدائية تعطي ذلك الحق للزوج اذ يوجد الكثير من المجتمعات التي تعطي ذلك الحق للزوجة ، وفي المجتمعات التي « تطبق التسلسل النرابي الامي » ونظام « السكنى مع أهل الزوجة » تتمتع المرأة ببساطة واسعة وتستطيع تطليق زوجها بسهولة ، فتبي قبائل « الهوبي » و « الزوني » تطلق الزوجة زوجها باجراء بسيط وهو وضع حاجياته خارج الكوخ ، فعندما يعود من الخارج ويجد حاجياته بالخارج يفهم أنه قد طلق فيأخذ حاجياته ويعود الى مسكن أمه . وتختلف أسباب طلب الطلاق في المجتمعات الانسانية ، وقد لوحظ ان الاسباب الاقتصادية والعائلية التي ترجع اليها معظم حالات الطلاق في المجتمعات المتمدنة لا توجد بصورة قوية في المجتمعات البدائية . وانما بعض القبائل البدائية يتم الطلاق عندما يحتد الخلاف

بين عائلتي الزوج والزوجة أو في حالة اعتداء أحد أفراد عائلة الزوجة على الزوج بالضرب أو السب وتلعب ظاهرة « التطبين » دورا هاما في الطلاق ، فكثيرا ما يرجع الطلاق لحدوث حادثة ما تعد نذير شؤم في المجتمع ، وتبيح الكثير من المجتمعات الطلاق في حالة عقم الزوجة وفي حالة موت الأطفال والعجز الجنسي .

جـ ـ النظم الاقتصادية :

عندما نقارن بين المجتمعات البدائية والمجتمعات المتمدينة فيما يتعلق بالنشاط الاقتصادي نجد أن الاختلاف بينهما هو اختلاف في الكيف أو النوع وليس في الدرجة ، ولذلك أخفقت المحاولات التي بذلت لتطبيق النظريات الاقتصادية الحديثة (مثل نظرية النقود ونظرية القيمة وقانون العرض والطلب ...) على المجتمعات البدائية . ويرجع ذلك الاختلاف الكيفي الى عدة من عوامل منها الاندماج الكلي بين النظم الاقتصادية والنظم الاجتماعية الاخرى في المجتمعات البدائية ، فمثلا تبادل السلع يرمز الى واجبات اجتماعية لا يمكن فهمها الا بالرجوع الى النظم الاجتماعية الاخرى من عائلية ودينية وسياسية . ولذلك يصعب القول بوجود نظم اقتصادية في تلك المجتمعات وانما توجد نظم اقتصادية اجتماعية ، وتختلف تلك الصورة في المجتمعات المتقدمة حيث نجد الانشطة الاقتصادية ذات كيان خاص ولكن لا يمنع ذلك من التأثير المتبادل بينها والنظم الاجتماعية الاخرى ، وكذلك يرجع ذلك الاختلاف الكيفي لعدم توافر أسس الاقتصاد الحديث في المجتمعات البدائية وأهمها الصناعة ذات الانتاج الضخم والسوق الحديث والتخصص الدقيق في عمليات الانتاج والتوزيع والميكنة المعقدة .

خلاصة القول إن النظم الاقتصادية في المجتمعات البدائية تختلف في طبيعتها عن النظم الاقتصادية في المجتمعات المتقدمة .

يقصد بالنظم الاقتصادية الاساليب المستخدمة في اشباع حاجات الانسان المادية . ورغم تنوع تلك الاساليب فانها تتفق في الشكل العام الذي يتمثل في نشاط يجمع بين ثلاثة عناصر هي الموارد والادوات والعمل الانساني ، ونلاحظ أن

المواد الاولية الموجودة في بيئة ما لا تعد موارد الا عندما يستطيع الانسان استغلالها ، فمثلا كميات الفحم الهائلة الموجودة في ولاية بنسلفانيا بأمريكا لم تكن موردا اقتصاديا بالنسبة للهنود الحمر الذين لم يعرفوا كيفية استغلالها .

لا يخلو المجتمع الانساني من النظم الاقتصادية مهما كانت درجة تخلفه أو بدائيته ، فالانسان يأكل ليعيش ، والاحساس بالجوع يدفع الانسان للبحث عن الطعام ، وبفضل الطعام ـ مع توافر شروط أخرى ـ يستمر جسم الانسان حيا وتتولد لديه الطاقة اللازمة لحركته وأنشطته .

وفيما يتعلق بالمجتمعات شبه البدائية نلاحظ ان نظمها الاقتصادية تتسم بالبساطة اذا قورنت بالمجتمعات المتمدينة . وتختلف النظم الاقتصادية البدائية فيما بينها ، فأبسطها نظام جمع الطعام ويتلو ذلك نظام الصيد وغالبا يوجد النظامان معا مع تغلب أحدهما على الآخر ، وقد استطاع الانسان بعد فترة طويلة اكتشاف نوع آخر من النظم الاقتصادية ذات كيفية متميزة ، وهو نظام استئناس موارد الطعام وتتمثل في نظام الرعي حيث استأنس الانسان الحيوان وكذلك نظام الزراعة ، حيث استأنس الانسان النبات ، وفيما يلي عرض موجز لتلك النظم الاقتصادية كما وجدت في المجتمعات البدائية .

١ ـ نظام جمع الطعام :

من المجتمعات التي عاشت أساسا ـ الى عهد قريب ـ على جمع الطعام قبائل « اندمان » و « تسمانيا » و « سيمانج » في بولينيزيا وقبائل « الاقزام » في أفريقيا ، وبعض قبائل الهنود الحمر مثل « الشوشون » عاشت على الجذور والبذور التي كانت طعامهم الاساسي والوحيد اذ ان الحيوانات كانت نادرة الوجود في اقليمهم ، وقد اطلق عليهم الاوروبيون اسم « الحفارين » لكثرة حفرهم في الارض بحثا عن الطعام وكانوا يستخدمون في الحفر عصا مدببة الطرف ، وكانوا يجمعون بذور النبات والجذور والثمار في سلال بسيطة الصنع ومن امثلة ذلك بذور عباد الشمس والجوز واللوز ، وكانوا يهتمون بجمع الحشرات وبخاصة

الجنادب والنمل اذ كانوا يشوونها ويأكلونها والاضافة الى جمع الطعام كانوا في بعض الاحيان ـ وليس دائما ـ يصيدون بعض الحيوانات القليلة مثل الماعز والغزلان ، وعندما يوفق أحدهم الى صيد غزال عن طريق تعقبه لساعات طويلة ، يهجمون على الفريسة ويتخاطفون اشلاءها . ويأكلونها نيئة ، ورغم تلك البيئة القاسية فان طقوسهم الدينية قد حرمت عليهم أكل الكلب والذئاب ، وعندما يشتد بهم الجوع لا يتورعون عن أكل لحم الانسان .

٢ ـ نظام الصيد :

أكثر النظم الاقتصادية انتشارا في المجتمعات البدائية ولا يوجد بمفرده وانما تعتمد المجتمعات التي تأخذ به على وسائل أخرى للحصول على الطعام وبخاصة عندما يفشلون في الصيد ، أهم تلك الوسائل هي جمع الجذور والبذور والفاكهة والحشرات والبيض وافراخ الطيور . ويعد الصيد أقل مساهمة من جمع الطعام وذلك لاختراع أدوات متعددة للصيد اذ يصعب الصيد دون أدوات ، ومن تلك الادوات الهراوة والحربة والنبلة والسهام والفخوخ والشراك والشباك والسدود والسنارة البلطة والسكين وكذلك السموم التي تستخدم لقتل الفريسة ، وقد يستخدم الانسان بعض الحيوانات لمساعدته في الصيد مثل الكلب والحصان والجمل . ولقد لوحظ ان اداة القوس والسهم قد انتشرت في معظم المجتمعات البدائية نظرا لقدرتها كسلاح صيد . واستطاع الانسان البدائي ان يخترع كذلك الحيل التي تقربه من الفريسة دون أن تشعر به ، مثل التخفي عن طريق لبس جلد الحيوان ويرتبط الصيد بمعتقدات وطقوس خاصة فمثلا تقام الصلوات مثل صلاة الصيد وتفرض محرمات معينة على جميع أفراد القبيلة لضمان نجاح حملة الصيد وتنتشر التعاويذ والطقوس السحرية لاعتقادهم في تأثيرها في نجاح حملات الصيد ، فمثلا تحرم بعض مجتمعات الاسكيمو النوم والعمل أثناء خروج حملة صيد الحوت .

ويلاحظ أن المجتمعات الانسانية التي تعيش على الصيد والجمع تتميز بصغر الحجم وذلك لان طبيعة تلك النظم الاقتصادية لا تسمح بتوفير كمية ضخمة من

الطعام ، هذا الاضافة الى احتمال عودة الصيادين صفر اليدين ، ويحتاج الصيد والجمع الى مجهود انساني كبير اذا قورن بالمائد ، وتتميز تلك المجتمعات كذلك بالتشابه التام بين النشاط الاقتصادي الذي تقوم به العائلة والنشاط الاقتصادي في نطاق المجتمع المحلي ويلاحظ كذلك ان كلا من تلك المجتمعات البدائية يمثل وحدة انتاجية ووحدة استهلاكية في الوقت نفسه .

٢ ـ نظام البستنة :

استطاع الانسان بعد عصور طويلة عاشها معتمدا على الصيد والجمع ان يخترع نظاما اقتصاديا أكثر وفرة واستقرارا وأقل جهدا ووقتا ، هذا النظام هو استئناس النبات والحيوان وعن طريق تحول الانسان من صياد الى مزارع ورام ، ولا يوجد أي سبب يدعونا الى افتراض أن احدى عمليتي الاستئناس جاءت قبل الاخرى ، وذلك لان كلا منهما قد وصل اليها الانسان تدريجيا في مراكز متعددة من العالم ولم يثبت وجود اتصال بين بعض تلك المراكز أي أن كلا منهما قد وصل الى هذا الاختراع العظيم بصورة مستقلة . وفيما يتعلق باستئناس النبات نجد صورتين مختلفتين الاولى تسمى نظام البستنة والثانية تسمى الزراعة والفرق بينهما أن في الصورة الاولى لا يستخدم المحراث بينما يستخدم المحراث في حالة الزراعة ، ولا شك أن الزراعة تمثل نظاما اقتصاديا أكثر تركيبا وتقدما من نظام البستنة . وتستعمل في البستنة أدوات يدوية مثل عصا الحفر والفأس ، ويوجد عدد كبير من المحاصيل الناتجة عن البستنة فبالنسبة للحبوب نجد القمح والذرة الرفيعة والذرة الصيفي وفيما يتعلق بالجذور نجد الكسافا والبطاطا والبطاطس ، وتعد تلك المحاصيل العناصر الاساسية في غذاء المجتمعات التي تعيش على ذلك النظام الاقتصادي ، ويتطلب نظام البستنة قطع الاشجار وخلع الاعشاب ثم إعداد الارض لبذر البذور ، ونلاحظ ان معظم قبائل الهنود الحمر كانت تعيش على البستنة ففي امريكا الشمالية كانوا يزرعون الذرة أما في أمريكا الجنوبية حول خط الاستواء فكانوا يزرعون نبات الكسافا في وقد انتشر هذا النظام في اوروبا وشمال افريقيا والهند ويصنع نظام البستنة بنمو حجم المجتمع وزيادة عدد

السكان اذا قورن بنظامي الجمع والصيد ، ولكنه لا يساعد على الاستقرار في مكان واحد لفترة طويلة من الزمن ، فقد كانت تنقص البساتين فنون اعادة خصوبة الارض عن طريق استخدام الاسمدة ، ولذلك كانوا يستخدمون قطعة الارض حتى تضمحل خصوبتها فينتقلون الى مكان آخر يعدونه للبستنة وهكذا ، لذلك كانت تلك المجتمعات تنتقل من اقليم لآخر ، وكانت تتعرض لمخاطر كثيرة منها سوء الاحوال الجوية والتهام الحشرات والطيور للمحاصيل .

وفيما يتعلق بأقدم المجتمعات الانسانية التي اكتشفت الزراعة ، يرى كثير من العلماء ان منطقة الشرق الاوسط وبخاصة العراق وايران والشام تمثل اقدم مراكز اكتشاف الزراعة وقد حدد زمن ذلك الاختراع بأنه تم في تلك المنطقة منذ فترة تتراوح بين (٢٠) الفا و (١٥) الف سنة ماضية ، وقد اكتشف في تلك المنطقة معظم المحاصيل تقريبا .

ويلاحظ أنه بينما تركزت زراعة الذرة الشامية في أمريكا الشمالية وزراعة الكسافا (نبات يشبه البطاطا) في امريكا الجنوبية فقد تركزت زراعة القمح والشعير في اوربا والشرق الاوسط وتركزت زراعة الارز في آسيا واندونيسيا .

ولقد تطور نظام البستنة الى نظام الزراعة الذي يتميز باستخدام المحراث ونظم الري المعقدة ، مما ادى الى زيادة عدد سكان المجتمعات الانسانية وتوفير فائض في المحاصيل الزراعية مما ترتب عليه نشأة المدن وظهور المدنية ، ولذلك لا تعد الزراعة من النظم الاقتصادية التي تطبقها المجتمعات البدائية وانما تأخذ بها المجتمعات المتمدينة أما المجتمعات المتقدمة فلا تتميز فقط باستخدام الزراعة وانما بالتوسع في الصناعة والتقدم العلمي وارتفاع مستوى المعيشة ، وفي الوقت الحاضر تطبق الغالبية العظمى من المجتمعات البدائية نظام البستنة .

٤ ـ نظام الرعي :

توصل الانسان البدائي الى الرعي كأسلوب للتكيف مع العوامل البيئية عندما تحسنت ظروف حياته وعندما استخدم ذكاءه ، فلا يمكن أن يتطور سكان الغابات

ويصبحوا رعاة وكذلك لا يمكن لسكان الصحارى ومنطق العشب ان يخترعوا الزراعة ، ولكن التكيف المتوقع مع البيئة الصحراوية والعشبية يتمثل في ان يتحول سكان تلك المناطق من جامعي طعام وصيادين الى رعاة .

يتركز نظام الرعي في آسيا وافريقيا ويندر وجوده في الامريكتين واستراليا ففي افريقيا تجد الصحراء الكبرى وايضا مناطق السفانا في شمال السودان وشرق افريقيا وكذلك في أقصى جنوب افريقيا حيث ترعى قبائل « الهوتنتون » و « الهيرورو » الماشية وتمتد سهول الاستبس العظيمة في آسيا من بحر القزوين حتى حدود الصين وقد عاش فيها قبائل « التتار » و « المغول » و « التباي » و « كازاك » ، وفي الشمال توجد قبائل « الاب » و « اوستياك » و « ياكوت » و « شوكش » و (كورياك) التي ترعى حيوان الرنة .

وقد لوحظ ان عدد المجتمعات البدائية التي تعتمد في معيشتها على الرعي فقط اقل كثيرا من المجتمعات التي تجمع بين البستنة والرعي . وقد أثار خيال العلماء ظاهرة عدم استفادة المجتمعات البدائية من الحيوانات التي يرعونها بصورة كاملة ، فبينما تتعدد الفوائد الاقتصادية للرعي اذ تتلخص في أكل لحم الحيوان واستخدام جلده وغزل شعره أو صوفه وحلب اللبن وصناعته وحمل الاثقال وجر العربات واستخدام الحيوان في الركوب ، نلاحظ ان الرعاة الافريقيين وهم كثرة لا يصنعون الجبن من اللبن الرائب رغم معرفتهم به ، وكذلك لا يستخدمون الزبدة في الطعام وانما في دهن الجسم والشعر ، ولا يأكلون لحم أبقارهم الا في النادر . ورغم اهتمام الافريقيين برعي الماشية فانهم لا يهتمون مطلقا برعي الماعز أو حلب لبنها أو أكل لحمها . وبينما نرى المرأة الافريقية تسير وهي تئن تحت حمل ثقيل نجد البقرة تسير بجانبها دون احمالها ، اذ لا تستخدم الماشية في حمل الاثقال أو جر العربات في افريقيا ، وفي شرق افريقيا في جنوب الحبشة لا يركب الناس الدواب رغم كثرتها لديهم ورغم الاستفادة منها بصورة جزئية مثل شرب لبنها ، أما عملي المجتمعات المتمدينة نلاحظ العكس بالنسبة للحصان فنحن نركب الحصان ونستخدمه في جر العربات الا اننا لا نأكل لحمه أو نحلب لبنه . ان انتشار ظاهرة

عدم الاستفادة الكاملة من الحيوانات التي ترعاها المجتمعات البدائية دفعت العلامة « لووي » الى القول إن الاسباب التي دفعت الانسان الى استئناس الحيـوان لم تكن الفوائد العملية وانما عوامل أخرى مثل ذبح تلك الحيوانـات كقرابين في المناسبات الدينية أو استخدامها كحيوانات اليفة .

ورغم أن نظام الرعي يسمح بمجتمع اكبر حجما من المجتمعات التي تعتمد على الصيد والجمع الا انه يدفع بالرعاة الى الحركة والانتقال من مكان لآخر بحثا عن الكلا ويفرق العلامة « بوهانين » بين نوعين من رحـلات الرعـاة ، يسمى الاول « رحلات دائرية طويلة الامد » وفيها ينتقل الرعاة من مكان الى آخر سالكين طريقا محددا يتخذ شكل دائرة ، اما النوع الثاني فهو « رحلات موسمية » واتمام الرحلة الواحدة يستغرق نحو عام . ويستخدم النوع الاول بعض قبائل البدو في شبه الجزيرة العربية اما النوع الثاني فيوجد عند الرعاة الهنود والباكستانيين اذ ينتقلون مع ماشيتهم الى الجبال في الصيف ويعودون الى أماكنهم الاصلية في الشتاء .

وتتفق المجتمعات الرعوية في بعض الخصائص منها قلة ممتلكاتهم المادية بسبب انتقالهم من مكان لآخر وكذلك احتقار حيـاة الاسـتقرار في القرى واحتراف الزراعة ، ويتميزون بالكرم والشجاعة .

د ـ النظم العقائدية والطقوسية :

يوجد الدين في كل مجتمع انساني ، ويقوم الدين بوظائف اجتماعية رئيسة تهدف الى حفظ تماسك أفراد المجتمع وترابطه ، هذا بالاضافة الى الوظائف النفسية مثل الشعور بالراحة النفسية والقوة للاعتقاد في أن قوة غيبية عظيمة تساعد الانسان على حياته وبعد مماته . ولذلك لا يعيش مجتمع انساني دون دين ، وقد لوحظ ان الاديان السماوية الكبرى ـ الاسلام والمسيحية واليهودية ـ قد هبطت في مجتمعات متمدينة ، اما المجتمعات شبه البدائية فقد فرضت عليها عزلتها الاجتماعية والمكانية عدم التعرف على الاديان السماوية الكبرى الا منذ عهد قريب ، ولذلك ظل معظمها متمسكا بمجموعةمن العقائد والطقوس المتوارثة من اجيال قديمة، وقد

شعرت المجتمعات المتمدينة بواجبها الديني نحو المجتمعات البدائية فعملت على شرح الاديان السماوية في تلك المجتمعات مما أدى الى اعتناق الكثير منها الاسلام والمسيحية .

ويجب الاشارة هنا الى حملات التبشير التي ترسلها الدول الغربية في المجتمعات البدائية ، فقد ثبت فشلها في تعميق المفاهيم الدينية في عقول البدائيين، ولذلك عندما خرج الاستعمار الاوربي من افريقيا ارتد الكثير من المجتمعات البدائية الى أديانها القبائلية وتركت المسيحية ، وينتشر الدين الاسلامي في المجتمعات البدائية في افريقيا واندونيسيا بطريقة الاقناع والفهم ودون تنظيم حملات تبشيرية مقصودة وانما يقوم بذلك مشايخ من أهل تلك البلاد تلقوا تعاليمهم الدينية على أيدي مشايخ آخرين . وبعض هؤلاء المشايخ يتلقون التعاليم الاسلامية في الازهر الشريف . ويقوم هؤلاء المشايخ بشرح تعاليم الاسلام لافراد ينتمون الى المجتمعات البدائية ويقوم هؤلاء الافراد بنشرها في قبائلهم ، وقد انتشر الدين الاسلامي بسرعة كبيرة في مناطق شاسعة في افريقيا في عشرين سنة الاخيرة ، ويرجع ذلك لاسباب متعددة منها خروج الاستعمار الاوربي والجمعيات التبشيرية من معظم مناطق افريقيا ، وكذلك تقدم وسائل المواصلات وانتشارها التي تربط المجتمع الاسلامي العظيم في شمال افريقيا بالمجتمعات البدائية في وسط افريقيا وجنوبها . ويلاحظ انه بينما ينتشر الاسلام بسرعة فائقة في افريقيا اليوم ، تترك الكثير من المجتمعات البدائية المسيحية التي اعتنقها تحت تهديد سلاح المستعمر الاوربي ، ومما يؤسف له ان الكثير من تلك المجتمعات ترتد ثانية الى الديانات القبلية غير السماوية . ويفسر بعضهم تلك الظاهرة بأن الانسان البدائي قد شك في نوايا المستعمر الاوربي ، ففي الوقت الذي يبشر فيه بالمسيحية التي تنادي بمبادىء المحبة والاخاء بين كل البشر ، يجده يسرق ثروة بلاده ويفرق في المعاملة على اساس لون البشرة ويقتل اخوانه اذا طالبوا بالمساواة والحرية ، وقد ترتب على ذلك تولد شعور الكراهية والبغضاء نحو المستعمر الاوربي ونحو كل ما ينادي به .

ولا شك ان القارىء يشعر برغبة بعد تلك المقدمة في التعرف على صور من

العقائد والطقوس الدينية التي توجد في المجتمعات البدائيـة ، وفيما يلي عرض مختصر لصورتين الاولى خاصة بنظام « عبادة الاجداد » والثانية «بنظام الطوطمي» .

ينتشر نظام « عبادة الاجداد » في معظم المجتمعات البدائية بأفريقيا ، ويقوم هذا النظام على مبدأ تماسك الجماعة القرابية ووحدتها ، « فالبدنة الابويـة » لا تتكون من الاحياء فقط وانما يدخل فيها الاباء والأجـداد الموتى ، ويوجد هـذا الفهم عند بعض « البدنات الامية » مثل قبيلة « مانكاجو » بأفريقيا وقبيلة «نايار» في الهند ، وأساس القرابة في تلك البدنات علاقة الام بأطفالهـا ، ويشترك كـل أعضاء البدنة في انحدارهم من نسل مشتركة ، ولا تنتهي عضوية الفرد في البدنة في حالة موته وانما تستمر عضويته ، يعتقد اعضاء تلك البدنات التي تطبق نظـام « عبادة الاجداد » في أن الاجداد والآباء الموتى يتمتعون بقوى غيبية أو سحريـة ويستطيعون الحاق الاذى بأعضاء البدنة ويستطيعون ايضـا مساعدتهم ، أي انهم يتمتعون بخصائص الآلهة ولذلـك يعتقـدون في ضرورة عبادتهم وفي عدّهم في مرتبة الآلهة ، بل ان بعض القبائل تعدهم آلهة ، وترتبط تلك المعتقدات بمجموعـة من الطقوس اذ يجتمع أعضاء البدنة الواحدة في مكان عـام أو في بيت أكبرهم سنا أو مركزا ويمارسون بعض الطقوس بغية الحصول على رضاء أرواح اجدادهم وآبائهم الموتى ومساعداتهم ، وتتمثل تلك الطقوس في الادعية والصلوات وكذلك تقديم القرابين ، وتتكون القرابين من الاطعمة والمشروبات وذبح الحيوانـات ، ويعتقد أصحاب تلك الطقوس ان الموتى يشتركون معهم في تناول تلك القرابين .

واذا تذكرنا أن المجتمع المحلي السائد في المجتمعات البدائيـة هو العشيرة التي تتكون من عدة « بدنات » فان وجود تلك العقائد والطقوس المشتركة بين أفراد البدنة الواحدة يؤدي الى تماسك أفراد النسب ووحدتهم وبالتالي الى تماسك العشيرة ذاتها واستمرارها ، ويقول العلامة « رادكليف براون » في هذا الشأن :

وفيما يتعلق بالفرد في ذلك المجتمع ، تكون واجباته الاولية نحو البدنة وهي تشمل واجباته نحو الأعضاء الأحياء الموتى وهؤلاء الذين لم يولدوا بعـد ويدفعه

الى القيام بتلك الواجبات نظام مركب من عواطف ومشاعر تتركز حول البدنة ذاتها ، سواء في صورتها الماضية ويمثلها الموتى أو في صورتها الحاضرة ويمثلها الاعضاء الاحياء أو في صورتها المستقبلة المثلة في الاعضاء الذين سيولدون مستقبلا . فهذه العواطف والمشاعر التي تجعل أعضاء البدنة ذاتها يحبون بعضهم بعضا ويكونون وحدة اجتماعية متماسكة هي أساس نظام « عبادة الاجداد » ويعبر عن تلك المشاعر بصورة متعددة من العقائد والطقوس.ان الوظيفةالاجتماعية للطقوس واضحة وهي إعطاء صفة التقديس والتعبير الجمعي لتلك المشاعر والعواطف ، وهكذا تعمل الطقوس على تثبيت تلك العواطف التي يقوم عليها التماسك الاجتماعي وتأكيدها وتحديدها وتقويتها .

اما **« النظام الطوطمي »** فينتشر في قبائل السكان الاصلية لاستراليا ، وقد اهتم به العلامة « دور كايم » وأراد أن يستنتج منه نظرية عامة في الدين تحدد الوظيفة الاجتماعية للدين بأنها المحافظة على تماسك البناء الاجتماعي للمجتمع واستمراره ويتفق العلماء مع (دور كايم) فيالتحديد السابق للوظيفةالاجتماعية للدين وبخاصة في المجتمعات البدائية الا أن المعلومات الميدانية التي اعتمد عليها قد تعرضت لكثير من النقد ، فمثلا لم يوافق العلامة « فريزر » على عدّ الطقوس الطوطمية ظاهرة دينية وانما نوع من السحر ، ويذكر العلامة « راد كليف براون » ان المعلومات التي اعتمد عليها (دور كايم) غير كاملة وغير واضحة وبخاصة ان الدراسات الميدانية للمجتمعاتالبدائية الاسترالية قد كثرت بعد عام (١٩١٢) أي بعد نشر دراسة (دور كايم) وقد اعتمد (دور كايم) فيتحليلاتهعلىقبيلة استرالية تدعى « اراندا » ولكن تبين بعد ذلك أن تلك القبيلة لا تمثل الصورة العامة للعقائد والطقوس المنتشرة عند القبائل الاسترالية وانما تمثل حالة فردية . ولذلك اعتمد هنا على معلومات العلامة « رادكليف براون » لحداثتها ودقتها . يرى الانسان البدائي الاسترالي أن العالم الذين يعيش فيه عالم واحد يتكون من البيئة الطبيعية التي حوله وكذلك البناء الاجتماعي الذي ينتمي اليه ، فهو يوحد بين البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية في عالم واحد ، ويشمل « النظام الطوطمي » مجموعة من العقائد والطقوس تدور حول ذلك العالم الموحد ، اذ يعتقد البدائي الاسترالي أن

العالم — كما يفهمه — قد تكون في عصور قديمة عن طريق كائنات مقدسة يطلق عليها اصطلاح « طوطم » ، ويمثل الطوطم الواحد مظهرا من مظاهر الطبيعة المحيطة، فمثلا يوجد طوطم الكنجارو وهو يمثل جميع أفراد ذلك الحيوان ، وقد يمثل الطوطم نباتا معينا أو ظاهرة مناخية مثل « طوطم المطر » أو طوطم « الجو الحار »، وقد لوحظ أن تلك الطواطم تمثل ظاهرة هامة بالنسبة لحياة القبيلة واستمرارها ويعتقد الانسان الاسترالي أن الانسان يعتمد في معيشته على ظواهر الطبيعة سواء أكانت تتابع الفصول أم تكاثر الحيوانات ام نمو النبات ام تكاثر الانسان ان استمرار تلك الظواهر معناه استمرار حياة الانسان وبالتالي استمرار المجتمع ذاته، ويعتقد كذلك أنه يستطيع أن يضمن استمرار تلك الظواهر عن طريق طقوس معينة وتتلخص تلك الطقوس في أن يتجمع اعضاء القبيلة الواحدة في مكان معين يدخل في نطاق اقليم القبيلة ، ويعبرون ان الكائن المقدس قد جاء لاول مرة في ذلك المكان ، ويمكن تسميته بمركز الطوطم ، ويقوم اعضاء القبيلة بأداء طقوس معينة منها الرقص والادعية للطوطم أو الكائن المقدس بغية استمراره أو غزارته ؛ فمثلا يكون هدف الرقصات والصوات الاكثار من حيوان الكنجارو أو غزارة المطر ليروي النبات والحيوان أو الاكثار من نسل أفراد القبيلة حتى تقوى وتهزم أعداءها ، ان الرقصات الجمعية والانتماء الى طوطم معين والشعور بوحدة المصير تجعل من القبيلة الواحدة وحدة اجتماعية متعاونة متماسكة ، ويقول العلامة « راد كليف براون » انه في عام (١٩١٠) عندما زار القبائل الاسترالية لاول مرة قال له أحد أفراد تلك القبائل : « الكنجارو هو اخي الاكبر » ، وقد حلل العلامة (براون) تلك العبارة بأن ذلك الرجل يقصد القول ان « نوع الكنجارو » يرتبط به بعلاقة قوية تشبه علاقة الاخ بأخيه الاصغر ، ان العرض السابق « للنظام الطوطمي » يختلف في كثير من النواحي عن عرض (دور كايم) الذي تصور أن الطوطم هو الجد الاكبر الذي ينتمي اليه أفراد القبيلة أي ان الاستراليين يعتقدون بوجود علاقة قرابة دموية تربطهم بالطوطم ، اما العلامة « براون » فينفي هذا الفهم للطوطم ، ويرى ان الطوطم كائن مقدس يعتقد أفراد القبيلة ان استمراره في عالمهم لا يتم الا عن طريق طقوس معينة ، ولقد ذكرت سابقا أن العلامة « براون » قد زار القبائل الاسترالية

ودرسها ميدانيا واعتمد في أبحاثه ومقارناته على كثير من الدراسات الميدانية الحديثة ، أما « دور كايم » فلم ير تلك القبائل واعتمد على معلومات قليلة ناقصة ولذلك فاننى أفضل الأخذ بتحليلات العلامة (براون) ، ويجب ملاحظة ان كلا من « دور كايم » و « براون » قد أكد الوظيفة الاجتماعية للدين عامة وللنظم الطوطمية خاصة بأنها تأكيد التماسك والوحدة والتعاون بين أفراد القبيلة الواحدة ويترتب على ذلك استمرار البناء الاجتماعي .

هـ ـ النظم السياسية :

وجدت أبسط صور للزعامة السياسية في المعشر حيث نجد أبسط المجتمعات الانسانية ، يتكون المعشر من عدة من أسر تعيش في مكان واحد وتتعاون في المعيشة تحت رئاسة « رئيس المعشر » وتعتقد بعض المجتمعات البدائية بأن رئيس المعشر قائد بالفطرة وهو غالبا يتمتع بشخصية قوية بحيث يؤثر فيمن حوله ، ومن المتوقع أن يتحدث الرئيس في المناسبات الهامة ، ويقوم بمهمة حفظ الأمن بين أفراد المعشر عن طريق فض المنازعات ويحدد الرئيس الموقع المناسب للاقامة ، ان سلطات الرئيس لا تأخذ شكلا رسميا وانما صورة عرفية ولا توجد أي مظاهر للرئاسة أو السلطة ولا يعاونه أحد في أعماله ولا يتميز عن باقي أفراد المعشر بأي مميزات عينية ، ولكنه موضع احترام الجميع . ويمتاز هذا النظام بنوع من الديمقراطية اذ لا توجد مظاهر ديكتاتورية ، ولا يتخذ الرئيس أي قرار الا بعد موافاة معظم أفراد المعشر عليه ، وفي الغالب يكون الرئيس كبير السن وذا خبرة في اقامة الطقوس الدينية اذ أن الرئيس هو كاهن المعشر أيضا وتتخذ العلاقات الاجتماعية في القبيلة التي تتكون عادة من عدة من عشائر صورة أكثر تعقيدا مما يوجد المعشر ، وذلك لكبر حجم القبيلة والوصول لحضارة أكثر تقدما فنجد الكثير من المخترعات والفنون الجديدة . ولذلك كان من الضروري أن يوجد قائد سياسي ليقوم بعملية الضبط الاجتماعي وليكون رمزا يؤكد وحدة القبيلة وتماسكها . ويوجد زعيم واحد على الاقل في كل قبيلة ، وزعيم القبيلة يختلف عن رئيس المعشر في الدرجة وليس في الكيف ، فهو يتمتع بسلطات أكثر وأوضح ، والوظائف الخاصة بزعيم القبيلة

تختلف من مجتمع لآخر ، فمثلا لوحظ ان زعماء قبائل الهنود الحمر في امريكا الشمالية لا يتمتعون بسلطات واسعة ويحكم القبيلة مجلس يرأسه الزعيم ويكون هذا المجلس من رؤساء العشائر ويهتمون بالتفرقة بين القادة الحربيين الذين يحكمون القبيلة وقت الحرب والزعماء المدنيين الذين يحكمونها في فترات السلم ، ويتميز الزعيم الحربي بمهارة في القتال وبسجل حافل بالانتصارات ، وقد لوحظ أن النزعة الديكتاتورية تسود في وقت الحرب بينما تسود النزعة الديمقراطية في وقت السلم . لا توجد وظائف أخرى واضحة لزعيم القبيلة اللهم الا الوظائف الطقوسية والدينية ، فان تنظيم الاحتفالات الدينية وجمع التبرعات والاشتراكات اللازمة لتلك الاحتفالات من أهم وظائف زعيم القبيلة . وتختلف المجتمعات البدائية في طرائق انتقال زعامة القبيلة فبعضها يتبع طريقة انتخاب مجلس القبيلة أحد اعضائه كزعيم ، ويطبق بعضها الاخر مبدأ الانتقال الوراثي ، وقد ترتب على التمسك بالنظام الوراثي ظهور صورة مبسطة للنظام الملكي ، ان الوظيفة الاساسية التي يؤديها النظام الوراثي تتمثل في العمل على استقرار نظام الحكم وتماسك القبيلة ، حيث ان الحروب والمشاجرات كثيرا ما كانت تنشب بين اجزاء القبيلة الواحدة عقب وفاة الزعيم وذلك للخلاف حول من سيخلف الزعيم المتوفى .

ينتشر النظام الوراثي بين المجتمعات البدائية المتطورة بعض الشيء ، ومن خصائص ذلك النظام انعدام الاسلوب الديمقراطي الذي كان يتبعه زعيم القبيلة ورئيس المعشر ، وذلك لتمركز السلطة في يد الملك الذي لم يعد يحتاج الى رؤساء العشائر أو مجلس القبيلة لإعادة انتخابه أو لانتخاب أحد ابنائه بعده .

تختلف المجتمعات البدائية في تفاصيل النظام الملكي الوراثي ، فبينما نجد في معظم مجتمعات افريقيا وبولينيزيا أن أكبر الابناء الذكور يرث والده بعد الوفاة فان بعض القبائل تطبق ذلك المبدأ بطريقة أكثر مرونة بحيث يقوم المجلس الملكي أو العشيرة الملكية (التي ينتمي اليها الملك) باختيار الوارث للعرش من بين أبناء الملك المتوفى .

يعتقد افراد القبيلة أن ملكهم يتمتع بقوى روحية غير طبيعية ويساعد ذلك الاعتقاد على تأكيد مركز الملك وتثبيت سلطاته وفاعلية احكامه ، وفي كثير من الحالات يكون الملك هو الكاهن الاعظم في الوقت نفسه أي يوجد جمع بين الزعامة الدينية والزعامة المدنية وغالبا يكون أيضا الزعيم الحربي للقبيلة اذا كان يتمتع بقوة جسدية ، وعندما يكون الملك متقدم العمر او ضعيف البنيان فانه يترك قيادة جيش القبيلة لاحد ابنائه ، ويكون الملك مسؤولا عن توفير الرخاء الاقتصادي لرعيته . وفي افريقيا حيث تنتشر « عبادة الأجداد الاوائل » يعتقد أفراد القبيلة أن ملكهم من نسل الآلهة وانه يمتاز بصفات الهية ، ومن أمثلة ذلك النظام الملكي قبيلة « تونجا » بپولينيزيا حيث لا يخرج الملك من مسكنه الملكي الا في النادر وذلك بسبب الاعتقاد في أن أي مكان تطأه قدم الملك يتحول الى « تابو » أي مكان مقدس لا يمكن لمسه أو المرور عليه والا تعرض لغضب الآلهة وبعض العقوبات الدنيوية وقد ترتب على تقديس الملوك الأحياء وتقييد حركات الملوك وتصرفاتهم انتشار المراسيم المتعلقة بكل ما يتعلق بالملك ، ومن المراسيم التي انتشرت في كثير من المجتمعات البدائية نظام « البديل المتكلم » ، ويتمثل في عدم اشتراك الملك في الحديث في المجالس او الى العامة وانما ينوب عنه بديل متخصص في اعلان رأي الملك في المناسبات المختلفة . ويستخدم الملك جهازا اداريا تنفيذيا يعاونه في حكم القبيلة ويرأس ذلك الجهاز الملكي الذي يتكون من العائلة أو من زعماء القبائل او العشائر التي تتكون منها المملكة . وفي معظم مجتمعات افريقيا يحترم الملك رأي غالبية المجلس ، وفي بعض المجتمعات يكون للمجلس الحق في معاقبة الملك أو اعدامه اذا تبين لهم ان روحا شريرة قد تقمصته وجعلته دكتاتورا . أهم وظائف الملك هي اعلان الحرب وتنظيم الاحتفالات الدينية وتعيين الرؤساء وفض المنازعات بين العشائر ، اما رقابة العرف فيقوم بها رؤساء العشائر ورؤساء العائلات .

من أهم الدراسات الميدانية المتعلقة بالنظم السياسية في المجتمعات البدائية دراسة السالمين « فورتس » و « بريتشارد » المنشورة تحت عنوان « النظم السياسية الافريقية » ، فقد اختارا ثماني قبائل لتمثل النظم السياسية المختلفة

الموجودة في افريقيا جنوب الصحراء ولاحظا تشابها بين بعض تلك النظم السياسية ولذلك قسما القبائل الى مجموعتين مشابهتين :

المجموعة (أ) :

وتشمل خمس قبائل هي « زولو » و « نجواتا » و « بمبا » و « بانيانكول » و « كيد » وتتميز تلك المجموعة بوجود نظام « الحكومة » عندها أي توجد سلطة مركزية وجهاز اداري ومؤسسات قانونية ، وفي تلك المجتمعات يوجد تطابق بين الطبقات القائمة على أساس السلطة والقوة والطبقات القائمة على أساس الثروة والامتيازات والمركز .

المجموعة (ب) :

وتشمل ثلاث قبائل هي « الجولى » و « تاللنس » و « التوبر » وتتميز تلك المجموعة بعدم وجود نظام « الحكومة » فيها أي تنقصها السلطة المركزية والجهاز الاداري والمؤسسات . ولا يوجد في المجتمعات طبقات قائمة على أساس المركز أو الثروة أو المكانة ، وانما توجد أسس أخرى مثل الصلات القرابية والصفات الشخصية .

واذا استخدمنا نظريات بعض علماء السياسة التي انبعثت عن دراساتهم الخاصة بالمجتمعات المتمدينة والمتقدمة وبخاصة النظرية القائلة ان الدولة لا توجد الا بتوافر نظام الحكومة يمكن القول إن المجموعة (أ) تمثل دولا بدائية بينما تمثل المجموعة (ب) مجتمعات دون دول . لقد اثبتت تلك الدراسات الميدانية أن المجتمع الانساني قد يوجد ويستمر في البقاء لقرون من الزمان دون معرفة نظام « الحكومة » بالمفهوم المتعارف عليه أي وجود سلطة مركزية وجهاز اداري ومؤسسات قانونية .

عند مقارنة المعلومات الوصفية الخاصة بتلك القبائل الممثلة لمعظم القبائل الافريقية تبين انه يمكن التمييز بين المجموعتين (أ) و (ب) على أساس سمات

ديموجرافية واجتماعية اضافة الى الخصائص السياسية سابقة الذكر ، أهم تلك السمات ما يأتي :

١ ـ تتكون المجموعة (أ) من وحدات سياسية أكبر حجما من الوحدات السياسية التي تتكون منها المجموعة (ب) ، ونستنتج من ذلك انه كلما زاد حجم المجتمع احتاج بصورة أقوى الى سلطة مركزية أي الى حكومة لجمع السلطة والكلمة .

٢ ـ يوجد ترابط بين وجود نظام الحكومة في المجتمع وتكوين ذلك المجتمع من مجتمعات مختلفة الاصل وتعدد الانشطة الاقتصادية ، أي أن المجتمع الذي يتكون من جماعات مختلفة وتتعدد فيه الأنشطة يحتاج الى سلطة مركزية تنظيم الجماعات المختلفة وجمعها في وحدة سياسية (والا دب الانحلال والتفكك بين أوصاله) ، وفي حالة زيادة درجة الاختلاف بين الجماعات التي يتكون منها المجتمع فانها تتحول اما الى طبقات مغلقة أو طبقات مفتوحة .

٣ ـ توجد حدود اقليمية للوحدات السياسية الخاصة بالمجموعة (أ) ، فالوحدة السياسية هي وحدة اقليمية وكذلك الحال بالنسبة للوحدة الادارية ، بحيث لا تتعدى سلطات الحاكم تلك الحدود الاقليمية ، أما المجموعة (ب) فهي تتكون من مجتمعات لاتوجد بها حدود اقليمية تحددها سلطة ادارية ، وتمتد سلطات الحاكم على اساس العلاقات القرابية وليس على أساس التواجد في اقليم محدد .

توجد « قوة منظمة » في مجتمعات المجموعة (أ) ، تقوم تلك القوة بتنفيذ أوامر الحاكم وجهازه الاداري وتقوم أيضا بمعاقبة المخالف ، أي أن وظيفة تلك القوة المتخصصة هي حماية الحاكم وجهازه الاداري بالاضافة الى تنفيذ الاحكام والاعراف وتكون تلك القوة خاضعة للحكومة فقط ، لا توجد مثل تلك القوة المنظمة المتخصصة في مجتمعات المجموعة (ب) وذلك لعدم وجود سلطة مركزية وأن سلطات المجتمع غير منظمة ومتساوية في القوة .

يتضح مما سبق الترابط بين النظم الاجتماعية وتكاملها ، ان اختلاف النظام السياسي في المجموعتين (أ ، ب) صاحبه تغيرات أخرى في النظم الاجتماعية الاخرى ، أي ان النظام السياسي لا يؤدي وظيفته في فراغ وانما في بناء اجتماعي متعدد الجوانب ، وكذلك لا يؤدي النظام السياسي وظائفه بصورة انعزالية عن النظم الاجتماعية الاخرى وانما بصورة تكاملية متبادلة ، فهو يؤثر في النظم الاجتماعية الاخرى كما يتأثر بها .

ننتقل بعد ذلك الى الجانب الثالث من البناء الاجتماعي والخاص بالمركز الاجتماعي والادوار الاجتماعية .

ثالثا ـ المركز والدور الاجتماعي :

لا يوجد مجتمع انساني يتساوى فيه جميع أعضائه في المركز : ولذلك تشتمل كل المجتمعات على نظام يحدد أشكال التباين بين أفراده وخصائصه ويعد هذا النظام من أهم عناصر البناء الاجتماعي لاي مجتمع . وقبل عرض بعض التطبيقات الواقعية لمفهوم المركز الاجتماعي يجب تحديد معنى ذلك المفهوم .

المركز هو الوضع الاجتماعي لفرد ما بالنسبة لغيره من افراد المجتمع ، ورغم اختلاف المجتمعات في الاسس التي يقوم عليها تحديد الوضع الاجتماعي لافرادها او للجماعات الداخلة فيها ، فان اهم تلك الاسس هي النوع والعمر وصفات الجسم والانتماء الى فئات معينة وخبرات اجتماعية مكتسبة وصفات تميز شخصية الفرد .

ويجب ملاحظة ان لفظ « مركز » لفظ موضوعي محايد أي لا يدل على عملية تقويم للفرد . ولذلك يختلف اصطلاح « مركز » عن اصطلاح « رتبة » الذي يدل على مركز ذي مكانة محددة في سلم مختلف الدرجات بعضها مرتفعة والاخرى منخفضة بالنسبة للاولى ، فالرتبة تدل على مركز مرتفع أو مركز منخفض وطبقا لهذه الترتيبات التنازلية والتصاعدية تختلف من مجتمع لآخر وكثيرا ما يستخدم اصطلاح

مركز للدلالة على الرتبة وذلك لشدة التقارب بينهما . ويلاحظ ان كل مركز يحدده المجتمع تصاحبه مجموعة من أنماط السلوك المتعارف عليها ، بحيث تتعرف على المركز عن طريق انماط السلوك المصاحبة له، وللفرد الواحد في أي بناء اجتماعي عدة من مراكز وبالتالي يقوم بعدة أدوار فمثلا قد يكون الفرد ابا وزوجا ومدرسا وشابا في وقت واحد ، ولكل مركز من تلك المراكز دور محدد أي مجموعة من أنماط السلوك المتعارف عليها . فهذا الفرد يطبق أنماط سلوك محددة في حالة القيام بمركز الاب تختلف عن دوره عند القيام بمركز الزوج وهكذا الحال بالنسبة للمراكز الاخرى .

ويجب التمييز بين الدور والمركز ، فالدور هو سلوك أو مجموعة من انماط السلوك المتعارف عليها والمصاحبة لمركز محدد. وبما أن الفرد يحتل عدة من مراكز في مجتمعه فانه يقوم بعدة من أدوار ولكن على التوالي ، بمعنى في حالة القيام بالدور المصاحب لمركز الاب ، تكون الادوار الأخرى المصاحبة لمراكز الزوج والمدرس والشاب في حالة كمون ، وتذلك تقسم الادوار الى قسمين : أدوار نشطة وهي انماط السلوك التي يقوم بها الشخص صاحب مركز محدد في لحظة معينة ، وادوار كامنة وهي تلك الأدوار التي لا يؤديها الفرد في لحظة معينة لان الوقت المناسب لها لم يأت بعد .

وقد ميز العلامة « لينتون » بين نوعين من المراكز هي :

ـ **مراكز مفروضة** وهي المراكز التي يرثها الفرد من والديه أو التي تولد معه أو التي تفرضها عليه النظم الاجتماعية ، ويمكن تلخيص هذا النوع من المراكز في أنها مراكز غير ارادية أي لم تكن لارادة الفرد شأن في الحصول على تلك المراكز ، وليس معنى ذلك انها مراكز غير مرغوب فيها فقد تكون مرغوب فيها . والمراكز المفروضة ذات الانتشار العالمي هي المراكز القائمة على عمر الفرد وأهمها الطفولة والشباب والشيخوخة والمركزان القائمان على النوع أي الذكرو والانثى ومركز الفرد قبل الزواج وقبل الانجاب . أما المراكز المفروضة المنتشرة في عدد كبير من

المجتمعات فمنها المراكز المترتبة على الانتماء الى طبقة مغلقة معينة ، والمراكز القائمة على الاعتقاد في توارث الصفات الجنينية والمراكز القائمة على وراثة الثروات ووراثة المناصب السياسية .

ـ مراكز محصلة وهي المراكز التي يصل اليها الفرد بمجهوداته ومن طريق اكتساب الادوار الخاصة وأدائها بشيء من الاتقان ، وفي تلك المراكز لابد للفرد ان يقوم بادوارها لكي يصل اليها ، اما المركز المفروضة فكثيرا ما تضفي على الفرد رغم انه لايستطيع القيام بالادوار الخاصة بها ، ومن المراكز المحصلة ذات الانتشار العالمي تلك القائمة على أساس المهارات اليدوية أو الفنية وكذلك المترتبة على التخصص في السحر ، ومنها أيضا مركز الفرد المتزوج ومركز الفرد في حالة انجاب اطفال ومراكز القيادات السياسية . ومن المراكز التي توجد عند الكثير من المجتمعات المراكز القائمة على مهارات الصيد والرقص والحرب ورويـة التقمص الخاصة بتملك الثروة أو توزيعهـا ، والمراكز المترتبة على الالتحـاق بجمعيات وهيئـات معينـة .

ان الاهلية الوظيفية للمراكز على اختلاف انواعها واشكالها تتمثل في التأثير في أسلوب التفاعل وكميته بين أفراد المجتمع الواحد وبالتالي تحديد كثافة العلاقات الاجتماعية واتجاهاتها ، ولا شك انه لا يمكن لفرد واحد في أي مجتمع ان يقوم بكل الادوار الاجتماعية الموجودة أي أن يؤدي كل أنماط السلوك الاجتماعي التي يتكون منها البناء الاجتماعي ، وكذلك لا يمكن لاي فرد ان يحصل على كل المراكز الموجودة في مجتمع ما .

ولتوضيح المفاهيم السابقة أشير لبعض تطبيقاتها في المجتمعات البدائية .

١ ـ مراكز اساسها النوع :

يوجد مركز للرجل ومركز للمرأة في كل المجتمعات الانسانية وذلك لانهمـا يقومان على حقيقة بيولوجية تتمثل في انقسام الجنس البشري الى نوعين : الذكر

والانثى ، وقد ترتبت على هذين المركزين أدوار محددة تختلف من مجتمع لآخر ولكن الادوار المتصلة مباشرة بالتركيب الفسيولوجي تتمتع بانتشار عالمي فمثلا العمل والولادة والرضاعة والعناية بالطفل حديث الولادة كلها أدوار مرتبطة بمركز المرأة في كل المجتمعات ، ويتفق العلماء على اطلاق اصطلاح « تقسيم العمل حسب النوع » على الادوار التي يحددها المجتمع لمركز الرجل ومركز المرأة ولا يفهم من ذلك وجود فاصل ثابت جامد بين أعمال الرجل وأعمال المرأة فقد يشترك النوعان في بعض الاعمال وقد يساعد أحدهما الاخر على أعماله في ظروف معينة ، وقد قام العلامة « ميردوك » بمسح ميداني لعدد كبير من المجتمعات الانسانية لدراسة مدى اختلاف المجتمعات الانسانية في تطبيق مبدأ تقسيم العمل حسب النوع ، وكان حجم العينة التي اعتمد عليها (٢٢٤) مجتمعا ، وقد لاحظ (٧٥٪) من تلك المجتمعات تخص المرأة بأعمال جمع الطعام وجمع الحطب وطحن الحبوب والبذور واعداد الطعام وطهيه والنسج وصنع الاواني والسلال والابسطة ، ويقوم الرجال بالصيد في (٩٨٪) من تلك المجتمعات ، ويقومون بنصب الفخوخ وقطع الاشجار واستخراج المعادن في (٩٥٪) من تلك المجتمعات ، يقوم الرجال بالصيد البحري في (٨٦٪) من تلك المجتمعات ويختص الرجال بالرعي في (٨٥٪) من مجتمعات العينة ، ولاحظ أن الاعمال الخاصة بالرجال تتطلب التجوال في نطاق واسع وكذلك معرفة كاملة بالأراضي الشاسعة للقبيلة التي ينتمي اليها الفرد .

٢ ـ مراكز اساسها العمر :

تتفق جميع المجتمعات الانسانية في إسناد أكثر من مركز واحد للفرد طوال فترة حياته ولا تقل تلك المراكز عن ثلاثة هي مركز الطفل ومركز البالغ ومركز الشيخ (أي بلوغ مرحلة الشيخوخة) ، وتختلف المجتمعات الانسانية في تحديد العمر الذي عنده ينتقل الفرد من أحد المراكز الى الآخر . وقد لوحظ أن معظم الأطفال والبالغين لا يحصلون على أية امتيازات أو مكانة عالية على أساس بلوغ عمر معين ، وانما ترجع تلك الامتيازات الى عوامل أخرى غير السن منها الحصول على الثروة عن طريق وراثتها أو جمعها ، وكذلك الاعتقاد في وجود قوى غيبية في

أجسامهم سواء عن طريق الوراثة أو التقمص وأضيف الى ذلك عامل اكتساب مهارات شخصية معينة وصفاتها مثل الشجاعة في الحرب واتقان الصناعات اليدوية والطبية والذكاء ، ويختلف الموقف بالنسبة لمركز الشيخوخة ، في معظم المجتمعات الانسانية تضفي على ذلك المركز رتبة عالية أو مكانة عالية تستلزم الاحترام والتقدير من باقي الأفراد وبخاصة الأقارب ، وترجع تلك المكانة العالية الى الشعور بقيمة الخبرة الطويلة التي يتمتع بها كبار السن فمثلا تفسر بعض القبائل تلك المكانة العالية بأن كبار السن يستحقون الاحترام لأن نصائحهم وتوجيهاتهم تكون صائبة في معظم الأحوال . وقد لوحظ أن المجتمعات ذات الظروف البيئية الصعبة تجد صعوبة في توفير الطعام لكبار السن الذين لا يستطيعون البحث عن الطعام ، فعند الأسكيمو يقتلون كبار السن في أوقات العسر ، ويحدث ذلك في عدد قليل جداً من المجتمعات بحيث يعد سلوكاً نادراً ، فقد درس العلامة « سيمونس » (٧١) مجتمعاً انسانياً ، فلاحظ في معظمها عادة احترام كبار السن وتقديرهم ووجد أن الأفراد في مجتمعين فقط (من الاسكيمو) يستخدمون وسائل عنيفة للتخلص من كبار السن ، ووجد أن سبعة مجتمعات تترك كبار السن في العراء لتعجيل موتهم ، ولكني أعود فأذكر أن هذا يحدث في عدد قليل جداً من المجتمعات الانسانية وتحت وطأة العسر الشديد وفي ظروف خاصة ، ولذلك فان الاتجاه العام يتمثل في اعطاء مكانة عالية عندما يبلغ الفرد مركز الشيخوخة .

ومن الموضوعات الهامة المتصلة بالمراكز القائمة على أساس العمر ما يعرف « بطبقات العمر » ولا شك أن الأفراد الذين يتقاربون في السن يميلون الى التجمع والتعاون والتعارف في كل المجتمعات ، ولكن في كثير من المجتمعات البدائية وبخاصة في افريقيا يكونون جماعات منظمة على جانب كبير من الأهمية . وتدخل تلك الجماعات كوحدات اجتماعية هامة في صلب البناء الاجتماعي للمجتمع ، والوظيفة الاجتماعية لتلك الجماعات هي تحقيق التكامل الاجتماعي والوصول الى درجة الاتقان في أداء الأدوار الاجتماعية المختلفة . وتتضح تلك المفاهيم عند عرض بعض الدراسات الميدانية ، فمثلا في قبيلة « ناندي » بجمهورية كينيا نلاحظ نحو أربع طبقات عمرية هي جماعة الأطفال وتلك تجمع الأطفال من الجنسين

ويتراوح سن أعضائها من خمسة أعوام الى خمسة عشر عاما ولا تؤدي تلك الجماعة أي عمل جدي في القبيلة اللهم الا مساعدة الوالدين ،هذا اضافة الى اللعب والتلهو ؛ ويبقى الفرد في تلك الجماعة الى أن يجتاز احتفال التكريس فينتقل الى «المحاربين» ويقام هـذا الحفل كل سبع سنوات أو ثماني سنوات وتعد له القبيلة طقوسـاً واحتفالات ورقصات متعددة ، وفي تلك الاحتفالات يتعرض الاطفال الذكور لكثير من التجارب والاختبارات الصعبة فبالاضافة الى « الختان » يضرب الطفل بعصيان رفيعة ويشك جسمه بقرون الحيوانات ويتلقى الكثير من الأوامر العسكرية مثـل الدخول في معارك وهمية لاختبار مقدراته ، وبعد الانتهاء من احتفالات التكريس ينتقل الأطفال الى جماعـة « المحاربين » • ويتخصص هؤلاء في شؤون الحـرب ويعيشون معاً في معسكرات حول القبيلة ويظلون في تلك الجماعة نحـو أربـع سنوات ، وبعد ذلك ينتقلون الى الجماعة الثالثة وهي « جماعة الناضجين » ويقوم هؤلاء بالأعمال المدنية في القبيلة مثل الزراعة والحرف اليدوية والسحر والصيـد ولهؤلاء حق الزواج وتكوين الأسر وفي تلك الجماعة تظل أواصر الصداقة والتعاون بين الزملاء ، فعندما يزور بعض الأصدقاء أحد زملائهم ، يقوم الأخير بتقديم أحسن الطعام لهم • وكلما تقدم بأعضاء تلك الجماعة السن أتيحت لهم فرصة الالتحـاق بجماعة « كبار السن » التي تتمتع برتبـة عالية اذ يشترك أعضاؤها في « مجلس الشورى » بالقبيلة وهو المجلس الذي يساعد رئيس القبيلة على الحكم • وتنظم المجتمعات الانسانية حفلات التكريم لهم فقط عندما يتغير مركز الفرد كلما تقدم به العمر وانما يحدث ذلك في كثير من المناسبات الأخـرى التي يتغير فيها مركز الفرد ، ومنها احتفالات ولادة الأطفـال واحتفالات الزواج ومراسيم « المـوت » وتعرف تلك الاحتفالات باصطلاح « مراسيم تغيير المركز » •

٣ ـ مراكز اساسها الثروة :

توجد تلك المراكز بصورة ضعيفة جداً في المجتمعات البدائية التي تعتمد على الصيد وجمع الطعام وذلك لأن تجوالها بحثاً عن الطعام يمنع تكوين ثروة كبيرة وحتى اذا استطاع أحدهم جمع بعض الثروة التي تتمثل في صيد ضخم أو توفـير

كمية كبيرة من الجذور والفواكه فانه يصعب نقلها من مكان لآخر وكذلك يصعب الاحتفاظ بها لفترة طويلة لتعرضها للفساد ، وبالنسبة للمجتمعات البدائية التي تعتمد على البستنة أو الرعي أو على كليهما فان المراكز القائمة على أساس الثروة لا تتعلق بجمع الثروات وادخارها وانما بتوزيع الثروة على الأصدقاء والزوار والمحتاجين . ومن أوضح الأمثلة لذلك النظام الاقتصادي المنتشر عند قبائل الهنود الحمر ويعرف باسم « البوتلاتش » ويتمثل في تبادل الزيارات بين القبائل المتجاورة وتقام احتفالات كبيرة أثناء تلك الزيارات وفيها تقدم الهدايا للزائرين ، يتبادلون الهدايا أثناء تبادل الزيارات ، وكلما زادت قيمة الهدية المقدمة ارتفعت مكانة الشخص أو العائلة التي قدمت الهدية . نلاحظ هنا أن المركز يتحدد على أساس توزيع الثروة وليس على أساس ادخارها والمحافظة عليها . ان الأشياء التي توزع أثناء احتفال « البوتلاتش » ليست هي رؤوس أموال في حالة استثمار ، وانما أصلح لفظ على تلك البضائع هو « هدايا » . وتوجد نظم مشابهة في مجتمعات ميلانيزيا حيث ترتفع مكانة الفرد في قبيلته كلما زادت كمية الثروة التي يوزعها على باقي أفراد القبيلة في مناسبات معينة . ويجمع رؤساء قبائل « التروبرياند » كميات كبيرة من البطاطا ولكنهم يقومون بتوزيعها حسب قواعد معينة على جميع أفراد القبيلة في أعياد خاصة . وهكذا نلاحظ انتشار مبادىء البذل والفيرية والتعاون في المجتمعات البدائية بصورة أقوى منها في المجتمعات المتمدينة التي تتحدد فيها مراكز الأفراد على أساس تخزين الثروة وليس توزيعها .

٤ ـ مراكز اساسها المهارات :

تبين الدراسات الميدانية أن المجتمعات الانسانية تتفق في اضفاء منزلة عالية للأشخاص الذين يتقنون المهارات المعترف بها اجتماعياً أي المهارات التي يعترف بقيمتها المجتمع . ففي المجتمعات ذات النزعة الحربية تعطى مراكز سامية للمحاربين المهرة الشجعان ، ففي مجتمعات الهنود الحمر يحتل المحارب مركزاً أعلى عندما يقتل أحد الأعداء ، بل ان المحارب الذي يقتل عدوه بالسكين أو بالحربة يحتل مركزاً أعلى من مركز المحارب الذي يقتل عدوه بالبندقية أو السهم ، وذلك لأن

طريقة القتل الاولى تتطلب شجاعة أكثر من الطريقة الثانيـة . وتعطي المجتمعات البدائية مراكز مرتفعة للأشخاص الذين يتقنون الفنون السحرية والغيبية ، ويعتقد معظم أعضاء المجتمعات البدائية أن الدليل على اتقان هذه الفنون هو النتائج العلمية فعندما يقوم الساحر أو الكاهن باجراء طقوس انزال المطر فان الدليل على اتقـان الكاهن لعمله هو سقوط المطر فعلا ، وتعطي المجتمعات البدائية منزلة عالية للصناع المهـرة الذين يتقنون الحرف ، ولكنها أقـل في الرتبة من المراكز الخاصة باتقان الفنون الحربية والفنون السحرية وفنون القيادة السياسية وكذلك المراكـز العالية المضفاة للأشخاص الذين يوزعون ثرواتهم على الغير. وقد لوحظ أن القبائـل البدائيـة بمنطقة بولينيزيا هي أكثر المجتمعات البدائيـة المعروفة احتراماً وتقديراً للحرف اليدويـة .

٥ ـ مراكز اساسها الانتماء لجمعيات معينة :

المقصود بالجمعيات هنـا تلك الجماعات المنظمة التي لا تقوم على أسـاس العلاقات القرابية والتي توجـد على مستوى المجتمع البـدائي بأكمله سواء أكان عشيرة أم قبيلة أم قريـة ، وينتشر الشعور الجماعي بالوحدة بين أعضاء الجمعية الواحدة ، وأحياناً يستخدم اصطلاح « نادي » للدلالة على تلك الجمعيات ، ومن أوضح الأمثلة لتلك الجمعيات ذلك النوع المعروف باسم « الجمعيات السرية » وهي تتكون من الذكور في معظم الحالات ، وهي جمعيات دينية يحتفظ أعضاؤها بأسرار خاصة بالسحر والطقوس الدينية ولا يفشون تلك الأسـرار للأقرباء وتقوم تلـك الجمعيات بتنظيم الاحتفالات الدينية واجراء الطقوس وفي بعض الأحيان مثل قبيلة « ميدى » بسيراليون في افريقيا يختص أعضاء الجمعية السـرية بفنون العـلاج والطب ، والعضوية في تلك المجتمعات تتم عن طـريق الوراثة ويقوم كبـار السن بتدريب أبنائهم على فنون السحر والطب . وقـد لوحظ أن الانضمام للجمعيات المختلفة في المجتمعات البدائية شبه مقصور على الرجال ، اذ لا توجد أمثلة كثيرة للجمعيات النسائية ، وقـد يرجع ذلك لعدم توافـر وقت الفـراغ للنساء في تلك المجتمعات نظراً لكثرة مشاغلهن وأعمالهن .

يتضح مما سبق أن الأسس التي تحدد المراكز في المجتمعات البدائية هي النوع والسن وتوزيع المهارات المختلفة والانتماء الى جمعيات معينة . ويمكن تقسيم تلك الأسس الى قسمين . القسم الأول يختص بالأسس البيولوجية وهي النوع والسن ويشمل الثاني الأسس الاجتماعية وهي توزيع الثروة والمهارات والجمعيات الاجتماعية . ويحدد كل مجتمع الدور الخاص بكل مركز ، ولقد تبين لنا سابقاً أن الدور هو مجموعة أنماط السلوك المتعارف على أنها مصاحبة لمركز معين ونلاحظ أن البناء الاجتماعي للجمعيات البدائية يتميز بعدد قليل من المراكز بالنسبة للمراكز الموجودة في المجتمعات المدينة ، وتتميز المجتمعات البدائية كذلك بانتشار المراكز المفروضة بصورة أقوى مما توجد في المجتمعات المتمدينة . بينما تنتشر المراكز المحصلة في المجتمعات المتمدينة بصورة أقوى مما توجد في المجتمعات البدائية . إن الترتيب التنازلي أو التصاعدي للمراكز في المجتمعات البدائية يجعل من اللازم تحديد أهم المراكز في المجتمع البدائي عند دراسة البناء الاجتماعي لمجتمع ما ، هذا اضافة الى ما تؤديه تلك المراكز من وظيفة هامة في تنظيم الحياة الاجتماعية تؤدي الى تماسك المجتمع وقوة وحدته الاجتماعية .

وخلاصة القول ان البناء الاجتماعي لمجتمع ما يتكون من ثلاث مجموعات من العلاقات الاجتماعية . **المجموعة الاولى** تتمثل في الوحدات الاجتماعية التي يتكون منها المجتمع وقد أطلق عليها اصطلاح الأشكال المورفولوجية وقد لوحظ أن كل شكل يحتوي على أنماط معينة للعلاقات الاجتماعية ، أما **المجموعة الثانية** فتختص بالنظم الاجتماعية وتلك تمثل تصنيف أنماط العلاقات الاجتماعية في مجموعات تشترك كل مجموعة في موضوع واحد ، فمثلا نظام الزواج يتكون من أنماط العلاقات الاجتماعية المتعلقة باختيار الزوجة وطرائق الحصول عليها ومراسيم الزواج وما الى ذلك وكذلك الحال بالنسبة للنظام الاقتصادي والنظام السياسي والنظام الديني والنظام الأخلاقي وغيره ، ويمكن التفرقة بين المجموعتين السابقتين على أساس أن الأشكال المورفولوجية تمثل تجمع مجموعة من الأفراد في جماعة تتميز بأنماط سلوك معينة أما المجموعة الثانية فلا تتكون من أفراد وانما تتكون من أنماط السلوك ذاتها . وفيما يختص **بالمجموعة الثالثة** من أنماط السلوك الاجتماعي التي يتكون

منها البناء الاجتماعي فانها تتمثل في المراكز المختلفة التي يحددها المجتمع ويشغلها الأفراد بشروط معينة ويقوم الفرد بدور اجتماعي معين عند تقمص المراكز المتاحة له ، ويجب ملاحظة أن الدور الاجتماعي هو مجموعة من أنماط السلوك الاجتماعي المصاحبة لمركز معين . وهكذا يتضح لنا أن العنصر الأساسي للبناء الاجتماعي هو أنماط السلوك الاجتماعي التي نصل اليها عن طريق ملاحظة العلاقات الاجتماعية والواقعية وبالتالي يكون موضوع الانثروبولوجيا الاجتماعية هو في النهاية العلاقات الاجتماعية الواقعية .

* * *

المبحث الرابع

نماذج عن اوضاع المرأة والزواج والأسرة لدى الشعوب البدائية

اولا ـ في القارة الافريقية(١) :

يوجد في افريقيا شعوب بدائية كثيرة تختلف في أنساق حياتها وفي نظم الاسرة والزواج لديها ، ونذكر فيما يلي نماذج عن حياة هذه الشعوب .

١ ـ جماعات البوشمن :

وهم شعب غريب يعيش في جنوب افريقيا ويتميز أفراده بضآلة الحجم ،وتميل بشرتهم الى اللون البني المشوب بالصفرة ، وهم يكادون يقاربون اقزام الكونغو في القامة ، وشعرهم من النوع الصوفي شديد التجعيد .. ولكنهم يختلفون عن الزنوج في ان وجوههم مثلثة ومسطحة بعض الشيء ، كما تشبه عيونهم العيون المنغولية .. وتمتاز نساء البوشمن بميزة غريبة ألا وهي القدرة على اكتناز الشحم وتكويمه فوق الاليتين بحيث تنتفخان وتبرزان الى الخلف بشكل لا يوجد عند أي كائن بشري اخر ..

---

(١) جميع هذه النماذج من كتاب عبد الهادي عباس : المرأة والاسرة ص١٧٤ ـ ٢١٥ .

وينمو هذا التضخم في الاوقات التي يتوافر فيها الطعام عندهم ، ثم لا يلبث ان يضمر ويضمحل حين يشح الطعام .. وهذه الخاصية التي تشبه ما يوجد عند الابل، توحي بأن اسلاف البوشمن : عملوا على تطويرها كنوع من الاستجابة للظروف القاسية ، وذلك أثناء عزلتهم الطويلة عن بقية الجنس البشري في جنوب افريقيا . والبوشمن من الشعوب التي ما زالت تعيش على الصيد ينجولو ذفي زمر وجماعات صغيرة أو حتى في شكل عائلات بحثا عن الصيد ويغيرون مواطن اقامتهم تبعا لمواسم هجرة الحيوان .

والزمرة الواحدة من البوشمن تتألف من عدد قليل من العائلات التي قد لا تعيش دائما معا في اقليمها الخاص .. وباستثناء رئيس العائلة لا يوجد شخص يطلق عليه كلمة رئيس . وقد يقيم البوشمني بعض الحفلات لمناسبة الزواج ولكنه لا يوجد أية علاقة من علاقات التكلف والرسميات وهذا امر مألوف عند كل الشعوب التي تعيش على القنص ، فكثيرا ما يبدأ الفتى والفتاة بكل بساطة في المعيشة معا وتكوين أسرة ثم تربية الاطفال . واذا كان في وسع الرجل ان يكفل اكثر من زوجة واحدة وأراد ذلك فله ما يريد . وروابط القرابة واضحة ومحددة بكل دقة عندهم كما ان الاتصال الجنسي بين المحارم يعد كما هو الشأن في كل المجتمعات البشرية ـ من الامور البعيدة عن الذهن ـ كذلك يتحاشى الزوج أن يبدي أي اهتمام (بعماته)، ومع انه يباح للرجل ان يتزوج من الزمر والجماعات الاخرى مما قد يؤدي الى خلق علاقات وروابط خارجية فالمجال الاجتماعي للبوشمن ينحصر في الجماعة الصغيرة التي ينتمي اليها والتي تعيش وتصطاد في اقليمها الخاص[٢] .

ب ـ جماعة الشيلوك :

عند هذه الجماعات تلعب الماشية دورا كبيرا في حياتهم ، وفي تدعيم رابطة الزواج على ما يتمثل في العادة المعروفة باسم (اللوبولا) والتي تبدو وكأنها ثمن

---

(٢) وليام هاولز ، ما وراء التاريخ ، ترجمة د. احمد ابو زيد ، ص ١٧٠ .

الدروس (المهر) الذي يدفعه الرجل للحصول على زوجة . ولكن (اللوبولا) تعد عملية طويلة وتمويلا اساسيا في الثروة وليس مجرد مساومة بالابقار للحصول على فتاة صغيرة . ويبدأ دفع الابقار بالخطوبة ، ويستمر حتى الزواج ، وقد يستمر بعد الزواج حتى انجاب الزوجين . وعليه فان (اللوبولا) هي الزواج ، والاطفال ابناء الاشخاص الذين دفعوها . ولا تستطيع الزوجة ان تطلق زوجها طلاقا بائنا الا اذا ردت عائلتها الماشية له ، والا فانه يحتفظ بالاولاد الذين جاؤوا ثمرة لهذا الزواج . واذا مات الزوج وتزوجت الزوجة من اخرى عد الاطفال الذين تنجبهم ابناء للزوج الميت ، وفي الحقيقة ان زواج الارملة لا يحمل معاني هذه الكلمة (الزواج) لأن شرط الزواج هو دفع (اللوبولا) وانما هو مجرد رخصة للارملة باعتراف المجتمع أن تعاشر أحد الافراد من عشيرة الزوج لتنجب له أولادا يحملون اسم الميت .

والشائع ان تتزوج الارملة من أخي زوجها وتظل محتفظة تقريبا بمركزهـا الاصلي ، وبمعنى آخر ، إن الزواج الاصلي يظل قائما لم يتغير ـ أما اذا كانت الزوجة هي التي ماتت وبخاصة اذا لم تكن أنجبت أو تركت عددا قليلا من الاطفال فانه ينتظر من عائلتها تنفيذ الواجب بارسال اختها الى الزوج . وفي غرب افريقيا توجد عادة زواج المرأة المسنة ذات المكانة الاجتماعية بامرأة اخرى صغيرة وتدفع لها (اللوبولا) لتزيد وتدعم سلالتها وذلك باختيار رجل لها ينوب عن المرأة في انجاب الاطفال من هذه الزوجة (٣) .

جـ ـ قبائل جنوب السودان :

في عام (١٩٠٩) توجه أحد رواد الانثروبولوجيا في بريطانيا (س ج ـ سلجمان) وزوجته المتخصصة في علم الحيوان بناء على طلب من حكومة السودان لدراسة قبائل جنوب السودان ، وقد درس عددا من هذه القبائل وشارك في الدراسة بعض تلاميذه .. وقد جاء في هذه الدراسات في موضوع الاسرة والزواج :

---

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٨٦ .

٢ ـ عند قبائل الدنكا :

انه قبل ان يخطب الرجل فتاته التي يريد الزواج منها ، يجب عليه أن يحصل على موافقة رفاقه في طبقة السمر ، وهم يرافقونه عند الذهاب الى المنزل والد الفتاة لخطبتها .. ويتكون المهر عند العشائر التي تشتغل بالرعي من عدد من الماشية ، أما عند العشائر التي تشتغل بصناعة الحديد فانه يتكون من قطع من الحديد .. وليس من الضروري ان يؤجل الفتى زواجه حتى يتم تسديد المهر كله .. ولكن يمكن الاتفاق عليه ودفع جزء منه ، ثم يسدد الباقي بعد اتمام الزواج ، وفيما يلي بيان بالمهر الذي قدمه احد أفراد (الدنكا) الى زوجته ، مع ملاحظة ان أفراد العشيرة التي ينتمي اليها هذا الفتى يشتهرون بالثراء ولا يملكون الا القليل من الماشية .

وعلاوة على ما تقدم ، فان العريس قد قدم ايضا حريتين لصيد فرس النهر وثلاث سفائح من السمن وكميات كبيرة من الاسماك ، وهذا المهر حصل عليه من أقاربه ، اذ قدم له والده البقرة والشبه كما ساهم في دفع باقي المهر عدد من اقاربه ، وبعد دفع المهر الى اسرة الفتاة تم توزيعه بين افرادها ، فالام اخذت البقرة أما الاب فقد اخذ ابنتها كما أخذ ابن شقيق والد العروس الشبه .

وهكذا يبدو ان الفرد لكي يتزوج لابد أن يعتمد على أقاربه للحصول على المهر ، وذلك لأن بقاء الفتى دون زواج بسبب عدم المقدرة على دفع المهر أمر يسيء الى جميع افراد العشيرة .

وفي العادة تنحصر أسباب الطلاق عند الدنكا في العقم ، وعدم الوفاء من الزوج ، وعدم مقدرة الزوجة على طهي الطعام جيدا .. ولا تعد زنى الزوجة مبررا للطلاق فالزاني يجب ان يدفع للزوج غرامة تتراوح بين خمسة رؤوس وثمانية رؤوس من الماشية .

وعندما تغادر الزوجة منزل اسرتها لتعيش في منزل زوجها فان امها تعطيها حفنة ومحركين للحساء وعددا من الملاعق .

وفي أثناء فترة الحمل والرضاعة تمتنع المرأة عن أكل أنواع معينة من الطعام ، مثل لحم الجاموس وأنواع معينة من السمك ، كما يحرم عليها كذلك أكل لحم الميتة ، علما بأن ذلك ليس محرما في مجتمع الدنكا . وإذا لم تراع المرأة هذه القواعد فإن طفلها يموت بسبب ذلك . وبالنسبة لتسمية الأطفال ، فقد جرت العادة على أن يسمي الأهالي أطفالهم بأسماء الأجداد والأقارب الأدنين . وهم لا يسمون الطفل عقب ولادته مباشرة ، وإنما يتركونه بلا تسمية حتى يبدأ يحبو ، وتوضح دراسة سلاسل الأنساب أن كثيرا من الأطفال قد سموا بأسماء تدل على حوادث وقعت وقت تسميتهم . فمثلا سمي أحد الأطفال باسم (أتوت) ومعناه (مطير وبارد) وذلك لأنه ولد في فصل الأمطار أثناء انتقال الأسرة الى القرية . والختان أخذ ينتشر مؤخرا لدى بعض القبائل هناك وربما تعلموه من العرب .

٢ ـ الازاندي :

وهي القبائل التي تعيش في أقصى جنوب السودان وتسمى أيضا (نيام نيام) وتكثر في منطقة اقامة هؤلاء الأعشاب الطويلة والغابات كما يوجد عندهم ذباب (تسي تسي) الذي يسبب مرض النوم ، وقد كان هؤلاء من البدو الرحل ثم أجبرت الحكومة قسما منهم على التجمع والسكن . وتتكون الأسرة عند (الازاندي) من الزوج والزوجة أو الزوجات والأطفال ويلاحظ أن المسنين يتمتعون بمكانة عالية كما يلاحظ أن مكانة المرأة أدنى بكثير من مكانة الرجل ، وينتشر هناك نظام تعدد الزوجات وبخاصة بين الرؤساء .

٣ ـ قبائل النوير :

وهؤلاء يختصون ببعض العادات والأنظمة المتميزة ، وعندهم يحرم على الفتى أن يتزوج ابنة أحد زملائه في طبقة العمر ، أو أن يتصل بها جنسيا حيث انها تعد (ابنته) كما انه يعد ابا لها . ويتم الزواج عندهم على الشكل التالي:

عندما تبلغ الفتاة الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها فان الفتيان الذين

مروا بحفلات التكريس(*) يبدأون في التودد اليها ومطارحتها الغرام ، وفي سن السادسة عشرة يكون لديها عشيق واحد على الاقل . ويمكن القول ان مرحلة ماقبل الزواج بصفة عامة تتسم بانتشار الانحلال الخلقي بين الفتيات . وفي العادة يتراوح سن الزواج بالنسبة للفتاة بين ١٦ ــ ١٨ سنة ، اما بالنسبة للفتى فان ذلك يتوقف على عوامل كثيرة منها حجم الاسرة وترتيب الفتى الذي يتقدم للزواج من ابنتها ، غير انها في الوقت نفسه لا تستطيع أن تجبرها على الزواج من شخص لا تحبه ، ولكن يتم الزواج وتقوم أسرة الفتى بدفع المهر . كما يجب اقامة عدة من حفلات بهذه المناسبة ، منها حفلة الخطوبة وحفلة الزواج ، وغالبا ما تقام هذه الحفلات في فصل الامطار حيث يتوافر الثريد والبيرة ويهرع الاهالي من كل حدب وصوب لحضور تلك الحفلات وتناول الطعام وشرب البيرة والاشتراك في الرقص .

واذا ما وجد العروس ان عروسه ليست عذراء عند انفراده بها في الليلة الاولى . فان هذا الامر ليس من شأنه ان يسبب له ازعاجا ، وفي صباح اليوم التالي يقوم أحد افراد أسرة الزوج بحلق شعر رأس الزوجة ، ويعتقد الاهالي ان العملية تدل على انها قد (أصبحت زوجة) .

والزوجة بعد ذلك تظل في مسكن والديها حيث يخصص لها كوخ مستقل تعيش فيه ، اما الزوج فهو يظل مع اسرته كما كان قبل الزواج ، ولكنه يقوم بزيارة زوجته ليلا من آن لآخر حيث يقضي الليلة معها في كوخها الذي أعدته لها أسرتها . ويستمر الحال كذلك حتى تنجب الزوجة طفلا ، وعندئذ تعد أسرة الفتاة أن الزواج

(*) حفلة التكريس تجرى احتفالا بمرور الذكر من افراد النوير من مرحلة الصبا الى مرحلة الرجولة ويجب لذلك ان يمر بعملية قاسية تقطع فيها الجبهة بواسطة سكين صغير ست مرات . ويظل اثر القسام الجراح واضحا مدى الحياة . والعملية تجرى لعدد من الاولاد في وقت واحد ، وكل قرية تقوم بهذه العملية على حدة . وعند النوير ان مرور الفتى بشعائر التكريس يعني أنه قد اصبح رجلا بمعنى الكلمة . ويسرى اشباهها لهذه العملية في حضارات عدد من الشعوب .

قد تم كلية ، وان الفتى قد أصبحت تربطه بهم فعلا صلة قرابة ، وتظل الزوجة في مسكن والديها حتى تفطم طفلها . وعندئذ يقيم الزوج لزوجته كوخا بجوار مسكن أسرته ثم يتوجه بعد ذلك لاحضارها من مسكن والديها . وهما لا يمانعان في ذلك حتى ولو كان هنالك بقية مستحقة من المهر لدى الزوج . وعند انتقال الزوجة الى مسكنها الجديد فان أسرتها تعطيها قلة وملعقة واحدة . وللمهر أهمية كبرى، وهو يتمثل بصورة عامة بالماشية ، وأهل العروس يطالبون أثناء مفاوضتهم بشأن المهر ـ بأن يشتمل على حيوانات ذات الوان معينة وأحجام وصفات معينة ، والذي لا شك فيه أن المهر له أهمية بالنسبة لاستقرار الزواج عند النوير ، اما الزوجة التي تهجر منزل الزوجية فيكون أهلها ملزمين برد المهر الى الزوج . واذا كانت الماشية قد ولدت فيجب اعادة ما ولدته ، رغم ما يولده ذلك من صعوبة تقتضي أحيانا السعي بالضغط من قبل أسرة الزوجة لتعود لزوجها[٤] .

والى جانب هذا النمط العادي لنظام الزواج في مجتمع النوير فانه توجد أشكال اخرى منها :

١ ـ زواج المرأة بالمرأة :

قد ترغب المرأة في مجتمع النوير أن تلعب دور الرجل في الحياة الاجتماعية فتختار احدى الفتيات لتتزوجها وتقدم لاسرتها المهر اللازم . وبعد اتمام شعائر الزواج تماما كما هو متبع عند زواج الرجل فان المرأة الزوج تطلب من أحد اقاربها الذكور أو أحد الأصدقاء أو الجيران أن يقوم بالاتصال بالزوجة جنسياً ، وذلك لكي تنجب الزوجة لها اطفالا . واذا كانت المرأة الزوج على درجة من الثراء فانها قد تتزوج عدة من زوجات وهي تعد في هذه الحالة الزوج القانوني لهن ، ويحق لها أن تطالب بالغرامة الخاصة بالزنى بصفتها زوجا لهن ـ اذا ما ثبت لها أن أحد الرجال قد اتصل بهن جنسيا دون الحصول على اذن منها بذلك .

---

(٤) د. علي محمود اسلام الفار ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، ص٢٤١ .

وعندما تنجب الزوجة اطفالا فان (المرأة الزوج) تعد (أبا) اجتماعيا لهم وهم يخاطبونها بقولهم يا (أبي) تماما كما لو كانت رجلا بالفعل ، كما انهم يحملون اسمها ويرثون ثروتها كذلك(*) واما بالنسبة لعلاقة الزوجة أو الزوجات والاطفال بالمرأة الزوج فانها تتسم بالطاعة والاحترام تماما كما هو الحال بالنسبة للزوج الذكر .

واذا ما تقدم أحد الفتيان للزواج من احدى بنات المرأة الزوج فان المهر المقدم من أسرة الفتى يوزع بالطريقة المتبعة تقسيما في النمط العادي للزواج ،فالمرأة الزوج تحصل على الجزء الخاص بها بصفتها (والد الزوج) اما بالنسبة للرجل الذي انجبته (المرأة الزوج) للاتصال بالزوجة جنسيا لانجاب الاطفال فان له ايضا نصيبه من مهر الفتاة ، انهم يعطونه بقرة واحدة عن كل فتاة جزاء ما قام به وهم يطلقون عليها بقرة الانجاب ولهذا فان المجتمع يضعها في عداد الرجال ، كما يلاحظ أيضا ان المرأة العقيم عادة ما تمارس السحر لتحصيل لقاء ذلك على الكثير من الماشية ومن ثم فانها تكون على درجة من الثراء .

٢ ـ زواج الشبيح :

وهذا يتأتى عن وفاة رجل دون ان يكون له وريث شرعي من الذكور فأحد اقاربه ؛ مثل الاخ او ابن الاخ ينبغي عليه ان يتزوج فتاة باسم الشخص المتوفى ، ويعتقد (النوير) انه اذا لم يفعل أحد الاقارب ذلك فان شبح المتوفى يسكن المنطقة ويعمل على ازعاج اقاربه بها .

وفي هذا النوع من الزواج يكون الشخص المتوفى (الشبح) هو الاب الاجتماعي للاطفال وهو ايضا الزوج الشرعي للزوجة ؛ وعلى ما ذكر (ايفانس

(*) يقصد بالاب الاجتماعي الشخص الذي ينسب اليه الطفل ، فمثلا ؛ فهو يحمل اسمه ويرث ثروته ؛ اما الاب الفيزيقي فهو الشخص الذي انجب الطفل وفي كثير من المجتمعات نجد ان الوالد المنجب /الفيزيقي/ هو الاب الاجتماعي،كما نجد في بعض الاحيان ان الاب الاجتماعي هو الاب الفيزيقي ، كما هو في التبني لدى بعض الشعوب .

ريتشارد) فان هذا النوع من الزواج ينتشر كثيرا في بلاد التوبر وذلك يرجع الى أن كثيرا من الشبان يموتون قبل أن يتزوجوا ، هذا اضافة الى أن كثيرا من المتزوجين يموتون قبل انجابهم اطفالا .. وقد يحدث في كثير من الاحيان ، أن يتزوج الرجل فتاة باسم قريبه المتوفى ، ثم يجد نفسه بعد ذلك غير قادر — من الناحية الاقتصادية — على أن يحصل على زوجة باسمه هو شخصيا ، ذلك ان زواج الرجل هناك ، كما أشرنا — يعتمد اعتمادا كليا على الماشية ، كما أنه يتوقف على ترتيب الابن داخل الاسرة حسب السن ، ومن ثم فان الرجل الذي يتزوج فتاة باسم قريبه المتوفى لينجب له أطفالا قد يظل طوال حياته ينتظر اتمام زواج جميع اخوته ، وربما لا يجد بعد ذلك الماشية اللازمة ليتزوج زوجة شرعية لكي تنجب له أطفالا ينتسبون اليه ويرثونه . واذا ما توفي مثل هذا الرجل ، فان افراد المجتمع يعدونه من الناحية الشرعية لم ينجب ، ومن ثم فانه يتعين على أحد أقاربه ان يقوم بالواجب نحوه فيتزوج فتاة باسمه .

٣ — الزواج الليفراتي :

ويذكر الباحث ذاته (ايفانز ريتشارد) أن الزوجة على الرغم من وفاة زوجها تظل في نظر المجتمع زوجة له ولا يجوز لها أن تتزوج مرة ثانية ، كما أن جميع الاطفال الذين تلدهم بعد وفاة الزوج يعدون أبناء شرعيين له .. وعلى ما يذكر الباحث فان الاهالي قد أبدوا دهشتهم الشديدة حينما اخبرهم بأن الارملة في انجلترا يحق لها ان تتزوج مرة ثانية بعد وفاة زوجها .

وقد جرت العادة عند التوبر على أن يقوم شقيق الزوج المتوفى بالاتصال جنسيا بالارملة لانجاب اطفال باسم المتوفى . هذا وان زواج الليفراتي يختلف عن زواج الشبح من ناحية المهر واقامة حفلات الزواج . ففي زواج الشبح نجد ان الزوج النائب عن المتوفى يدفع مهرا لاسرة الفتاة باسم الشخص المتوفى ، كما انه يقيم احتفالات بمناسبة الزواج تماما كما لو كان المتوفى على قيد الحياة، اما بالنسبة للزواج الاخر فان الزوج القانوني (المتوفى) قد سبق وقدم المهر فعلا ، كما انه قد أقام الحفلات الخاصة بالزواج ومن ثم فان شقيق المتوفى لا يدفع مهرا ولا يقيم أية احتفالات .

وتتكون الاسرة في هذه الحالة من الزوج القانوني (المتوفى) والاطفال والارملة وكذلك شقيقه ، وحين يتحدث الاهالي عن الارملة فانهم يشيرون اليها على أنها زوجة المتوفى كما ان الاطفال يرون أنهم ينتمون الى اسرة شرعية ، وأن اباهم هو الشخص المتوفى وليس العم الذي يقيم معهم، بل انهم لا يعدونه ضمن افراد الاسرة ، حتى ولو كان هو فعلا الاب الطبيعي بالنسبة لهم .

وقد تحدث منازعات بين الزوجين ، ويتعقد الموقف بحيث لا تجد الزوجة منفذا أمامها الا بهجر زوجها مع احتفاظها باطفالها ، ثم تبحث لنفسها عن عشيق تعيش معه. وفي هذه الحالة ينبغي على أسرة الزوجة ان ترد المهر الى الزوج ، وفي حالة عدم قيام اسرة الزوجة برد المهر ، فان جميع الاطفال الذين تنجبهم الزوجة فيما بعد نتيجة لعلاقتها مع عشيقها يعدون ابناء شرعيين لزوجها الذي هجرته .

وهكذا يلاحظ ان النوير لا يعلقون أهمية كبرى على الابوة الطبيعية . واذا كان الرجال يفضلون انجاب أطفالهم بانفسهم ، الا أنهم مع ذلك يرون انه ليس من العار أن يربي الانسان طفلا لم ينجبه هو شخصيا . فالابوة القانونية للطفل هي الامر الهام الذي يضعونه نصب اعينهم بصرف النظر عن الشخص الذي قام بالاتصال جنسيا بالزوجة وأدى الى انجاب الطفل .

وتبعا لذلك فان الزنى في نظرهم : هو الذي يرتكب الفحشاء مع زوجة رجل آخر : ويدخل ضمن ذلك زواج الشبح والليفراتي ، وهو وان كان يعد عملا غير قانوني فان الاهالي لا ينظرون اليه على أنه عمل غير اخلاقي ولهذا قلما يتشاجر الناس من أجله أو يشعرون بالخجل من جراء انتشاره .

وعقوبة الزنى عند ثبوتها هي أن يدفع الزاني للزوج ست بقرات تعويضا عن الفسق بزوجته ، وهم يرون أن الزنى داخل مسكن الزوج يعد أكثر خطورة من الزنى في الغابة ، وذلك لانهم يعتقدون ان ذلك قد يسبب المرض للزوج . وبعبارة أخرى يرى الاهالي ان الفسق بالزوجة داخل مسكنها يسيء الى الزوج من حيث انه اعتداء على حقوقه . وكذلك من ناحية صحته هو شخصيا .

واذا انجبت الزوجة طفلا سليم البنية نتيجة لهذه العلاقة ، غير المشروعة فانه يجب على الزوج ان يرد الى الزاني خمس بقرات ويستبقي لنفسه بقرة واحدة فقط .

ويعتقد النوير أنه اذا لم يرد الزوج هذه البقرات الى الزاني فان الطفل المولود قد يموت ويقوم شبحه بازعاج أية الاجتماعي .

٤ ـ كينيا :

كينيا جمهورية في افريقيا الاستوائية على المحيط الهندي ، وتوجد فيها قبيلة (الكيسيجي) وقد قام الباحث (بريستاني) بدراستها ووضع كتابا بذلك أشار فيه الى أن أفراد هذه القبيلة يبلغون زهاء (٨٠) الفا وقد وصف تقاليدهم ونسق نظامهم في أحوالهم الشخصية وذكر أن من العادات عندهم : ختان الذكور وختان الاناث أثناء حفلات التكريس في مرحلة ما قبل الزواج . ومن ثم فان الاهالي يسرون ان التزاوج مع القبائل الاخرى التي لا تمارس الختان (بالنسبة للفتيان والفتيات) يعد أمرا محرما(*) ، ومهر الزوجة يتكون من عدد يتم تحديده من البقر والماعز ، وهم لا يوافقون على تزويج بناتهم اذا لم يشتمل المهر على عدد معين من البقر . ويبدو أن الهدف من ذلك يرجع الى أن الأسرة ترغب في الاحتفاظ بهذا العدد من البقر حتى يكبر اخوة العروس ليتم استخدامه مهورا لتزويجهم . هذا وقد اشار الباحث في كتابه الى ان نظام الاسرة والزواج عند هذه القبيلة يشمل الامور التالية :

أ ـ زواج المرأة بالمرأة :

تتشابه هذه الحالة مع ما ذكرناه آنفا عن قبيلة النوير ، وهي هنا أيضا ترتكز على اهتمام الرجال بانجاب الاطفال ، وفقدان حظوة المرأة لدى زوجها اذا لم

(*) لاحظ احكام التوراة في هذا الشأن .

تنجب ، فضلا عن ذلك فان فعل الملكية الخاصة يكل كوخ عن الملكية الخاصة بالاكواخ الاخرى ، ومن ثم الماشية التي تقدم كمهر لزواج البنات لا يمكن استخدامها الا في زواج الاخرة الذكور من الام نفسها • وفي حالة عدم وجود ابناء ذكور فان الام تستخدم الماشية الخاصة بمهور بناتها (للتزويج) بها امراة اخرى — وهي لا تفكر بهذا الا بعد انتظارها فترة طويلة من الزمن ويأسها من انجاب أطفال، وفي العادة بعد أن تصبح عجوزا ، ويجب عليها في هذه الحالة الحصول على موافقة زوجها •

وزواج المرأة بالمراة لا يختلف عن الزواج العادي — كما ذكرنا — فالزوجة تقوم بتقديم المهر اللازم الى والدي الفتاة ثم يجري الاحتفال ، وفي العادة يتم تسليم العروس بعد ذلك الى أحد ابناء الزوج من زوجة اخرى أو الى أحد اخواته •

ب — الولادة :

عندما تلاحظ المرأة ان دم الحيض قد توقف فانها تخبر زوجها بذلك ، وعندئذ يتوقف الزوج عن ممارسة علاقاته الجنسية مع زوجته لكن الزوجة تستمر في حياتها اليومية العادية في كوخها حتى الشهر التاسع من الحمل • وعندما تدنو ولادتها ويأخذها الطلق يغادر الزوج كوخها ويوجه للمبيت في (نادي الرجال) ذلك لانه لا يجوز لاي رجل بدءا من هذا اليوم ولمدة شهر — بعد الولادة — أن يدخل كوخها •

وبعد ولادة الطفل تتوجه بعض النسوة الى الزوج ويطلبن منه ان يعطيهن بعضا من الدم لزوجته وعندئذ يقوم الزوج بفصد بقرة أو ثور (حسب جنس المولود) ليستخرج شيئا من الدم ، وتقوم الام بشرب هذا الدم باعتقادها انه يساعدها على استرداد قوتها بسرعة •

واذا وضعت الزوجة انثى فانها تلزم كوخها ولا تفارقه لمدة ثلاثة أيام بعد

الولادة ، اما اذا وضعت ذكرا فانها تلزم كوخها لمدة أربعة ايام . ويجب على الزوجة الا تلمس بيديها أي شيء عداخل الكوخ لمدة ستة أيام بعد الولادة . ومن ثم فانه يجب عليها عند تناول طعامها خلال هذه الفترة ـ ان تستخدم (عصا أو عودا) وفي اليوم السابع تحلق الزوجة شعرها ، كما انها تقوم كذلك بالاستحمام في النهر .

وقد جرت العادة على أن ترضع الام طفلها من ثديها لمدة سنة واحدة فقط ثم تفرم بعد ذلك بفطامه ، وتقدم له طعاما جامدا ونظرا لكون الطفل لا توجد لديه أسنان ليتضغم ما يقدم له من طعام فان امه تصنع له كرات كبيرة من الثريد الجاف ثم تقوم بدفعها في حلقه الى اسفل بوساطة اصابعها ، وبعد ذلك أحد الاسباب التي تؤدي الى هذه النسبة الكبيرة من وفيات الاطفال الرضع عندهم .

وبعد مرور شهر على الولادة يعود الزوج الى بيته ، وفي خلال لهذا الشهر لا يجوز لاي رجل أن يرى الطفل المولود ، وذلك ان الاهالي يعتقدون ان وجه الرجل يفزع الطفل لدرجة أن يجعله لا يتوقف عن البكاء . كما ينتابه أيضاً الضعف الشديد الذي يؤدي الى وفاته .

واذا حدث ونظر احد الرجال الى الطفل المولود فانه يجب عليه ان يقوم على الفور بالبصق في وجه الطفل . واذا كان الرجل لا يعرف سن الطفل المولود أثناء مروره عليه فان أمه تجري خلفه وتطلب منه أن يبصق على ورقة نبات وذلك لكي تضمخ بها الطفل .

رغم ان الزوج يعود الى كوخه بعد مرور شهر على الولادة ، فانه لا يستطيع ان يقوم بالاتصال جنسيا بزوجته قبل أن تقوم بفطام طفلها ، أي قبل مرور سنة على ولادته واذا كان الزوج له زوجات كثيرات ، فانه يذهب لزيارتهن خلال هذه الفترة

أما اذا لم تكن لديه زوجة اخرى فانه يبحث لنفسه عن عشيقة غير متزوجة لينام معها في (نادي الرجال) .

جـ ـ التبني :

لا يجوز لأي فرد من القبيلة أن يتبنى ولدا من القبيلة ذاتها ولكنه يستطيع ان يتبنى فقط أولادا من أية قبيلة أجنبية ، وقد كان هذا النوع من التبني منتشرا سابقا عندهم ، ذلك انهم كانوا يغيرون على القبائل المعادية لهم ويأسرون كثيرا من أولادهم ثم يقومون بعد ذلك بتبنيهم في مجتمع القبيلة .

والاحتفال الخاص بالتبني غاية في البساطة ، فالأب المتبني يقوم بدعوة أفراد عشيرته ثم يضحي بماعز ويعلن أمامهم أن الولد الاجنبي قد أصبح من الان فصاعدا عضوا في أسرته وأنه يتعين عده ابنا له .

د ـ علاقات التجنب بين زوج الابنة والحماة :

يجب على زوج الابنة اذا قابل حماته في الطريق أن يغير اتجاهه وذلك حتى لا يجد نفسه أمامها وجها لوجه ، واذا أراد ان يتحدث معها فانه ينبغي عليه ان يفعل ذلك وهو على بعد منها ، كذلك لا يجوز له أن يدخل كوخها أو يتناول أي طعام قامت بطبخه الا بعد اقامة حفل خاص بغرض التقليل من مظاهر التجنب بينه وبين حماته ، وفي العادة لا يقام هذا الحفل الا بعد اتمام الزواج بفترة طويلة ، وبعد الانتهاء من الحفل يستطيع زوج الابنة ان يدخل كوخ حماته كما يستطيع ان يتناول الطعام الذي طبخته شخصيا[٥] .

ثانيا ـ في قارة اسيا :

قارة آسيا مهد الديانات السماوية والحضارات الكبرى وهي على امتدادها

---

(٥) الانثروبولوجيا الاجتماعية ، نقلا عن ايفانز وريتشارد في كتابه :

وتعدد شعوبها تضم من الأساطير والتقاليد والأديان واللغات وأجناس الشعوب نماذج وأنواع متعددة يصعب الالمام بها ، وفي هذه القارة تجد شعوبا تعيش المرحلة البدائية من حياتها الى جانب شعوب وصلت لأوج تطورها في سلم الحضارة ،ونورد فيما يلي بعض النماذج عن حياة الشعوب البدائية في هذه القارة ضمن موضوعنا هذا :

١ ـ سكان جزر الاندمان :

هذه الجزر تقع في جنوب شرق اسيا والكائنة في شرق ساحل مدراس ، وفيها يعتمد السكان في معيشتهم على الموارد الطبيعية بالجزر (البحر والغابات) حيث يستخرجون الاسماك المختلفة من البحر ويحصلون من الغابات على الخضراوات والفواكه وعسل النحل ، كما أنهم يأكلون القطط والسحالي والثعابين ، والفئران ويصطادون الخنازير أيضا ، وهم في جزيرة أندمان الصغرى عراة كلية . أما سكان جزيرة اندمان الكبرى فقد بدأوا يستر عوراتهم بقطعة قماش وطبقا للتعداد الذي أجرته حكومة الهند سنة (١٩٠١) بلغ عدد سكان الجزر (١٨٨٢) نسمة ويقال ان عددهم زهاء خمسة الاف نسمة ، وقد اخذت حياتهم تتطور نتيجة اتصالهم بالغرباء وتبعا للدراسة التي نشرها (رادكليف براون)[٦] ورغم أنه لم يقم بدراسة أفكار الاندمانيين المتصلة بالجنس لان الاهالي كما يقول ، كانوا يبدون حياء شديدا عند حديثهم مع المستوطنين من البيض .. ويحرصون على تجنب أية اشارة الى المسائل الجنسية ، ومع ذلك فقد وصف شيئا من حياتهم في موضوع الزواج، وذكر انه عندما يلاحظ والدا الفتى أنه متعلق بفتاة معينة فانهم يأخذون على عاتقهم اتمام زواجه بها . وهم يبدأون بايفاد رسول الى أسرة الفتاة لمفاتحتها في هذا الموضوع ، وبعد ان يصل الطرفان الى اتفاق في هذا الشأن تتبادل الاسرتان الهدايا كما يتم تحديد ليلة الزفاف،

---

(٦) رادكليف براون ، سكان جزر الاندمان ، ١٩٢٢ .

وتجرى حفلة يقوم بها الاهالي بايقاد المشاعل في ساحة الرقص ، حتى يستطيع أفراد الجماعة مشاهدة الحفلة ، ويجلس العروس على سجادة في طرف الساحة ، كما يجلس بالقرب منها أهلها وأحد رفقائها ، أما العريس فانه يجلس بين أهله وأصدقائه في الطرف الاخر من الساحة ، ثم ينهض أحد الرجال وهو يكون زعامة من المسنين الذين يحظون باحترام كبير من جانب افراد الجماعة ويخاطب العروس مذكرا اياها بما يجب عليها نحو زوجها .. انها يجب أن تكون صالحة ووفية لزوجها كما يجب عليها كذلك أن تراقب زوجها حتى لا يجري وراء غيرها من النساء .. ثم يتجه الرجل المسن بعد ذلك الى العريس ، ويوجه اليه عدة من نصائح تماما كما فعل مع الزوجة ، وبعد ذلك يمسك بيد العريس ويقوده ليجلس بجوار عروسه ، وعندئذ يبكي الاهالي والأصدقاء بصوت مرتفع ، كما يبدو الخجل الشديد على العروسين وفي هذه اللحظة يكون خجل العريس شديدا لدرجة أنه كثيرا ما يحاول الفرار من جانب عروسه ، وأن أهله وأصدقاءه سرعان مايمسكون به ويمنعونه من القيام بذلك ، وبعد مرور بضع دقائق يأخذ الرجل المسن يد العريس ويضعها حول عنق العروس ، كما يأخذ يد العروس ويضعها حول عنق العريس . وبعد مرور عدة من دقائق يقترب الرجل المسن من العريس ويجعله يجلس على حجر عروسه عدة من دقائق ثم تنتهي الحفلة بعد ذلك ، ويتجه العروسان وهما في حالة من الخجل الشديد الى الكوخ الجديد الذي تم اعداده لهما بمناسبة زواجهما ، وفي اليوم التالي لحفلة الزفاف يقوم اصدقاء العروسين بتزيينهما بالطين الابيض ، كما أنهم يقدمون لهما الهدايا والطعام خلال الايام الاولى للحياة الزوجية .

ويذكر الباحث ان الانحلال الخلقي بين المتزوجات كان شائعا جدا كما أن أفراد المجتمع لا يبدون اهتماما لذلك ، فاذا اكتشف الزوج أن زوجته على علاقة برجل آخر فانه يتشاجر معها ، لكنه لا يلبث أن يصفح عنها بعد ذلك[٧١] .

---

(٧١) د. علي محمود اسلام الفار ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، ص ٨٠ .

٢ ـ القبائل المغولية :

منذ العصور القديمة جابت جماعات من البدو الرحل منطقة الاراضي الشاسعة التي تؤلف شطرا هاما من (أوراسيا)، وقد انتسب هؤلاء بلهجاتهم الى الاسرة اللغوية الالتائية اي التركية المغولية ، وكان هؤلاء يعيشون ضمن نمط حياتي رعوي اتسم بطابع بدائي غريب، الى جانب الحضارات المستقرة التي عاصرتهم ، وقد عرف تاريخهم منذ القدم بالغزوات الصاعقة الوحشية، التي شنوها على جيرانهم، والموجات من التوسع في العصور المختلفة ، كالمغول الكيبات الذين استولوا في القرن الحادي عشر على شطر من الصين واستقروا هناك ، وتأثر بعضهم الاخر بالحضارة الايرانية كالاتراك (وويغور) الذين اعتنقوا المانوية وتحضروا فعدوا المربين الحقيقيين للدول التركية المغولية الاخرى ورفضوا العودة للحياة البدائية . وهم وان لم يتوصلوا الى توحيد جماعاتهم القبلية المشتتة فانهم توصلوا الى تأسيس امبراطوريات سريعة الزوال تعاقبت عليها تعاقبا مطردا على مر الزمن الهيمنة التركية والهيمنة المغولية .. لقد شملت غزواتهم منذ القرن الرابع وخلال فترات متعاقبة امتدادات واسعة بلغت اوروبا والهند والصين والشرق العربي الخ.وقد وصل بهم الامر في عهد(جنكيزخان) القرن الثاني عشر الى تكوين امبراطورية مغلوية كبرى كانت عند وفاته (١٢٢٧م) تمتد من بكين الى الفولغا وامتدت في عهد احفاده الى مناطق أخرى بلغت حدودها القصوى سنة (١٢٩٣)، وبقي طابع البدو الرحل هو الغالب عليهم ، وبقوا محاربين في حالة تأهب دائم بغية الدفاع عن انفسهم ضد القبائل المجاورة ، ولا يرون في الحرب سوى طرق للتقتيل والسلب والنهب[٨] .

ويرجع تاريخ المغول القديم الى أسطورة تقول :انه خرج من كهف(أركينكون) لخراني ذئب أغبر أزرق هو جدهم وان هذا الذئب الجد التقى برفيقة حياته الظبية

---

(٨) تاريخ الحضارات القديمة ، الجزء الثالث ، ص٢٦٠ .

التاوئية ، وطافا معا في قلب تلك البلدان التي تعرف بالبلاد المغولية ، ومن شواطىء بحيرة بايكال انتقلا ليستقرا على منبع نهر (اونون) .. على سفح الجبل المقدس الملىء بالغابات الصنوبرية والتي تصل الارتفاعات فيه الى (٩٣٠٠) قدم وان قمم الجبل كانت مقرا لاله السماء الزرقاء (كوكو تنجرى) وهو اله المغول الاعظم،وقد توقف الذئب والظبية على نهر (اونون) الذي يمتد على ضفته المراعي الخصبة على مدى البصر وههنا ضاجع الذئب الاغبر الظبية التاوئية ومن نسل ابنهما (باتهـا ستيفان) ستنبثق الأسرة الجنكيزخانية ويستمر النسب بتسلسل يشبه الأنساب التوراتية .. وتنشأ اساطير وقصص اخرى منها قصة (آلان) الشقراء التي ينحدر منها حسب الاسطورة نسب البطل القادم (جنكيزخان) الذي سبق لهذه الارملة (آلان) أن أوردت تفسيرا لولديها من زوجها السابق المتوفى سر ولادتها لثلاثة صغار بعد وفاة الزوج دون ان يعرف ابوهم ، وقد روت هذا السر لولديها بقولها: (في كل ليلة ينزل علي كائن بلون الذهب من خلال روزنة الخباء ويداعب بطني، ويدخل الى فرجي شعاعا من نور صادر عنه ، وبعدها يرحل هذا الكائن مرتفعا الى السماء على شعاع من أشعة القمر أحيانا ، أو من أشعة الشمس أحيانا اخرى ،وكنت اراه كأنه كلب أصفر ، فلهذا انصحكما يا أبنائي ان تكفا عن اذاعة الاراجيف الباطلة عني وذلك لان اخوتكما الثلاثة هم ابناء الاله (تنجرى) نفسه فلا يجوز ان يعدوهم من بني البشر الفاني وأحفاد هؤلاء الاطفال أبناء المعجزة سيصبحون فاتحي العالم[٩] »

آ ـ الاسرة في المجتمع المغولي:

المجتمع المغولي البدوي كان خاضعا لسلطة منظمة جدا يؤلف التكتل داخل القبيلة عنصرها الاساسي ، وهو يضم العائلات المنحدرة من جد واحد ، التي يعد جميع أعضائها بأن ما يجمعهم هو صلة النسب الشرعي ، ويحظر من ثم اختيار الزوجة

---

(٩) رينيه غروسيت ، جنكيزخان قاهر العالم ، ترجمة خالد اسعد عيسى .

في التكتل نفسه ، ولما كانت صلة القربى من جهة الاب قد شملت بسبب التفرعات العائلية عدة من تكتلات متجاورة توجب البحث عن الزوجات من التكتلات التي لا يجد مشترك بينها وبينهم ، والتي غالبا ما تكون مع مواشيها في مراع نائية جدا ، وغالبا ما يبحث رجال تكتل معين عن الزوجات في التكتل نفسه الذين لا تشدهم اليه أواصر القربى ، ولذلك فان العناية تبدل في نقل حقيقة روابط النسب شيئاً من جيل لآخر ، ويرافق هذا الزواج من القريبات تعدد الزوجات ايضاء الا ان الزوجة الاولى تعد ابدا الزوجة البكر أو الرئيسة ، والاختطاف الزوجات عادة دارجة غالبا ما تؤدي الى اعمال ثأرية ، والاختطاف ناتج عن عرف الاغتراب في الزواج ، الذي اتخذه المغول قانونا عائليا ، وقد كان هذا سببا من أسباب استمرار الحروب والخصام بين القبائل ، وبسبب هذه المادة أي خطف النساء عداوة مستحكمة بين قبائل المركيت والمغول القاطنين في أعالي الاونون توارثتها الاجيال جيلا بعد جيل مما سبب افناء احدى القبيلتين نهائياً .

وعندما استتب النظام في عهد (جنكيزخان) تعدل نظام الاغتراب في الزواج فأصبحت المفاوضات السلمية تشبه الزواج بدلا من الالتجاء الى الخطف .

ولادة الصبي حدث سار جدا ، ويطلقون على المولود الجديد اسم أول شيء وقع عليه نظر أمه بعد الوضع ، ثم يسبغون عليه بعض الهدايا ، كل الاولاد حتى أولاد النساء الثانويات يعدون شرعيين ويعاملون معاملة الأخوة والأخوات ويربون معاً تربية واحدة ، يضاف اليهم أولاد بالتبني من الأيتام والمخذولين والمفقودين حتى من ابناء الزنى ، بيد ان ابناء الزنى الذين يشتبه بأنهم ينحدرون من أب غريب عن التكتل يحرمون من الاشتراك في الذبائح .

يعيش الاولاد كلهم مع والديهم حتى زواجهم ، الا أن الابن الثاني وحده حتى بعد زواجه يبقى في خباء ابيه لانه هو الذي يصبح بعد وفاة أبيه حارس

ب ـ دور المرأة :

للمساهمة في الموسم الصيفي حيث تقوم بعض النساء بالذهاب إلى الحقول وقطف الثمار وجمعها وبيعها في السوق المحلي . وتساعد الأرملة على إعداد الطعام وتربية الأطفال وتقوم بالأعمال المنزلية الأخرى . ولذلك فإن عمل المرأة الأرملة يختلف عن عمل المرأة المتزوجة . ولهن أدوار في مقررات بعض القبائل مثل أن الأرملة يحق لها أن تأمر على أولادها القصر بتصرف معين ، كما يحق لها إدارة المسكن وتقوم المطلقات أحيانا ، بعد تخرج أبنائهن من المدارس الابتدائية ، بفتح دكاكين صغيرة لبيع المأكولات الخفيفة والمشروبات للطلبة ويحتفل به بوليمة وقصات طريفة وبعد أن يصبحن (أخريات) يمارسن نشاطا يزدن بتجارة المساعدة في شتى الظروف) .

٣ ـ جزيرة تيكوبيا في ملقن(*) :

يوجد في هذه الجزيرة عدد من القرى تتكون كل منها من المساكن المتفرقة ويعيش الأهالي على صيد الأسماك والزراعة ، رغم ما لديهم لم يتأثروا بالمدنية الا بدرجة بسيطة ، ويسيرون نظام القانون ولا يعرفون النقود ، وقد قام البعثة (رسرفورد فيرث) بدراسة مجتمع السكان الأصليين لهذه الجزيرة في (١٩٢٨-١٩٢٩) ، وذكر عددا من الكتب عن مجتمعها ومن الطريف في الأمر ، وقد وصف مازلهم المتفرقة في القرى والتي هي منخفضة الارتفاع كما أن كل بيت له سقف من أوراق مجمعة بحيث تسمح

(*) والجزيرة تيكوبيا جزيرة صغيرة في المحيط الهادي وتبعد عن أقرب الجزر المجاورة لها بمسافة كبيرة ، وتتكون من عدد من الجزر المتناثرة في الأرخبيل الجنوبي لجزر سليمان ، وتقع على بعد ٤٠٠ ميل شمال شرق أستراليا ، وتبلغ مساحتها ٢٫٥ ميل مربع ، ويقدر عدد السكان الأصليين بـ ١٢٠٠ نسمة ، واللغة المحلية المستعملة هي لغة الجزيرة وتنتمي إلى مجموعة لغات بولينيزيا .

وقد جرت العادة على أن يكون موكب الجماعة المغيرة من الاخوة الذكور وابناء العم والاعمام والاصدقاء ، وبعد ان يتم اجتماعهم سرا ، يتجهون لخطف الفتاة ، وفي العادة يتم الخطف من منزل والد الفتاة ، اذ يتقدم رئيس الجماعة المغيرة ويخاطب والد الفتاة قائلا : لقد جئنا لأخذ ابنتك زوجة ، ولكن الأب يرفض فيتقدم عندئذ رئيس الجماعة ويمسك الفتاة التي تصرخ وتبكي ويحملها بين ذراعيه ، وحينئذ ينهض كلا الفريقين ويتعاركان ويقتل كلا الفريقين يجذب الفتاة وينهال فريق أسرة الفتاة على الفريق الآخر ضربا ولكما ، كما أنهم يقومون بشد شعور المعتدين ، ومن التقاليد السائدة في المجتمع ألا يحاول الجانب المغير أن يتعارك مع الجانب الآخر أو يوجه اليه الكلمات ، انه يحاول قدر المستطاع حمل الفتاة والهروب بها ، ولكن اذا كان الفريق المهاجم أقل قوة من فريق أسرة الفتاة فان المعاونة تبوء بالفشل ويولون الأدبار .

وفي صباح اليوم التالي يتوجه وفد من أسرة الفتى الى منزل أسرة الفتاة ومعه بعض الهدايا ، وعادة تكون الهدية سفطانية من الخشب ولفة من الحبال ، وعندما يصل الوفد الى منزل الفتاة ، فانهم يحاولون التقدم زحفا الى والد الفتاة ، ولكن أسرة الفتاة تنهال عليهم ضربا ، على رؤوسهم وظهورهم ، كما يقومون كذلك بشد شعورهم ، كما تتعارك نساء الفريقين معا ، واثناء الضرب يسقط الكثيرون منهم من شدة الاعياء ، ويستمر الحال كذلك الى ان يتمكن أحد أفراد أسرة الزوج من الوصول ليشد بأنفه على ركبته ويقدم له الهدية ، وعندئذ يتوقف العراك ويخرج فريق الزوج فورا ودون أن يقدم لهم أهل الزوجة أي طعام .

هذا ومن المتعارف عليه في الجزيرة أن الأسرة اذا كانت لا تملك الأرض الكافية لانتاج الطعام لمزيد من الأفواه في المستقبل فان رب الأسرة يوعز الى ابنائه بالامتناع عن الزواج ، ولكن إشباع الناحية الجنسية بالنسبة لهؤلاء الشباب لا يقابل

بالمعارضة من جانب الاسرة ، وقد ذكر (فيرث) في دراسته ان بعض المتزوجين ومن غير المتزوجين يلجأون الى طريقة العزل(*) ، والغرض من ذلك منع الحمل لتنظيم الاسرة ، كما أن بعض الفتيات غير المتزوجات اللواتي يرغبن في إنجاب الاطفال يمارسن الاجهاض ، وفي الجزيرة توجد عادة وأد الاطفال(**) فعندما تلد الزوجة طفلا فان رب الاسرة هو الذي يقرر مصيره ، الحياة أم الوأد ، والطريقة الشائعة هي الخنق ، وكما يقول الاهالي فان الدافع الاساسي وراء وأد الاطفال هو الخلل من جانب الاسرة على موازنة موارد القوت بالنسبة لعدد افراد الاسرة ، أما بالنسبة للنوع فان ذلك يختلف من أسرة لاخرى ، فبعض الاسر تئد الاناث بينما نجد أن بعض الأسر الأخرى تقوم بوأد الذكور من المواليد(١٠) .

٤ ـ والدي قبيلة سينافو :

التي لا يزيد تعداد افرادها على ثمانمائة فرد والسذين يشبه منظرهم منظر الاوربيين المتحدرين كما هو معلوم من أصل آري ، يقول بعض أساتذة علوم

---

* ـ العزل ـ هو منع التقاء المادة التناسلية من الزوج بالمادة التناسلية من المرأة وذلك بان يعمد الزوج عند اداء العملية الجنسية الى القذف خارج فرج المرأة عند انتهاء العملية ، ومما هو جدير بالذكر ان العزل كوسيلة لمنع الحمل كان معروفا عند العرب في عهد الرسول (ص) وفيه بعض الاحاديث .

** قضية وأد الاطفال عرفتها شعوب كثيرة في بداياتها وفي المراحل الاولى من تحضرها فعند العرب كانت بعض القبائل في الجاهلية ـ كما تشير ـ تئد الاطفال بسبب الفقر ، وقد منع القرآن الكريم هذه العادة باحكام متعددة . كما يذكر أحد الباحثين ـ ريفرز من التودا في الهند ان عادة وأد البنات كانت تمارس عند (التودا) في بلاد الهند منذ مئات السنين ، واذا ولدت الزوجة توأمين ، فان العرف عندهم يقضي بقتل احدهما حتى ولو كان الاثنان من الذكور وبالنسبة لطرق وأد الاطفال فان ذلك يتم بكتم نفس الطفلة ، او خنقها ثم دفنها بعد ذلك مباشرة ، اما عند العرب فكانت العادة ان تلد المرأة امام حفرة فاذا كانت طفلة القيت بها وماتت واذا كانت طفلا تركت حيا .

(١٠) ـ د. علي محمود اسلام الفار ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، ص ٧٥ .

الاسباني البدائي . ثم يذكرنا قبيلة (دارد) الذكورية في السلالات الافريقية الشرقية ، وآخرون يقولون انهم كانوا من سكان جزيرة الاسكندر الذي غزا بهم تلك البلاد قبل الميلاد ، وبقي جانب من الدارديون يسكنون تلك المناطق حتى آواخر القرن الثاني قبل الميلاد . وتؤيد هذه التكهنات هو أن بعض سكان جبل قاريون الاصليون السكان يشبهون من بعض الوجوه الصفات الاوربية ، ويمثل افراد قبيلة (ميناري) في باكستان طبيعة أوربية ولا يزالون حتى اليوم يقيمون نصبا حجرية ضخمة تشبه نصب قبائل الدولمن المعروفة في أوروبا ، ويصور مباتهم من الفن الجبلي ويصطادونه بالسهام ، وهم يربون الماعز والغنم ويزرعون القمح وقليلا من الحبوب ، وحياتهم الاجتماعية عجيبة ، فمن ان شيوخ القبيلة يتزاوجون عادة للاحتفالات التي تقيمها نساؤهم اذ ان المجتمع تحكمه النساء ومعظمهن متعددات الزواج ، والمرأة هي المسيطرة على الرجل ، فاذا غضبت على أحد أزواجها جرته الى الخارج وأشبعته ضربا وضربا أمام الجميع ثم استطاع أن يعيد سراحا ، وهم يعدون البقرة حيوانا مقدسا فلا يلمسون لبنها بأيديهم ، وأدوات طعامهم محرم لمسها عدى العاعسل والنقاش والحائك والجزار ، ويقوم الجزار بقتلهم بضربة شجر الرمح المحترق ولا يعرفون الى الآن الزراعة ، ويعتبر الكلمات المستخدمة في لغتهم لا تزال توجد فيها جذور اللغة الاوربية مصرية ، فكلمة باب مثلا هي بلغتهم (دار) وكلمة يد (دات) والكلمة من (دار) وهي قريبة من الكلمات الانكليزية لهذه الالفاظ (١١) .

ثالثا ـ في استراليا :

تعيش في استراليا قبائل بدائية في مراحل حياة الصيد ، ويعيش في استراليا

---

(١١) وليم هاولز ، ما وراء التاريخ ، ص ٢٨٩ .

الاسطورة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] قيمة داخل نطاق الصيد المحددة بكل زمرة ، وهي بطبيعتها [illegible] [illegible] [illegible] التي تسيطر على الصيد ، توجيه [illegible] بعض الافكار الاجتماعية [illegible] ، [illegible] في ذلك هو نسق القرابة الاسترالي [illegible] والتي [illegible] [illegible] ...

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] من ابنة أخ الام ، يبدأ [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] كلمة خاصة بابنة ابن اخت الام [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الناحية الاجتماعية [illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible] هؤلاء الاب وهكذا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] القاعدة بجميع الاب [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] متقابلين الذين يدعون بالتالي (آباء) [illegible] [illegible] [illegible] ([illegible] [illegible] واخوات) وهكذا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ...

وهذا النظام [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في رأي الباحثين [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ، فالرجل لا يتزوج [illegible] بطبيعة الامر [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] بطريقة معينة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] عليه أيضا الزواج بأية [illegible] من ([illegible]) [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] القرابة [illegible] بينهما ، وإلى [illegible] ذلك [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الاخرى شكلا [illegible] الزواج [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] رغم درجة قرابتها [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] لا يصلح ابدا للزوجية .. ومن [illegible] الا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] كما انه من غير المعقول ان ننتظر من النسق كله ان [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] العدد المطلوب من الاناث أو

من كلا الجنسين ، والنتيجة العملية من هذا كله ان الناس ينقسمون الى فئات تعاد لهم وكذلك لابنائهم ـ الاشخاص المتقدمين بسنو أمرا شاذا غريبا لو كان الغرض الوحيد منه ارشاد الناس الى اختيار زوجاتهم ، انما هو على العكس يهدف الى وضع جميع الافراد في علاقات مرسومة محددة لبعضهم ، كما يحدد لكل منهم طريقة سلوكه تجاه الاخرين ، وعند سكان جزر (التروبرياند) الكائنة شرق غينيا الجديدة ، والتي تتكون من الجزر المرجانية تحيط بمستنقع كبير وتتسع الارض فيها بتربة خصبة كما ان المستنقع غني بالاسماك ، ومن ثم فان الاهالي يشتغلون بالزراعة وصيد الاسماك ، كما أنهم يشتغلون بالتجارة كذلك ، وقد قام العالم الشهير البولوني الاصل (مالينوفسكي) بدراسة شاملة لسكان هذه الجزر ووصف حياة شعبها وقال عنهم : انهم من الناحية الفيزيقية يتسمون بالبشرة السمراء والشعر المجعد ، وأما بالنسبة للملابس فهم شبه عراة .. وقد وضع في دراسته عددا من الكتب ، وذكر بالنسبة لنظام الاسرة والزواج أن النظام السائد هنالك هو النظام الأمومي فالطفل ينتمي الى عشيرة أمه ، وأما من حيث الميراث فانه يرث خاله ، والواقع ان علاقة الابن بأبيه تلفت النظر حقا ، فالأهالي لا يعترفون بوجود أية علاقة فيسيولوجية بين الأب وابنه ، ومن ثم فانهم يرون انه لاتوجد علاقة قرابة بينهما ، وبالرغم من ذلك فان الاب يعيش مع ابنائه في معيشة واحدة ، ويرعاهم في حالات المرض ، كما أنه يتقدمهم في ساعات الخطر .. والعلاقات الجنسية تبدأ بين الجنسين في سن مبكرة ، ومن ثم فانه لا يوجد عذارى بالمجتمع ، وقد تناول في دراساته مختلف نواحي الحياة ، وأبرز وجود عادة منتشرة بين السكان هي عادة الانتحار التي يبدو أن دوافعه مختلفة ومنها زواج المحارم والمنازعات العائلية والزنى ... التكفير عن الخطيئة بسوء المعاملة .. وقد أبرز في دراساته موضوع العلاقات الجنسية ووصفه تفصيلا مايسمى (دار العزاب) وما تقوم به من دور في الحياة الاجتماعية عندهم ، وذكر انه يوجد في كل قرية عدد من الدور الخاصة بالعزاب ويختلف هذا العدد من قرية لأخرى ، وهذه الدور كانت تقام في الحلقة

الداخلية المحيطة بالساحة من القرية والتي تضم مخازن اليام والمساكن الخاصة برئيس القبيلة .. والهدف منها هو أن هنالك مرحلة ما قبل الزواج ، حيث توجد علاقات غرامية بين الفتيان والفتيات ورغبة في تمكين الفتى من مقابلة فتاته لاشباع رغباتهما الجنسية في خلوة ، فقد أقيم في كل قرية عدد من منازل العزاب لتحقيق ذلك الغرض . ويخصص كل منزل بعدد من العشاق يختلف عددهم من مسكن لآخر فقد يكون هنالك زوجان أو ثلاثة أو اربعة أزواج من العشاق .. والتنظيم الداخلي للدار بسيط للغاية . فالاثاث يتكون من عدد من الاسرة مغطاة بنوع من الحصير ويخصص كل فتى وفتاة بسرير معين للنوم عليه بصفة منتظمة .

واذا حدث وفض الماشقان علاقتهما الغرامية فان الفتاة هي التي تهجر دار العزاب وتبحث لها عن عشيق جديد تقضي معه وقتها وفي دار خاصة بـه . واما بالنسبة لملكية الدار فهي في العادة تكون للجماعة التي تقيم فيها .

وقد يبدو لأول وهلة ان العلاقات السائدة داخل الدار هي نوع من الزواج الجماعي ولكن الدراسة كما يرى مالينوفسكي تبين عدم صحة ذلك فكل فتى يختص بفتاة معينة ، وهم لا يتبادلون الفتيات فيما بينهم ، كما أنهم كذلك لايعبذون قيام الفتى بملاحقة عشيقة زميله بالدار أو محاولة (الصيد في ارض الغير) . ويذكر أن هنالك نوعا من الاتفاق بين المقيمين بالدار على احترام الحقوق الجنسية الخاصة بالغير ، كما انه لا يجوز كلية مراقبة الغير وهم في لحظة غرام مع فتياتهم .

ومما تجدر الاشارة اليه أيضا ان الصلة بين الفتى والفتاة داخل الدار انما هي صلة غرامية بحتة . فالحب هو الذي جمع بينهما .. وهما يتقابلان بالدار لقضاء بعض الوقت واشباع الغريزة الجنسية .. وكثيرا ماتتطور هذه العلاقات الى مزيد من الارتباط بين العاشقين فيقررا في النهاية الاتفاق على الزواج .

واذا ما اتفقا على الزواج فانه يجب عليه الا يتناول معها أي طعام عـلى

الاطلاق ، ذلك ان مثل هذا العمل — في نظر الاهالي — يعد تحقيرا للفتاة كما انه يعد خروجا على الآداب .

ومن طريف ما رواه (مالينوفسكي) عن الصداق في ذلك المجتمع أن الفتى اذا خرج مع فتاته في نزهة خلوية فانهما يسليان انفسهما بجمع الأصداف وقطف الزهور وتدخين التبغ ، كذلك يقوم الفتى (بتسلية) شعر عشيقته وأكل ماقد يستخرجه من القمل . كما تقوم الفتاة بتسلية شعر عشيقها وأكل ماقد تعثر عليه من القمل . ولا يرى الاهالي اية غضاضة في ممارسة هذه العادة ، وعلى العكس من ذلك فهم يرون انها تدخل السرور في نفوس الناشئين .

وبالرغم من الحرية التي يتمتع بها الشباب في ممارسة العلاقات الجنسية الا انهم بصفة عامة يميلون الى الزواج وتكوين اسر خاصة بهم . ويبدو ان هنالك عوامل اجتماعية واقتصادية وعاطفية تلعب دورها في هذا الشأن ، فالفرد في جزر التروبرياند لا يحظى بالمكانة الكاملة في الحياة الاجتماعية الا اذا كان متزوجا(*) والواقع انه لايوجد هنالك من البالغين من يعيش بلا زواج الا اذا كان المرء أبله أو ابرص أو عليلا لا يرجى شفاؤه ، أو كان من الأرامل الطاعنين في السن ، واذا ما هجرت الزوجة بيتها وفقد الزوج الأمل في استردادها فانه سرعان مايبحث عن زوجة جديدة ، واذا ماتوفيت الزوجة فان الزوج بعد انتهاء فترة الحداد سرعان مايتزوج اخرى . ولا يختلف الامر بالنسبة للمرأة ، في هذه الناحية ، فهي في حالة الطلاق أو وفاة الزوج تبحث لنفسها عن شريك جديد لحياتها . كما تعد الجوانب الاقتصادي من اهم العوامل التي تدفع الشباب الى الزواج ، حيث أن القانون القبلي يلزم أسرة الفتاة أن تقدم منحة اقتصادية للزوج كل عام . اضافة الى الميل الطبيعي للاسرة والانجاب والعيش المشترك بين الزوجين .. ولا بد من الحصول

---

* يلاحظ ان كثيرا من الشعوب البدائية لايوجد فيها للرجل العازب منزلة في المجتمع ، وان بعض الشعوب تعده نصف رجل فقط (قصة الحضارة جزء (١) ص ٧٤٠ ولاحظ الحديث : من تزوج فقد اكمل نصف دينه) .

على موافقة اسرة الفتاة على الزواج ، وقد ترفض في بعض الاحيان لأسباب كسل الفتى أو انتمائه لطبقة أدنى ، وقد تعترض الفتاة على موقف اهلها فتنتقل للاقامة في مسكن والدي الفتى ، أو يعمد الاثنان الى الفرار لقرية أخرى . ويقوم بعضهم من أقارب الفتى بالتوسط لدى أسرة الفتاة لعلها توافق على اتمام الزواج ، وفي حال رفض الوساطة ، فان اسرة الفتاة تتوجه الى المنزل الذي تقيم فيه الفتاة وتنتزعها منه انتزاعا ، وكثيرا ماتحدث اشتباكات عنيفة بين أسرة الفتاة من جراء ذلك . وفي الاحوال العادية ، وبعد أن يحصل الفتى على موافقة اسرة الفتاة تتبادل الاسرتان الهدايا ، وبعد ذلك بعدة أيام تتوجه الفتاة من تلقاء ذاتها مع فتاها الى مسكن أسرته بدلا من أن تتجه الى مسكن أسرتها لتقيم معه هنالك ، وتتناول معه الطعام وترافقه حيثما سار أثناء النهار ، وعندئذ ينتشر الخبر (لقد تزوج الفتى فتاته) ويتم الزواج دون أية احتفالات .

وعلاوة على الطريقة السابقة للزواج فهنالك ايضا الزواج عن طريق الخطبة في مرحلة الطفولة المبكرة ، واذا كانت الطريقة التي تحدثنا عنها من قبل تقوم على حرية الاختيار والتجربة والعلاقات القديمة التي تمت فان الزواج القائم على الخطبة في مرحلة الطفولة مختلف ، وهو يقوم على الاتفاق الذي يتم عادة بين الاسرتين .

وبعد ان يتم الزواج فانه يجب على أسرة الفتاة أن تقدم للزوج منحة اقتصادية بصفة منتظمة كل عام .... ويستمر تقديمها طالما أن الزوجة تعيش مع زوجها ، ويتوقف حجم هذه المنحة على مكانة الشريكين من الناحية الاجتماعية ، الا أنها بصفة عامة ينبغي ألا تقل عن نصف ما تمتلكه أسرة متوسطة خلال عام(١٢) وعلاوة على المنح الاقتصادية فان اسرة الزوجة تقدم للزوج الكثير من الخدمات في مختلف المناسبات . ويرى (مالينوفسكي) أن مرد تقديم هذه المنح الاقتصادية بانتظام في كل عام الى العادات القبلية السائدة ، وكذلك الى الاعتزاز أو التباهي، اذ لايوجد عندهم أية عقوبات توقع على الفرد في حالة عدم قيامه بذلك ، وكل مافي الامر ان المجتمع يحتقر ذلك الشخص ويزدريه .

---

(١٢) د. علي محمود اسلام الفار ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، ص ١٢١ .

ويذكر أن الزواج الاحادي هو الشائع ، ولكنه يوجد الى جانب ذلك نظام تعدد الزوجات الذي ينتشر بين الرؤساء والاشخاص ذوي الاهمية كالسحرة المشهورين مثلا .

وبالنسبة للطلاق فانه يعد أمرا نادرا وهو يرجع الى أسباب مختلفة منها : سوء المعاملة ، الخيانة الزوجية ، وقوع احدهما في غرام شخص آخر .. المشاجرات بين الاسرتين ...

والاجراءات الخاصة بالطلاق غاية في البساطة ، فالزوجة تغادر منزل زوجها ومعها ممتلكاتها الشخصية ، وتتجه الى منزل أبيها أو منزل احدى قريباتها وتقيم هناك ، وفي خلال اقامتها هناك تتمتع الزوجة بالحرية الكاملة في اشباع رغباتها الجنسية .

ويحاول الزوج من جانبه استمالة الزوجة واقناعها بالعودة اليه مرة ثانية وهي قد ترفض أو توافق . وفي حال الانفصال النهائي تعود الزوجة اذا كانت شابة الى حياتها التي كانت قبل الزواج ، فتنشى دور المزاب لاشباع رغباتها مع أحد الشبان ، وكثيرا ماتنتهي العلاقة الى زواج جديد .

والاطفال في حالة الطلاق يهجرون المنزل مع أمهم ويقيمون في مسكن قريب لهم من ناحية الأم . هذا ومما لاحظه (مالينوفسكي) أن الاهالي يعتقدون أنه لاتوجد صلة بيولوجية بين الاب وابن . وأن الزوج الذي يسافر بعيدا عن زوجته لمدة عامين مثلا ثم يعود بعد ذلك ليجدها قد أنجبت طفلا أو طفلين يتهلل وجهه فرحا ولا يخطر في باله اتهامها بالزنى مع آخر ، لأن الروح العائدة من جزيرة الموتى تدخل في رحم المرأة من ذات العشيرة الخاصة بالزوج ، وأن الروح تتسلل للرحم ، وأن الزواج أو المعاشرة الجنسية هما الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها ازالة العوائق التي تعترض سبيل تلك الارواح ، دون ان يكون لهما هما نفسهما دخل في عملية الانجاب ، ومن هنا يعتقدون أن الفتاة العذراء لاتحمل لأنه لايوجد طريق مفتوح أمام الارواح لتدخل ، ولكن حينما تتسع فتحة رحم المرأة فان الروح يمكن أن تتسلل الى الداخل .

رابعا ـ في قبائل أمريكا :

١ ـ الهنود الحمر (في أمريكا) عشيرة الايروكوا :

ذكرنا فيما سبق عن أهمية بحوث العالم الاميركي (مورغان) واكتشافاته والتي اعتمدها (انجلز) واشار اليها مرارا في كتابه ـ اصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة ـ وقد أولى (مورغان) اهتمامه ـ في بحثه بالدرجة الاولى ـ بمجتمعات الهنود الحمر في اميركا وبخاصة العشيرة (الايروكوية) معدا اياها الشكل الأصلي للعشيرة ، في حين أن العشيرة الرومانية الاغريقية هي الشكل المتأخر المشتق ، وعلى أن سائر التنظيم الاجتماعي للاغريق والرومان في العصور البدائية (في عشيرة أخوة وقبيلة) يوازيه بصورة دقيقة التنظيم الاجتماعي للهنود الاميركان، ومن دراسات (مورغان) التي أشار اليها (انجلز) وغيرها يمكن الاشارة الى وضع المرأة والأسرة باختصار كما يلي :

آ ـ تعد فضائل النساء في تزويد الطعام ، ثم خصوبة الطبيعة وسخاؤها أكثر الصفات احتراما وتبجيلا ، فنشاطات النساء فقط هي التي يحتفل فيها في دورة الشعائر ، اذ لا توجد مهرجانات للاحتفال بالصيد أو الحرب ـ مع احتمال وجودها في الماضي ـ ومعظم الاحتفالات هي شكر على خصوبة الأرض ، وبخاصة من أجل المحاصيل التي هي عمل النساء الرئيس ، وهذا تعبير عما يلاحظ في المجتمعات الزراعية القديمة حيث يوجد بشكل متكرر اقتران بين الأمومة وخصوبة التربة ـ كما ذكرنا ـ وفي مثل هذه المعتقدات تعد الارض ملكا للنساء وهذا يعطيهن حقا شرعيا في الارض وثمارها ...

ب ـ النظام الأمومي هو الذي كان يسود العشيرة ولذلك ليس لأحد من أفراد العشيرة الحق في أن يتزوج من عشيرته ، هذه قاعدة أساسية في العشيرة وتعد الرباط الذي يحافظ على وحدتها وتدل على قرابة الدم الايجابية التي بفضلها يصبح الأفراد الذين تجمعهم هذه القرابة وحدهم عشيرة .

جـ ـ تسيطر على آراء (الايروكوا) في الطبيعة ثنوية في طريقة الولادة عند الفرعيات

فقد تقسمت كل طبيعة الى ذكر وانثى ، الرجل ذكر ويتمتع بالقوة ، وذكور كذلك الشجر والسماء والنور والشمس الشارقة واللون الاحمر والشمال الذي يأتي منه الجليد .. اما الانثى فصغيرة نسبيا وضعيفة ورديعة وتبكي ، اذن فالمطر أنثى والقمر الشاحب جدا بالنسبة للشمس والارض التي تولد كالام والغرب الذي تأتي منه الأمطار السود ، ولون الغمام المطر والاخضاب والحبوب والبياض إناث أيضا .

ـ املاك المتوفى توزع على افراد العشيرة الباقين ، ونظرا لقلة أهميـة ما قد يخلفه الاروكوى فقد كانت تركته تتقسم بين اقرباته في العشيرة : بين اخوته الطبيعيين واشواته الطبيعيات وخاله ، ان كان المتوفى رجلا ، وان كان امرأة ـ تقسم تركتها بين أولادها واخواتها الطبيعيات دون اخوتها ، وذلك هـو بالضبط السبب الذي يجعل من المستحيل على الرجل وزوجتـه ان يرث احدهما الآخر ، كما يجعل من المستحيل على الأولاد ان يرثوا عن ابيهم .

هـ ـ تلزم العشيرة بحماية الفرد وتثأر للـدم ـ وهي تتولى دفع دم من يقتل من عشيرة اخرى . وللعشيرة اسماء معينة أو سلسلة من الاسماء ، لها وحدهـا في القبيلة كلها حق التسمي بها ، وتستطيع العشيرة أن تتبنى الغرباء فتدخلهم عن هذا الطريق في القبيلة كلها ، والتبني يجري بناء على بعض أفراد العشيرة، فان كان المتبني رجلا اتخذ الغريب أخا أو أختا له وان كانت امرأة اتخذتـه ولدا لها ، ولاقرار هذا التبني كان لابد من الاحتفـال بقبول المتبنى في العشـيرة .

و ـ في زمن اكتشاف الهنود كانوا في امريكا الشمالية كلهم منظمين في عشائر وفقا لحق الأمومة ، وجميع أفراد العشيرة الاروكويو كانوا احرارا حرية شخصية وكان أحدهم ملزما بالدفاع عن حرية الآخر ، وكانوا متساوين في الامتيازات والحقوق الشخصية ، ولا يدعي الشيوخ ولا الرؤساء أي تفوق . وكانـوا يؤلفون أخوية تجمعها أواصر القرابة . ان الحرية والمساواة والاخوة ، رغم

كونها لم تسكب قط في ألفاظ كانت مبادىء اساسية للعشيرة . وكانت العشيرة وحدة لنظام اجتماعي ، الاساس الذي نظم عليه المجتمع الهندي .. وهذا يعد الشعور بالاستقلال وعزة النفس اللذين اشتهر بهما الخلق الهندي.

ز ـ هذا النظام العشيري عجيب بكل مافيه من سذاجة الطفولة ، فكل شيء فيه يسير في طريقه السوي ، وجميع الخلافات والخصومات تسوى من قبل الجماعة كلها ذات العلاقة ، لا يلجأ الى ثأر الدم الا كتدبير متطرف أو نادر، الاستعمال . وجامعة البيت تدار ادارة مشتركة ومشاعية من قبل عدد من الأسر .

والارض ملك للقبيلة ، ولا يعهد لجامعات البيت الا بادارة البساتين الصغيرة بصورة مؤقتة ، ولا يمكن وجود فقراء لأن الجامعة البيتية المشاعية والعشيرة يعرفان واجباتهما ازاء المحرومين والمرضى ومتعذري الكسب ، ولكنهم أحرار ومتساوون حتى النساء ، ولا يوجد مكان للعبيد[١٣] .

٢ ـ مجتمع الاسكيمو :

في مجتمع (الاسكيمو) يميل الاهالي الى ان تخطب البنت وهي طفلة ولكنهم لايسمحون باتمام الزواج الا بعد أن تكبر البنت وتصبح قادرة على ان تقوم بالواجبات المنزلية ، وكذلك بعد ان يكبر الطفل ويصبح قادرا على ان يعول زوجته . وقد جرت العادة عندهم على أن يبدأ الزوجان حياتهما الزوجية في مسكن أسرة الزوجة ، ويظل الامر كذلك حتى وفاة والديها ... وترى نساء الاسكيمو أهدافهن منطبقة بشكل رئيس مع أهداف أزواجهن ، الا أن العلاقة بين الزوج والزوجة لدى الاسكيمو هي تأكيد علاقة السيد بالمسود .

وبالرغم من النظام السائد هناك هو نظام الزواج الاحادي فان نظام تعدد

---

(١٣) انجلز ، اصل العائلة ..

الزوجات يوجد أيضا ولكن بنسبة قليلة ، ويكون ثنائي الزوج والزوجة ثابتا مدى حياة المرأة .

والأمتعة اللازمة لتكوين أسرة جديدة هي ... عدة الصيد الخاصة بالرجل وسكين ومصباح وحلة الطبخ . وتعمل نساء الاسكيمو مستقلات أو مع الزوج طوال فترة حياتهن البالغة ، وفي الوقت ذاته تكون لديهن شبكة متواصلة من نساء العصبة الأخريات يتعاون معهن عند الحاجة ، وأقربهن : الأخوات والأمهات وبنات العم وربما أخوات الزوج .

ومن العادات السائدة عند الاسكيمو أن الرجل قد (يسلف) زوجته لصديقه لمدة فصل كامل من فصول السنة أو أكثر وذلك لكي يعبر له عن مودته وحبه له . واذا ما حل أحد الرجال ضيفا على صديق له ، فان صديقه اذا كان متزوجا بأكثر من زوجة ـ يعطيه احدى زوجاته طوال إقامته معه في المنزل ، كما أن الأصدقاء المتزوجين يتبادلون الزوجات فيما بينهم ، وذلك تعبير عن صداقتهم ، وعلاوة على ماتقدم فان التقاليد الدينية هنالك تحتم عليهم ضرورة القيام بذلك في بعض المناسبات . وينبغي على الزوج أن يعامل زوجته معاملة طيبة ، واذ أساء معاملتها أو ضربها فانها قد تغادر المسكن ثم يتم الطلاق بينهما بعد ذلك ، وفي العادة يبقى الاطفال مع الام بعد الطلاق . وبالنسبة الى عمل الأسرة فان الرجل يختص اساسا بصيد الحيوانات ليطعم زوجته وأطفاله وأقاربه الذين ليس لهم عائل ، وهو يقوم بصنع الادوات اللازمة للصيد ويقود مركبة الجليد ويطعم كلاب جرهـا ، ويبني مسكن الأسرة . اما المرأة فتقوم بالأعمال المنزلية وحياكة الملابس ، وطهي الطعام وصناعة الخيام واصلاحها وتربية الكلاب ، ويعهد للرجل الكسيح من الأسرة بالاعمال نفسها التي تقوم بها المرأة . وقبائل الاسكيمو تمارس عادة وأد الاطفال وهم يئدون بخاصة الاناث . وكذلك اطفال الرجل الأرمل والمرأة الأرملة بسبب سوء الحالة الاقتصادية عندهم[١٤] .

---

(١٤) د. علي محمود اسلام الفار ، ص ٦١ .

٣ ـ شعوب التوبي غوارانيي :

وهناك شعوب التوبي غوارانيي الذين مثلوا مصير الانسان بروايات تتدخل فيها الكائنات المماثلة للانسان والاعظم منه قوة ، وراوا في عواطفها وأدائها تأويلا لكل شيء ، و (مونان) هو الكائن الذي لا نهاية ولا بداية له .. خلق السماء والأرض والبشر ، عاش بين الناس ولكنهم ازدروا به ، عند ذلك أنزل عليهم نار السماء وخلف رجلا واحدا هو (ايرين ـ ماية) واعطاه امرأة كي يعمر الأرض مرة أخرى ومنها انحدر بني البشر كافة ، وابن هو (ميرمونان) الذي علم البشر سير القمر والشمس والزراعة وخلود النفس ونتف الشعر الخ .. ولكنه حول الأشرار الى بهائم ، وحين تقيؤوا منه أحرقوه على كومة حطب فانشق رأسه محدثا صوتا فظيعا . كان ذلك مصدر البروق والرعد . ترك (ميرـ مونان) ابنا هو (سلاجاي) رزق هذا الاخير بتوأمين (تاحوارا / الفلاح) واريكوت المحارب (اريكونت تامندرا) الذي اغتاظ وضرب الارض ضربة قوية جعلت الماء ينبجس منها فكان الطوفان ، غرق البشر كافة باستثناء الأخوين وامرأتيهما واعتقد هؤلاء بنهاية العالم وبظهور ـ مهدي آت ـ وبنهاية الأزمنة ، وشجع اعتقادهم هذا غزو الاوروبيين لبلادهم .

وقد وصلت أخبارهم عن طريق عدد من الرحالة والباحثين .. وهؤلاء مارسوا الزراعة المتنقلة في الأحراج المحرمة ، وقد وفرت لهم الزراعة تغذيتهم الاساسية وكانوا يسمنون نساءهم ويجزرونهن في الوقت اللازم . ويسمنون الأسرى للمآدب الكبرى ، وقد أقاموا في قرى محاطة بسياج من أوتاد وتتخللها المتاهد وتنصب امامها الافخاخ وتضم القرية بين (٥٠٠ ـ ٦٠٠) شخص موزعين على بيوت يتراوح عددها بين (٤) و (٧) والبيت الواحد يأوي بين (٥٠) و « ٢٠٠ » شخص وقد درج كلا الجنسين على نتف الشعر حتى الاهداب والحواجب وعلى تزيين الجسم والوجه بخطوط مستقيمة ومنحنية ومموجة زرقاء وصفراء وسوداء .

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

القسم الخامس

الأمثال الشعبية

تعد الأمثال الشعبية بما تشكل من ومضات عذبة تحمل الينا العبرة المفيدة والحكمة العميقة والصور البليغة ، تعد جزءا هاما من التراث الفكري الاجتماعي للشعوب عبر تطورها الحضاري الانساني .

وانك لتشعر والمثل يمر بخاطرك بهجة غنية سريعة مريحة ، مرجعها ايجاز في ... وغزارة في المعنى وهذا هو مضمون المثل الشعبي ، وها اذ نقدم مادة أولية ... وفق موضوعات مختلفة ، فاننا نعتقد ان هذه الامثال كموضوع تعد من الموضوعات التي تشملها الانثروبولوجيا الاجتماعية بالدراسة والتحليل .

إن الأمثال كما يشير البعض هي نظريات في الحياة الاجتماعيـة ، تتعرض كغيرها من النظريات الى النقد والتغير ، والحقيقة فيها نسبية ، والنظرة فيها تتدرج وتتناسب مع موقف معين ، علينا أن نكون حذرين في تطبيقها والاخذ بها ، والامثال انما هي آراء يستأنس بها ، وهي مادة فكرية معرضة للنقد ، ان روعة الحياة في تبدلها وتطورها وعدم ثباتها . هذا وترتبط الامثال بالأزمنة التي قيلت فيها ، ومن الجمود الفكري جعلها حكما خالدة ، ولا نفكر من ناحية أخرى أن عددا وفيرا من هذه الأمثال فيه الحكم التي يمكن أن توافق معظم الأزمنة لأنها متطورة مع تطور البشر ومجتمعاتها .

امثال تتعلق بشكل الانسان

ـ مثل قطرميز مصر لا طول ولا خصر .

ـ الرجال بلا سيكارة مثل البنت بلا أسوارة .

ـ القرد بعين أمـه غزال .

« في نسبية عيار الجمال » .

ـ من ايد لأيد تكبر وتزيد :

« دعوة حنان تقال لطفل جميل محبوب » .

ـ وردة ما تساوي ربيع :

« المثل قمة في الجمال والروعة ، فيه أبعاد فكرية عظيمة منها تفضيل الحسن على الحسن ، وتفضيل الجماعة على الفرد وتفضيل الرائعة من على المادية منهن » .

ـ اطلب الخير من حسان الوجوه :

« في أن جميل الوجه جميل النفس » .

ـ بزيقة شاخت بنتها على الحيط قالت لها تقبريني مثل اللولية بالخيط :

« في أن تقويم الجمال مرتبط بالعاطفة » .

ـ الكسم ماهو بوسع الكمام ، لكن باللياقة والهندام :

« في ان الأناقة مرتبطة بالذوق قبل فخامة الثياب » .

ـ اللي تكسبه السمرا تحطه حق خطاط وسمرة .

ـ كل دبس وزيت وناطح الحيط :

« لما فيهما من فائدة للجسم » .

ـ الحلو حلو ولو فاق من النوم ، والمشمش بشم ولو غسل وجهه كل يوم :

« في أن التزين لا يغير من القبيح شيئا » .

ـ راح ساقي وسماقي ، وما بقي غير ضيقة أخلاقي :

« يقوله من أتى الزمان على شبابه وماله » .

ـ اللي كثير السمن ما يبات بأمن .

ـ وجه ما يضحك للرغيف انسخن :

« المثل كناية عن الوجه العابس اليابس الذي لا يبتسم للمفرحات » .

ـ وجه المقت الله لا يسعد له وقت .

امثال حول الأهل والناس

ـ الناس اجناس تنك ونحاس :

« في تباين قدر الناس » قال البحتري :

وهل يتكافى الناس شتى خلائهم

وهـل تتكافى في اليدين الاصابع

ـ ثلاثة ما تنطاق : البق والنق والطق .

ـ من خلّف ما مات :

« لأن الولد ذكرى أهـله في الحياة » .

ـ اللي تعرفه أحسن من اللي تتعرف عليه .

ـ موكل أصابعك مثل بعضها .

« في تفاوت الناس سلوكا وقيمة » .

ـ فوته الجار على الجار أولها منه وآخرها معيار :

« في أن الدخول الى الجار يكون عادة لحاجة فاذا ما تكررت دفعت الجار الى أن يعبر الداخل اليه بحاجاته الكثيرة التي رغبها منه » .

ـ ما يبكي على الولد غير أمه .

ـ من بعد الأم احفر وطم ، وبعد الأب إلك رب .

ـ ظلم الأقارب أحد من ضرب السيف :

قـال أبـو الطيب :

وظلم ذوي القربى أشـد مضاضة

على المرء من وقع الحسام المهند

ـ زيران البلد ولا قمح الغريب :

« في تفضيل ابن البلد على الغريب وان كان أقل منه قدرا » .

ـ أحبك يا عدوي صديقي جواتك :

« أي الصديق عدو مقنع » .

ـ خف من عدوك مرة ومن صديقك ألف مرة :

مثال الشاعر :

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة
فربما انقلب الصديق فكان أعلم بالمضرة

ـ الأهل من بعد الأم جيران .

ـ خذوا أسرارها من صغارها .

ـ من عاشر القوم أربعين يوما صار منهم .

ـ جارك مثل أخاك ، ان ما شاف وجهك يشوف قفاك .

ـ أهلك أهلك ولو رموك على مهلك .

ـ أقاربك لا تقاربك .

ـ جنب العقرب لاتقرب وجنب الحيه افرش ونام .

ـ أقاربك حبهم وعمرك ماتسبهم .

ـ دق القرفة ولا مواجهة السلفه .

ـ الجار جارنا والدار دارنا ، وان خلص ليلنا نوصله بنهارنا .

ـ ابن الحلال عند ذكره يبان :

« كلمة ترحيب تقال للصديق عندما تراه وكنت في ذكره » .

— خبر تبلك لأبن ابنك :

« دعوة الى الادخار » .

— اقتل مراتك وصالح حماتك :

« يبين دور الحماة في الحياة الزوجية » .

— كوم فيران ولا ها الجيران :

« في ذم جيران السوء » .

— قلبي على ولدي افطر ، وقلب ولدي على الحجر :

« يبين حنان الوالدين وقسوة الولد » .

— الخالة مرة الأب لاتحب ولا تنحب :

« يبين قسوة الزوجة الثانية نحو الأولاد » .

— الولد سر أبيه :

« لأنه يظهر من ملامح نفسه مايخفيه أبوه بحيلته ومداراته » .

— خيش البلد ولا صوف المجلب (الصوف المجلوب من خارج البلد) .

— القمح اللي ماهو الك لاتحضر كيله ، تغير نفسك وتتعب بشيله :

« دعوة الى التخلي عما لايرتبط بالفرد من مصلحة واهتمام » .

— الثنا خير من الثنى :

« أي الشكر ، وهو شكر الناس للمتقن عمله ، وشكر الناس هذا مجلبة للخير الدائم بالنسبة له » .

امثال حول متناقضات ومفارقات الحياة والانسان

ـ وقعت ابرة بنص البير سمع الأطرش رنتها ، وقال الأعمى خرمها كبير ، ونزل الأعرج ليلمها .

ـ المال مال أبونا والناس بيحاربونا :

« فيمن ينافس على خير ليس فيه » .

ـ قصدنا الكريم بخل علينا :

« فيمن ساء حظه وحسن سعاه » .

ـ غرقان بالمي وخايف من الشتي .

ـ باب كبير وله حلقة وجواته ناس تحل عليهم الصدقة :

« بين من حسن مظهرهم وساءت حالهم » .

ـ مثل أبونا صار علينا صدقة :

« الغريب ينافس على مالك » .

ـ مثل النعامة تخبي رأسها وتحسب ما حدا شافها .

ـ عند الكبرة جبه حمره :

« استهزاء بالمتصابي والمتصابيه » .

ـ غاب الغراب وجا بقسة :

« فيمن طال سعيه وقل جنيه » .

ـ الأغر بين العميان مفتح .

ـ عميا بمكحلتين ، وقرعا بمشطين :

« الله يعطي جوز اللي ماله أسنان ويعطي حلق اللي ماله ودان » .

ـ أهل القط مشتهين المرقة :

« في الخسيس الموسر ينجل بالقليل على أهله » .

ـ حساب القرايا ما وافق على حساب السرايا :

« بين الاختلاف بين ماتوقعته وبين مافوجئت به » .

ـ يهودي ضربوه بعلبة قال بدني مشتهيها :

« للذليل يفرح بالربح النذر ، وان كان ربحه على حساب كرامته » .

ـ ان بزقنا لفوق علينا ، وان بزقنا لتحت علينا :

« في انسان تنهاه حرمة القرابة عن رد أذاها ، لأن السوء اللاحق بها سيلحق به ، وفي المثل صراع بين الغضب والكرامة » .

ـ قالوا للدب شو شغلتك قال موظف بالسرايا ، قالوا مبين على أيديك ها الطرايا:

« فيمن ادعى خبرة لاتليق به ولا يتقنها » .

ـ خد وردة من قلب شوكة :

« في الجيد يخرج من بيئة سيئة » .

ـ الاسكافي حافي والحايك عريان :

« يضرب للانسان المحروم من أقرب الأشياء اليه » .

ـ اقرع سحب سحبه طلع له مشط .

ـ حيلي ومرضعة وقدامها أربعه ، ومائلة على الجبل لتجيب دوا للحبل :

« في منتهى الطمع البشري » .

ـ فوق المعروف لط كنوف :

« في العمل الطيب يجازى بالجحود والأذى » .

ـ بعد ماكبر وشاب بعتوه على الكتاب :

« عدم تناسب العمر مع العمل » .

ـ جدي لعب بعقل تيس :

« في الصغير يخادع من زاد عنه قدرا وعمرا » .

ـ اجـا ليكحلها عماهـا :

« حاول الاصلاح فزاد في الفساد فسادا » .

ـ العنزة الجربا ما تشرب الا من رأس العين :

« الوضيع المتكبر » .

ـ هرب من عزرائيل لاقاه قباض الأرواح :

« في الانسان يجهد نفسه ساعيا فلا يظفر الا بالقليل النذر » .

ـ من تحت الدلف لتحت المزراب :

« تهرب من المصيبة فتلقاك مصيبة اكبر » .

ـ ضربني وبكى وسبقني واشتكى :

« فيمن بادرك بالأذى وسبقك الى الشكوى » .

ـ يا ماشي على رجليك ماتعرف شو مقدر لك :

ـ اذا كان خصمك القاضي من تقاضى :

قال المتنبي :

يا أعدل الناس الا في معاملتي
فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

ـ ما يفضح الامير غير الكذبة والأجير :

« في أن فضح الاسرار يقوم به أقرب الناس الى الانسان » .

ـ ماتعرف خيري لتشوف غيري .

ـ كمل جهاز القط وما بقي الا الشمعدان :

« سخرية بالقبيح » .

ـ بده لغيري وما عرف من المات :

« في الفضولي ينجذب الى الجماعة ليسلك مسلكها عن غير وعي وعلم » .

ـ يا ما تحت السواهي دواهي .

ـ الحجر اللي ما يعجبك بفجك :

« في المستضعف يفاجئك بفتكه » .

ـ يا مستعجل وقف لأقول لك .

ـ الجنازه حاميه والميت كلب .

ـ بايت جمرة وصحيت رماد :

قال الشاعر :

وما المرء الا كالشهاب وضوؤه
يصير رمادا بعد اذ هو ساطع
وما المال والأهلون الا وديعة
ولا بد يوما أن ترد الودائع

ـ أعرج ويسابق خيل :

« من يدعي ما لا يقوى على القيام به » .

امثال حول القيم الاخلاقية ومكارم الأخلاق

ـ العين ما تعلى على الحاجب :

« تواضع ومودة واحترام » .

ـ وعد الحر دين .

ـ احفر بير وطم بير ولا تعطل أجير .

ـ هن فلوسك ولا تهن نفوسك :

« الكرامة أغلى من المال » :

قال الشاعر :

ومن يك ذا مال ويبخل بفضله

على قومه يستغن عنه ويذمم

ـ الزيت بالعجين ما يضيع :

« لايضيع انفاق المال في وجه الخير » .

ـ اللي يسلمك مدبحه لا تدبحه .

ـ بالذهب تختبر الرجال .

ـ ان كان أبوه البصل وأمه الثوم هو من راح يكون .

ـ لاتريح جنبك عند اللي مايحبك .

ـ طعمته عسل عض اصبعتي .

ـ واذا حبيبك عسل لاتلحسه كله .

ـ يهدي بيضة يا خد جاية :

قال البحتري :

أعطى القليل وذاك مبلغ قدره

ثم استرد وذاك مبلغ رأيه

ـ بالوجه مليح وبالقفا قبيح :

قال الشاعر :

يعطيك من طرف اللسان حلاوة

ويروغ منك كما يروغ الثعلب

ـ بيت السبع ما يخلى من العظام .

ـ أعمل معروف وألحش بالبحر :

من يفعل الخير لايعدم جوازيه

لايذهب العرف بين الله والناس

ازرع جميلا ولو في غير موضعه

فلن يضيع جميل اينما زرعا

ـ كما تدين تدان :

« في المثل مودة وتضحية وعطاء » .

ـ محل الضيق يسع ألف صديق .

ـ كبر اللقمة وصغر الكلمة :

« ليكن فعلك الخير أكبر من معسول قولك » .

ـ قسل الحق ولو على قطع رأسك .

« في المثل بطولة أخلاقية » .

ـ الرجال تجيب مصاري والمصاري ما تجيب رجال .

« الرجال أعز من المال » .

ـ ما في حورا وصلت لربها إلا بست لها نسمة هوا قرقها .

« عاقبة المتكبر » .

قال الشاعر : ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع .

ـ لا تقطع صديق ولو كسر ، ولا تركن لعدو ولو شكر .

« فالصديق قد يرجع عن غيه وخطئه أما العدو فمتربص وإن أظهر مودته » .

ـ عمل اصبحك بعينك مثل ما توجعك توجع غيرك .

« في المثل ارشاد أخلاقي نبيل متنسع » .

ـ اللي يزرع الشر ما يحصد إلا الندامة .

ـ الأمناك لا تخونه ولو كنت خسائن .

« خيانة من أمنك خيانتان ، خيانة انسان لإنسان وخيانة إنسان لآخر ملهوف كنت رجاءه » .

ـ أيد الحسر ميزان .

ـ لا تشرب من بير وترم فيه حجر .

« دعوة الى عرفان الجميل » .

ـ يا داخل بين البصلة وقشرتها ما ينوبك إلا ريحتها .

« في عاقبة من يتدخل بما لا يعنيه » .

« لا تتدخل فيما لا يعنيك تلقى شيئاً لا يرضيك » .

ـ من غربل الناس نخلوه .

ـ ايد لوحدها ما تصفق .

« لا عمل بدون تعاون » .

ـ حبل الكذب قصير .

« لأن الكذب سيفضحه واقع مشرق بحقائقه » .

ـ النسا ولا العار .

ـ أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب .

« في نسبية العداوة » .

ـ إذا كان الكذب ينجي فالصدق انجى .

ـ اللي يعمل بأيده الله يزيده .

ـ اذا كان الأكل مو إلك بطنك مو إلك .

« في ضرورة اعتدال الضيف بمأكله » .

ـ مو كل عين ساهرة تخدم عين نايمة .

ـ المخلص النية وبات بالبرية .

قال الشاعر :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان .

ـ من سوالك بنفسه ما ظلمك .

ـ من علمني حرفاً صرت له عبداً .

« يردده الطلبة تقرباً من معلميهم » .

قال الشاعر أحمد شوقي :

قم للمعلم وفّه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

وقال آخر :

ويكاد يفلقني الأمير بقوله قم للمعلم وفّه التبجيلا .

ـ يا رايح كتر ملاليح .

التشجيع على حسن السلوك ليبقى الذكر طيباً » .

ـ الدم ما يصير مي .

« في اللهفة الحتمية بين الأقرباء » .

ـ خدي شغال ولا تاخدي بيت مال .

« الشغل والعمل خير من المال ، فالأخير ينفد ويبقى الانسان العامل » .

ـ لا تفتش عن حمرة خدودها ، فتش على أصل جدودها .

« أصيلة المنبت خير من الحسناء » .

ـ عدوك لا تؤذه ، له رب يجازيه .

ـ لا تجعل الدنيا همك ، ما لك منها غير لقمة تمك .

ـ لعب القمار لاحقه النحس ، يا يصفي عند الخمّار يا يصفي بالحبس .

ـ إذا شفت عريان لا تسأله عن ثيابه .

ـ الجار للجار ولو جار .

ـ رد الخير لجارك تلاقه بديارك .

ـ أقاربك حجم وبعسرك ما تسبهم .

ـ الحسد على الجماعة خفيف .

ـ اللي ما تزينه عروقه ما تزينه خروقه .

ـ اللي ما يشبع من كيسه ما يشبع من كيس الناس .

« البخل والطمع » .

ـ لا تفوت بيت الطنّان ولا تأكل خبز المنّان .

امثال حول حسن التصرف والتدبير

ـ شف شو معك وشوف شو عليك وعلى قد بساطك مد رجليك .

قال الشاعر :

لعمرك ليس إمساكي ببخلي ولكن لا يفي بالضرج دخلي

وفي طبعي السماحة غير أني على قدر الكساء مددت رجلي .

ـ المية قطرة قطرة تملق الصخرة .

ـ احفظ عتيقك ، جديدك ما يبقى لك .

« في أن القديم من الأصدقاء أكثر أصالة وإخلاصاً وبقاء ، ويراد بالقديم المال أيضا ، ذلك لأن المورد الجديد قد لا يدوم » .

ـ من تأنى نال ما تمنى .

ـ العين ما تقاوم مخرز .

ـ ساقية جارية ولا نهر مقطوع .

ـ إذا سلمت من السبع لا تطمع بصيده .

قال المتنبي :

ومن يجعل الضرغام بازاً لصيده تصيّده الضرغام فيما تصيّدا

« النهي عن عشرة الأقوياء وعن الطمع بخيرهم » .

ـ اللي ياخد من ملة غير ملته يموت بعلته .

« الاحتراس من الغريب » .

ـ حسدا يشتري سمك بالمي .

ـ ما يعمك جلدك غير ظفرك .

« الاعتماد على النفس » .

ما حك جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك

ـ الرماد أشوى من العمى .

ـ طعم الغم تمتحي العين .

ـ ابحث حكيم ولا توصه .

ـ إذا بدك تستريح شو ما شفت قل مليح .

« استسلام وخنوع » .

ـ ابعد عن الشر وغن له .

ـ امشي بجنازة ولا تمشي بجحوازه .

ـ توب العيرة ما يدفي وإن دفى ما يدوم .

ـ إذا حلق جارك بل أنت .

إن كبر ابنك خاويه .

ـ لا تقل عنب ليصير بالسلة .

ـ خبي قرشك الأبيض ليومك الأسود .

ـ بيضة اليوم ولا جاجة بكرة .

ـ اللي بده يسكر ما بده بعد أقداح .

ـ اسأل مجرب ولا تسأل حكيم .

ـ ما بعد الضيق إلا الفسيح .

ـ لسانك حصانك إن صنته صانك وان خنته خانك .

ـ اعط الخباز خبزه ولو أكل نصفه .

ـ أخذت الغريب وعملته خيي ، عرف جروحي وشمت فيّ .

قال الشاعر :

وكنت أعدك للنائبات فها أنا أطلب منك الأمانا .

ـ اللي يتجوز بالدين يعيش أولاده بالفايض .

« عاقبة سوء التدبير » .

ـ الحق اليوم يدلك على الخراب .

« في أن الهلاك يعرف بسالكه » .

ـ اللي يشوف مصايب الناس تهون عليه مصايبه .

ـ البطن على لقمة والشعر على كلمة .

ـ كل شيء بوقته حلو .

« في حسن التصرف وفق مقتضى الحال » .

ـ كشر على نيابك كل الناس تهابك .

ـ الطاقة اللي يجيلك منها الريح سدها واستريح .

ـ اضرب الحديد وهو حامي .

ـ من رادك زيده ومن غاظك زيده .

« المساهلة بالمثل » .

ـ شم الهوا أنفع من شرب الدوا .

ـ حسدا يعير مزرابه بأيام الشتي .

« امتناع اعارة الشيء عند حاجته » .

ـ الطش الطينة بالحيط إن ما لصقت تعلّم

ـ أكبر منك بيوم أعرف منك بسنة .

« زيادة العمر مرتبطة بزيادة الخبرة » .

ـ إلحق الكذاب لباب الدار .

ـ مو كل مرة تسلم الجرة .

ـ عصفور باليد ولا عشرة على الشجرة .

ـ اللي أوله شرط آخره سلامه .

« الاتفاق المسبق يمنع الاختلاف اللاحق » .

ـ ألف قابلة ولا غلبة .

ـ اللي ما له كبير ما له تدبير .

ـ إن فيك رأس اعمل مثل ما يعمل الناس .

« روح اجتماعية » .

ـ لا تستعجل على العصرم بكرة بتأكله دبس .

ـ عدو عاقل ولا صديق جاهل .

ـ لا تقل أعرفه لتجربه .

ـ طعمي التم تستحي العين .

أمثال حول نفسية الانسان

ـ اللي ما يعرف يرقص يقول الأرض مايله •

« في العاجز يدافع عن نفسه » •

ـ قاعد بحضني وعسال يلتف بذقني •

قال الشاعر :

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني •

ـ أول الغضب جنون وآخره ندم •

ـ الهرية تلتين المراجل •

ـ القاضي يعمل قاضي •

ـ الدجاجة اقطع منقارها ما بتغير كارها •

ـ اللي ينكر أصله يكون بلا أصل •

ـ ايش ما طبخت العمشا جوزها يتعشى •

ـ علمناه على الشحادة سبقنا على الأبواب •

« المتعلم يسبق معلمه » •

ـ الكلام لك يا كنة واسمعي يا جاره •

ـ كرمال عين تكرم مرجيون •

ـ ركبته على الحمار مدايده للخرج •

ـ لاقيني ولا تطعميني ٠

« في المثل ابل ومودة وحب للصاحب لا طمعاً بخيره »

قال الخزيمي :

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله

ويخصب عندي والمحل جديب

وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى

ولكنما وجه الكريم خصيب ٠

ـ لا أرحمك ولا أخلي رحمة الله تنزل عليك ٠

« لمنع الخير عني ومنع سبيله إليك » ٠

ـ لولا النسيرة ما حملت الأسيرة ٠

ـ قلب الانسان دليله ٠

ـ فخار يكسر بعضه ٠

ـ إذا ما كان صحيح قال مليح ٠

ـ يا كثر أصحابي لما كان كرمي دبس ، ويا قلة أصحابي لما صار كرمي يبس ٠

قال الشاعر :

وما أكثر الاخوان حين تعدهم

ولكنهم في النائبات قليل ٠

ـ من غابه عن العين نساه القلب ٠

ـ اليد اللي ما تقدر عليها بسها وادع عليها بالكسر ٠

ـ ما ينسى المر إلا الأمر منه ٠

ـ ألف كلمة خسود ولا كلمة هسات .

ـ الكحل أحسن من العمى .

ـ مو كل من أخذ أمي صار عمي .

ـ كثر العتاب يهرب الأحباب .

قال بشار :

فعش واحداً أو صل أخاك فإنه

مقارف ذنب مرة ومجانبه .

ـ عدو جدك ما يودك .

ـ جرح الأسى ما ينتسى .

ـ حماتي بطيريا وأصواتها جباية لي .

ـ الحية ما يرد دمها لتنفض سمها .

ـ وجوه كالحة وميات مالحة .

ـ شرط الألفة ترك الكلفة .

ـ اللي براسه موال بده يغنيه .

ـ بالوجه مراية وبالقفا صرماية .

قال أبو تمام :

ليس الصديق بمن يصيرك ظاهراً

مبتسماً عن ظاهر متجهم .

ـ إن حبيبٍ حبي أمير ، حتى إن عيّروك تقبلي التعيير .

ـ امسك الوردة وشمها تطلع البنت لأمها .

« طب الجره على تمهـا تطلع البنت لأمهـا » .

ـ كـل انسان يحكي صفاتـه .

ـ كل شـيء معروض مكـروه .

ـ اللي بجنبه مسـلة تنخـزه .

ـ محـل ما تحب طب .

ـ لا تاخـد صاحب إلا بعـد قتـلة .

ـ الولد ولد ولو صـار حاكم بلـد .

ـ شوفتي بعـين أشوفك باثنين .

ـ ما حـدا بقول عـن زيته خنـزر .

ـ العـين بصيره واليـد قصيره .

ـ بصل سم ولا درهم هـم .

أمثال حول السخرية والضحك

ـ وجهه مثل العدس ، إن ضحك وإن عبس .

ـ حظي بكل شيء أسود إلا بالبطيخ أبيض .

ـ اللبن إذا بات كبوه على الغربات .

ـ القناية الموجا إذا جلستها تنكسر .

ـ راح قدوم ورجع منشار .

ـ من جرّب المجرب كان عقله مخرب .

ـ ست وجارتين على قلمي بيضتين .

ـ يعمل من الحبة قبة ومن الزبيبة خمّارة .

ـ قبل الرز والبيتنجان غطّ جسمك يا عريان .

ـ إذا كان صاحب البيت يزمر ، لأيش الست ما ترقص .

قال الشاعر :

إذا كان رب البيت بالدف ضاربا

فشيمة أهل البيت بينهم الرقص .

ـ من صدّق منجم كذب أربعين نبي .

ـ راكب جمل ، وحامل علم ، وقايل : يا رب الستره .

ـ يللي مأمّن الرجال مثل يللي مأمّن الميسة بالغربال .

ـ العميان جاهم صبي قلعوا عيونـه بالخمسة .

ـ راحت السكرة وأجت الفكرة .

ـ نزل الفلاح على المدينة ما اشتهى غير دبس بطحينة .

ـ قالوا للقّق أم حسن وخدّ أم حسين ، قلت لهم : الله يلعن التنتين .

ـ ابن الحرام يساويها وابن الحلال يوقع فيها .

ـ لا تدفش السكران يوقع لحاله .

ـ من قلة الخيل شدينا على الكلاب سروج .

ـ اربط الحمار محل ما يدّه صاحبه .

ـ اللي ماله سطح ينام على سطوح الجيران .

ـ خرج الجمل من شفته .

ـ ربطوا الحمار على باب الحلاق قام تعلم الحكي « ثرثرة الحلاقين » .

ـ إلحق الديك على القن يوديك .

ـ ما كل شيء يلمع ذهب .

ـ حمار موالف ولا غزال مخالف .

ـ ما يقدر على حماته قام على مراته .

أمثـــال لاذعـــة

ـ لو كان بالبومـــة خير ما تركها الصياد .

« المهمل يهمـــل لتفاهة قـــدره » .

ـ اللي يطلي وجهـــه بالنخـــالة تاكلـــه البقـــر .

« فيمن يدعو الناس الى ذمـــه » .

ـ بـــده يصلح الدنيا وما كان يصلح حـــاله .

قال الشاعر :

لا تنـــهَ عـــن خُـــلقٍ وتـــاتي مثلـــه

عـــارٌ عليـــك إذا فعـــلت عظيـــم .

ـ الله يلطمك الحـــج والناس راجعـــة .

« لمن تاخـــر عن طلب حاجتـــه » .

ـ لا يلحم القصدير إلا على التنك .

« تجانس الأشـــياء » .

ـ يا رايح بلا عـــزيمة لا قـــدر ولا قيمة .

ـ طـــولة البـــال تهـــد جبـــال .

« دعوة الى الصبر البناء » .

ـ مثل المي من تحت التبـــن .

ـ الكلام على المتكي هـون .

ـ شـاف أصحابه نسي أحبابـه .

ـ ما يشـكر نعمه غير ابليس .

ـ داب التلـج وبان المـرج .

ـ راح الغـالي لا أسف على الرخيص .

ـ الدّين ذل بالنهـار وهمّ بالليـل .

« ذل في مجابهة أصحاب المـال ، أما الهم فناتج عـن السعي الفاشـل في تأمين ذلك المـال » .

ـ حبيبي صبح بس على الجبهة لا تقرب .

قال الشاعر :

عجبت لبعـض النـاس يبـذل وده

ويمنـع ما ضمـت عليـه الأصـابع .

ـ من بـرّه رخـام ومن جوه سـخام .

ـ بـدل اللحمة والباذنجان هات لك قميص يا عريان .

« لمن اعتنى بمطعمه دون مظهره مع سوء في التدبير » .

ـ كـلام القـاضي فستق فاضي .

ـ ما يشـبع عين بني آدم إلا التراب .

« لـن يكف الانسان عن الطمع حتى يموت » .

ـ عش يا كديش لينبت الحشيش .

« في الوعـد يا كمون » .

« عش بالوعد يا كمون » .

ـ طبجرة ولاقت غطاءها .

ـ اللي بيته من زجاج ما يضرب الناس بالحجارة .

ـ مو كل من صفر الصواني قال أنا حلواني .

« في اتقان الأمر » .

ـ ما منه شي، دخانه يصي .

« تعبير عن البخيل » .

ـ بدنا سلتنا بلا عنب .

« التخلي عن خير صاحب بعد الشعور باليأس والخسارة » .

ـ الطول طول العضاضة ، وما ينفع غير نفاضه .

ـ مثل الحية تقرص وتخبي راسها .

ـ اللي بده يساوي جمّال بده يعلي باب داره .

ـ الشعرة من ذنب الخنزير بركة .

« في الخير القليل يأتيك من الخسيس » .

ـ الضحك من دون سبب قلة أدب .

ـ بكل عرس له قرص .

« في الطعام لا تفوته فائدة » .

ـ أكلك ما جساني ودخانك عماني .

« في البخيل يضن بالخير ويجود بالأذى » .

ـ يا خدك على البحر ويرجعك عطشان .

ـ حارتنا ضيقة وتعرف بعضنا .

« في تكذيب المدعي » .

ـ دود الخل منه وفيه .

ـ غاب الشبع ألف يا ضبع .

ـ يحب العلى ولو على مخازوق .

ـ المنحوس منحوس وإن علقوا على بابه فانوس ينطفي وإن شعلوه ينوس .

ـ دسنا الأراضي الـ ما تنداس ، وبسنا الأيادي الـ ما تنباس .

« حسرة لمذلة يجر المرء عليها بعد عزة وهو في حيرة مؤلمة من أمره » .

ـ كل فوره وراها غوره .

« ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع » .

ـ الأكابر حيطانهم سور وعيبهم مستور .

« الغنى ستار العيوب » .

امثال حول الأزمنة والبلاد

ـ أيلول دنبه مبلول .

« لما في أواخر أيامه من رطوبة منعشة » .

ـ مية نيسان تحيي السكة والفدان .

« لما فيها من فائدة زراعية » .

ـ باشا ما يصير من عرب وملقط ما يصير من خشب .

« مثل تركي فيه حقد المستعمر العثماني على الأمة العربية » .

ـ ميه آذار تحيي الزرع والأشجار .

ـ الصيف كيف ، والشتي شدة ، والربيع ينبوع .

ـ شباط مهما شبط ريحة الصيف فيه .

ـ بتموز تغلي المي بالكوز .

ـ حر الصيف أحد من السيف .

ـ خبي فحماتك الكبار لعمك آذار أبو الزلازل والأمطار .

ـ تعجب يا انسان زمرد حامل مرجان .

« في تشبيه الأشجار الخضراء بالزمرد والثمار الحمراء بالمرجانة » .

ـ بكانون كسن بيتك يا مجنون .

ـ أهل حلب ذوق وأدب .

ـ دخان يعمي ولا برد يضني .

ـ مدد الخبايا واطلعوا يا صبايا .

ـ البرد والقلة أساس كل علة .

ـ مدد السعود سلاح الجلود .

ـ شمس شباط لكنتي . وشمس آذار لأختي . والشمس اللي بنيسان إلي ولبنتي .

ـ بحزيران ينزل الشمش ويكبر الرمان .

ـ برد تشارين يهد المصارين .

ـ بين تشرين وتشرين صيف ثاني .

ـ اترك بلادك تنول مرادك .

قال الشاعر :

فسرب عن الأوطان في طلب العلا

وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفرج هم واكتساب معيشة

وعلم وآداب وصحبة ماجد .

أمثـــال منوعـــة

ـ الدرهم على المـدى قنطار .

« دعوة الى الادخـار » .

ـ المال الحـلال لا يغـرق ولا يحـرق .

ـ مـد إيدك على عبـك الله يحبك .

ـ السـر بين الثلاثـة فشي .

ـ قال له : قد ايش لك بالقصر ، قال من البارح العصر .

« لمـن يأمر ينهى وهو ما زال دخيلاً في الجماعة » .

ـ إجا من البريـة وبده ياخـد الأولية .

ـ سباقية ما تمـكر بحمـر .

« في الرديء يعجز عن إفساد الجماعة » .

ـ سـلامة الانسان في حفظ اللسـان .

ـ من قـلة ما في بايده ما بقي حـدا يريده .

« في أن الناس يتخلون عن الفقير فتنفر منه قلوبهم » .

ـ جمل بفلس ، وفلس ما فيـه .

ـ الدمعـة بالعين جوهـرة .

« تقديس للدموع » .

ـ الدنيا يومين يوم إلك ويوم عليك .

ـ مصايب الدهـر أكثر من نبات الأرض .

ـ العرق أبيض بالكاس وأسود بالراس .

ـ الرز بحطيب كل ما بسرد يطيب .

ـ خلي المشوي ليعرق ، والملاق ليحسرق .

ـ العتاب على قدر المحبة .

ـ كل من على دينه الله يعينه .

ـ الانسان يعيب عسلوه من بطنه .

« الكلام السيىء مجلبة للأعداء » .

ـ الصوف للبسرد موصوف .

ـ الله ينجينا من الحريق ، والغريق ، والعقدة على الطريق .

ـ إن كنت العسل أنا رباطه .

ـ ضيف المسا ما له عشا .

ـ الفسزع يطيّسر الوجسع .

« كناية عن المصايب يذهب شديدها بخفيفها » .

ـ على سمجة الورد يشرب الريق .

ـ كسل شي، عسادة حتى العبسادة .

ـ أكسل ومرعى وقسلة صنعة .

ـ الغريسة كريسة .

ـ بيكتر خسيره من كيس غسيره .

ـ بسده من الدواق ثلاث واق .

ـ إذا كان الأكل زيتون ، الشبع من أيسن يكون .

ـ أرمل أخذ أرملة ، ضيفوا بالعرس خبزة وبصسلة .

(المصادر والمراجع)

(١) ـ احمد أبو زيد : المجتمع القديم عند لويس مورجان .

(٢) ـ احمد أبو زيد : نابلسور .

(٣) ـ احمد أبو زيد : التطورية الاجتماعية .

(٤) ـ احمد أبو زيد : المرأة والحضارة .

(٥) ـ د. بيليسم : الاصول البشرية . ترجمة فاروق مصطفى اسماعيل .

(٦) ـ بنسدلي صليبا الجوزي : دراسة في الفقه والتاريخ الاقتصادي عند العرب .

(٧) تيسادر تشاردين : ظاهرة الانسان . ترجمة ندرة يازجي .

(٨) ـ جان دوبستان : الانسان . ترجمة محمد عبد الرحمن مرحبا .

(٩) ـ جيمس فريزر : الفلوكلور في العهد القديم . ترجمة د. نبيلة ابراهيم .

(١٠) ـ جيمس لسويس : الانسان والارتقاء . ترجمة عدنان جاموس .

(١١) ـ د. جورج بالنديه : الانثروبولوجيا السياسية . ترجمة غسان زيادة .

(١٢) ـ جيرار تيلسراك : الانثروبولوجيا والاستعمار ، ترجمة د. جورج كتورة .

(١٣) ـ د. حسين فهيم : مقدمة في الانثروبولوجيا .

(١٤) ـ رادكليف براون : سكان جزر الاندمان .

(١٥) ـ رينيه غروسيتين : جنكيز خان قاهر العالم ، ترجمة خالد اسعد عيسى .

(١٦) ـ زكريا فهمي : طبيعة الانسان .

(١٧) ـ سيمون ابراهيم حمصي : الحكم والأمثال الشعبية .

(١٨) ـ شاكر مصطفى : قاموس الانثروبولوجيا .

(١٩) ـ د. عدنان مسلم : دراسات في الانثروبولوجيا الاجتماعية .

(٢٠) ـ علي محمود اسلام الفار : الانثروبولوجيا الاجتماعية .

(٢١) ـ عدد من الباحثين : الانسان والحضارة والمجتمع .

(٢٢) ـ عبد الهادي عباس : المرأة والاسرة في حضارات الشعوب وانظمتها، الجزء الأول .

(٢٣) ـ د. عاطف وصفي : الانثروبولوجيا الاجتماعية .

(٢٤) ـ د. عاطف وصفي : الانثروبولوجيا الثقافية .

(٢٥) ـ د. عاطف وصفي : الثقافة والشخصية .

(٢٦) ـ د. علام الدين كمال : تطور الكائنات الحية .

(٢٧) ـ فريدريك انجلز : أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة .

(٢٨) ـ د. محمد رياض : الانسان ، دراسة في النوع والحضارة .

(٢٩) ـ د. محمد صفوح الأخرس : الانثروبولوجيا الاجتماعية .

(٣٠) ـ د. محمد الجوهري : الانثروبولوجيا، اسس نظرية وتطبيقات عملية .

(٣١) ـ مونيك بيتس : المرأة عبر التاريخ ، ترجمة هنرييت عبودي .

(٣٢) ـ ول ديورانت : قصة الحضارة ، الجزء الأول .

(٣٣) ـ وليام هاولز : ما وراء التاريخ ، ترجمة د. احمد ابو زيد .

(٣٤) ـ د. يوسف عز الدين عيسى : تطور الخليقة .

* * *

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University